عثمان برايما بارى

جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الأفريقي

THE ROOTS OF ISLAMIC CIVILIZATION IN WESTERN AFRICA

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية
كتب عربى
(شراء)

رقم التسجيل ٥٨٩٦٧٩

العربي للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾

صدق الله العظيم

دار الأمين

طبع * نشر * توزيع

القاهرة : ١٣ شارع البركة الناصرية (من شارع نوبار) السيدة زينب - لاظوغلي
ت : ٧٩٥٤٣٧٦ ف : ٣٩٠٠١٣٠
ص . ب : ١٣١٥ العتبة ١١٥١١

الجيزة : ١ شارع سوهاج من شارع الزقازيق (خلف قاعة سيد درويش)
الهرم - تليفون : ٥٦٣٤٦٩٩
ص . ب : ١٧٠٢ العتبة ١١٥١١

جمهورية مصر العربية

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف ولا يجوز إعادة طبع أو اقتباس أى جزء منه بدون إذن كتابى من المؤلف .

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

رقم الإيداع ٧٧٩٧/ ٢٠٠٠

ISBN : 977-279-291-5

التنفيذ الطباعى : دار الأمين للطباعة

• **عنوان الاتصال :**

1 - P.O. Box 2878 KANO - NIGERIA
2 - ISLAMIC FOUNDATION OF NIGERIA
P.O. Box 3193 KANO, NIGERIA
FAX : (234) 662099

محتويات الكتاب

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

إهــداء

إلى أرواح الشهداء المسلمين في كل مكان ،

وإلى الذين يقفون لنصرة الحق في كل زمان ،

وإلى أرواح الشهداء الذين سقطوا في ممالك :

برنوا ، صوكتو ، ماسينا ، فوتا

بل وفي كل بقعة من بقاع إفريقيا وغربها على وجه الخصوص، وإلى أرواح :

١ - والدي مودبّو محمد برايما ،

٢- والدتى الحاجة زينب مختار بيللي ،

٣- خالي تشيرنو محمد مختار بيللي ،

أهدى هذه الجهود المتواضعة وأتضرع إلى الله الرّحمن الرّحيم

راجيا منه أن يفسح مثواهم ويدخلهم جميعا جنات النعيم.

المؤلف

(خواطـر)

١- حُكْمُ الْمَنِيَّـــةِ فِي الْبَرِيَّةِ جَـــارٌ   مَا هَـــذِهِ الدُّنْيَــا بِـــدَارِ قَـــرَارٍ
٢- بَيْنَا يَرَى الإِنْسَـــانُ فِيهَا مُخْبِرًا   حَتَّى يَرَى خَـــبَرًا مِنَ الأَخْبَـــارِ
٣- فَاقْضُواْ مَآرِبَكُمْ عِجَالاً إِنَّمَـــا   أَعْمَارُكُـــمْ سَـــفَرٌ مِنَ الأَسْـــفَارِ
٤- وَتَرَكَضُوا خَيْلَ الشَّبَابِ وَبَادَرُوا   أَنْ تُسْـــتَـــرَدُ فَـــإِنَّهُـــنَّ عَـــوَارٍ
٥- فَالدَّهْرُ يَخْدَعُ بِالْمُنَى وَيَغُصُّ إِنْ   هَـــنَا وَيَهْـــدِمُ مَابَنَى بِبَـــــوَارٍ
٦- إِنَّمَا هَذِهِ مَوْعِظَةٌ فَاعْتَـــــبِرُوا   بِهَـــا إِخْوَانِي يَا أُوْلِى الأَبْصَـــارِ
٧- هَـــدِيَـــــةٌ ثَمِينَةٌ مَـــا مِّثْلُهَـــا   قِيمَةٌ تَعْلُوا عَلَـــــى الأَسْعَـــارِ
٨- فَاذْكُرُواْ كَمَا أُمِرْتُمْ وَاثْبَتُـــواْ   تَزْدَادُواْ بِـــذَا نَوىً عَـــنِ الْكُفَـــارِ
٩- وَاطْلُبُواْ مِنْ رَبِّكُـــمْ غُفْرَانَـــهُ   يُمَدِّدْكُمْ بِخَيْرِهِ وَطَيِّبِ الأَعْمَـــارِ
١٠- وَتُوبُواْ إِلَيْهِ نِعْمَ الْمُلْتَجَـــــا   وَثِقُواْ بِفَضْلِ الْمَـــــالِكِ الْغَفَّـــارِ
١١- إِنَّهُ الْمُعْطِى الْجزِيلِ مِنْ نِعْمَائِهِ   وَمُقَصِّى الغَرُورِ بِشَوَاظٍ مِنْ نَـــارٍ
١٢- إِنَّ الدُّنْيَا مَآلُهَـــا لِلْـــزَوَالِ   وَالْمَرْءُ تَحْـــــتَ قَبْضَةِ الْقَهَّـــارِ
١٣- أيامه قليلة فــــي عدهــــا   وهو سابح فـــي موجهـــا الدوار
١٤- ياسعادة من ظــــل عابـــدا   لمـــن قضـــاؤه عـــليـــه بجـــار

١٥- يَسُوقُهُ إِلَى رَحْمَاتِــهِ مُوَفَّقًــا		مَعَ صَالِحِ الْعِبَــادِ كَــذَا لأَبْــرَارِ
١٦- لاَتَقْنَطُواْ مِنْ خَيْرِ عُمْرٍ إنْقَضَى		دُونَ الْخَيْرِ فِــي الْجَهْرِ والأَسْرَارِ
١٧- فَثِقُواْ بِرَبِّنَــا إِذْ بِــهِ تَوْفِيقُنَــا		لِلْتَوْبَةِ النَّصُــوحِ وَالْبِرِّ بِالتَّكْــرَارِ
١٨- يَحُدُّو بِنَا الإِيمَانُ نَحْوَ نُــورِهِ		وَيَقْضِي عَلَى الشُّــرُورِ وَالأَشْرَارِ
١٩- هَدَانَا اللَّهُ لِنُورٍ نَمْشِــي بِــهِ		بَيْــنَ الأُنَاسِ غُدُوًّا وَبِالأَسْحَــارِ
٢٠- وَأُصَلِّي عَلَــى الأَمِينَ مُسَلِّمًا		أَزْكَى صَــلاَةِ رَبِّنَــا السَّــتَّــارِ

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بالكتاب.

بقلم : الإمام القاضي/نائبي سليمان والي رئيس المؤسسة الإسلامية بكانو جمهورية نيجيريا الاتحادية.

صلى الله تبارك وتعالى وسلم على سيدنا محمد بن عبد الله ، خاتم الأنبياء والرسل . ورضوان الله على أصحابه وأهل بيته الكرام ، وبعد ، فإنه تغمرني السعادة وأنا أوجه الشكر إلى الله سبحانه وتعالى ، أن أتاح هذه الفرصة لأقوم بكتابة كلمة التقديم لهذا الكتاب المعنون " **جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الأفريقي** " تأليف الأخ العزيز الأستاذ / عثمان برايما باري . لاشك أن الصحو الإسلامي الذي يكتسح عالمنا الحاضر وظاهرة العولمة التي تجتاحه في الوقت الحاضر تستدعيان تضافر جهود المسلمين وتكاتفهم في كافة أرجاء العالم بصورة أكثر من أي وقت مضى لمواجهة المصير المشترك ، إذ يقول الله تبارك وتعالى : " إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون(1) " وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم مثل الجسد إذ اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر(2)".

وفي هذا الصدد، فإننا في أشد الحاجة إلى معرفة تاريخ ديننا وأممه في كل بقاع العالم في الماضي والحاضر .

وهذا الكتاب الذي بين يديك ، أيها القارىء الكريم ، يبرز لنا جانبا كبيرا من مسار حركة ا لإسلام عبر القارة الإفريقية وخاصة جنوب الصحراء بدءا من القرن الأول لظهوره في شبه الجزيرة العربية . ثمة حضارات قامت على أيدي

---

(1) سورة الأنبياء ، الآية : ٩٣.

(2) حديث متفق عليه .

الشعوب الإسلامية فى منطقة الغرب الإفريقي بيد أن كثيرا منا لم يتعرف عليها من واقع التاريخ المعاصر، وسنتعرف عليها من خلال صفحات هذا الكتاب بما يزيدنا وعيا وإدراكا للأدوار التي نهض بها المسلمون جماعة وفرادى فى تأسيس مجتمعاتهم والتضحيات التي قدموها جراء ذلك . ولم يبق لنا في هذا المنعطف إلا الابتهال إلى الله القادر المقتدر أن يوفق أخانا ، مؤلف هذا الكتاب لما يرضاه ، كما لا يفوتنا، ونحن فى شهر رمضان المعظم الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، أن نحث صفوة آخرين من أبناء هذه القارة على التشمير عن ساعد الجد للنهوض بمهمة إبراز أوجه حقائق تاريخهم الإسلامي وأباطيل خصومهم الذين عكفوا ومازالوا عاكفين على كتابات حول تاريخ الإسلام في إفريقيا مع تشويه صورته الحقيقية إبتغاء التضليل والإنتقاص منه . وبالله التوفيق وعليه التكلان ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

كانو : خمسة عشر يوما خلت من شهر رمضان المعظم للسنة ١٤٢٠هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

التقـــديم

يقول الله تبارك وتعالى فى محكم كتابه العزيز :

١- ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾[١]

٢- ﴿...أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين مـــن قبلـــهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون.. لقد كان فى قصصهم عـــبرة لأولـــى الألباب ماكان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾[٢]

٣- ﴿...وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا اللـــه إن الله شديد العقاب﴾[٣]

وأصلى وأسلم على خير الأنام ، خاتم الأنبياء والرسل ، محمد بـــن عبـــد الله، القائل : " المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشـــد بعضه البعض إذا اشتكى منـــه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " أو كما قال: وأبتهل إلى الله العزيـــز المنان الذى عليه ينتهى ثناء الدنيا والآخرة ، أن يحف جلة الصحابة الراشـــدين وأهل البيت الكرام وبقية الصالحين من التابعـــين واللاحقين ، بشامل رحمته. وأن يدخـــل السابقين منهم فسيح جنات النعيم . ويرزقنا حسن الخواتم والنجاة من كل كـــرب وآفات وابتلاءات الدنيا الصادرة من الإنس والجن تباعا .

---

(١) سورة الحجرات الآية : ١٢

(٢) سورة يوسف الآية : ١٠٩-١١١

(٣) سورة المائدة الآية : ٢

تغمرنى السعادة إذ أوشك على الانتهاء من مشروع إخراج هذا الكتاب "جذور الحضارة الإسلامية فى الغرب الأفريقى " كإسهام أولى أتوخى أن تتبعه إســـهامات أخرى بأقلام بعض الصفوة من المهتمين بشؤون وتاريخ الإســـلام والمســـلمين ، فى صفوف أبناء هذه القارة الفتية ومنطقة الغرب الإفريقى بالذات.

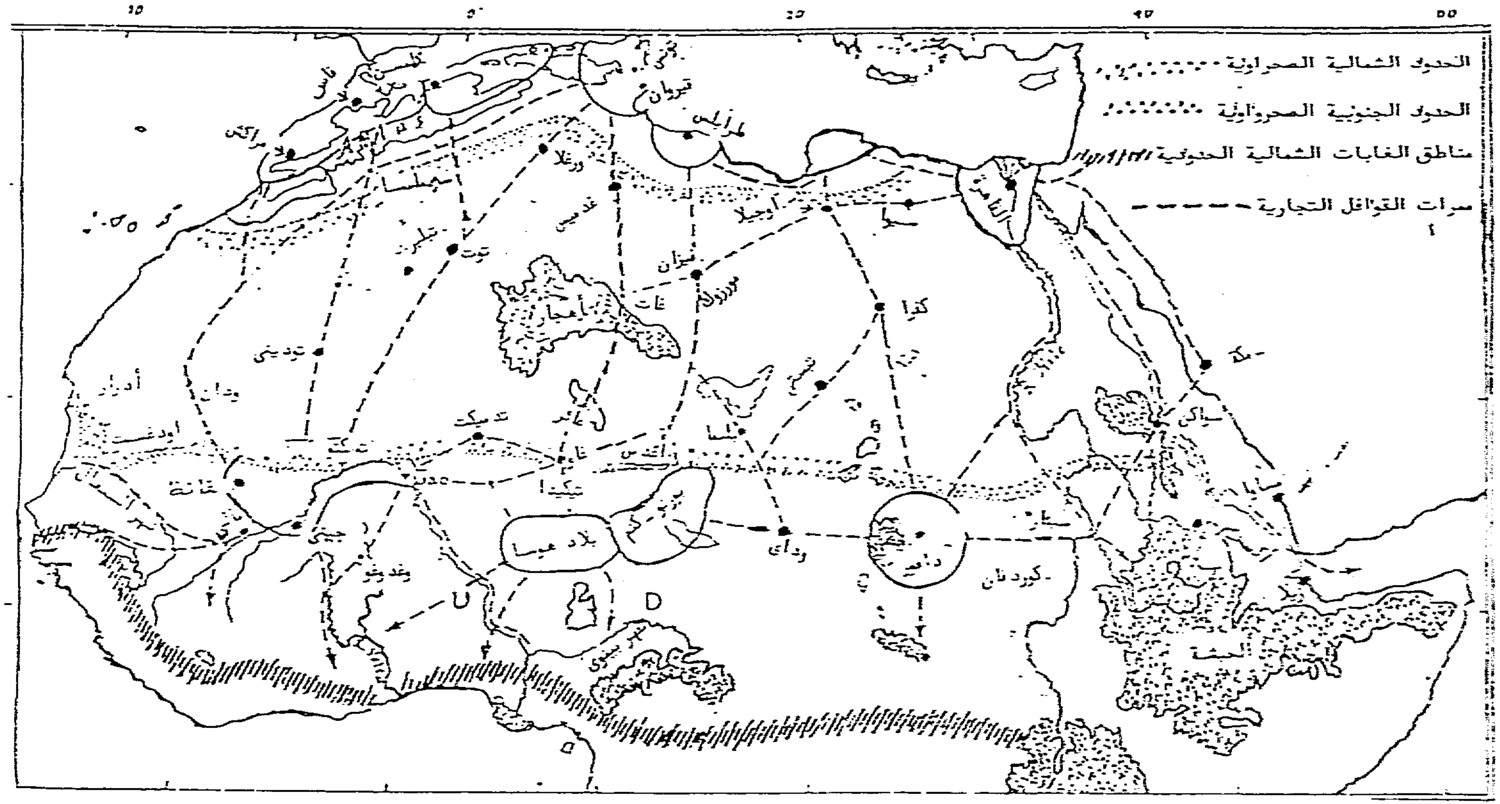
ولايسعنى فى هذا المقام ، إلا أن أزجى خالص شكرى ، أولا وقبل كل شـيء ، إلى الله سبحانه وتعالى الذى أنعم على بهذه الفرصة النادرة التى ماكنت لها لمقرنـــا . وأرجو منه أن يتقبل منى هذه الجهود المتواضعة التى استغرقت قرابة عشر ســنوات فى البحث والدراسة، ويجعلها خالصة لوجهه العالى الكريم ، وأن تكون ثمارها مواكبـــة لآمالى وتطلعاتى فى تحقيق الصحـــوة بين عامة المسلمين .

تقـــديم الشكر

كما أود فى هذا الصدد ، أن أقدم خالص الشكر والتقدير إلى كل الذين ســاهموا ، بطريقة أو بأخرى، فى إنجاز هذا المشروع وإخراج الكتاب فى شكله النهائى. وأخــص بالذكر : خالى المرحوم الأستاذ / محمد بيللى الذى استفدت بتوجيهاته، صديــق العمـر وزميلى الأستاذ محمد عبد النبى الذى شجعتنى نصيحته القيمة، الدكتـور/ أحمـد كـان المحاضر بجامعة عثمان دان فودى بنيجيريا الذى استلهمت منه فكرة كتابة جذور تــاريخ الأمــة الاسلامية فى غرب إفريقيا، وذلك خلال الترجمة التى قمت بها لكتابه : "الأصـول الفكرية لجهاد صوكتو" . وكان من المرغوب فيه أن نقوم معا بتأليف هذا الكتاب ، لكن ظروف عملى التى أدت الى إنتقالى من نيجيريـا مؤقتا للعمل بمقـر منظمـة الوحـدة الإفريقية بأديس أبابا، قد حالت دون تحقيق تلك الرغبة، الداعية الاسلامى - الشـيخ أبى بكر سى، السفير السنغالى الأسبق فى القاهرة الذى قـام بمراجعة النصوص الفولانيـة ، صديقى العزيز السفير محمد محمود ودادى ، الممثل الدائم لجامعـة الدول العربية لـدى منظمة الوحدة الإفريقية ، الذى قام على الرغم مما أبداه من تحفظات حيال بعض نقـاط الكتاب فيما يتعلق بموقفى من السرد التاريخى للطرق الصوفية فى غرب إفريقيا ، ببـذل جهود مضنية ومثمرة ومشكورة للغاية لنجاح المشروع. وأخيرا وليـس آخـرا ، اقـدم التقدير والشكر إلى الأخوة : فاطمة سليمان على محمد ، فوزية حسنين محمـد العبـد ، أبوسفيان محمد إدريس ، وليد محى الدين سـيد أحمد لقيامهم بكتابة الكتاب، بدءا مـن المسودة الى نسخته النهائية . فجزاهم الله خير جزائه .

ولا يسعنى فى هذا المنعطف ، إذ أنا فى أواخر عهدى بالعمل فى منظمـة الوحـدة الإفريقية ، إلا أن أمد يد الامتنان والتقدير إلى كل الذين شاءت الأقدار أن نعمـل معـا ونكتسب خبرات التعايش ، حلوها ومرها ، لاسيما الزملاء الكرام ، وأخـص بـالذكر الأخ محمد مصطفى إندجاى ، فى رحاب هذه المنظمة القارية. تلك سـنة الله، الواحـد الأحد لهذه الحياة. ولا نجد لسنته تبديلا. وله الحمد من قبل ومن بعد ، وهو ولى التوفيق.

المؤلـف



خريطة : تبين دول شمال أفريقيا ودول أفريقيا جنوب الصحراء .

أثناء علاقتها التجارية والثقافية عبر القوافل التجارية فى القرن الخامس حتى القرن الثامن عشر الميلاديين

الفصـل الأول

خلفيـة تاريخـية موجـزة

تحقق عن طريق القوافل التجارية عـبر الصحـراء الكـبرى أول اتصـال بيـن الشمال الإفريقي وجنوبه فـى بدايـة القـرن التاسـع الميـلادى . وشـهدت تلـك الحقـب قيام إمبراطوريات القـرون الوسطى ، مثل : غانة ومالي وصونغـاى فـى منطقة السودان الغربي . وانبثقت في أوقـات لاحقـة اعتبـاراً مـن القـرن الثـامن عشر الميلادي ، عن تلـك الإمبراطوريـات الممـالك الإسـلامية الأخـرى التـي ظهرت هناك. غير أن المؤرخين الإسلاميين يرون أن دولة صونغاي التى قـامت ما بين القرنين الخامس عشـر والسـادس عشـر الميلاديين ، كـانت هـى أولـى الإمبراطوريات الإسـلامية ظهـوراً فـي الغـرب الإفريقـي بمعنـى الكلمـة . كمـا كـانت هـي آخـر إمبراطوريـات القـرون الوسـطى الثـلاث أى : غـانة ومـالي وصونغاى في تلك المنطقة .

يعتبر ذلك العصر عظيم الشـأن بالنسـبة لتـاريخ الإسلام فى غرب إفريقيا . ففى تلك الفترة قـام ملـك إمبراطوريـة صونغـاي أسـكيا محمـد بـن أبـى بكـر الطورى بإعلان جهاد الإصلاح الديني على مملكة موسى المجـاورة ومد نفوذ دين الإسلام إليها ، وسافر هذا الملك بعد ذلك إلى مكـة المكرمـة فـى رحلتـه الشهيرة لأداء مناسك الحج . وفى تلـك الفـترة وصـل الفقيـه محمـد المغيلـى

التلمساني من شمال إفريقيا[١] إلى تلك الإمبراطورية ، وقام ، بناءً على طلب أسيكا محمد بتأليف كتاب يحتوى على نصائح حول الطرائق المثلى لإدارة الدولة الإسلامية على هدى القرآن والسنة ، يعتمد عليه هو وغيره من الملوك المسلمين فى السودان الغربي في إدارة دولهم . وكانت مدينة تنبكتو مركزاً للثقافة الإسلامية والعربية فى تلك المنطقة . وقام العالم أحمد بابا بن محمد عقيت الذى يعتبر رائد الثقافة العربية فى السودان الغربى آنذاك بتحديد مفهوم ديار الإسلام التى يجب على المسلم التوجه إليها والتعايش مع أهلها، وديار الكفر التى يجب أن يبتعد عنها المؤمن ليضمن المحافظة على دينه وسلامته في حالة حدوث مواجهة بين الدارين. وازدهرت الحضارة الإسلامية والنمو الاقتصادى فى السودان الغربي خلال تلك الفترة إلى أن جاء غزو السعديين من المغرب الأقصى فى سنة ١٥٩١م في عهد سلطانهم مولاي أحمد المنصور الذّهبي مستخدمًا رجال عصابات ومرتزقين من أوربا ضمن جيشه بقصد نهب ثروات تلك الدولة المتمثلة فى الذهب. وقد أطاح بتلك الأدلة الإسلامية بعد نهب كميات كبيرة من الكتب وأسر زعمائها وعلمائها وفقهائها ومن بينهم العالم أحمد بابا بن محمد عقيت السالف الذكر ، وأسيموا سوء العذاب بعد ترحيلهم إلى مراكش مكبلين بسلاسل من الحديد وعلى رأسهم أحمد بابا الذى كسرت ساقه من جراء ذلك لكنّه ظل مع ذلك رابط الجأش ،

(١) جنوب الجزائر حاليا .

وانتهز أقرب فرصة ليستأنف نشاطه العلمى فى مراكش نفسها. ولم يسمح له بالعودة إلى تنبكتو إلا فى سنة ١٦٠٥م. وقد سجل التاريخ أمجاد أحمد بابا وآثاره العلمية كما سجل العار على ظالميه. وبالقضاء على طلائع الفكر وأصحاب المعرفة والخبرة اضمحلت تلك الدولة، وأخذت فى الانحطاط التدريجى حتى سقطت نهائياً بحلول القرن الثامن عشر الميلادي . وكان من الطبيعي بعد حدوث تلك الكارثة المأسوية أن تشهد المجتمعات الإسلامية فى غرب إفريقيا التردى الخلقى والعلمي والدّيني، الأمر الذى أدى الى انبعاث فكر الإصلاح وحركات الجهاد سواء بصفة فردية أو جماعية على أيدى المصلحين من أبناء قبائل الفولانى والماندنغو، لاسيما في مناطق صوكتو وماسينا وفوتاتورو وفوتا جللو فى كل من نيجيريا ومالى والسنغال وغينيا وموريتانيا(٢). كان هؤلاء الدعاة والمصلحون يستهدفون فيما يقومون به من تلك الحركات تحقيق الإصلاحات الدينية والامتثال للنظريات العقائدية المتضمنة فى أعمال رواد الفكر الأوائل من أمثال المغيلى وأحمد بابا وعثمان دان فودى وأحمد لوبو وعمر الفوتى وسيدى المختار الكونتى ومحمد الأمين الكانيمى، الذين عملوا لإقامة كيانات إسلامية في منطقة العرب الإفريقى إبتداء من القرن التاسع عشر الميلادى. ومن أهم النجاحات التى حققوها إنشاء ديار

---

(٢) تعنى كلمة موريتانيا ... أرض السود باللغة اليونانية. MAUROS/MAVROS

الإسلام لإيواء المجاهدين والمهاجرين من المسلمين ، فى غرب إفريقيا ؛ وبذلك استطاعوا إعادة رسم الخريطة الجغرافية للمنطقة برمتها . كما أوجدوا بفضل نشرهم الثقافة العربية الإسلامية فحول العلماء والمجاهدين وكتاب الأدب العجمى الإسلامي ، لمخاطبة الناس ، وكانوا ينظمون من خلاله قصائدهم وخطبهم الدينية ؛ وبرزت نتيجة ذلك ، شخصيات إسلامية إفريقية كثيرة فى تاريخ المنطقة .

طرق وصول الإسلام الى المنطقة

وصلت العلوم الإسلامية والثقافية العربية الى السودان الغربى والوسطى أى منطقة الغرب الإفريقي من الشمال الإفريقي عبر ممرات الصحراء الكبرى. وقد فتح العرب المسلمون سواحل منطقة الشمال الإفريقي وجنوب الصحراء الوسطى فى القرن السابع الميلادى وأقاموا بها الحكم العربى الإسلامى ونشروا الإسلام الذي غطى المنطقة برمتها بل وجاوزها . وفى جنوب الصحراء الغربية كانت قبائل البربر أبناء المنطقة الذين اعتنقوا دين الإسلام، لاسيما قبيلة صنهاجة تزاول تجارة الذهب مع قبائل السودان الغربى عبر الصحراء الكبرى. ومن المشرق العربى وصل الإسلام إلى مناطق حزام السّهل في غرب إفريقيا عبر السودان الشرقى. ومن خلاله وصل إلى الشعوب الأخرى فى تلك المنطقة. وقد اتخذت جهود نشر الإسلام بين سكانها الطابع الفردى من خلال التّجار المسلمين فى حلهم وترحالهم ، وعن طريق ممارساتهم للعقيدة الإسلامية حصل معظم شعوب حزام مناطق سهل الغرب الإفريقى وسواحلها على المعارف الإسلامية الأساسية .

هكذا دخل الإسلام إلى مدن وقرى السودان الغربى وتجسّد فيها بالأسلوب الإقناعى السلمى . بيد أن درجة الاعتناق والممارسة الدينية اليومية كانت متفاوتة بين أبناء قبائل المنطقة وفئاتها الاجتماعية المختلفة . وكان اعتناق فرد واحد من أبناء قبائل الفولانى أو السوننكى أو الماندنغو الدّين الإسلامى ، على سبيل المثال ، بمثابة تعزيز جديد لمسيرة الدعوة الإسلامية بكسب داعية يسعى طواعية وبكل همة لاكتساب شخص آخر الى جانبه يعتنق الإسلام من أبناء قبيلته أو من قبيلة أخرى مجاورة . وكانت جماهير غفيرة تنجرف وراء ملوكها أو زعمائها متسارعة معهم فى الإقبال على الإسلام لاسيما أصحاب الامتيازات من أبناء الطبقه العليا فى ذلك المجتمع . كانت تلك هى الخطوة الأولى نحو إنشاء الدولة الإسلامية فى السودان الغربى ، وكان هناك بحلول القرن التاسع الميلادى بعض المسلمين من قبائل التكرور الفولانية ومن أبناء إمبراطورية غانة القديمة ومملكة كانيم الذين أصبحوا مهيئين للاضطلاع بحركات الإصلاح الدّينى الإسلامى. وشهدت مدينتا أوداغست وكومبى صالح[٣] من مملكتى مالى وغانة قيام مجتمعات إسلامية صاحبها ظهور المساجد المبنية بالأحجار والخاضعة للإشراف الإدارى المحكم الذى كان يتولى تعيين أئمتها الملك شخصياً .

(٣) كانت المدينتان تقعان فيما هو اليوم جمهورية موريتانيا الإسلامية فى غرب إفريقيا.

وقد ارتقى بعض علماء الدين إلى تقلد مناصب وزارية في كنف تلك الدول . لم تكن دولة غانة القديمة إسلامية بمعنى الكلمة ، كما لم يكن جميع سكانها من المسلمين . غير أن وصول الإسلام إلى الجزء الجنوبى للمغرب الأقصى وموريتانيا وانتشار حركة المرابطين التى تبناها أبناء قبيلتى صنهاجة والتكرور الفولانية فى حوض نهر السنغال ، قد أعطى الإسلام كياناً صلباً وقوة دفع مما أفضى إلى استيلاء المرابطين على شمال إفريقيا برمته وبلاد الأندلس ابتداء من القرن العاشر الميلادى. وقد كان يحيى بن إبراهيم هو الذى قاد تلك الحركة بتوجيه من عبد الله بن ياسين الداعية الإسلامى الشهير . كما كانت دولة التكرور والفولانية من حيث كيانها السياسى أو الإدارى ، في وقت لاحق ، إسلامية الطابع ، لاسيما بعد أن اعتنق ملكها "ور- جابى" دين الإسلام وطبق الشريعة الإسلامية في بلاده . وكان لهذه الحركة التى انضمت إليها قبائل البربر من سكان الصحراء الكبرى والقبائل الفولانية والسوننكية والماندنغية دور حيوى فى نشر الإسلام فى السودان الغربى. لكن الحروب المختلفة وعوامل الانحطاط أدت إلى سقوط إمبراطورية غانة على أيدى قبائل سوماغرور وسوندياتا البامبريتين وسقوط دولة المرابطين بعد ذلك فى السنة ١٠٧٦ الميلادية ؛ الأمر الذي أدى إلى انتشار سكان تلك الدولة ، المسلمين وغير المسلمين ، لاسيما أبناء قبيلة السوننكى الذين كانوا تجارًا أساسًا ، فى مختلف أرجاء السودان الغربى وعلى مجرى نهر النيجر مما ساعد على انتشاره في المناطق الجديدة التي حل بها هؤلاء المهاجرون النازحون .

عوامل أخرى ساعدت على انتشـار الإسلام

إن الركن الأساسى للعقيدة الإسلامية أى إشهار كلمة التوحيـد "لا الـه إلا الله" التى تنفى وجود أى إله آخر، يستحق توجيه العبادة إليه من دون الله ، قد جاء نقيضًا لكل المعتقـدات الدينيـة التقليديـة الأخـرى الموجـودة فـى الغـرب الإفريقي قبل ظهور الإسلام فيـه . وأن الإسـلام لايعلّـم الإنسـان مبـدأ التوحيـد فحسب ، بل إنه يوجهه إلى معرفة أسلوب المعاشرة مع أخيه الإنسان . وكـان النّاس فى تلك البيئات يجعلون لكل ظاهرة من ظواهـر الطبيعـة آلهـة يعبدونهـا ويقدّسونها ويقدمون لها قرابيـن . فلكـل أسـرة أو عشـيرة كـاهن يقـوم بـدور الوسيط الذى يأتى إليه الأهالى للحصول على مشورات الآلهـة المعبـودة حـول قضايا خاصة وعامة. لكنّهم يعتقدون فى الوقـت نفسه بوجـود "الإلـه الأكـبر" الذى يهيمن على تلك الآلهة الأخرى الصغيرة مما جعل قبولهم لعقيدة التوحيـد عندما جاء بها الإسلام ، أمرًا سهلاً .

ومن ناحيـة أخـرى ، كـان معظـم الذيـن اعتنقـوا ديـن الإسـلام هـم مـن الملوك والأثرياء وأبنـاء الطبقة العليا فـي ذلـك المجتمـع ، الأمـر الـذي شـجع أناسًا آخرين علـى الاعتقـــاد بـأن " القـرآن " الـذى يتلـوه المسـلمون مـرات عديـدة فـى حيـاتهم اليوميـة هـو سـر نجـاح الفـرد منهـم فـى تحقيـق أهدافـه الاجتماعيـة والاقتصاديـة والروحيـة . وكـانت لمراسـم الإسـلام اليوميـة كمـا يشـهدها إنسـان عـادي تأثيرهـا الكبـير ، مثـل الممارسـات العاديـة المتكـررة للمسلمين ، انطلاقًـا من الطهـارة والوضـوء والأذان والصلوات الجماعية أو

الفردية والزّكاة للفقراء البائسين والأنشطة الدّينية الحافلة طوال شهر رمضان واحتشاد جماهير غفيرة من المصلين فى ساحات رحبة ليختتموا تلك الأنشطة عند انتهاء ذلك الشهر المبارك ، وبتنظيم حفلات ومهرجانات طبول ورقصات وإبداء ذوي الإمكانيات منهم استعدادهم للسفر إلى الأراضى المقدسة، حيث يشهدون أداء مناسك الحج وسط أوج التجمع البشرى الّذي يهتف بالتهليل والتكبير قائلاً : " لبيك اللّهم لبيك .. لبيك لاشريك لك لبيك " .

ويستفسر حجاج الغرب الإفريقي عن معنى هتافات الحجيج ، فيعلمون أن الله الذى يستحق التفريد بالعبادة لا يجوز أن يكون له أى شريك فى الملك أو فى القضاء والقدر . كانت لتلك الأنشطة كلها آثار قوية وإيجابية على نفوس وعقول سكان المنطقة ؛ مما هيأهم للاندفاع إلى الإسلام طوعاً. فتزداد عقيدة التوحيد رسوخا فى نفوس حجيج بلاد السودان الغربى بتشجيع من أهاليهم ثم يعودون ، بعد شهور عدة أو بضع سنوات حافلة بعناءات ومشقات لايضاهيها عناء أو مشقة . يحمل كل واحد منهم لقب الحاج أو الحاجة ذكراً كان أو أنثى ؛ ويحظى كل منهم باحترام بالغ فى مجتمعه لدى العودة ؛ لأن اللقب يميزه عن سواه الذىلم يتح له استكمال هذا الركن من أركان الإسلام . وليس بوسعنا فى هذه العجالة أن نصف على وجه التحديد ، مدى الفرحة والسرور والابتهاج التى تغمر نفوس المسلمين بسبب تجاربهم الروحية فى رحلتهم

تلك . كما يزداد هؤلاء الحجيج خبرة وسعة أفق حول طريقة التعامل مع الآخرين وأساليب إدارة الحكومة تحت ظل الشريعة الإسلامية .

وبعد أن كان القرن السادس عشر الميلادى فترة ذهبية بالنسبة لتاريخ الإسلام فى منطقة السودان الغربى وعموم غرب إفريقيا ؛ بدأ الإسلام يفقد حيويته كقوة سياسية ودينية فى تلك المنطقة بعد سقوط دولة صونغاي من جراء اعتداء دولة السعديين فى المغرب عليها في القرن نفسه .

مرحلة الانحطاط

لجأ الملوك ورعاياهم مع مرور الوقت إلى ممارسة العادات الوثنية الموروثة بعيدًا عن ضوء التوحيد الذى أتى به دين الإسلام . وتولى الكهنة وأرباب الشعوذة والأسحار السوداء زمام القيادة الروحية في تلك المجتمعات ، خاصة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين . كماكسبت الأنشطة التبشيرية المسيحية المتسترة بتجارة الرقيق ، قدراً لا يستهان به من أبناء المنطقة . ومع ذلك ، احتفظت أجزاء كبيرة من بلاد الهاوسا ، لاسيما مدنها الكبرى مثل كانو وكاسينا وبورنو ، بشخصيتها الإسلامية مدعمة بوجود كبار علماء الدين فيها . غير أن العقائد والممارسات الإسلامية الممتزجة بالعادات الوثنية الموروثة استمرت لتكون عقبة معرقلة أمام جهود الإصلاح الذي نهض به علماء الدّين والدعاة في عموم الغرب الإفريقي بما فيه هذا

الجزء . وأذكر فيما يلي نماذج فقط من العادات والممارسات البشعة التي كانت متفشية في تلك المجتمعات والتى استدعت قيام الجهاد الإصلاحي هناك :

أولاً : عند اعتزام أحد الملوك "هابى" الوثنيين خوض معركة ضد أعدائه يقوم عادة باستدعاء كل أبطاله للحرب ، وينظم لهم مأدبة عشاء أمام قصره بحضور حشود من الناس ، ويكون هناك إناء كبير موضوع في وسط فناء يحتوى على قطع من لحم العجل ذات لون فاحم مخلوطة بقطع من لحم الإنسان المجذوم . ويقوم كل بطل من أبطال الحرب وهو في حالة غشيان وهيجان الزار وسط دوى الطبول ، وهتاف الراقصين ، بمد يده إلى ذلك الإناء ويتناول قطعة من اللحم المشوي ويأكلها . ويكررون ذلك إلى أن ينتهى ما في ذلك الإناء من محتويات . ويزعم الكهنة وأرباب الزار أن تلك الممارسة تقوى نفوس وشجاعة هؤلاء أبطال الحرب وتنزع عنهم مشاعر العطف والشفقة في حالة مقابلة العدو .

ثانياً : على المرأة المتوفى عنها زوجها أن تستكمل مدة العدة المعروفة شرعاً أى أربعة أشهر وعشرة أيام فقط . لكنها ، إضافة الى ذلك ، تقوم عادة ، في اليوم الحادي عشر بعد استكمال العدة وفى منتصف الليل بالتوجه الى قبر زوجها لإبراء نفسها من ذمته مع أداء طقوس معينة . ومعلوم أن تعليمات الحديث المروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم حول هذا الموضوع واضحة ؛ فهو لم يشر إلى شيء من هذا القبيل ، وهذا نصه : عن أم عطية رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تحد امراة على ميت فوق ثلاث ، إلا على

زوج ، أربعة أشهر وعشراً ، ولا تلبس ثوبًا مصبوغاً ، إلا إذا طهرت نبذه من قسط أو أظفار ، متفق عليه وهذا هو لفظ الإمام مسلم . ولأبى داود والنسائى من الزيادة " ولا تختضن وللنساء " ولا تمتشط. (٤)

ثالثًا : كان إذا اتهم شخص أحد المواطنين بسرقة أو انتزاع حق من حقوقه ورفع شكوى عن ذلك إلى قضاة الملك ، مثلاً يؤتى بالمتهم إلى البلاط ليحاكم ؛ وإذا أنكر التهمة الموجهة إليه وأصر على براءته، رغم التخويف والاستفزاز والتعذيب ، يأمر الملك بإحالته إلى غرفة مظلمة يكون بها كاهن يطلقون عليه اسم "دودو" .. هناك يخاطبه " دودو" موجهاً إليه عدة أسئلة وتهديدات مروعة ، ويطالبه بالاعتراف بارتكاب الذنب ، فإذا تمادى في الإنكار ، يأمره بالعودة إلى أهله ويأتي مرة أخرى في غده ويحمل معه قليلاً من الماء في إناء صغير لدى الحضور ، ويقدم إلى الكاهن المقنع الذي يتسلم منه الإناء وبه الماء المطلوب ، ويكرر تهديده وتخويفه له، واذا رفض أن يعترف بذنبه مرة أخرى ، يرجع إليه الكاهن ذلك الإناء بعد أن يكون قد غمس فيه أصبعه الخنصر الملوث بمادة سامة بدون أن يكون المتّهم قد لاحظ ذلك ، ويطلب منه أن يشرب الماء ، ثم يطلق سراحه ، ليموت بعد بضعة أيام من الإفراج عنه وهو مكروه حتى بين أهله الذين يعتقدون أنه ملعون ، لأن الآلهة قد صبت جام غضبها عليه وانتقمت منه . لذلك مات ذلك

(٤) انظر كتاب : بلوغ المرام من أدلة الأحكام ، تأليف الحافظ بن حجر العسقلاني .

الموت الفجائي ، مع أن هذا المتّهم قد يكون بريئاً وبالتالى مظلوماً ، وهو الغالب .

أما بالنسبة لمنطقة السودان الغربي التى كانت مهد الممالك الإسلامية الأولى في غرب إفريقيا ، فقد تعرضت هي الأخرى للصراعات السياسية والقبلية الداخلية والتى تأثرت بها مسيرات الإسلام وأوقفت حيويته ، لاسيما بعد سقوط دولة صونغاى . وأدى هذا الوضع إلى ظهور دويلات قبلية فى بعض أجزائها ، وكان منها دولتا سيغو وكارطة البامبريتان اللتان أسستهما فئات المزارعين المنتشرة على طول أودية مجرى نهر النيجر في جنوب منطقة ماسينا التى نشأت فيها دولة ماسينا الإسلامية والدولة العمرية الإسلامية في وقت لاحق . وقد قويت شوكة الدويلتين البامبريتين السالفتى الذكر في القرن السابع عشر الميلادى أى في الفترة ما بين عام ١٦٥٢ و١٦٨٢ الميلاديين وبسطتا نفوذهما شرقاً وغرباً حتى شمل منطقة تنبكتو التى كانت المركز الحيوى للثقافة الإسلامية .

اعتمدت دولتا سيغو وكارطة على ما كانتا تفرضانه من ضرائب باهظة على القبائل المجاورة التي خضعت لهما للحصول على احتياجاتهما الاقتصادية ، معتمدتين على قوتهما . وبات من الطبيعى أن تحتميا بالشباب الأقوياء لنهب المحاصيل الزراعية والممتلكات من المزارعين الضعفاء ، وقد نشب الخلاف والتنافس بين الدولتين في عهد الملكين " نيا نجولو " و " ينتون كولوبالى " ، مما أدى إلى اندلاع الحرب بينهما . وكان الكهنة

هم أصحاب قدر كبير من السلطة الروحية والعقائدية فيهما . ومن ثم لم يخل بيت من بيوتها من قطعة صنم أو أصنام . وتضاف إليهما ممالك هابى فى بلاد الهاوسا . ويذكر لنا تاريخ المنطقة أنه عندما أراد أحد ملوكها في تلك العهود ، وهو الملك ما مارى إقامة حصون حول عاصمة دولته استدعى الكهنة واستشارهم بشأن ما يجب عمله لإرضاء الآلهة حتى تكون حصونه قادرة على حمايتهم من هجمات الأعداء ، فنصحوه بضرورة دفن ستين شاباً وستين شابة بكرًا أحياء تحت الحصون التى ستقام.(٥) وإضافة إلى مثل هذه الممارسات الوثنية البشعة ، انقلبت فئات من الذين احتضنوا دين الإسلام شكلاً عنه ، ورجعت إلى وثنيتها الأولى في مختلف أرجاء المنطقة ، ولم تعد هناك دولة إسلامية حقيقية باستثناء "بورنو" التى ظلت محتفظة بكيانها الإسلامي كدولة. كان هذا، بالاختصار ، مثالاً للأوضاع السائدة في السودان الغربي والأوسط قبل قيام الجهاد على أيدي الشيوخ : من أمثال سليمان بال وعثمان دان فودي والشيخ أحمد لوبّو والحاج عمر الفوتى .

وإذا أرجعنا النظر الى مهد دول الإسلام الأولى فى الغرب الإفريقى ، نجد أن قبائل البامبرا كانت تشكل جاليات زراعية منتشرة على طول وادى نهر النيجر جنوب غرب منطقة ماسينا قبيل سقوط دولة صونغاى . وكان هناك أخوان من قبيلة البامبرا لعبا دورًا بارزًا فى مسرح سياسة سيغو . هما براما

(٥) راجع كتاب شعوب وإمبراطوريات غرب إفريقيا للبروفسور كارولين فيكى.

انغولو ونيا أنجولو، حيث تـرأس كـل منهمـا عصابـة قويـة كـانت تعتـدى علـى القبائل المجاورة وتنهب ممتلكاتها وتأسر المستضعفين من أطفالهما ونسائهما .

كان هذا هو الحال إلى أن جاء عهـد الزعيم كالاديـــان كولوبـالى الـذى فرض نفوذه على منطقـة سيغو وقـوى شـوكته فيهـا فـى الفـترة مـا بيـن عـامى ١٦٥٢-١٦٨٢م، واستولى على مقاطعة تنبكتو وفرض الضرائب على سـكانها . غير أن هذه الدولة لم ترق إلى مصاف الدولة أو المملكة ، بل ظلت مقاطعـة ذات قوة حربية فى ظل تلك العصابات القوية . وقد شهدت سـيغو اضطرابـات سياسية وحرباً أهلية إثر وفاة الزعيم "كالاديـان كولوبـالى"،ولـم تنعـم بـالهدوء السياسى والاسـتقرار الاجتمـاعى إلا فـى عهـد ملكهـا بنتـون كولوبـالى حفيـد الزّعيم السابق الذى كـان شـخصية إداريـة قويـة احتشـد حولـه شـباب البـامبرا واعتبروه زعيمًا بحكم بنيته القوية وشخصيته الجذابة وذكائه الفذ . وقد شـمل نفوذه منطقة سيغو كلها ، امتدادًا من نهر النيجر جنـوب مدينـة "بامـاكو"حتـى الشمال الغربى لمدينة تنبكتو . والزّعيم الآخر الذى أدخل الهيكل الإدارى فـى دولة البامبرا هو الملك بنتون مامـارى حتـى أصبحـت عاصمتهـا سـيغو مركـزا تجارياً ذا شـأن. أسـس هـذا الملـك دولـة قويـة عرفـت بدولـة كارطـة بفضـل مجموعة من الشباب شكل منها عصابة مسلحة عرفت باسم"تونديون".ونشبت خلافات بين الملك مارى كولوبـالى الثـانى ، الـذى انحـدر مـن الملـك براما انغولو وفرع قبيلة ماساسى البامبرية المنحدرة من الملك نيا انجولو حيث شـن كولوبالى هجـوما على منطقة "بيلدوجـو" وقتـل الزعيميـن الآخريـن ، ففـرت

بقية أبناء قبيلة ماساسى بقيادة زعيم آخر يدعى سيى بامما ، واتجهت صوب الغرب حيث أقامت دويلة أخرى فى غرب سيغو تحت اسم كارطة الثانية . وظلت هذه الدويلة فى حالة عداء وتنافس مستمرين مع دولة سيغو . التى لم تكف منذ موت ملكها ماماري كولوبالي الأول عن خوض الصراعات من أجل الحصول على السلطة السياسية .

وقد قتل ابنه الكبير سون دينكورو واثنان من معاونيه شنقًا على أيدي جماعة "تونديون " التى اتهمتهم بالتخلّى عن ديانتهم الموروثة واعتناق دين الإسلام، واستمرت هذه الجماعات المسلحة تستولى على الحكم ويقضي بعضها على البعض الآخر . لكن عندما جاء انجلوديارا إلى السلطة في عام ١٧٦٦م شهدت مملكته الأمن والاستقرار النسبيين بعد أن تمكّن من القضاء على جماعة " تونديون " وفرض سيطرته على أعضائها، وحظي باعتراف القبائل الفولانية المجاورة في مناطق ماسينا وجنّيى وقبائل السوننكى التى خضعت لنفوذه. غير أن مملكة موسى الواقعة اليوم في جمهورية "بوركينا فاسو" استطاعت أن تتصدى لزحفه وتجبر قواته على التراجع حتى وصلت مقاطعة جنّيي بقرب تنبكتو. ثم جاء الملك منسونج (١٧٩٠م-١٨٠٨م) خلفًا له . وقد تزامن عهد هذا الملك مع وصول المستكشف الاسكتلندي، مونجو- ترك (١٧٧١م-١٨٠٦م) إلى تلك المنطقة .(٦) ، واستمر في شن هجمات

(٦) هو الذى استكشف مجرى نهر النيجر فى عام ١٧٩٥م ومات في رحلته الثانية أثناء التوغل في أعماق إفريقيا في عام ١٨٠٦م .

متقطعة على القبائل المجاورة ، ومن ثم على مناطق قبائل الدوغون وموسى وتنبكتو إضافة إلى كارطة ويليدوغو وفولا دوغو . لكن شهد عهد ملكهم الذي دام من ١٨٠٨م إلى ١٨٢٠م سقوط دولة سيغو وقيام دولة ماسينا الفولانية التي قضت على تلك المملكة الوثنية ودمجها في الدولة الإسلامية الجديدة بقيادة المجاهد الشيخ أحمد لوبّو .

الفصل الثاني

دخـول الإسلام إلى الغرب الإفريقي

يذكر المؤرخون أن المناطق العليا لنهـرى النيجـر والسّـنغال قـد أصبحـت تحت النفوذ الإسلامي منذ القرن الثامن الميلادي. وكتـب الجغرافيـون العـرب عن هذا الجزء من العالم منذ ذلـك التـاريخ . وكـان المسـعودي أحـد هـؤلاء المؤرخين الذين كتبوا عن تلك المنطقة. وقد استرعى المسعودي الأنظـار إلـى ظهور مجتمعات إسلامية في منطقـة السـافانا بغـرب إفريقيـا منـذ عـام ٩٤٧م. وساهمت الأنشطة التّجاريـة عـبر الصحـراء بيـن الشّـمال الإفريقـي والممـالك القديمة في السودان الغربي في انتشار الإسلام بين شعوب تلك المنطقة بصورة ملموسة .

وبعد أن أرسي الإسلام جذوره وقواعده في هذه المنطقة كان لأهاليها من قبـائل الفولانـي والبـامبرا والسـوننكى الذيـن أخـذوا زمــام مسـؤولية الدعـوة الإسلامية، الباع الأطول فـي انتشـار الإسـلام بيـن أبنـاء منطقتهـم وغيرهـا مـن المناطق المجاورة في السودان الغربي والأوسط .

وقد ذكر البكري في عام ١٠٦٧ الميلادي أن ملك مملكـة غـاو[1] كـان مسلماً وأن سكان غاو كانوا لا يولّون غير المسلم زمـام الحكـم فـي بلادهـم.

(١) تقع غاو فى شمال جمهورية مالي حالياً ، وكانت عاصمة إمبراطورية صونغاى .

ولا يعني هذا بالطبع أن الشعب برمته كان مسلمًا ؛ وإنما كان فيه وثنيون . بل ذكر البكري أن أغلبية شعب تلك المملكة كانت من عبدة الأصنام الوثنيين . كما كانت هناك بقايا العادات الجاهلية التى كانت موجودة قبل ظهور الإسلام بالمنطقة . وأشار مؤرخ آخر هو المحلجي عام (٩٨٥م) إلى أن ملك كوكو (غاو) كان مسلمًا . وقد بنى مسجدًا في عاصمة دولته وخصص ساحة للاحتفال بالمناسبات الدينية الإسلامية فيها . وذكر البكرى بخصوص مملكة غانة القديمة ما يلي :

"كانت هناك أحياء إسلامية في أغلب مدن السودان الغربي ؛ من بينها مملكة غانة الوثنية ، وكان الإسلام مقبولاً لدى شعبها ، وشغل المسلمون مناصب هامة في بلاط ملكها . كما ارتفعت منارات المساجد والجوامع في مدنها . " وشهدت مملكة التكرور(٢) ظهور الإسلام فيها في القرن الحادي عشر الميلادي ، وكان اسم ملكها "ورجابي بن رابيس"(٣) الذي اعتنق دين الإسلام في عام ١٠٤٠ ميلادي . وقد ذكر بن سعيد في القرن الثالث عشر ما يلي : كانت مملكة التكرور التي امتدت عاصمتها حتى شملت ضفتي نهر السنغال ، تحكم عددا كبيرا من

(٢) تطلق الكلمة التكرور التى تجمع ب"التكارير في أوساط العرب الشرقيين، على الذين ينتمون إلى غرب إفريقيا أو يرجع أصلهم إليها . واعتاد المؤرخون الغربيون لاسيما الفرنسيون كتابة الكلمة "بالتكلور" خطئا كما تلفظها قبيلة الولف.

(٣) ور – معناه "الحي" باللغة الفولانية ، بمعنى أن الله الذى عبروا عنه بلفظ الحي قد لبي لهم الرغبة بهدايتهم إلى الإسلام .

المدن . ووصف المدينتين : اهاسيلا وبربا " بأنهما إسلاميتان " . وكان ملكهما مسلمًا وهو الذي قاد شعبه في الحروب ضد الشعوب الأخرى في تلك المنطقة .

ويرى المؤرخ الغربي ، ليفينجستون – David Livingstone –(١٨١٢-١٨٧٢م) أن إسلام مملكة التكرور قد سبق قيام دولة المرابطين التي فرضت هيمنتها على الشّمال الإفريقي وصولاً إلى ذلك الجزء في غرب إفريقيا ثم تحالفت معها فيما بعد . وقد ساهم ملوك وسكان تلك المملكة في نشر الإسلام بقدر كبير في تلك المنطقة وكانوا أول من قاموا بمسيرات جماعية بقوافلها في الغرب الإفريقي إلى مكة المكرمة لأداء مناسك الحج .

وتتضمن مؤلفات بعض المؤرخين والرّحالة العرب من أمثال ابن بطوطة والعمري معلومات كثيرة عن انتشار الإسلام بين أهالي الممالك القديمة التي قامت في غرب إفريقيا . ويعتمد كثير من المؤرخين المعاصرين على تلك المؤلفات للحصول على معلومات عن تلك المنطقة. وتذكر لنا بعض المصادر التاريخية أن حكام قبائل المالنكى أو الماندنغو قد اعتنقوا الإسلام قبل عهد الملك سونجاتا كايتا الذى يعتبر ، أعظم ملوك إمبراطورية مالي . ويشير ابن خلدون ، اعتماداً على ما ذكره مؤرخ يدعى الشيخ عثمان إلى أن أول من دخل دين الإسلام من بين ملوك هذه القبيلة هو الملك "بارمنداهس" الذى سافر الى الأراضي المقدسة لأداء مناسك الحج . كما ذكر في مكان آخر أن شعب إمبراطورية مالي قد أصبح مسلماً بحلول القرن السابع الهجري (القرن

الثالث عشر الميلادي) . ولقد أصبح الإسلام راسخ القواعد في مالي في عهد ملكها منسا موسى (١٣١٢م - ١٣٣٧م) ؛ كما كان هذا الملك مشهورًا في العالم الإسلامي بعد قيامه في عام ١٣٢٤ الميلادي / ٧٢٤ الهجري ، برحلته المشهورة الى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج . وذكر العمري الذي أتى إلى مصر بعد مرور اثنتي عشرة سنة على هذا الحدث التاريخي مزيدًا من التفصيل. كما أعطى ابن خلدون آفاقًا تاريخية إضافية للحدث نفسه . وقد كان برفقة الملك منسا موسى آلاف من الأتباع في رحلته تلك ؛ وقام بصرف أموال هائلة ، لاسيما عندما أتى إلى مصر مروراً وأقام بها فترة من الزمان . وكان في موكبه أعداد كبيرة من النّاس حتى قيل إنه أفلس أثناء وجوده هناك ، مما دفعه إلى اقتراض أموال من بعض التجار المصريين ، كان من بينهم تاجر يدعى سراج الدّين بن كويك الاسكندراني الذى قام فيما بعد بإرسال وكيل له إلى مملكة مالي لاسترداد الأموال المقترضة، لكنه عندما استلم المال امتنع عن العودة إلى مصر وآثر البقاء في مالي . وقرر سراج الدين بعد ذلك السفر شخصياً وابنه الى مالي ، لكن المنية عاجلت الملك منسا موسى قبيل وصوله إلى مدينة تنبكتو ، التابعة لدولة مالي في ذلك الوقت. ولهذه القصة مغزى تاريخي كبير لأنها تشير بوضوح إلى الثروات التي كانت مالي تتمتع بها وتقوى الله الذى وقر في قلوب حكامها وشعبها واستعدادهم لتقديم التضحيات بما يملكونه من الثروات امتثالاً للتوجيهات الدينية . وقد توفي الملك منسا موسى إلى رحمة الله في عام ١٣٣٧م وكانت إمبراطوريته ممتدة حتى شملت مناطق التكرور غربًا وشرقًا ، كما شملت معظم

مناطق الصحراء الكبرى وبعض مناطق الغابات النائية . ثم أخذ نفوذ هذه الإمبراطورية في الانحطاط في بداية القرن الخامس عشر الميلادي بعد أن فقدت سيطرتها على معظم أرجاء منطقة التكرور وتنبكتو[٤]. وكانت النزاعات التى نشبت بين أفراد الأسر المالكة من الأسباب التّى أدت إلى انحلال هذه الإمبراطورية العظيمة الشأن وسقوطها ، ومن ثم انفصل عنها عديد من الدويلات التابعة لها ، مثل مملكة موسى ومملكة صونغاى والمناطق الخاضعة لنفوذ القبائل البربرية الصحراوية . وقامت دولة صونغاي تدريجياً على إثر سقوط إمبراطورية مالي ، فأصبحت هي الأخرى دولة قوية ذات شأن في منطقة غرب إفريقيا امتد نفوها حتى شمل مناطق شاسعة في السودان الأوسط والغربي مثل مناطق : كيبي وكتسينا وكانو[٥]. وتحولت إمبراطورية صونغاي في عهد ملكها سونّي على (على الكبير) (١٤٦٤-١٤٩٢م) إلى إمبراطورية عظيمة . وكانت فترة حكم ابنه الذي جاء خلفاً له قصيرة الأجل بسبب الانقلاب الذي قام به معاون لوالده يدعي اسكيا الحاج محمد (١٤٩٢-١٥٩٧) وأطاح بحكمه . وتذكر المصادر التاريخية أن اسكيا الحاج محمد بذل جُهدًا كبيراً فى نشر الإسلام في بعض مناطق السودان الغربي، عكس سلفه المَلك سونّى علي ، الذي قيل إنه اضطهد العلماء في عهده ، على حين تمتع العلماء بالاحترام والاهتمام البالغين في ظل اسكيا

---

(٤) تقعان حاليا في مالي والسنغال وموريتانيا .

(٥) تقعان حاليا في جمهورية نيجيريا الاتحادية .

الحاج محمد ، الأمر الذي أثار رغبة الشعب في التعليم والاهتمام بالإسلام وازدادت إمبراطوريته شهرة .

وقد قام هذا الملك بالسفر إلى مكة المكرمة حيث أدى فريضة الحج بعد مرور ثلاث سنوات على توليه الحكم . وضم في عهده بعض أجزاء بلاد الهوسا إلى إمبراطورية صونغاي . وفي سنة ١٥٠٢ ميلادية قام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني الذى أتى من الجنوب الجزائرى بشمال إفريقيا بزيارة إلى تلك الإمبراطورية وتولى فيها منصب مستشار في بلاط ملكها الذى عينَه ممثلاً له في منطقة غاو . وقد ألف المغيلي كتاباً في الإدارة الإسلامية سماه " أجوبة وأسئلة أسيكا" بناءً على طلب الملك . وقد سقطت تلك الإمبراطورية العظيمة في سنة ١٥٩١ ميلادية بفعل الغزو الذى تعرضت له من الحكام السعديين فى المغرب الأقصى في سنة ١٥٩١ الميلادية كما ذكرت آنفا .

الأنشطة الثقافية في غرب إفريقيا

كانت الطرق التجارية التى انتشر الإسلام بواسطتها في إفريقيا جنوب الصحراء بمثابة حلقة الاتصال التي ربطت المسلمين في مناطق إفريقيا النائية بالمراكز الثقافية والسياسية الإسلامية في العالم الإسلامي آنذاك . وكانت المدن التجارية في تلك الأماكن هي عينها مراكز التعليم الإسلامي وأنشطته التي ينبعث منها نفوذ العلماء وشهرة الملوك المسلمين. وكانت مدينة تنبكتو إحدى تلك المدن التي اشتهرت بالأنشطة التجارية وبالثقافة الإسلامية في

القرن الرابع عشر الميلادى ، كما أصبحت مدينة ولاته (فى موريتانيا اليوم) المقصد الرئيسي لحركة التجارة عبر الصحراء . وتحولت المدينتان إلى مركز ثقافي إسلامي في الغرب الإفريقي .

تأسست مدينة تنبكتو في القرن الحادي عشر الميلادي على أيدي قبائل الطوارق الصحراوية . ومن حينه بدأت الحركة التجارية تتدفق من شمال إفريقيا إلى تلك المدينة ومنها الى بقية أجزاء غرب إفريقيا. وفي النصف الثاني من القرن الرابع عشر احتلت تلك المدينة مكان الصدارة وتفوقت على ولاته كمركز تجاري ، ومن ثم أخذت أعداد كبيرة من العلماء تهاجر إليها وتستقر بها تدريجيا . وقد اشتهرت تنبكتو فى القرن الخامس عشر بالأنشطة الثقافية الإسلامية المتميزة، واتصف ملك مالي منسا موسى بالتدين وتقوى الله، وشجع شعبه على طلب العلم وإبداء الاحترام لعلماء الدين وطلبة العلم . وأخذ يرسل كثيراً من طلاب العلم إلى مدينة فاس المغربية لتحصيل العلوم العربية والإسلامية ، وامتاز الملوك المتعاقبون بعده بهذه الخصلة والممارسة إلى أن انهارت تلك الدولة . ويدل الحديث الآتي المنسوب إلى أحد علماء تنبكتو وهو الشيخ سيدي يحيى السقادلي المتوفي سنة (١٤٦١-١٤٦٢م) على صدق هذا الخبر : " أتى سيدي عبدالرحمن التنيمي من الحجاز واستقر في تنبكتو ووجد بها كثيراً من الفقهاء السودانيين(٦). ولما شعر

(٦) أهل السودان الغربي أي غرب إفريقيا .

بتفوقهم في علوم الفقه قرر أن يسافر هو أيضاً إلى مدينة فاس لدراسة الفقه ليعود بعد ذلك إلى مدينة تنبكتو ويستقر بها نهائياً " .

وكان هناك مسجدان كبيران بمدينة تنبكتو فى نهاية القرن الخامس عشر، وهما الجامع الذي بناه الملك منسا موسى في القرن الرابع عشر وجامع سانكورى الذي أصبح فيما بعد أول جامعة تعليمية في إفريقيا جنوب الصحراء. وكان الجامع المركزي الذى تقام فيه صلاة الجمعة يقع فى الجزء الغربي من المدينة ، بينما يقع جامع سانكورى فى الجزء الشمالي منها. وتعتبر منطقته حيّ المغتربين الذين نزحوا من مناطق ولاتة وجينّي والمناطق الصحراوية النائية . وقد تحول هذا الجامع فيما بعد إلى مركز ثقافي كبير لدراسة العلوم الإسلامية على غرار الجامع الأزهر بالقاهرة وجامعة القرويين بفاس أو جامعة الزيتونة بتونس . واستوطن أفراد الأسر التي اشتهرت بالتبحر في العلوم الإسلامية بمدينة تنبكتو ، وظهر فيها أجلة العلماء الذين لعبوا دورًا حيوياً في مجال الثقافة العربية والإسلامية ، وكانوا ينتمون إلى عائلتي العالم عقيت أندق محمد والفقيه محمد . العالم أحمد بابا بن عبد الله أندق بن محمد عقيت، قاضي مدينة تنبكتو الذى عاش في القرن الخامس عشر : كان هو(٧) جدي الأوّل الذي كرّس حياته في خدمة العلوم العربية والثقافية الإسلامية .

(٧) يقصد عقيت أندق .

وتدل المقولة التالية المنسوبة إلى أحد زعماء تنبكتو في حق العلماء ، على الاحترام البالغ الذي كان يكنّه الحكام في إمبراطورية مالي وزعماء الطوارق للعلماء والاهتمام بهم . وكان هذا الزعيم قد قام عندما علم بعزم الملك سنّي على غزو مدينة تنبكتو وتدميرها بإحضار ألف جمل لنقل العلماء والفقهاء القائمين بالتدريس في سانكورى بأسرهم وأمتعتهم إلى منطقة بيرو بولاته ، وبرر ذلك بقوله : " إن أمرهم يهمه أكثر من أى شيء آخر ويشعر بقلق بالغ إزائهم" . وكان من بين الذين نقلوا الفقيه عمر بن محمد عقيت مع ثلاثة من أبنائه عبد الله وأحمد ومحمد وعمهم الفقيه أندق محمد . وقد تخرّج كثير من أجلة العلماء من جامعة سانكورى . وكان أحد أئمة جامعة سانكورى ويدعى الشيخ موسى كاطب من بين العلماء الذين أرسلوا إلى فاس في أوائل القرن الخامس عشر لاستكمال دراستهم هناك . كما كان هناك عدد كبير من خريجي جامعة سانكورى الّذين سافروا إلى القاهرة والتحقوا بجامعة الأزهر لمواصلة الدراسة . وقام كثير منهم بعد تخرّجهم ، بالتدريس في المشرق والمغرب العربيين وبلاد الهوسا . وكان أحمد بن عمر جود الأمين من بين الّذين سافروا إلى المشرق العربى في عام ١٧٥٨ الميلادي . وقد عاد إلى السّودان الغربي بعد أداء فريضة الحج وزار مدينة كانو وغيرها من مدن المنطقة . والعالم الآخر الذي يذكره التاريخ هو الشيخ مخلوف البيالي ، الذى كان قاضياً وعالماً جغرافياً ، وقد تتلمذ على ابن الغازي المغربي . وقام فيما بعد بزيارة مدينتي كانو وكاتسينا بشمال نيجيريا . ومحمد بن أحمد التزختي هو أيضاً أحد علماء تنبكتو المشهورين،

وقد جاء إلى كاتسينا بعد عودته من أداء فريضة الحج واستقر بشمال نيجيريا وحظي بالاستقبال الحار والاحترام البالغ لدي وصوله إلى كاتسينا حيث عين فيما بعد قاضيًا في الفترة ما بين عامي ١٥٢٩ ـ ١٥٣٠ الميلاديين . ويرجع كثير من المؤرخين الفضل في جهود محو الأمية بين أهالي منطقة السودان الغربي إلى بعض الجماعات المهاجرة ، مثل قبائل التكرور والفولاني والماندنغو أو الونغارا . وقد وصل نفوذ هذه الجماعات إلى منطقة السّودان الوسطى. كما قامت أعداد أخرى من هؤلاء العلماء بالهجرة صوب الشرق بعد الاضطرابات السياسية التي شهدها عهد الملك منسا سليمان ملك إمبراطورية مالي. ووصل علماء قبيلة الماندنغو أو الونغارا وتجارهم إلى مدينة كانو بشمال نيجيريا في القرن الخامس عشر. وتنقل بعضهم حتى بلغوا منطقة "سينيغا مبيا" غرباً وغابات غينيا جنوباً . وقد شكلت هذه الفئة من العلماء الطبقة المثقفة في وسط المجتمع الأمي الشاسع . وكانوا يقومون بتأسيس مراكز تجارية ومدارس لتعليم أبنائهم كلما حلوا بأماكن جديدة . وعنهم قال المؤرخ جويش في القرن السابع عشر :

"اتصفت هذه الفئة بحمل كميات من أمهات الكتب والمخطوطات العظيمة التى تتعلق بثقافتهم الإسلامية . شاهدنا جماعة منهم ومعهم أحمالاً عظمية من هذه المخطوطات القيمة عندما أتوا إلينا ونزلوا علينا ضيوفاً وكانوا يتنقّلون من مكان إلى آخر في أعداد أسرية كبيرة يرافقهم أبناؤهم الصغار الّذين يتلقون الدروس في حفظ وتلاوة القرآن ومبادئ العلوم الفقهية في كل مكان يحلّون به" . وقد ظلّت مدينة تنبكتو طوال القرنين الخامس عشر

والسادس عشر رغم الاضطرابات السياسية التي كانت تشهدها مركزًا عظيماً لتلقي العلوم الإسلامية في السودان الغربي وعموم غرب إفريقيا . وكان الفقيه أحمد بابا أحد العلماء البارزين في منطقة السودان الغربي والأوسط الذين حصلوا على ثقافتهم الإسلامية في جامعة سانكورى التنبكتوية، وينتمي إلى أسرة مثقفة وكبيرة هي أسرة الفقيه محمد عقيت التي اشتهرت بوجود علماء وقضاة بين أفرادها . وقد ولد أحمد بابا في ٢١ ذي الحجة لسنة ٩٦٣ الهجري الموافق ٢٦ أكتوبر عام ١٥٥٦ الميلادي وتلقى العلم فى صباه عن والده، كما تعلّم من عميه أبي بكر وأحمد بن محمد بن سعيد ، وهما من أجلة علماء تنبكتو ، وتتلمذ على محمد يغيوغو الّذي درّسه أكثر من خمسة وعشرين كتاباً في مختلف فروع العلوم الإسلامية ، ومنحه إجازته العلمية . وتقدر مؤلفات أحمد بابا بأكثر من أربعين كتاباً ، من بينها مجمعه الشهير المسمى " تطريز الديباج " . الذى ألفه فى عام ١٥٩٦ الميلادي عندما كان معتقلاً في مراكش حيث أُطلق سراحه في ١٩ مايو ١٥٩٦ الميلادي بعد قضاء سنتين في الحجز المغربى . وبقى في نفس المدينة بعد الإفراج عنه للقيام بالتدريس وإصدار الفتاوي لفائدة المسلمين هناك . وأخذ الناس والعلماء وجماهير الطلبة يتدفقون عليه لتلقي العلم والمعرفة . واكتسحت شهرته منطقة شمال غرب إفريقيا بطولها وعرضها خاصة فى السودان الغربي والأوسط ، مما جعل بعض رجال القضاء والإفتاء الّذين يعيشون في كبريات مدن المغرب يتوجهون إليه لسماع الفتاوى الدينية التي تصدر منه . وفي نهاية الأمر أذن الأمير زيدان ، شقيق السلطان أحمد

المنصور الذهبى لأحمد بابا بمغادرة المغرب والعودة إلى مسقط رأسه ، تنبكتو التي وصلها في ٢٦ من فبراير عام ١٦٠٦ الميلادي . وهناك عالم آخر من أبناء تنبكتو اشتهر اسمه في السودان الغربي ، هو عبد الرّحمن السعدي (ولد في ١٥٩٦ الميلاذي ، وهو صاحب كتاب" تاريخ السودان") ، وكان السعدي هو الإمام الراتب لأحد مساجد تنبكتو . ويتناول هذا الكتاب تاريخ الأنشطة السّياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في الممالك السودانية في الغرب الإفريقي . وهناك محمود كعت ، أحد كبار علماء المنطقة . وهو أيضاً من خريجي جامعة سانكورى التنبكتوية . وقد بدأ تأليف كتابه تاريخ الفتاش في ١٥١٩ الميلادي . ولكن فاجأته المنية قبل أن يكمله ، فقام أحد أحفاده في عام ١٦٦٥ الميلادي باستكمال التأليف . والكتاب عبارة عن الأنشطة العلمية والسياسية التي شهدها بعض أجزاء منطقة السودان الغربي ، ابتداءً من عهد ملكها منسا موسى السالف الذكر . وتعد حيازة الكتب بصفة عامة كنزاً قيماً وعظيماً في مجتمع السودان الغربي حيث . كان الأثرياء والمقتدرون يقومون بشراء كميات كبيرة من الكتب الدينية والفقهيه ويحتفظون بها ويتوارثونها كابراً عن كابر افتخاراً وإجلالا وحبًّا للعلم . وقد ذكر أحمد بابا في أحد أعماله شخصاً يدعى يحيى بن جوداله قال إن جده الأكبر كان يمتلك كمية كبيرة من الكتب، وإن ذلك كان من دواعي السرور والابتهاج والافتخار لأفراد العائلة برمتها ، وإن بعض تلك الكتب قد نسخت باليد مما يشير إلى الأهمية التى يعلقها أهل المنطقة على العلم وتحصيله، ومدى استعدادهم لبذل

قصارى جهدهم للحصول عليه . وذكر الشيخ يحيي هذا أن جدّه المذكورقد ترك عند وفاته أكثرمن سبعمائة مجلد .

وكان طلاب العلم يستعيرون الكتب من أساتذتهم كما يستعير الأساتذة من بعضهم البعض. وتدل القصة الآتية على مدى استعداد العلماء للتعاون فيما بينهم بإعارة كتبهم على الرغم من شغفهم الحاد وحرصهم الشديد على عدم مفارقة تلك الكنوز القيمة . " كان الفقيه أبوبكر (١٥٢٤ - ١٥٩٣م) سخياً للغاية، ولم يتردد في إعطاء نوادر كنزه المتمثلة في الكتب القيمة إلى كل من يتقدم إليه ويطلبها منه. ولم يكن يستردها في الغالب، مما أدى إلى فقدانه للكثير منها. وفي ذات يوم أتى أحد طلبة العلم وطرق بابه سائلاً استعارة بعض كتبه ، فأعطاه إياها دون أن يعرف من أين أتى ذلك الطالب". وكان الشيخ شغوفاً بحيازة الكتب سواء عن طريق الشراء أو الاستنساخ . وقد تم العثور على عدد كبير من بقايا تلك الكتب . وكان الملوك يقومون بإهداء الكتب والأموال إلى من يطلبها من العلماء. وكان الملك أسكيا داود ملك إمبراطورية صونغاي يُعين أشخاصاً من الكتاب الذين يقومون بنسخ المخطوطات والكتب المطبوعة ليقوم بتوزيعها على العلماء والطلبة مجاناً. وكان هو أول من أنشأ مكتبة عامة للمطالعة في هذا الجزء من العالم .

وأبرز المؤرخ ليون الإفريقي (الحسن بن محمد الوزان) الذي قام بزيارة تنبكتو في أوائل القرن السادس عشر المستوى العالي الذي وصلت إليه جهود محو الأمية وتوفير الكتب والمراجع الإسلامية في تلك المنطقة . إذ قال

يصف تلك الحالة : " ثمة أعداد هائلة من الأساتذة والقضاة ورجال الدّين والعلماء الّذين يقوم الملك والدولة بالتكفل باحتياجاتهم المالية ورفاهيتهم الخاصة ، كما تقوم الدولة باستيراد كميات كبيرة من أمهات الكتب والمخطوطات من البلدان الإسلامية لبيعها للشعب . وكانت تلك الكتب تمثل عروضاً تجارية رابحة وبالغة الأهمية" .

تجسيد الشخصية الإسلامية لمنطقة الغرب الإفريقي

يسهل علينا بعد هذا العرض الموجز للأنشطة الثقافية ، أن نقف على مختلف ألوان التشويه التى أدخلتها السلطات الاستعمارية على الفكر الإسلامي في منطقة غرب إفريقيا بعد بسط نفوذها عليها. لكن يجب علينا قبل الدخول في هذا البحث أن نشير إلى أهم المجتمعات الإسلامية في منطقة غرب إفريقيا التى كانت موجودة عبر الصحراء الكبرى قبل ظهور الاستعمار هناك ، وأن نشير إلى أن الفكر الإسلامي قد تجسد في حياة أفراد المجتمع الإفريقي في تلك المنطقة . ولعل النقاط التالية تساعد على إبراز هذه الحقيقة :

١ – يجمع الإسلام بين منهج التفكير وأسلوب الحياة . وقد وصل إلى الغرب الإفريقي في القرن الأول من ظهوره في الجزيرة العربية . فقد أمر معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية واليه في شمال إفريقيا القائد الشهير عقبة بن نافع الفهري بأن يختار مكاناً مناسباً ينشيء فيه مدينة إسلامية تكون معسكرًا للجيش ومقراً للمسلمين. فاختار عقبة أحد الأودية البعيدة عن الساحل

وأنشأ سنة (٥٠) فى مدينة القيروان التى تقع اليوم فى تونس ، مما مكّن الإسلام من إرساء قواعده فيما يعرف اليوم بالجزائر ثم المغرب وموريتانيا ومالى .

٢- ذكر المؤرخون أن الولاة الذين تعاقبوا على هذه الدولة كانوا يغتنمون فرص فترات السلم في المنطقة ليقوموا بنشر دين الإسلام بين أهاليها . وكان الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز من أكبرالمتحمسين لذلك . وقد اختار لهذا الغرض عشرة فقهاء من جيل التابعين لإرشاد أهالي تلك المنطقة وتعليمهم اللغة العربية والدين الإسلامي . وقد قدم هؤلاء الفقهاء إلى إفريقيا سنة ١٠٠ (مائة) بعد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام وانتشروا في مختلف أرجائها . وأقبل الناس على اعتناق الإسلام أفواجاً بفضل ذلك الجهود ، حتى أصبح عدد كبير منهم نابغين في علوم الدين الإسلامي والثقافة العربية .

٣- كانت أهم الممالك التي قامت في تلك المنطقة خاضعة للقيادة الإسلامية واعتنقت أهاليها دين الإسلام في وقت مبكر من ظهوره في الجزيرة العربية عبر شمال إفريقيا . وهذه الممالك هي : غانة ومالي وصونغاي . ثم قامت بعدها ممالك : مويسى والهاوسا وغاو (صونغاى) وبورنو وفولاني .

أ – **إمبراطورية غانة :** [٨] يرجع تاريخ دخول الإسلام إلى هذه الإمبراطورية إلى القرن الأول الهجري . وذكر البكري في كتابه "المسالك والممالك" أن الأمويين دخلوا في تلك الدولة في صدر الإسلام؛ وأن عاصمتها

(٨) معنى كلمة غانة أرض الملح بلغة صونغاى القديمة.

انقسمت إلى جزئين . جزء يسكنه المسلمون وجزء يسكنه الوثنيون . وكان الجزء الذى يعيش فيه المسلمون هو الأكبر ، ويضم اثنى عشر مسجداً أكبرها هو الجامع المركزي الذي تؤدى فيه صلاة الجمعة . ويوجد بكل مسجد مؤذن وإمام خاص به . كما يجتمع فيه طلاب العلم وعموم الناس للاستماع إلى تلاوة القرآن وتفسيره . وقد تميزت المدينة بوجود علماء التفسير والفقهاء وأهل اللغة . ويوضح المؤرخ الغربي بانيكار PANIKAR قائلاً إن بني أمية عندما أحكموا قبضتهم على مراكش بالمغرب شنوا هجومًا على مملكة غانة فيما بين عامي ٧٣٤ و ٧٥٠ ميلادي (١١٦ و ١٣٣ هـ) لأسباب سياسية، وكانت هذه هي الحملة المراكشية الأولى ضد دولة من دول غرب إفريقيا . بيد أن الحملة لم تصادف نجاحًا ، وكان أحفاد الجنود الذين استخدموا في شن ذلك الهجوم هم الّذين حكم عليهم القدر والتاريخ فآثروا البقاء في تلك الدولة وعرفوا فيما بعد بالمهجنين .

الإسلام في غانا (٩) الحديثة

يستحسن قبل الحديث عن مملكة صونغاى، الإشارة إلى أن إمبراطورية غانة القديمة التى ازدهرت من القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر الميلاديين، لا تمت بصلة ، فى الواقع التاريخي أو الموقع الجغرافى بجمهورية غانا الحديثة التى نالت استقلالها السياسى من المملكة المتحدة في ٦ مارس

(٩) يلاحظ أن الكلمة "غانا" تكتب للجمهورية الحديثة و"غانة" للامبراطورية القديمة.

عام ١٩٥٧ الميلادي . ويتشكل النسيج السكانى لجمهورية غانا الحديثة من ارتباطات تاريخية وعرقية تكونت من ثلاثة عناصر قبلية رئيسية :

(١) العنصر الشمالى (٢) والعنصر الوسطى (٣) والعنصر الجنوبى . ومن المرجح جداً أن يكون العنصر الأول أى الشمالى قد شكل جزءاً من إمبراطوريات السودان الغربي التى قامت في القرون الوسطى . وقد اعتقد بعض المؤرخين المعاصرين ، بالتحديد الدكتور جوسيف بوتشوى دانكواه(١٠) (ديسمبر ١٨٩٥م – فبراير ١٩٦٥) صاحب كتاب " مفهوم الفكر الإلهي عند قبيلة أكان الغانية " ، أن قبائل العنصر الثاني " قد انحدرت من إمبراطورية غانة القديمة بعد انهيارها في القرن الثالث عشر الميلادي " . غير أن هذا الافتراض لا يقوم على دلائل تاريخية دامغة . وثمة افتراض آخر يشير الى انحدار قبيلة " أكان " بفروعها الثلاثة أي "غنواه وفانتى وتشويه" من مملكة غوانجا القديمة التي ازدهرت في الشمال الغربي لما هو اليوم جمهورية غانا . لكن من المرجح أن تكون تلك المملكة قد شكلت ، ضمنياً ، جزءاً من إمبراطورية موسى الآنفة الذكر أيضاً. ويرى بعض المؤرخين التقليديين، لاسيما رواة الأساطير الشعبية أن أجداد هذا العنصر الذي نحن بصدد دراسته قد انحدروا من قدماء المصريين الفراعنة . وقد انبنى هذا المعتقد على التشابه القائم في بعض عادات وممارسات أفراد هذه القبيلة وقدماء المصريين

(١٠) الدكتور جي بى دانكواه ، هو الذى اقترح تسمية ساحل الذهب بغانا عندما حصلت على الاستقلال في عام ١٩٥٧م

الفراعنه ، سيما فيما يتعلق بمراسم دفن ملوك كل من الجانبين ، وكذلك الاعتقاد في استمرارية الحياة بعد انقضاء الحياة الدنيوية الانتقالية بالموت . ومن ثم إجبار الزوجة المفضلة للملك وافراد من خدمه على الرحيل معه عند موته والاستقرار في مقره الجديد أى قبره ، وذلك تعظيماً له وتضامناً معه . وسنتحدث الآن عن ملوكهم (قبيلة غانا) الذين اعتنقوا الإسلام .

أولاً : الملك محمد زنغينا (١١) :

كان الملك محمد زنغينا حامل لقب " يانا " (ملك الملوك) أعظم شخصية إسلامية برزت في مملكة دوغومبا التى قامت فيما هو معروف اليوم بالشمال الشرقي لجمهورية غانا في القرن الثامن عشر الميلادي . وحظى دين الإسلام بتشجيع منقطع النظير في عهده . وبرغم كونه الوريث الرابع لعرش تلك المملكة من عائلته ، بدءاً من والده " يانا " توتو غرى ؛ والسادس عشر لجملة ملوك مملكة دوغومبا قاطبةً، إلا أنه يعتبر المؤسس الأول والحقيقي لتلك المملكة في ظل دين الإسلام .

ولد محمد زنغينا وثنى العقيدة والممارسة. وكان اسمه "وونبى" قبل اعتناقه الإسلام . وعندما تولى العرش سافر إلى بلاد الهاوسا التى تشمل اليوم

---

(١١) الكلمة هاوساوية الأصل ، وهي مشتقة من كلمة "دنغنا" أى التوكل ، وتستعمل ككنية لكل من يحمل اسم عثمان .

شمال نيجيريا وجمهورية النيجر ، وهناك اتصل ببعض علماء الدين من بينهم فقيه يدعى مالام (المعلم) محمد الكسناوى ، الذي أدخله دين الإسلام وأعطاه اسم محمد زنغينا. استقدم الملك محمد زنغينا عدداً من علماء الدين وأصحاب الحرف من الحدادين والنساجين والبنائين وغيرهم من الحرفيين ، من بلاد الهاوسا الذين رافقوه لدى عودته إلى بلاده ؛ واندمجت هذه الفئة من الهاوساويين والفولانيين في مجتمع دوغومبا في شمال غانا مما ساعد في إنعاش الحيوية الإسلامية في تلك المنطقة . وعندما قامت مملكة غوانجا المجاورة بغزو الجزء الغربي لمملكة دوغومبا في عام ١٧١٣ الميلادي ، تنحى المملك محمد زنغينا عن العرش لصالح إبن عمه أنداني سيغلى . توفي (محمد زنغينا) بعد ذلك بفترة وجيزة في بلدة أغباندى حيث دفن . وبرغم قصر عهد ملكه ، كان الملك محمد زنغينا متميزاً وفذاً في العمل من أجل تجسيد الشخصية الإسلامية في بلاد دوغومبا بدرجة لم يبلغها خلفاؤه من ملوكها .

ثانياً : الملك أوساى بونسو :

ولد الملك أوساى بونسو فى ملك مملكة أسانتى (١٧٧٩ -١٨٢٤م) ، وهو الملك السابع لهذه المملكة وأعظم ملوك أسانتى في القرن التاسع عشر الميلادي . حالة العداء التى قامت بينه وبين المسلمين في ظل حكمه ، حظى المسلمون في عهده بنوع من النفوذ السياسى على عرش أسانتى . فكان المسلمون هم القائمون بالمكاتبات والمراسلات بين مملكة أسانتى والملوك

الآخرين في الممالك المجاورة ، الأمر الذي دفعه إلى التجاوب وإبداء التفاهم مع المسلمين . وكان يعتمد عليهم في الدعوات أثناء حدوث الحروب والخلافات الأسرية. شهد عهده الإنماء الإسلامي في مجتمع أسانتي. ولولا التقاليد والممارسات الجدّ وثنية والطقوس المناوئة للعقيدة الإسلامية جذرياً والتى ترتبط ارتباطاً كلياً بالحكم بين قبيلة أسانتى، المتمثلة في تقديم القرابين بالدم البشرى والإفراط في استخدام الخمور أثناء تلك الطقوس وعدم الجواز لأى إنسان مختون أن يتولى الحكم فى هذه القبيلة، من ناحية وطموحات البقاء على العرش من ناحية أخرى ، لأصبح الملك أوساى بونسو مسلماً في فترة ملكه .

ثالثاً : باباتو

باباتو ؛ عرف فى تاريخ الغرب الإفريقي باسم محما (محمد) طن عيسى. ولد ببلدة "إندونغا" الواقعة في جمهورية النيجر من أبوين ينتميان الى قبيلة جرما/زبرما، في أواخر القرن التاسع عشر الميلادى. لعب باباتو دوراً رئيسياً في تأسيس دولة غرونشى الإسلامية بشمال غرب جمهورية غانا. هاجر باباتو، من مسقط رأسه في النيجير إلى بلاد غرونشى حيث استوطن في حوالى عام ١٨٦٠ الميلادي . كانت هناك جماعات من قبيلته قد هاجرت قبله إلى تلك المنطقة. اشتهرت بالبطولات الحربية. وكانت بقيادة زعيمين ، هما الفقيه هانو والفقيه غزارى. لذا دخلت الجماعة في تحالف مع قبيلة سيسالا في حروب داخلية كانت دائرة في أوقات متلاحقة بين تلك القبائل؛ خاصة في

أنشطة الاسترقاق . وتمكنت هذه الجماعة من فرض سيطرتها ونفوذها على كل مناطق غرونشي التي شملت مناطق قبائل : سيسالا، بويلسا، كاسينا ، نانكانى ، أوونا ، دغاتي ومجموعات القبائل الأخرى غير المسلمة التى احتلت كل المناطق الواقعة تحت نفوذ دويلات موسى فيما يعرف اليوم ببوركينا فاسو ومانبروسى فيما يعرف اليوم بشمال غرب غانا، ودوغومبا، بشمال شرقها، وغوانجا فيما هي فى الشمالين الشرقي والغربي لها ، وواه فى الشمال الغربى لها أيضًا . وقد احتلت قبيلة زبرما (جرما) بصفة تدريجية وسلمية وعن طريق تحالفها مع بعض قبائل هذه المناطق كلها في وقت لاحق . وعندما قتل زعيم قبيلة زبرما الحاكمة وهو ألفا (الشيخ) غزارى في احدى تلك الحروب حوالى عام ١٨٨٠ الميلادى خلفه باباتو الذي كان بطلاً حربياً ذكياً . وفى تلك المرحلة انضمت إليه جماعات من قبائل الفولانى ، الهاوسا ، الوالا ، اليوربا ، الموسي ، الغرونشى ، فكون جيشاً قوياً وأعلن الجهاد الإسلامي .غير أنه لم يكن فقيها وعالماً بالدين، مثل سابقه ألفا غزارى الذي كان متفقهاً في الدين . ومن ثم ركز باباتو اهتمامه على الزحف العسكرى دون أن ترافقه أنشطة التوعية والدعوة إلى اعتناق الدين الإسلامي ؛ كما بالتحالفات التى كانت قائمة بين الجماعة التى يتزعمها والدويلات الآخرى ذات العناصر الإسلامية وقياداتها ، مثل سيتى ، واه ، ليمبيلى ، بوروما ، هابو . واستطاع باباتو ، رغم هذا التقصير من جانبه ، مدّ نفوذه وسيطرته إلى أقصى مناطق الشمال الغربي . بيد أن قوته أخذت في الضعف تدريجياً مما شجع بعض القبائل الكبيرة ، مثل

سيسالا ودوغومبا على التمرد ضده . لكنه تمكن بعد وقت قصير من استعادة السيطرة عليهما وشدد قبضته على دولة غرونشى أيضاً . وارتقت قبيلة (جرما) المسلمة إلى كتلة قوية باسطة نفوذها على كافة شمال غانا في عهد هذا الملك . وقد أقام معسكرات لجيشه في مدنها الكبرى مثل لالى وواه .

وواجه باباتو نوعاً من الانتكاس والتردى بسبب تزامن امتداده العسكرى مع توغل قوات زعيم آخر من ناحية الجنوب الشمالي الذى يعرف اليوم بجمهورية غينيا ، وهو الساموري تورى الذي وصل إلى منطقة بوركينا فاسو الحالية . وصادف هذا الزحف أيضاً قدوم الاستعماريين من الإنجليز والفرنسيين والألمان إلى منطقة الغرب الإفريقي . واشتبكت قوات المجاهد الإسلامي محمد باباتو مع تلك القوى الاستعمارية الثلاث في جبهات مختلفة ، لكنه اضطر إلى التراجع واللجوء إلى مدينة ياندى عاصمة دولته ، بيد أن الاستعماريين تمكنوا من التغلب عليه في نهاية الأمر .

وقد شهدت مناطق شمال جمهورية غانة ، في عهد الإمام محمد باباتو ، تشييد المساجد والمدارس الإسلامية مع استقدام الفقهاء وعلماء الدين من نيجيريا ومالي والسنغال الذين ساهموا في نشر الثقافة الإسلامية التى استمرت في جمهورية غانة . كما توطدت العلاقات التجارية والثقافية بين دولته في شمال غانة والمجتمعات الإسلامية الأخرى المجاورة . وعندما احتلت قوات الاستعمار الإنجليزى والفرنسى تلك الدولة في عام ١٨٩٠ الميلادي كان الإسلام قد أثبت وجوده فيها وترك بصماته دامغة على هوية سكان تلك المنطقة .

ب- إمبراطورية مالي :(١٢) قامت هذه الإمبراطورية في منطقة السودان الغربي . وكان أشهر ملوكها سونديانا كايتا (١٢٣٠ م ـ ١٢٥٥م) ومنسا موسى (١٣١٢م - ١٣٣٧م) وذلك بعد سقوط إمبراطورية غانة . وقد نهضت إمبراطورية مالي وأنجزت الكثير في ميادين التجارة والبطولات الحربية ، سيما بعد أن أصبح دين الإسلام دينًا رسميًا فيها . ولعب علماء الدين أدواراً كبيرة في تشجيع انتشار الإسلام فى ظل ملوكهم المسلمين ، ومن بينهم الملك منسا موسى الذى كان شهيراً ومحبوباً عند عموم المسلمين وعلمائهم ، والملك سونديانا كايتا هو المشيد الحقيقى لهذه الإمبراطورية التى قامت كسابقتها غانة فى منطقة تضم الشرق الموريتانى الحالى حيث تقع عاصمتها والشمال الغربى لحوض نهر النيجر .

وبحلول عام ١٢٥٥ الميلادي عند وفاة الملك سونديانا كايتا امتد نفوذ تلك الدولة وشمل المناطق الشاسعة التى غطاها نفوذ مملكة غانة سابقاً ، وأصبحت بمثابة ممرات للقوافل التجارية . وكانت أراضيها غنية بالثروات المعدنية مثل النحاس والذهب والفضة والملح ، كما كانت عاصمتها نياني إلى جانب مدنها الكبرى مشهورة مثل ولاته وغاو وجينى مراكز تجارية في السودان الغربي . وازداد نفوذ الإسلام ترسخاً فى عهد ملكها منسا موسى الذى حكم في الفترة من ١٣١٢- ١٣٣٧ ميلادية .

---

(١٢) معنى كلمة مالى : البرنيق أى فرس النهر بلغة البامبرا .

ويعتبر كتاب " مسالك الأبصار في ممالك الأمصار " لشهاب الديـن أبى العباس بن أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري(١٣٠١م - ١٣٤٩م) من أقدم مصادر تاريخ السودان الغربي المزدهر . وقد أشار العمرى إلى أنـه كـان لهـذه المملكة ملك يسمى سليمان تولى العرش بعد انقضاء حكم أخيه الملـك منسا موسى . وكانت أراضى مملكته شاسعة. وأدخل أهلها دين الإسلام ، وقام بعد ذلك بتشـييد المساجد والجوامع ذات المآذن الشامخة التى يجتمع الناس فيهـا للعبادات والاحتفال بيوم الجمعة في كل أسبوع . واستقدم العلماء والفقهاء من مذهب السادة المالكية إلى بلاده لاستشارتهم في أمور الدين والدنيا . ومن ثـم أصبح من أشهر ملوكها المتشبثين بالعلوم الإسلامية والثقافية العربية. كان هناك ملك من بين ملوك هذه المنطقة يعرف عند أهل الشرق العربي، سيما في مصـر بالملك التكرور ويعرف شعبه بالتكروريين ، ويعتبر أعظم ملوك المسلمين فـي منطقة السودان الغربي والوسطى(١٣) ؛ حيث شمل ملكه منطقة شاسعة مترامية الأطراف وامتاز عهده بوجود جيش وافر العدد من الرجال والعتاد، وكان أكـثر الملوك عدالةً في توزيع خيرات البلاد على مواطنيه . وكانت أشهر المقاطعـات التي ضمتها مملكته : غانة، زافون، بيرفكا، تيرنكا، تكرور، سـنغهنا بـامبوى ، زرقتبانا، دامورا، زغها، كبورا، بوغهرى وكاوكاو. وعرفت عاصمتها الجديدة ب : بيتى . التى بلغ عدد مدنها وقراها الكبرى أربع عشرة . وذكر العمرى أنه

(١٣) هو الملك سليمان بال أو محمد أسكيا فى أغلب الظن .

قابل شيخاً تقياً يدعى أبا عثمان بن سعيد الدوكالي الذى عاش في مدينة بيتى هذه طيلة خمس وثلاثين سنة. وقد ذكر أنه كانت لتلك المملكة مساحة شاسعة تقطعها القوافل من و إلى المغرب الأقصى والمحيط الأطلسى . كما وصف المؤرخ والجغرافي الإسلامي المشهور محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى ، المعروف بابن بطوطة في كتابه: تحفة النظار في غرائب الأمصار ، الشهير ب : "رحلة ابن بطوطة " شعب مملكة مالي قائلاً : " وصلت إلى مدينة مالي حضرة ملك السودان فنزلت عند مقبرتها ، وعن ذكر سلطانهم : وهو السلطان منسا سليمان، ومنسا معناه السلطان، وسليمان اسمه، وهو ملك بخيل لا يرجى منه كبير عطاء، وأنى أقمت هذه المدة ولم أره بسبب مرضي، ثم إنه صنع طعامًا برسم عزاء مولانا أبى الحسن ، رضى الله عنه ، واستدعى الأمراء والفقهاء والقاضى والخطيب ، وحضرت معهم ، فأتوا بالربعات وختم القرآن، ودعوا لمولانا أبى الحسن، رحمه الله، ودعوا لمنسا سليمان، وأعلمه القاضى والخطيب وابن الفقيه بحالى فأجابهم بلسانهم. فقالوا لى: يقول لك السلطان: اشكر الله، فقلت : الحمد لله، والشكر على كل حال ... والسودان (مالى) أعظم الناس تواضعاً لملكهم وأشدهم تذللاً له، ويحلفون باسمه فيقولون : "منسا سليمان كى". فإذا دعا أحدهم يأخذه حراسه عند جلوسه بالقبة التي ذكرناها . نزع المدعو ثيابه ولبس ثياباً خلقة ، ونزع عمامته وجعل شاشية وسخة ودخل رافعاً ثيابه وسراويله إلى نصف ساقه ، وتقدم بذلة ومسكنة ، وضرب الأرض بمرفقيه ضرباً شديداً ، ووقف كالراكع يسمع

كلامه . وإذا كلم أحدهم السلطان فرد عليه جوابه ، كشف ثيابه عن ظهره ورمى بالتراب على رأسه وظهره كما يفعل المغتسل بالماء . وكنت أعجب منهم كيف لاتعمى أعينهم .... استمر ابن بطوطة قائلاً : فمن أفعال السودان الحسنه قله الظلم فهم أبعد الناس عنه ، وسلطانهم لايسامح أحداً في شيء منه ، ومنها شمول الأمن في بلادهم ، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب ، ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ولو كان القناطير المقنطرة ، إنما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه، ومنها مواظبتهم للصلوات ، والتزامهم لها في الجماعات وضربهم أولادهم عليها . وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد ،لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام . ومن عاداتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجادته فيبسطها له بموضع يستحقه بها حتى يذهب إلى المسجد ، وسجاداتهم من سعف شجر يشبه النخل ولاثمر له ؛ ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ؛ ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خلقة غسله ونظّفه وشهد به الجمعة...، ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم ، وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه ، فلا تفك عنهم حتى يحفظونه . ولقد دخلت على القاضى يوم العيد ، وأولاده مقيدون . فقلت له : ألا تسرّحهم ؟ فقال : لا أفعل حتى يحفظوا القرآن . ومررنا يومًا بشاب منهم حسن الصورة ، عليه ثياب فاخرة ، وفى رجله قيد ثقيل فقلت لمن كان معى : ما فعل هذا ، أقتل ؟ ففهم عنى الشاب وضحك، وقيل لى : إنما قيد حتى يحفظ القرآن ؛... وكان دخولى إليها (مالى) فى الرابع عشر لجمادى الأولى

سنة ثلاث وخمسين ، وخروجى عنها فى الثانى والعشرين لمحرم سنة أربع وخمسين (١٣٥٣م) ، ورافقنى تاجر يعرف بأبى بكر بن يعقوب . وقصدنا طريق ميمة ، وكان لي جمل أركبه لأن الخيل غالية الأثمان يساوى أحدها مائة مثقال ، فوصلنا إلى خليج كبير يخرج من النيل ، لايجاوز إلا فى المراكب ، وذلك الموضع كثير البعوض ، بالليل ، والليل مقمر"(١٤).

ويضيف العلامة عبد الرحمن ابن خلدون من ناحيته قائلاً : إن تلك الإمبراطورية شهدت فى عهد ملكها "مارى جاطه" انتشار الإسلام وتشجيع علمائه على نشر علومه بين سكان المناطق الساحلية لغرب إفريقيا . وقد سافر إليها آلاف من التجار والعلماء المسلمين من مختلف أرجاء المنطقة وبلاد المغرب الأقصى وشمال إفريقيا عن طريق الصحراء . وأثارت الانتصارات التي حققتها الدولتان الكبيرتان – دولة مالي ودولة صونغاي في غرب إفريقيا اهتمام ومطامع السعديين الذين كانوا حكامًا فى المغرب الأقصى مما تسبب فى زعزعة استقرارهما . وكانوا يحصلون على الأسلحة من إنجلترا لفترة طويلة.

ويقرر الأستاذ ورد - في كتابه " تاريخ انتشار الإسلام في غرب إفريقيا " بأن الحضارة في بلاد السودان الغربية كانت أرقى من الحضارات التى شهدتها بلاد السودان الأخرى ، لكنها أخذت تتضاءل بسبب الاعتداءات والحروب المتواكبة عليها والخلافات الداخلية ، بينما أخذت أوربا تتقدم في تلك

(١٤) كتاب : رحلة ابن بطوطة – طبعة دار صادر للطباعة والنشر بيروت، لبنان، سنة ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م .

العصور بفضل ما تعلمته من علماء المسلمين . ومن الإنصاف التاريخى أن نشير إلى أن تلك الاعتداءات والهجمات المتكررة قد ساهمت في القضاء على الثقافة الإسلامية فى الغرب الإفريقى بسبب اضطهاد علمائه من أمثال أحمد بابا الذى اقتيد فى أغلاله إلى مراكش بدون ذنب أو إثم ارتكبه كما سبق أن ذكرنا . وبذلك فقدت مدينة تنبكتو وضواحيها كميات كبيرة من كتبه ومؤلفاته خلال تلك الأعمال المأسوية التي كسرت ساقه من جرائها .

وظل مع ذلك رابط الجأش ، وانتهز أقرب فرصة ليستأنف نشاطه العلمي في مراكش نفسها . ولم يسمح له بالعودة إلى تنبكتو إلا في سنة ١٦٠٥ الميلادى في عهد ملكها مولاي زيدان .

جـ - إمبراطورية صونغاي :

قامت إمبراطورية صونغاي في منطقة وسط نهر النيجر بغرب إفريقيا في القرن السابع الميلادي ، وكانت تلك الدولة قوية اقتصاديًا . وقد اعتمدت على المنتجات الزراعية وصيد الأسماك ، لهذا ارتبطت مجتمعاتها في بادئ الأمر بتقديس الأنهار. يقول المؤرخ باسيل دافيدسن **Basil Davidson** إن أول ملك اعتنق الدين الإسلامي يسمى ضياء كوسوى (سنة ١٠٠٩م) . وأن ذلك كان قبل قيام دولة المرابطين. ويقرر كذلك أن قدوم التجار والدعاة المسلمين إلى تلك الإمبراطورية قد سبق تلك الحقبة . ويذكر أيضاً أنه تم العثور في سنة

١٩٣٩ - في بلدة "ساني" على بعد حوالى أربعة أميال من مدينة غاو على قبور ملوك يعود تاريخهم إلى نهاية القرن الحادي عشر الميلادى ، وكتب على أحد هذه القبور ما يلى : هنا يرقد جثمان الملك أبى عبد الله بن محمد الذي دافع عن دين الله وهو الآن فى رعاية الله ورحمته . وكان ذلك في سنة ٤٩٤ هـ (١١٠٠م).

وجاء انتشار الإسلام بصورته الواسعة إبان حركة المرابطين التّى خدمت الإسلام في البلاد التى سقطت فى أيديهم والمناطق الأخرى المجاورة . وشهد قيام إمبراطورية صونغاى تدفق حركات الهجرة عبر الصحراء الكبرى بسبب تحول عاصمتها "كوكيا" إلى مركز تجاري ذى شأن عظيم في منطقة السودان الغربي . وكانت ثمة قبائل نازحة ووافدة من أقصى شمال الصحراء الكبرى من بقايا القبائل البربرية ، سيما قبيلتي " زأ " و " ديا " . واستطاعت هاتان القبيلتان انتزاع السلطة والحكم من أيدى أبناء المنطقة الأصليين ونقلوا بالتالي عاصمة الإمبراطور من كوكيا إلى غاو في القرن التاسع الميلادي . واشتهرت غاو باجتذاب الأنشطة التجارية عبرالصحراء الكبرى واستقرار المهاجرين فيها . وتحولت مجتمعات تلك الإمبراطورية بحلول القرن الحادي عشر الميلادي إلى مجتمع إسلامي كامل المعالم ، مما أدى إلى إغراء مطامع مملكة مالي المجاورة بفرض سيطرتها عليها. ولكن استطاعت الإمبراطورية بنهاية القرن الرابع عشر الميلادي تخليص نفسها من نفوذ مملكة مالي بقيادة أسرة الملك سونّي على . فأخذت في التوسع المستمر واكتساح المناطق التى

كانت خاضعة لمملكة مالي في الفترة مـا بيـن (١٤٦٤ و١٤٩٢) الميلاديين. واستطاع الملك سونّى علي من خلال حملاته ضم معظم المراكز التجارية والثقافية إلى مملكته الجديدة واستولى على أشهر المدن التجارية الأخرى مثل تنبكتو وجينّى وغيرهما من المدن الواقعة على ضفاف نهر النيجر . كما نجح من قبل فى ضمان أمن حدود دولته ضد الغزاة الذين يهددونها من قبائل الموسي جنوباً والبربر والفولانيين من سكان مرتفعات هومبورى في الجنوب الشرقي . ولم يرتكز النّجاح الذى أحرزه الملك سونّى علي على حنكته السياسية وحيويتة وأنشطته فحسب، بل على قدرته المتميزة في التنظيم والإدارة .

وقد أحرز الدين الإسلامي تقدماً ملموساً في تلك الدولة في عهد الملك سونّي علي المذكور . وبالرّغم من حالات العداء التي كانت قائمة بين مملكته وسائر القيادات السياسية والإسلامية في منطقة السودان الغربي ، كان سونّي علي متمسكاً بالإسلام كدين لدولته . واستعان بالعلماء المسلمين في إدارتها . غير أن طموحاته السياسية هي التي أشعلت حالة العداء بينه وبين علماء الدين والقيادات الإسلامية في مجتمعه . وقد قام أحد جنوده يدعى محمد ناورى بالإطاحة بحكم ابن الملك سونّي على الذى تولى الحكم بعد موت أبيه ، وبذلك قام حكم أسكيا الحاج محمد (١٥) الذى أرسى اللبنات الأساسية لدين الإسلام في إمبراطورية صونغاي ، فنهض بتطبيق الشريعة الإسلامية على هدى

---

(١٥) منحه مولاى العبّاس، شريف مكة لقب "خليفة" عندما حجّ فى سنة ٩٠٢هـ .

القرآن الكريم وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكرّس معظم أوقاته ونشاطه لإقامة المدارس التى تخرجّ منها الفقهاء وأهل اللغة ورجال الثقافة الإسلامية بصفة عامة . وشيّد عروة الصداقة بين إمبراطوريته ودول شمال إفريقيا ، مما شجع تدفق العلماء من تلك المنطقة من أمثال المغيلى إلى دولته واشتراكهم في تعميم الثقافة الإسلامية على السّكان في منطقة السودان الغرب والوسطى . كما مكّن العلماء من تكوين الطبقة الامتيازية الخاصة بهم ومن إيجاد مراكز الثّقافة الإسلامية وانتعاشها فى مدن تنبكتو وجينّى وكاتسينا وكانو وصوكتو إلى آخره . ولكن حدث في أواخر القرن السادس عشر الميلادي أن تردت الإمبراطورية سياسياً بسبب نشوب النزاعات الداخلية بين أبناء الحاج محمد أسكّيا وأقاربه، الأمر الذى مهد قيام دولة السعديين المغربية بغزوها والقضاء عليها في السنة ١٥٩١ الميلادية طمعاً في فرض إلسيطرة على مواقعها الاستراتيجية المتمثلة في الممرات التجارية والاستيلاء على مناجم الملح والذهب . وقد امتد نفوذ إمبراطورية صونغاي في زروة مجدها ، من الجزء الشرقي لسابقتها مملكة مالي حتى منطقة كبّي وبعض أجزاء من بلاد الهاوسا في السودان الوسطى حيث جمهورية نيجيريا الاتحادية وجمهورية الكاميرون الحاليتين .

الفصل الثالث

آثار التربية الاستعمارية على الفكر الإسلامي في منطقة الغرب الإفريقي

أستهل هذا الفصل مشيراً إلى ثلاثة أشياء لها أهمية قصوى في فهم مضمونه. أولها الآثار "IMPACTS" " التي كتبناها بصيغة الجمع لتكون شاملة ، وثانيها COLONIALISM التي تعني" الاستعمار" . وثمة ترابط بين الآثار والتربية EDUCATION ، لأنهما متلازمتان جوهرياً في فلسفة التربية وعلم النفس . فالتربية لا تجدي مالم يكن هناك أثر لها على الإنسان المربى (بفتح الباء) ، كما أن الأثر لا يتأتى على تكوين الفرد إلاّ كوليد للتربية ؛ سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة . وكلمة "الاستعمار" Colonialism من اسم مجرد يقول عنه البروفسيرباتريك هنكس Patrich Hanks في موسوعته اللغوية – هاملن - إنه مشتق من كلمة "Colony" أى مستعمرة التي تدل على مكان استقرت فيه مجموعة من الناس أتت من بلادها واستوطنت مكاناً جديدًا ، مع الاحتفاظ بصلة القرابة التي تربطها بوطنها الأم . وتدل كلمة التربية Education في مفهومها اللغوي على التوجيه والتدريس والتعليم والتدريب . كما تحمل في طيتها معنى التهذيب الخلقي والنمو الجسمي والإدراك العقلى الذى يتم عن طريق تلقين واكتساب المعرفة . وتتضح من هذا

المنطلق الكيفية التي قام بها الفكر الأجنبي الاستعماري بتلقين العقل الإفريقي والإسلامي منه على وجه الخصوص فى منطقة الغرب الإفريقى ، مفهوم الحياة القائم على القيم المادية البحت الذى تبنته الثقافة الاستعمارية .

مفهوم الاستعمار

كان البابليون هم أول من عرفوا ومارسوا فكرة الاستعمار بمعناها الموضح أعلاه ، ثم جاء الرّومانيون من بعدهم فأقاموا مستعمرات على طول السواحل الإيطالية في حوالي سنة ٣٣٨ قبل ميلاد عيسى عليه السلام بدعوى ضمان أمن إمبراطوريتهم من غزاة أجانب أو اعتداءات خارجية . وما لبث أن انحرف هذا الهدف الأمني إلى مجرد قيام أفراد وجماعات من أبناء كبريات دول العالم بهجرات من أوطانهم الأصلية إلى دول أقل منهم قوة ، هربًا من ضغوط اقتصادية واجتماعية أو اضطهادات دينية أو سياسية والاستيلاء عليها . وكان البرتغاليون من بين الأمم الأوروبية ، أول من تعرّفوا على الشعوب الإفريقية في القرن الخامس عشر الميلادي عن طريق الاسترقاق متسترين وراء نشر الدّين المسيحي ، ثم أتى من بعدهم الأسبان فالإنجليز فالهولانديون فالفرنسيون في منعطف القرن السابع عشر الميلادي . ثم السويديون والدانماركيون والبروسيون الذين أتوا في القرن الثامن عشر الميلادى . وكانت المطامع الاستعمارية التي تسترت وراء الرغبة في نشر العقيدة المسيحية هي التي دفعت المغامر هنري (١٤٦٠-١٣٩٤م) ابن الملك جون الأول ، ملك البرتغال إلى اكتشاف الشعوب

الإفريقية في سواحل غرب إفريقيا في القرن الخامس عشر الميلادي . وحصل هنري هذا على وسام "السّيد العظيم للقيادة المسيحية"(١) من معقل الكنيسة الكاثوليكية وهو ابن ست وعشرين من العمر . وقد جاءت النكبة الأولى لإفريقيا المسلمة عندما تولى هذا الملك منصب حاكم المغرب الأقصى في عام ١٤١٥ بعد سقوطه على أيدي البرتغاليين بقيادة ملكهم حون الأول والد هنري المذكور . ففي عام ١٤٢٠ الميلادي بدأ هنري بتحريك سفنه الحربية التى تحمل العلامات الكبيرة المميزة للصليب كشعار له من ميناء لاجوس النيجيرى متوجهة إلى مناطق السواحل الغربية بهدف اكتشاف مزيد من المدن الإفريقية على سواحل المحيط الأطلسي والمحيط الهندي بغرض فرض سيطرته عليها وتوسيع مجال تجارة الرقيق ونشر الدين المسيحي بين شعوب تلك المنطقة . وقد ظهرت الحكومة البريطانية على مسرح تجارة الرقيق في إفريقيا بنشاط وحماس في القرن السابع عشر الميلادي عندما تولى قائدها البحرى سيرجون هوكنس (١٥٣٢ ـ ١٥٩٢م) تجارة الرقيق لصالحها مما جعله يحوز على وسام التقدير التشجيعي ومكافأة مالية من ملكة إنجلترا اليزابيث الأولى . وكان سير جون هوكنس يزاول تجارته تلك على متن سفينة الملكية الشهيرة باسم "المسيح " التي تحمل علامات الصليب . وقد تضمن السجل الأمريكى الخاص بتجارة الرقيق فى إفريقيا ما يشير

(١) هو وسام يمنح للذين قدموا خدمات متميزة لمسيرات الدعوة الصليبية المسيحية . راجع دائرة المعارف البريطانية مادة المسيحية .

إلى قيام الإمبراطورية البريطانية في الفترة ما بين ١٦٨٠ و١٧٠٠ الميلاديين . بنقل حوالي ٣٠٠,٠٠٠ (ثلاثمائة ألف) رقيق من إفريقيا . وقد ذكر المحلل السياسى ولتر رودني Walter Rodney في كتابه" كيف كانت أوربا سبباً في تخلف إفريقيا" : أن السلطات البريطانية كانت تنظم أناشيد لتحطيم الروح المعنوية لضحاياها من الإفريقيين الذين تنقلهم في سفنها لبيعهم في أمريكا وجزر الهند الغربية . ومن بين هذه الأناشيد ما يلي :

" احكمي يابريطانيا احكمي يابريطانيا
احكمي أمواج العالم احكمي أمواج العالم
كلا ثم كلا لن يكون ابنك عبداً أبداً."(٢)

أهمية التربية في حياة الفرد

للتربية أهمية قصوى في كل المجتمعات الإنسانية للحفاظ على حياة أفرادها وهياكلها الاجتماعية . وبالتربية يتم التطور ويتحقق التغيير الاجتماعي الذي يعكس أنماط الحياة التي ينبغي أن يعيشها الفرد في مجتمعه . وأهم ما امتازت به التربية الإفريقية بصفة عامة ، قبل مجيء الاستعمار ، هو مواءمة نمط تلك التربية لنوعية حياة الفرد في المجتمعات الإفريقية . كما كانت ذات ظاهرة شمولية تتصل اتصالاً وثيقاً بحياة الأفراد في مجتمعاتهم روحياً ومادياً .

---

(٢) "HOW EUROPE UNDER DEVELOPED AFRICA" BY WALTER RODNEY

وقد ذكر البروفسير ريتشاد ومول Richard Wamol في كتابة "إفريقيا الحديثة التغيير والاستمرار" : أن التربية أياً كانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعقائد وأديان الشعوب التى تمتثل لتلك التربية . ومن هذا المنطلق كانت السياسات التربوية التي وضعتها مختلف السلطات الاستعمارية من بريطانيا وفرنسا وبلجيكا والبرتغال وألمانيا للشعوب التى استعمرتها ، قائمة بطريقة أو بأخرى على معتقدات وتقاليد تلك السلطات . أى المسيحية الأوروبية واتجاهاتها التبشيرية التي أثرت على الفكر الإفريقي الإسلامي وغير الإسلامي . وكانت الغالبية العظمى من المدارس التى أسستها السلطات الاستعمارية للقيام بمهمة تربية الشعوب الإفريقية خاضعة لإشراف إدارة الكنائس والمنظمات التبشيرية إلى أن حصلت تلك الشعوب على استقلالها السياسي بدءاً من الخمسينيات . إذن لابد من الوقوف على مفهوم التربية في الفكر الإسلامي الذي كان متأصلاً في القارة الإفريقية كمنهج ثابت للتفكير قبل الاستعمار ، مقارنة بينه وبين الفكر الغربي الاستعماري المسيحي الأجنبي عليهما .

مفهوم التربية في الفكر الإسلامي

قام مفهوم التربية الإسلامية على الهدف الأساسى من خلق الإنسان، كوحدة متكاملة تقع عليها مسؤولية مشتركة فرضتها حقيقة وجوده على متن هذا الكوكب الدّنيوي، كما جاء في قوله تعالي : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ على السَّمَاوَاتِ والأَرضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يحِملنها وأشفقنَ مِنْهَا وحَمَلَهَا الإنسانُ

إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾(٣) ﴿ وَإِذ قَـالَ رَبُّـكَ لِلمَلائِكَـةِ إِنّـي جَـاعِلٌ فِـي الأَرضِ خَلِيفَةً، قَالُوا أَتَجَعَلُ فِيهَا مَن يُفسِد فِيهَا وَيسفِكُ الدِمَاءَ ونَحـنُ نُسَبِّحُ بِحمـدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ، قَالَ إِنِي أَعَلَمُ مَا لا تَعَلمُونَ ... وَقُلنا يَـآدَمُ اسْكُن أَنـتَ وَزَوجُـكَ الجَّنـةَ وَكُـلا مِنهَـا رَغَـدَاً حَيـثُ شِئتُما وَلا تَقربا هـذِهِ الشَّـجَرةَ فَتَكُونَـا مِـنَ الظَّالِمِينَ ، فَأَزَلَّهُمَا الشَّيطَانُ عَنها فَأخَرجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلنَا اهبِطُواْ بَعضُكُـم لِبَعضٍ عَدوٌ وَلَكُم فيِ الأرض مُستَقَرٌ وَمَتاعٌ إِلى حينٍ قُلنَـا اهْبِطُـواْ مِنهَـا جَمِيعـاً فإِمَّا يَأتِيَنَّكُم مِني هُـدىً فَمَن تَبِع هُدَايَ فـلاَ خَـوفٌ عَلَيهِـم ولاهُـمْ يَحزَنُـونَ . والَّذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآياتِنا أُوْلائِكَ أَصحابُ النَّارِ هُم فِيها خَالِدُونَ .﴾(٤)

صدق الله العظيم .

ولما كان الإنسان خليفـة لله سبحانه وتعالى في هذا الكون ، فقـد خولتـه هذه الصفة أن يكون مسؤولاً ذا هدف محدد في هذه الدنيـا خـلاف مـا ظنتـه الملائكة في بادئ الأمر من أن الإنسان قد جاء ليسفك الدمـاء وينشـر الفسـاد في الأرض ، لكنه سبحانه وتعالى أفهم الملائكـة بـأنهم علـى خطـأ فـي ظنهـم هذا . حيث قال "**إني أعلم مالا تعلمون** " مؤكدًا بذلك وجود هدف في جعل الإنسان خليفة له في هذا الكون ؛ ويبين لنـا ذلـك الهـدف المحـدد أى توجيه

(٣) الآيـة : ٧٢ من سـورة الأحزاب .

(٤) الآيـة : من ٣١-٣٩ من سـورة البقرة .

العبادة المخلصة له ، إذ قال : ﴿وذَكِّر فإنّ الذِكرى تَنفَعُ المُؤمِنِينَ﴾.(٥) ﴿ وَمَا خَلقَتُ الجِنَّ والإنسَ إلا لِيَعبُدُونِ ﴾.(٦)

إذن هذا هو الأساس وهو لب المفهوم الّذي انبني عليه الفكر التّربوي الإسلامي . ولاتستهدف الذّكرى ، إلا إعداد الإنسان عقلاً وروحاً وجسدًا . ذلك هو مدلول التربية التي لاتتم العبادة الصحيحة إلا بها . ومن هنا نفهم أن سبب خلق الإنسان قائم أصلاً على عبادة الخالق الأزلي ، وأن الأنشطة التي يقوم بها بالوعي والتعقل طيلة حياته التى يقضيها على متن هذا الكوكب هى ذاتها عبادة ما لم تنحرف عن التوجيهات الإلهية الأصلية التي تلقاها أبو البشر آدم وزوجه حواء عليهما السلام كما جاء في الآية المذكورة ، وأن هذا المفهوم هو أصل ومبدأ الخير كله ، وعدم انقياد الإنسان للشيطان حتى لايكون فريسة له وهو أصل ومبدأ الشر كله . ولايكفي التعقل والوعي بمفردهما لتنزيه العبادة لله وحده ، فلابد من امتثال للمنهج الذي رسمه الله حتى تكون هذه الأنشطة التى يقوم بها الإنسان مستوفية لشروط العبادة الموجهة لله وحده . من هنا كان الدين منهجاً رسمه الله ليسترشد به الإنسان في جميع ما يقوم به من الأنشطة ؛ ذلك لأن الدين يستهدف الحياة الحقيقية المستديمة وهي التى تكون بعد هذه

(٥) الآية : ٥٥ من سورة الذاريات .

(٦) الآية : ٥٦ من سورة الذاريات .

الحياة الدنيوية الانتقالية المؤقتة . يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وإنَّ الدارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعلَمُونَ ﴾ .(٧)

﴿يأيُّها الَّذِينَ ءَامَنُواْ استَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحيِيكُم وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بينَ المَرءِ وَقَلبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيهِ تُحشَرُونَ﴾.(٨) لهذا كان الدّين السّماوى كله شيئًا موحداً أنزله الله سبحانه وتعالى في صور شرائع على الرسل والأنبياء ليمتثل له البشر طاعة وانقياداً لله وحده . قال تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِنَ الدّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً والَّذِي أَوحَينَا إِلَيكَ وَمَا وصَّينَا بِهِ إبراهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أن أَقِيمُواْ الدِّينَ وَلا تَتفرَّقواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى المُشرِكِينَ مَا تَدعُوهُم إِلَيهِ اللهُ يَجتَبِى إِلَيهِ مَن يَشَاءُ وَيَهدِى إليهِ مَن يُنِيبُ﴾.(٩)

منهج الإسلام التربوى

تنحصر العقيدة الإسلامية في المرحلة الثانية، تحمل مسؤوليته الأولى، للنمو الفكرى التربوى الإسلامي في الأمور الآتية على ضوء الآيات المذكورة:

(أ) الاعتقاد أو الإيمان بوجود خالق هذا الكون وسائر الموجودات الأخرى ، وبأن هذا الخالق هو الله الذى يستحق توجيه العبادة إليه وحده .

---

(٧) الآية : ٦٤ من سورة العنكبوت .

(٨) الآية : ٢٤ من سورة الأنفال .

(٩) الآية : ١٣ من سورة الشورى .

(ب) الإيمان بوجود الأمور الغيبية الدنيوية والأخروية وهي : عالم الملائكة والجن وعلاقتهم بالوحي والأنبياء والرسل .

(ج) الإيمان بالبعث : الحياة الأخروية .

(د) الإيمان بالجزاء والعقاب .

أما المرحلة الثالثة والأخيرة في هذا المبحث التربوى للفكر الإسلامي فتتمثل في الدور الّذي يجب على الإنسان أن يلعبه في تعمير هذا الكون . فباعتباره خليفة الله والمسؤول الأول من بين الخلائق كلها في هذه الأرض ، دوراً ينتظره في هذه الحياة الأولى ، كما جاء في قوله تعالى :

﴿وَلَاتَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيَا وَأَحسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيكَ﴾.(١٠)

وكما جاء فى المأثورات: (اعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّك تَعِيْشُ أَبَداً وَاعْمَل لآخِرَتكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا) . إن الفكر الذي يرفض العمل من أجل الاستمرار الأبدى في الدار الآخرة بل يعد نفسه بما تستلزمه هذه الحياة فقط من الإمكانيات العلمية والروحية والمادية هو الذى يدعو إليه الفكر التربوى الأوروبى الاستعماري الغربي ، بغض النظر عن معتقداته الدينية . كما يدعو أساسًا إلى أن يكون الإنسان حريصًا على ضمان مصلحته شخصيًا أولاً وقبل كل شيء . وبالمثل يجب على الفكر الذي يعتبر هذه الحياة مرحلة انتقالية ، كما جاء في الآثار وأنها موقتة ، ألا ينغمس فيها (الحياة) بطريقة تعميه

(١٠) الآية : ٧٧ من سورة القصص .

بجوهرها المادي عن رؤية حياة الخلود التى تنتظره بعد هذه المرحلة الانتقالية ، وأن يعمل من أجلها ويعدّ نفسه لها . وهكذا فإن العامل الأساسي الّذي يتميز به الفكر التربوي الإسلامي هو ضرورة تجهيز النفس بالعلم والمعرفة والخبرة بعد الإيمان المبنى على عقيدة التوحيد . فقد خصّ الله سبحانه وتعالى الأمة الإسلامية بهذا الفضل على نحو ما ورد على ذلك في الآيات الآتية :

أ- ﴿ يرفَعِ اللَّهُ الَّذينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(١١)

ب- ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَيَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الأَلْبَابِ﴾(١٢)

ج- ﴿وَمَاكَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾(١٣)

د- ﴿فَتَعَالَى الله الملكُ الحَقّ وَلا تَعْجّل بِالقُرآن مِنْ قَبلَ أن يُقضى إليكَ وَحَيهُ وقُل ربِّ زِدني عِلْمًا﴾ .(١٤)

---

(١١) الآية : ١١ من سورة المجادلة .

(١٢) الآية : ٩ من سورة الزمر .

(١٣) الآية : ١٢٢ من سورة التوبة .

(١٤) الآية : ١١٤ من سورة طه .

هـ- ﴿وَمَا أرسَلنَا مِنْ قَبلِكَ إلاّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾.(١٥)

وهناك أقوال مأثورة كثيرة تحث المسلمين جماعة وأفرادًا على ضرورة طلب العلم . منها :

١- اطلبوا العلم من المهد الى اللحد .

٢- اطلبوا العلم ولو في الصين .

٣- ومن قول الرسول عليه الصلاة والسلام :

من سلك طريقًا يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة .

٤ ـ قال هلال بن يسار : رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه شيئاً من العلم والحكمة ، فقلت : يارسول الله أعد لي ماقلت لهم . فقال هل معك محبرة ؟ قلت معي محبرة . فقال : هلال لاتفارق المحبرة . فإن الخير فيها وفي أهلها الى يوم القيامة.(١٦)

آثار الفكر الإسلامي الحضاري على الحضارة الأوروبية :

انتقلت آثار الحضارة الإسلامية الى أوروبا وأيقظتها من سباتها فكرياً وحضاريا وعمرانياً، وتم هذا الانتقال عبر الوسائط التالية :

(١٥) الآية : ٤٣ من سورة النحل .

(١٦) حديث متفق عليه .

١- عن طريق الطلبة الأوربيين الذين كانوا قد درسوا في جامعات ومعاهد الأندلس في كل من قرطبة وأشبيلية وطليطلة وغرناطة ، ثمّ عادوا إلى أوطـانهم في أوروبا حاملين فنوناً من العلم والمعرفة والحكمة .

٢- بواسطة الذين يعرفون بالمدجّنين ، وهم المسيحيون الذين عاشوا فـي كنف المسلمين قبل سقوط غرناطة على أيدي المسيحيين حيث نقلـوا خبراتهم وثقافاتهم إلى مختلف أرجاء العالم الغربي وأفـادوا مجتمعاتـه ، بشتى أنواع المعرفة والحضارة .

٣- عن طريق المستعربين أو المستشرقين من أبناء أوروبـا الّذيـن حصلـوا على الثقافة الإسلامية العربية من خلال تعايشهم مع مسـلمين فـي المجتمعـات الإسلامية في ظل حكم المسلمين .

٤- عـن طريـق المسـلمين الذيـن آثـروا البقـاء فـي الأندلـس ، وهـم المعروفون بالموريسكيين ؛ وقـد ارتـدوا عـن ديـن الإسـلام بسـبب اضطهـاد أنظمـة الحكـم المسيحية التي دانـت لهـا السيطرة على الأندلـس ، وثمـة جماعات من "الموريسكيين" ظلوا على دينهم سرًّا حفاظاً على حياتهم وبقائهم في تلك المجتمعات . وقد تأثر الفكر الغربي المسيحي بـالفكر الإسلامي فـي شتى مجالات العلوم . مثل الرّياضيـات والفلـك والأدب والفنـون الموسيقية والمعمارية .. إلى آخره . وأذكر فيما يلى أهم الوسـائل الفكريـة التـى تـم بهـا هـذا التـأثير . فثمـة أربعـة كتـب فـي تـاريخ الفكـر الإسلامى للعـالم الفلكـي الإسلامى، أبى معشـر (٧٨٧ ـ ٨٨٦م) . وأشـهرها كتابـا :" المدخـل إلـى علـم أحكـام النجـوم " و "أحكام سـني المواليـد "، ويعتبر أبو معشـر من أكبر

الفلكيين الذين برزوا في هذا المجال. وكتاب آخر ترك أثره على العقلية الغربية ، هو جدول الرّياضيات الذي أعده عالم الرّياضيات الإسلامي "الخوارزمي" (٧٨٠ ــ ٨٥٠م) . وقام العالمان الأوروبيان : أدلار الباثي (ADELARD OF BATH) ويوحنا الأشبيلى (JOHN OF SEVILLE) بترجمة تلك المؤلفات إلى اللغة اللاتينية ، كما قام أفلاطون التريقولى بترجمة الجدول الفلكى الّذي وضعه البستانى وأعاد ألفنسو العاشر (ALFONSO) ــ (١٢٢١ــ ١٢٨٤م) ترجمته . كذلك قام العالم جرارد الكرموني بترجمة كتاب الهيئة لابن جابر . وقد نُشر هذا الكتاب في أوروبا في عام ١٥٣٤ الميلادي ؛ وتضمن نظريات فلكية متقدمة عن أعمال بطليموس الأوروبي . وبالمثل انتقلت نظريات فلسفية للعلماء المسلمين إلى الفكر الفلسفي الأوروبي .

وإلى جانب هذه الأعمال التى نقلت إلى الفكر الغربي هناك نظريات كثيرة أخرى في مجال الفلك وضعها المفكرون المسلمون من أمثال أبى بكر الرّازى والقابس والبستاني والفرغاني وغيرهم وكانت لهذه الأعمال والاكتشافات العلمية آثار واضحة على الفكر الأوروبي وإسهام كبير فى تقدمه . وقد حلت الجداول الفلكية التي وضعها العلماء المسلمون محل الجداول اليونانية والهندية التي كانت أوروبا تعتمد عليها من قبل . ظهرت آثار الجهود الفكرية للعلماء المسلمين حتّى على الحضارة الصينية . كما نشهدها في أعمال العالم البولندى (Copernicus ١٤٧٣-١٥٤٣م)، وعنه انتقلت إلى الصين . وقد تمت بنهاية القرن الثاني عشر الميلادي ، ترجمة أهم مؤلفات العلماء المسلمين في النظريات الموسيقية إلى اللغة

اللاتينية خاصة في مدينة طليطلة TOLEDO ، ولاتزال آثار هذه الأعمال المترجمة تشكل جزءًا من النظريات الموسيقية الأوربية حتّى الوقت الحاضر . وقد اعترف أحد كبار علماء الموسيقى الأوربيين وهو فرانكو الكوبوغاني (FRANCO OF GOBOGANI) ولد في عام ١١٩٠الميلادي) ، بأنه تتلمذ على أعمال العالم الإسلامي " الكندى" ، فى الموسيقى .

وبالمثل انتقلت نظريات فلسفية للعلماء المسلمين إلى الفكر الفلسفي الأوروبي . ولقد أظهر كل من روجر بيكون ROGER BACON (١٢٩٤-١٢١٤) وكاردانوس CARDANUS اهتمامات كبيرة بنظريات الكندي الفسلفية والخاصة بوحدة العالم وترابطه ، حيث أكّد الكندي أنّ مصدر العلم والمعرفة للإنسان ينقسم إلى : الحواس (١) العقل (٢) الخيال (٣) .

وتبنت مدرسة إيمانويل كانط KANT الألمانية (١٧٢٤-١٨٠٤م) هذه النظرية . وتعمل بها المدارس الفلسفية في العالم حتى الوقت الحاضر . ومن ناحية أخرى ، ذكر الفيلسوف الغربى كارادى فوكس (CARRADE VOWX) أن نظرية الفارابى المنطقية قد تركت أثرًا عظيمًا على عقلية الباحثين الأوروبيين بصورة عامة . وقد أخذ الفيلسوف اليهودي، موسى بن ميمون نظرية الفارابى حول إثبات وجود الله ، واعتمد الفيلسوف المسيحي (توماس أكويناس THOMAS AQUINAS) (١٢٢٤-١٢٧٤م) على هذه النظرية للغرض نفسه . وقد نشرت مدرسة الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط المذكور (١٧٢٤-١٨٠٤م) هذه النظرية عبر أوروبا . ولابن سينا ، الفيلسوف الإسلامي ،

(٩٨٠هـ - ١٠٣٧هـ) تلاميذ كثيرون في العالم الغربى ، تأثروا بأفكاره وأخذوا بمنهجه في الفلسفة اللاّهوتية ونظرياته الطبية . ومن تلاميذه الفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون والقسيس توماس أكويناس المذكوران آنفاً والبرتوس مغنوس الماني (١٢٠٠م –١٢٨٠م) الملقب "بالعظيم" . كذلك تأثر الفكر العربي بنظريات الفيلسوف الإسلامي ، أبى بكر محمد المشهور بابن طفيل (١١٠٠م - ١١٨٥م) ، وكانت أبرزها تلك المتضمنة في كتابه "حي بن يقظان "، وتشير تلك النظرية إلى أنه يمكن للإنسان التوصل إلى معرفة الله بدون رسول . وقد أصبحت هذه النظرية الفلسفية شائعة في أوروبا وتبناها كثير من المفكرين الغربيين بعد قيام فرنسيس بيكون (١٥٦١ – ١٦٢٦م) بترجمة الكتاب الى اللغة اللاتينية ونشره بجامعة أكسفورد في عام ١٦٧١م بانجلترا . ويظهر أثر كتاب " حي بن يقظان " بوضوح في أعمال الكاتب الروائي الإنجليزي ، دانيال ديفو (DANIEL DEFOE) ١٦٦٠-١٧٣١م).لا سيما في روايته – روبينسون كروزو ROBINSON CRUSOE التي ظهرت في عام ١٧١٩م . أما بالنسبة للفيلسوف الإسلامي ، ابن رشد (١١٢٦م – ١١٩٨م) فقد أظهر مفكرو أوروبا اهتماماً بالغًا بنظرياته الفلسفية ، حتى أصبحت هي النظرية الفلسفية الرسمية هناك في القرن السادس عشر الميلادي .

وهناك كثير من الكلمات والمصطلحات العلمية والمعمارية والإدارية من أصلٍ عربي وإسلامي وصلت إلى الفكر الأوروبي عن طريق نقل التراث الفكري ، أذكر فيما يلى بعض الأمثلة عليها :

أصلها باللغة العربية	المجـال	الكلمة في اللغة الأوروبية
أمير البحـر	الإدارة العسكرية	ADMIRAL
الكحـــول	الكيمياء	ALCOHOL
اللخميـــاء	الكيمياء	ALCHEMY
حب المسك	الزراعة	ABELMOST
آخر النهر	الفلك	ACHERNAR
البرباريس	الزراعة	BARBORRY
منكب (الجوزاء)	الفلك	BETELGEUSE
البورق	الكيمياء	BORAX
البرسيم	الزراعة	BERSEEM
حبل / مرسة / فلس	المواصلات	CABLE
الكافـور	الطب	CAMPHER
القيراط	الوزن	CARAT
كراميل / سكرنبات	الزراعة	GONDY
ذنب الدجاجة	الفلك	DENEB
الإكسير	الفلسفة	ELIXIR
الأمير	الإدارة	EMIR
الزرافة	الزراعة	GIRAFFE
القيثارة	الموسيقى	GUITAR

نرجع الآن الى الأثر التربوي الإسلامي على مجتمعات الغـرب الإفريقـي ، فنقول إن جامع "سانكورى" الّذى بناه الملك منسـا موسى فـي مدينـة تنبكتـو (مالي) في القرن الرّابع عشر الميلادى ثم تحول فيما بعـد إلـى جامعـة تعليميـة على غرار الجامع الأزهر في القاهرة ، كان بمثابـة مركـز تبلـورت منـه الثقافـة الإسلامية . وكان المسلمون ينظرون إليه كمنارة للعلم والإرشاد . وكـان يتـم فيه تدريس كثير من العلوم الإسلامية الأساسية من التفسـير والحديـث والفقـه إلى جانب العلوم الأخرى المتصلة بحياتهم كالتـاريخ وعلـم الفلـك والطّـب التقليدى والجغرافيا والفلسفة والمنطق ... إلى آخـره . فكـان مـن الطبيعـى أن تترك تلك الجامعة آثارها التّربوية على المسلمين والإفريقيين في منطقـة الغـرب الإفريقى . ولا يغيب عن أذهاننا أن جامعـة "سـانكورى" هـي الأخـرى امتـداد للحضارة الإسلامية في بلاد الأندلس والشـمال الإفريقـي . غـير أن زوال تلـك المنارة في الغرب الإفريقـي خلّـف الفجـوة التـى حـاولت التسـلل منهـا جهـود الاستعمارية المسيحية بكل ما أوتي لهـا مـن القـوة، مـن أجـل استبدال منهـج الحياة وأسلوب التفكير اللذين ألفتهما شعوب الغرب الإفريقـي آمـادًا طويلـة ، بمنهج آخر غريب عنها .

ويمكن الاعتراف بأن السلطات الاستعمارية المسيحية ، الإنجليزيـة منهـا أو الفرنسية أو البرتغاليـة قـد استطاعت إضعـاف روح االتّربيـة الإسـلامية فـي نفوس عـديد من الأجيال اللاحقـة فـي مجتمعـات الغرب الإفريقـي علـى مـر الزمان . وذلك إمّا عن طريـق التنصير الكـامل أو بإضعـاف روح الإسـلام فـي أوساط الفئة المتشبثة بالثقافـة الغربيـة أو تعميـم الجهـل بيـن المسـلمين بصفـة

عامة ؛ وكانت هذه الجهود الاستعمارية الهادفة إلى استئصال جذور الإسلام الراسخة فى الغرب الإفريقي تتم بوسائل الإغراء التالية :

أ- تشجيع النشء على الإقبال على المدارس التبشيرية التى تمولها المنظمات التبشيرية العالمية التى تمتلئ مناهجها الدراسية بأساليب التنصير والاستهزاء بالعقلية الإسلامية والاستخفاف بهوية المسلمين .

ب – توفير المنح الدراسية لأبناء المنطقة لمواصلة الدراسة في المعاهد التعليمية التبشيرية في قرى وعواصم الدول الأوروبية والأمريكية مجاناً ، أو برسوم دراسية مخفّضة ، الأمر الّذى يؤدي بالنشء إلى الانخراط في بوتقة العقيدة المسيحية المحرفة أو إضعاف الإيمان بالإسلام .

ج – تسليم مقاليد الحياة العصرية المريحة والهيمنة على الزمام الاقتصادي والسّياسى والتربوى والأكاديمي إلى أبناء المنطقة المسيحيين أو المتنصرين ذوي الإيمان الضعيف من أبناء المسلمين .

د – إقامة الحواجز المصطنعة بين المجتمعات الإسلامية في الغرب الإفريقي وشقيقاتها في البلدان الأكثر تقدماً نسبياً في العالم الإسلامي . ومن ناحية أخرى ، كان إقبال المسلمين على اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن في إفريقيا جنوب الصحراء شديدًا للغاية ، حتى أصبحت هي لغة الثقافة والفكر والتوثيق والمكاتبات بين دولة وأخرى إضافة إلى كونها لغة العبادة . وقد ظهر بين مسلمي المنطقة أدباء وشعراء وكتاب، علاوة على حفاظ القرآن الكريم الّذين لايمكن حصرهم من الكبار والصّغار . ولولا الجهود المضنية

التي بذلها الاستعماريون لنشر لغتهم في المنطقة وقطعهم وشائج الودّ بين الشعوب الإسلامية بعضها بالبعض ، لكانت مكانة اللغة العربية أرفع وانتشارها أعم .

الشخصية المسيحية في الغرب الإفريقي

نعود الآن إلى مكانة الديانة المسيحية وثقافتها في منطقة الغرب الإفريقي على وجه الخصوص ، وفي إفريقيا عامة ، لنقارن بين الديانتين وثقافتهما في هذه القارة قبل مجيء الاستعمار الأوروبى إليها . يؤكد لنا التاريخ أن الديانة المسيحية قد دخلت إلى القارة الإفريقية من خلال أحد الحواريين من أتباع عيسى عليه السّلام ، " مرقص Mark " الذي ينسب إليه نقل أحد الأناجيل الأربعة من العهد الجديد ، عن عيسى عليه السلام . وعندما جاء مرقص إلى مصر في القرن الأول للميلاد أسس أول كنيسة له في مدينة الإسكندرية ، ومن هناك انتقلت الديانة المسيحية إلى بلاد الحبشة (اثيوبيا) . وكان هذان المكانان هما الرابط الأول والأخير بين القارة الإفريقية بالديانة المسيحية قبل ظهورها في القارة من خلال الاستعماريين الأوروبيين . أمّا ما يشير إليه بعض المصادر التبشيرية المسيحية من أن الدّيانة المسيحية قد وصلت إلى شمال القارة عن طريق الغزاة البيزنطيين الذين اتخذوا مدينة "قرطاجة" المطلّة على البحر الأبيض المتوسط عاصمة لهم ، فإنه ادعاء عار من الصحة .

كان الّذين أتوا إلى الشمال الإفريقي من الدولة البيزنطية هم العساكر الّذين كانوا في الواقع وثنيين أكثر من كونهم مسيحيين ، كما أنّهم كانوا

منعزلين عن شعوب المنطقـة بسبب ارتبـاطهم المستمر بمعسـكراتهم ، فلـم يتركوا أي أثر ثقـافي أو تقليدي ذي بـال علـى شعوب المنطقـة بعـد رحليهـم عنها . أمّا فيما يخص الغرب الإفريقي فإنّ الدولة الوحيدة التي أصبحت مـأوى لأبناء القارة الإفريقية الّذين تم تحريرهم في الولايات المتحدة الأمريكية وبعض البلدان الأوروبيـة بمقتضـى قـانون تحـريم تجـارة الرقـيق فـي مطلـع القـرن التاسع عشر الميلادى فهي دولة ليبيريا(١٧). وكانت هذه الفئـة مـن الإفريقيين هي فقط متشبثة بالعقيدة المسيحية ، علماً بأن معظم سكان المنطقـة الأصليين هم من المسلمين ، من قبائل الماندنغو والسيرى والفولانى .

نستخلص من هذا العرض السـريع أنـه لـم يكـن للشـخصية المسـيحية أى وجود حقيقي ملموس في غرب إفريقيـا يمـاثل مـا كـان للإسـلام قبـل وصـول الاستعمار الأوروبي إليه ، ونفهم من هذا المنطلق أنّ نمط المسيحية السائد في الوقت الحاضر بين أبناء منطقة الغرب الإفريقـي مـا هـو إلا إنعكـاس للعـادات والتقاليد الأوروبية أكثر منه ديناً .

وقد رافق ظهور الفكر الـتّربوي الاسـتعمارى تكثيـف الجهـود التبشـيرية المسيحية في الغرب الإفريقي . ففـي القـرن السـادس عشـر الميـلادي أخـذت الأنشطة التبشيرية الكاثوليكيـة تظهـر بدعـم وتشـجيع مـن الحكومـة البرتغاليـة المنغمسة في أنشطة الاسترقاق على طول سواحل المنطقة . وأنشـأت الكنيسـة

---

(١٧) معنى ليبيريا هو "Liberty area" أي منطقة الحرية .

الكاثوليكية لتكون أول مركز لها للتنصير في جزيرة "ساوتومى " بالقرب من نيجيريا في عام ١٥٧١م لتدريب الإفريقيين على طرائق القيام بمهام التنصير . وتوغلت هذه الكنيسة في المنطقة بحلول القرن السابع عشر الميلادي حتّى وصلت إلى غينيا والسّنغال ومدغشقر في المحيط الهندى ، وقامت بفتح أول بعثة تنصيرية لها في السّنغال في عام ١٧٦٥م. ثم تحولت أنشطة الاسترقاق بعد صدور الاتفاقية الدولية بشأن تحريمه إلى الحركات الدينية المسيحية في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا باسم المنظمات المعنية بإنقاذ الرقيق المحررين من التخلف العقيدي في إفريقيا ، علماً بأن هؤلاء الرقيق المحررين كانوا محرومين من التردد على الكنائس عندما كانوا في أمريكا وأوروبا ، لأنهم رجس لا يحق لهم التعبد في نفس المكان الذي يتعبد فيه أسيادهم البيض ، كما يزعمون . وكان الأساقفة "جون تشارلستون" (John Charleston) الإنجليزي " وفرانسيس بى. كنريك" (Francis B. Canrick) والأمريكي " وادوارد بارون " (Edward Baron) من بين المنصرين الأوائل الذين أتوا إلى الغرب الإفريقي لمباشرة مهمة تنصير أبناء المنطقة . وفي عام ١٨٦٨م قام القسيس "تشارلس كاردينال لافيجير" (Charles Cardinal Lafiger) بإنشاء جمعية تنصيرية من أجل إفريقيا ، عرفت بجمعية القساوسة ذوى القلوب البيضاء ، مهمتها تنصير أبناء منطقة الغرب الإفريقي.(١٨) وفي أوائل عام ١٨٧٦ توجه ثلاثة من أعضاء هذه الجمعية إلى

(١٨) لهذه الجمعية أكثر من ألف وخمسمائة كنيسة (١٥٠٠) وتليها كنيسة روح القدس الكاثوليكية بألف كنيسة (١٠٠٠) ثم علم مريم الغراء الكاثوليكية التى يبلغ عدد كنائسها مائة (١٠٠) في إفريقيا ، تنتشر في الوقت الحاضر ألوف من كنائس الرياضة الروحية من أصل أمريكي فى غرب إفريقيا.

مدينة تنبكتو وضواحيها بقصد التنصير . على الرغم من أن هذه المنطقة بالذات معروفة بأصالة تاريخها الحضاري وثقافتها الإسلامية . لكن الله كان لهم بالمرصاد ، فمكروا ومكر الله ، وكان الله خير الماكِرين . فلم يتمكن الرّجال الثلاثة من بلوغ هدفهم المنشود وتنفيذ مخططاتهم الماكرة لأنهم ماتوا جميعاً وهم على مشارف مدينة تنبكتو "البريئة"، نتيجة ضربات الشمس . فكفى الله المؤمنيين القتال . ولم يقم بعد ذلك أحد من رجال التبشير المسيحي بمعاودة المحاولة مرة أخرى . ثم جاء الاستعمار الفرنسى بعد ذلك ونهب أكثر من مائتي ألف مخطوط (٢٠٠,٠٠٠) من التّراث الإسلامي من تنبكتو وضواحيها ، ونقلها إلى مكتبات باريس .

دور الاستعمار الإنجليزي

كان اللورد فريدريك جون لوجارد (FREDERICK JOHN LUGARD) (١٨٥٨ ــ ١٩٤٥م) هو الذي لعب دورًا حيويًا في المغامرات البريطانية الاستعمارية في منطقة غرب إفريقيا وشبه القارة الهندية في الفترة من عام ١٨٨٨ حتّى عام ١٩٤٥م . كما لعب دوراً أساسيًا فى توحيد شطرى دولة نيجيريا الشمالى والجنوبى . وقد ذكر لوجارد في مذكرة أعدّها لحكومته حول مستعمراتها أن الجزء

الشّمالي الذي يسكنه المسلمون هو الـذي يتمتـع بالكيـان السّياسـي المتكـامل وتسوده المدنية والتّحضر، بسبب وجود عدد كبير من العلماء وانتشـار الوعـي الثقـافي والسياسـى والإدارى والدّينـى . وفـى ضـوء الانطباعـات قـام " لـورد لوجارد " بتخطيط منهج التعليم التوجيهي التربوي لأبناء ذلك الجزء من دولـة نيجيريا .

ويستحسن قبل المضى قدمًا أن الإشـارة إلى خلفية تاريخية لهذا الشـخص حتى نفهم الدواعى التي دفعته إلى وضع المناهج التعليمية والتربويـة للمسـلمين فى نيجيريا .

ولد هـذا الشخص في الهند حيث كـان أبـواه يعمـلان فـي بعثـة تنصيريـة مسيحية ، وترعرع هناك في ظل الأنشطة التنصيرية ، ثم أتى إلى بريطانيا وهـو فـي عنفـوان شبابه ، وواصـل تعليمـه فـى ظـل الحكـم المتعطـش للمطـامع الاستعمارية التنصيرية ، ثم تزوّج من امرأة كانت محنّكة في رسم المخططـات التنصيرية والاستعمارية ، وهي التي قامت باقتراح إطلاق اسم نيجيريا على تلك الدولة(١٩) ؛ واهتم لوجارد بدراسة أحوال المسلمين دينياً وثقافياً واقتصاديًا في غرب إفريقيا عموماً وفي شمال نيجيريا على وجـه الخصـوص . فبـدأ بإحصـاء عدد المدارس الإسلامية وكتاتيب تحفيظ القـرآن الكريم . وقد ذكـر أن عـدد تلك المدارس والكتاتيب بلغ فى ذلك الوقت ، أكثر من خمسة وعشـرين ألفـاً

(١٩) River Niger Area أى منطقة مجرى نهر النيجر .

(٢٥,٠٠٠) في شمال نيجيريا فقط ، وأن عدد التلاميذ والطلبة الّذين يدرسون بها يبلغ حوالي مائتين وخمسين ألفاً (٢٥٠,٠٠٠) . أى عشرة أضعاف عدد المدارس الموجودة . وعلى هذا الأساس قام "لورد لوجارد" بوضع منهجه وسياسته التعليمية لتوجيه الشعوب الإسلامية في نيجيريا على الوجه الآتي :

أ- يجب أن يستهدف التعليم تهيئة الفرد لشغل حيز في بيئته بحيث يمكنه تحقيق السّعادة والرّفاهية لشخصه فقط ، مع ضمان عدم عصيانه على السلطات الشرعية للسلطات الاستعمارية .

ب- يجب تضافر جهود وكالات تنفيذ سياسات التعليم المحلية (المدارس التنصيرية) والوكالات الخاضعة مباشرة للحكومة الاستعمارية بغية تحقيق الأهداف المشتركة بينها ، وهي التنصير .

ج- يجب الاهتمام بالدّين اهتماماً كبيراً ، بحيث يكون هو الهدف الأساسي ، مع الاحتفاظ بالعلمانية في الظّاهر حتّى يتأكد من الحصول على التجاوب والتعاون من أولياء الأمور وآباء الطلبة .

د- إن نجاح هذا المنهج يجب أن يعتمد بقدر كبير على الموظفين والمدرسين الأوروبيين في المقام الأول ، وأن يعادل عددهم عدد مدارس المتعلمين المسلمين من أبناء البلد . ويتعين زيادة عدد المدارس التنصيرية والحكومية الاستعمارية وتوسيع نطاقها ، ونشرها في المناطق التي يكثر فيها عدد المسلمين .

دور الاستعمار الفرنسي في المنطقة

وبالمثل ، لعب حاكم دولة السنغال ، قائد القوات الاستعمارية الفرنسية ، الجنرال فيدارب لويس (FADHERBE LOUIS) (١٨١٨ -١٨٨٩م) دوراً رئيساً في المغامرات الاستعمارية للحكومة الفرنسية في منطقة غرب وشمال إفريقيا . فهو الذى قام بتأسيس ما يعرف اليوم بدولة السنغال. وإنشاء عاصمتها دكار في عام ١٨٥٧م لتصبح عاصمة للمستعمرات الفرنسية في غرب إفريقيا ، كما كانت تحلم بها تلك الحكومة . وكان فيدارب حاكماً عسكريًا للسنغال وغيرها من المستعمرات الفرنسية في السودان الغربي . كما عمل حاكماً لحساب الحكومة الفرنسية في الجزائر قبل نقله إلى غرب إفريقيا . وقد منحته السلطات الاستعمارية الفرنسية لقب" بطل الحرب للجمهورية الفرنسية " جزاء الخدمات الاستعمارية الكثيرة التى قدمها لتحقيق مطامع الحكومة الفرنسية في مستعمراتها في إفريقيا ، ومن بينها :

١- القضاء على الثورات التى كانت تقوم ضد السيطرة الفرنسية على المنطقة .

٢- تجنيد القبائل الإفريقية التي قام المجاهد الحاج عمرتال الفوتي في بلاد السودان الغربية بتعبئتها وشكل منها دولته . وهكذا أسهم الجنرال فيدارب فى القضاء على تلك الدولة وتفتيتها نهائياً بعد تعرّضها لحملات فرنسية متكررة دامت عدة سنوات .

٣- اعتبار مستعمرة السّنغال جزءاً من جمهورية فرنسا مما أدى إلى اعتبار أبناء تلك المستعمرة الإفريقية المسلمة فرنسيين سود ، تشريفاً لهم على حد زعمهم[٢٠] .

٤- أدى هذا الزعم إلى السّماح لرئيس السّنغال السابق ليوبولد سيدار سنغور والسيد لامين جيي بخوض الانتخابات والمشاركة في البرلمان الفرنسي صفهما نواباً فيه . وقد ساهما في وضع دستور جمهورية فرنسا لعام ١٩٤٦.

٥- قضى لويس فيدارب فترة من الزّمان يضلل المسلمين في تلك المستعمرات أثناء عمله وتنقلاته متوغلاً بين صفوفهم ، كما فعل مستكشف فرنسي اسمه "رني كاي" كان أول من زار مدينة تنبكتو في عام ١٨٢٢. وقيل أنه تظاهر بأنه مسلم ، بل ومن أولياء الله الصالحين، وأنه كان يؤمهم في صلواتهم ؛ لأنه كان يجيد اللغة العربية .

٦-كان من بين الخطط الاستعمارية التنصيرية الفرنسية إغراء رؤساء القبائل وأعيان بلاد المسلمين في الغرب الإفريقي عن طريق أخذ أبنائهم باسم التعليم ثم تدريبهم في فرنسا ليكونوا عملاء للسلطات الفرنسية ووكلائها بعد العودة إلى المنطقة .

---

(٢٠) جاءت التسمية من اسم قبيلة صنهاجة التي كانت الشريحة الأساسية لحركة المرابطين التي اكتسحت المنطقة .

ويجوز لنا بعد هذا العرض التاريخي الموجز أن نقول إنّ النظم الاستعمارية عموماً وأساليبها التربوية خاصة ، قد تركت أثراً عميقًا على هوية منطقة الغرب الإفريقي التى تأصلت فيها جذور الحضارة الإسلامية عبر التاريخ .(٢١)

ولم تكن الجهود التبشيرية المسيحية العالمية صادرة عن دولة أوروبية معينة أو منظمة تبشيرية واحدة ؛ بل كانت ولا تزال جهودًا مشتركة بين البلدان الأوروبية والأمريكية ومنظماتها . كما لم تكن تلك الجهود تعمل لحساب أجيال محددة ممن تستهدف تنصيرهم أو تهويدهم أو إضعاف إيمانهم بالله المعبود الأحد بالحق .

ولسنا بحاجة إلى أن نطلب من التاريخ أن يعيد نفسه ، لأنه في غنى عن مثل هذا الطلب . إن تاريخ المواجهة بين الإسلام ومنجزاته العقيدية والحضارية من ناحية، ومغامرات الطاغوت وانجرافه المتفاني في الماديات من ناحية أخرى ، قديم قدم الصّراع بين الحق والباطل . إذ لاتغيب عن أذهاننا تأهبات الحركات الصليبية من وقائع القادسية إلى عين جالوت ومن القدس إلى الأندلس ، ومن إسطنبول إلى أنطاكية ، ومن صوكتو إلى ماسينا ، ومن الجزائر إلى بيافرا ومن البوسنة إلى كوسوفا أو الشيشان ، فالهدف واحد على اختلاف الأزمنة والأمكنة " فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس " .

---

(٢١) مثل الداء الذى ألمّ ببعض أبناء الشمال الإفريقي الّذين تحدّثوا باللغة العربية لسانًا وعاشوا فرنسيين عقلاً وعقيدة .

أمّا بالنسبة للآثار الفكرية والاستعمارية على العقلية الإسلامية الإفريقية فإن الاستعمار الذى فرض سيطرته على هذا الجزء من العالم لم يستطع الوقوف أمام الإنماء العقلي للمجتمعات الإسلامية هناك وإزالة عوامل تنشيطها الفكرى فى مهاوى فحسب ، بل نجح فى نصب مصيدة الاستدراج بأبنائها للإيقاع الانتحار العقلي التّدريجى عن طريق الانغماس في النزعات الطائفية والمذهبية والاعتماد على المناهج التربوية البالية التى تعقم التفكير القائم على محاسن الأخلاق ومخافة الله. ونستخلص من هذا أن الاستعمار الغربي وحلفاءه قد عمدوا إلى تحقيق الأمور التالية من خلال وجودهم في الغرب الإفريقي .

١- فصل الإنسان الإفريقي المسلم عن مجتمعه الزراعي والرّعوى المتسم بروح العمل الجماعي وتحويله إلى فرد يهتم بشخصه وأبنائه فقط ، ويعمل على تحقيق سعادته وحده . الأمر الذى أدى إلى تفشى روح التنافس العقيم من أجل كسب الدنيا وادياتها المغرية . وبالطبع أدى هذا إلى تفشى الفساد بين الناس .

٢- ركود الأنشطة الفكرية وانتفاء الانبعاث الفكري بين صفوف المسلمين . وقلة الاهتمام بالتأليف وكتابة المقالات حتى باللغات الوطنية المحلية ، فضلاً عن العربية . فأصبح الناس لا يستطيعون القيام بالكتابة والتأليف بهذه اللغات بسهولة كما كان الأمر من قبل . وباتت الغلبة للأنشطة الثقافية المنتشرة التى تعكس العادات الاستعمارية وتقاليدها وتتم من خلال مصادرها التثقيفية . لكن الأحوال بدأت

تتحسن شيئاً ما بالنسبة لدولة نيجيريا على الأقل بفضل جهود النخبة من القيادة الإسلامية الواعية .

٣- معلوم أن مناهج التربية التى رسمتها السلطات الاستعمارية للمناطق الإسلامية في غرب إفريقيا ، تعكس المعلومات والنظريات التى تشير إلى هيمنة الحضارة الغربية المسيحية .

وبذلك يصبح الطالب الإفريقي المسلم ملماً بمعلومات عن جغرافية إنجلترا وفرنسا وبلجيكا وألمانيا والبرتغال وأمريكا أكثر مما يعرف عن جغرافية بلاده ، ناهيك عن البلدان الإفريقية المجاورة والمسلمة الأخرى . فنجده يعرف عن أنهار: لاسين (La Seine) بفرنسا والتايمز (Thames) في إنجلترا والراين (Reine) في ألمانيا ، أكثر مما يعرف عن أنهار النيجر والسنغال وفولتا في غرب إفريقيا ونهر زمبيزي في جنوب إفريقيا . كما يعرف الطالب تاريخ حياة الملك جورج الأول فى إنجلترا ونابليون فى فرنسا أكثر من معرفته لصلاح الدين الأيوبي أو محمد بن عبدالوهاب فى المشرق العربى أو المجاهدين من أمثال : عثمان دان فودى أو الإمام الساموری توری أو أحمد المسنوى أو الحاج عمر تال أو سيدى المختار الكونتى أو محمد الحافظ العلوى وغيرهم من الذين ظهروا بمنطقته (الطالب) في الغرب الإفريقي . على كل أخذ الوضع في التحسن النّسبى منذ عهد الاستقلال عندما قامت الحكومات الوطنية بوضع مناهجها التربوية المستقلة واستردت مهمة توجيه أبنائها تربوياً من المنظمات الأجنبية التبشيرية . وكانت نسبة التعليم في الأوساط الإسلامية في نيجيريا الشمالية عند استقلالها في عام

١٩٦٠م ٩٪ (تسعة في المائة) مقابل ٧٥٪ (خمس وسبعين في المائة) في الجنوب . وقد بدأت هذه الحكومة الإفريقية الوطنية تهتم اهتماماً كبيرًا بوضع مناهج التربية التى تعكس تقاليد المجتمعات الإفريقية الأصيلة وتنظيم التدريبات المهنية التي تتماشى مع متطلباتها ، بدلاً مما كانت عليه تلك المناهج في عهد الاستعمار حيث كانت المنظمات التبشيرية تحتكرها ، وحيث كانت مركزة على الدّراسات اللاهوتية وتاريخ أوروبا وجغرافيتها والقانون الغربى وكانت أصول التدريس "البيداغوجيا Pedagogy" مبنية على العادات والتقاليد الأوروبية وأخلاقياته .

٤- عمدت السلطات الاستعمارية في عهدها إلى محاربة روح الثقافة الإسلامية وجعلت أبناء المسلمين يشمئزون من تلك الثقافة، وذلك عن طريق الاستهزاء بروادها. لكن ظهور الشخصيات الإسلامية على ساحة السياسة الدولية ، من أمثال أحمد سيكوتورى (غينيا) وأبوبكر تفاوا بليوا وأحمد ساردونا (نيجيريا) وأحمد بن بيلا (الجزائر) وموديبوكايتا (مالي) والأمين جيى (السنغال) ، وغيرهم من المفكرين المسلمين السياسيين في النّضال التحريرى، قد أعاد إلى نفوس الشباب الإسلامي الروح المعنوية المرتفعة والثقة بالنفس ، لأنهم أدركوا أن الخبرة والثقافة لم تعد محتكرة في أيدي الّذين أفرختهم التبشيريات المسيحيّة واليهودية بسبب انتمائهم إلى منظمات وحركات مثل الماسونية وغيرها . فعاد الحماس الدّيني يظهر بين الشباب المسلمين ، وبدأت معاهد وجامعات الدّراسات الإسلامية واللغة العربية تنتشر في

طول المنطقة وعرضها ، وأخذ عدد الذين يحملون الشهادات فوق الجامعية ويحتلون كراسي الأستاذية في الدّراسات الإسلامية يزداد يومًا بعد يوم .

يقول الله جل جلاله وهو أصدق القائلين :(١) ﴿ يَأَيُّها الّذينَ ءَامنُوا لاتتّخذُوا اليُهوَد والنّصَارى أَولياءَ بَعضُهُم أولياءُ بعضٍ، وَمن يَتولّهُمْ منكم فإنّهُ مِنْهُم إنَّ اللّهَ لايهدِي القومَ الظّالِمِينَ فَتَرى الّذين فِي قُلُوبهم مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهم يَقُولُونَ نَخْشَى أن تُصِيبنَا دائرةٌ فَعَسَى اللّهُ أن يأتِيَ بِالْفَتْحِ أو أمرٍ من عِندِهِ فُيصْبِحُوا على ما أسرُّوا فِي أنفُسِهِم نَادِمِين﴾(٢٢) .

(٢) ﴿لاتجدُ قَوماً يُؤمِنُونَ بِاللّه واليَومِ الآخِرِ يُوَادُون مَنْ حادَّ اللّهَ وَرَسُولهُ وَلو كَانُوا ءابآءَهُمْ أو ابنآءَهُمْ أو إخوَانَهُم أو عَشيرَتُهم أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمَانَ وأَيّدَهُم بِروحٍ مِنهُ وُيدخِلُهُم جناتٍ تَجرى من تحتِهَا الأنهارُ خالِدِينَ فيهَا رضِيَ اللّهُ عَنهُم وَرَضُواْ عنهُ أُولئِكَ حِزبُ اللّهِ ألا إِنَّ حزبَ اللّه هُمُ المفلِحُونَ﴾(٢٣).

---

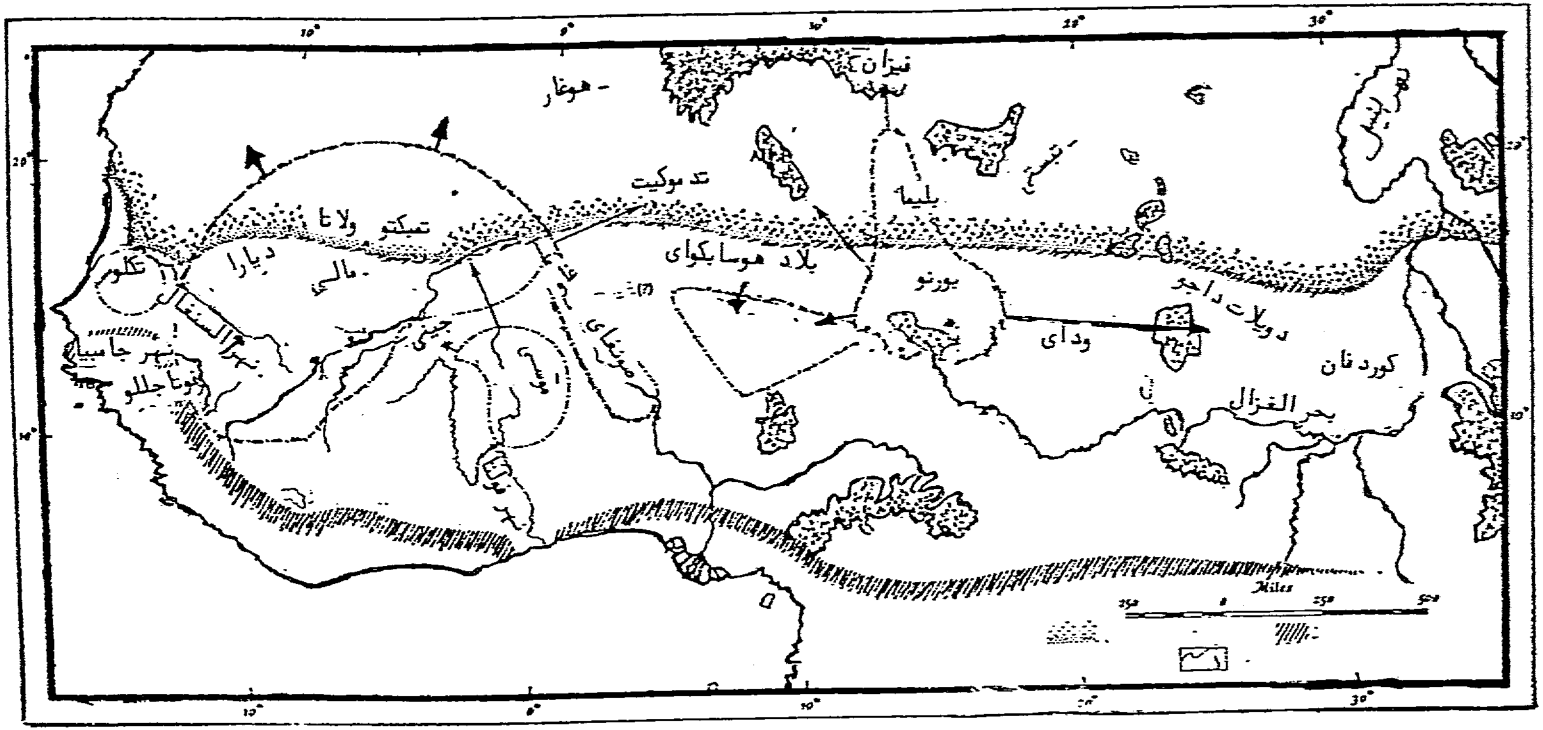
(٢٢) الآية : ٥١-٥٢ من سورة المائدة .

(٢٣) الآية : ٢٢ من سورة المجادلة .

(٣) ﴿ يأيُّهَا الّذِينَ ءَامنُوا اذْكُرُوا نِعمَتَ اللّهِ عليكُم إذ هَم قَوْمٌ أن يَبْسطُوا إليكُم أيدِيَهُم فَكَفَّ أيديَهُم عَنكُم واتّقُوا اللّهَ وعَلى اللّهِ فَلْيَتوكَلِ المُؤمِنُونَ﴾.(٢٤)

---

(٢٤) الآية : ٥١-٥٢ من سورة المائدة .



خريطة : تبين المناطق التى شملها نفوز الممالك الاسلامية التى قامت بالسودان الغربى والواسطى (غرب أفريقيا) فى القرن الرابع عشر الميلادى

الفصل الرابع

الممالك الإسلامية التى قامت في الغرب الإفريقي

ألف – دولة بورنو :

وصل نفوذ الإسلام إلى منطقة كانيمى "بورنو" من طرابلس الغرب ومنطقة كاوارا في القرن السابع الميلادي . وتشير بعض المصادر التاريخية إلى أن ملك كانيمى الذى يدعى (ميي) أو ميي حيلمى هو أول ملك اعتنق دين الإسلام ومعه أفراد أسرته وحاشيته على يد فقيه يدعى حامد محمد مانى في حوالى عام ١٠٨٤م. وبذلك أصبحت دولته أول مكان استقبل فيه الإسلام في بلاد السودان الغربي والأوسط . وتقع بلاد "بورنو" اليوم في أقصى الشمال الشرقي لجمهورية نيجيريا الاتحادية . وقد عاش الشيخ حامد بن محمد مانى فى بلاد بورنو قرابة خمس سنوات، عاصر خلالها ملوكها الثلاثة إضافة إلى الملك "بولو". وهم : أربى لمدة ست سنوات ، كاري هوامي لمدة أربع سنوات وأومى لمدة أربع عشرة سنة . وكان أول من قام بأداء فريضة الحج من أسرة الملك "ميي" مرتين هو الأمير ميي دوناما ابن الملك أومى حليمى . وعند حجته الثالثة توفي إلى رحمة الله غرقاً في البحر الأحمر .

حـالف الدّيـن الإسـلامي إقبـال واسع لـدى الطبقـة الحاكمـة وفـي بـلاط أسرة ميى المالكة وفي عهد الملك محمد الأمين كانيمي بحلول القرن الثـالث الهجرى . وفي عام ١٤٨٣م تحولت عاصمة كانيمي من "ودين" (أو وداي) بشمال بحـيرة تشـاد إلى "انغزرغـا " بغربهـا وذلـك بسـبب الاضطرابـات السياسية التى شهدتها العاصمة القديمة وقيام ثورة كبرى في عهد ملكهـا ميي إدريس ألوما (١٥٧٠ ـ ١٦٠٢م) . وقد قام أحد علماء المملكة ويدعى الشيخ أحمد بن فـارتوا الذى كـان الإمـام الراتـب وكبيـر العلمـاء فـي عهـد ميي إدريس ألومـا بوضع نظـم الملك والإدارة . وتشير بعض مؤلفات الشيخ فارتوا إلى الاهتمام البالـغ الذى أبـداه الملك إدريس ألومـا بنشر الإسلام في مملكته . كما قـام بإدخال التحسينات الإداريـة الأساسية فـى ربوعهـا . واعتنـق معظم كبار الشخصيات والأعيان في بـلاده الإسـلامي فـي عهـده فـأصبحت الغالبيـة العظمـى مـن السـكان مسـلمة بحلـول القـرن الثـامن عشـر الميـلادى . وأنشـأ محـاكم وضعهـا تحـت إشـراف القضـاة الشـرعيين ، كمـا توطـدت الرّوابـط التجـارية والسّياسـية بيـن دولـة بورنـو والإمبراطـورية العثمانيـة التركيـة فـي القـرن السّادس عشـر الميـلادي . وتحـدث المـؤرخ الفشـتالي (١٥٤٩م - ١٦٢١م) عـن زيـارة وديـة قـامت بهـا بعثـة مـن مملكـة بورنـو إلـى المغـرب الأقصى . وكـان لعلمـاء بورنو اليد الطولى في انتشار الإسلام ومحو الأمية بيـن سكان المناطق المجـاورة .

مكانة العلماء والثّقافة الإسلامية في دولـة بورنو :

اشتهرت منطقة بورنو بعـدد كبير مـن العلمـاء، وأتقـن كثير مـن سـكان المناطق المجاورة لها تلاوة القرآن الكريم وأحكامها وذلك حتّى وقـت ظهـور المجاهد الكبير الشيخ عثمان دان فودى ببلاد السودان الغربي والأوسط .

وقـام عـدد كبير مـن علمـاء "بورنـو" بـدور هـام فـي الأنشـطة السّياسـية والاجتماعية لتلـك المملكـة . وحصـل بعضهـم علـى تشـجيع مـن أسـرة ميـي المالكة بتعضيد جهودهم في نشر الدّين الإسلامي بين أهالي المملكة . ولعـب العلماء دور مجلس الشورى لدى الملـك وحاشيته حـول القضايـا التـي تتعلـق بالحياة الدّينية والسّياسية والاجتماعيـة والإداريـة للدولـة . ومـن أشـهر هـؤلاء العلماء أحمد بن عبدول الذي تقلد منصب قاضي قضاة بلاط الملك ميي علـي غاجي . وعمر بن عثمان مسبارما وآدم بن إبراهيم والقاضي محمـد بـن علـى غـاجي ويعـتبر البكـرى أحـد العـلماء الذيـن لعبـوا دوراً قيـاديـاً فـي دولـة بورنو . وكان قـد تلقـى تعليمـه الأوّلـي فـي بلـدة "باندوتـو " ثـم واصـل التحصيل على يد عـالم آخر يدعي عـلي تـأقيت السّـومني . وهـناك عـالم مشهور آخر هو أبو بكر الباكوم ، صاحب مؤلفات كثيرة، منها كتـاب شـرب الذّلول . ومن بين كبار العلماء الذين اشتهرت بهم تلك الدولة أيضا محمد ابن الحاج عبد الفهام البرّناوي (المتوفي في عام ١٧٥٥م) ، ولـه مؤلفـات كثيرة منها كتاب " الكوكب الدري في نظـم مـا جـاء فـي الكتـاب الأخضـري " وهو عـبارة عن شـرح للمختصـر الفقهـى لكتـاب ألفـه عـالـم جزائـري هـو عـبد الرحمن الأخضـري الـذى عـاش في القـرن السـادس عشـر الميـلادي .

وكذلك الطّاهر بن إبراهيم الفولاني الذى كان من بين فحول العلماء ، حيث كان تبحّره في العلم واتصافه بالتقوى سبباً فى رفعة شأنه وذيوع شهرته في جميع أرجاء تلك الدولة وخارجها . وظهر كثير من أجلة الفقهاء وأهل اللغة والتاريخ خلال القرنين الخامس عشر والسّادس عشر وحتى القرن التاسع عشر في تلك المنطقة ، وحظوا دوماً بتشجيع ودعم الحكام والملوك لاسيما من أسرة ميي المالكة . وسافر عدد كبير منهم إلى مصر والحجاز لتحصيل العلم . واشتهر بعضهم هناك ، وقد افتتح أحد أفراد تلك الأسر المالكة يدعى ميي قاسم بيرى (١٢٤٢م - ١٢٦٧م) مدرسة إسلامية في مصر ، عرفت بمدرسة ابن رشيق، وخصص بها رواقاً لاستقبال الطّلبة الوافدين من "بورنو" وحجيجهم العابرين بمصر. وتميز نمط انتشار الإسلام في منطقة السودان الأوسط بطابع تدريجي وسلمي في آن واحد. ورواد الفتوحات الإسلامة الذين وصل بهم الجهاد إلى احتياز أجزاء من الغرب الإفريقي بقيادة التابعي الجليل عقبة بن نافع الفهرى لم يتجاوزوا منطقة كوار، على أرجح أقوال المؤرخين، علماً بأن بداية فتح القارة كان في عهد عمر بن الخطاب، ثانى الخلفاء الراشدين ﷺ ، وذلك عندما قام واليه على مصر عمرو بن العاص بفتح أجزاء من الشمال الإفريقي في السنة الثانية والعشرين الهجرية . وعندما آلت الخلافة إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه ازداد الفتح الإسلامي توغلاً في أعماق الشمال وأطراف الشمال الغربى للقارة . وفي السنة الخمسين الهجرية أى عام ٧٠٦م تكلل جهاد عقبة الذى واصل الزحف وأنشأ مدينة القيروان فى ولايته الأولى بالنجاح . ثم وصل إلى وادى يحلى فى

بـلاد السـوس الأقصى حيث أقـام مسجدًا بها وذلك فى ولايته الثانية .
وذكرت بعض المصادر التاريخية أنه نزل من درعه إلى بلاد صنهاجة ثم إلى بلاد هسكورية فأغمات وريكة وإلى وادى نفيس المتاخمة لأودية بلاد فوتاتورو حول ضفتى نهر السنغال ، وكانت القوافل تقطع تلك المسافة فى ثلاثة أشهر . وذكر الأستاذ الخليل النّحوى في كتابه إفريقيا المسلمة – الهوية الضائعة – نقلاً عن الشيخ سيدى محمد المختار الكونتى ، أن عقبة بن نافع وصل مدينة " ولاته " التي عرفت في ذلك الوقت بـ "سير" أو " بيرو" في السودان الغربي ، وخلف بها ابنه المسّمى العاقب .
وفي سنة ١١٤هـ قام أحد أحفاده ويدعى حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع أو عبد الرّحمن بن حبيب بحملة استهدفت مواصلة الفتح حتى وصلت إلى منطقة تخوم السودان . وقد شمل الإسلام على مر الزّمان أجزاء القارة الإفريقية مكتسحًا مناطقها المعمورة دون الاعتماد على قوة السّلاح أو المؤسسات التبشيرية . بل أخذ ينتشر بانتشار الإفريقيين أنفسهم ، سالكاً مسالكهم التجارية حتى وصل مناطق السودان الأوسط ووصل الإسلام إلى مملكة بورنو في السودان الأوسط ماراً بنفس المسالك التي اجتازتها الفتوحات الإسلامية الأولى ، مستكملاً بذلك ربط أجزاء شمال القارة بجنوبها وعرفت الدولة التى قامت فى تلك المنطقة وحول بحيرة تشاد بدولة السّيفاوا ، أخذت هذه الدولة التى قوت شوكتها في القرن العاشر الهجرى ، تتوسع حتى

وصلت حدود فزّان(١) شمالاً ، ومنطقة وادي شرقاً وحوض النيجر جنوباً . وكانت الدولة خاضعة لسلالة مسلمة من القبائل الفولانية التى عرفت أيضاً ببنى حومى أو السّيفاوا (نسبة إلى سيف بن ذى يزن)، حسب بعض الروايات.

وقد عاهد ملوك دولة السّيفاوا ، المتعاقبون ، أنفسهم بنشر الإسلام بين سكان منطقة السودان الأوسط وما جاورها متقلدين اللقب " ميي " اقتداء بمليكهم الأوّل هومى جيلانى " ميي" . أما في بلاد الهاوسا غرباً ، فقد وصل الإسلام إلى هناك عن طريق التّجار المسلمين من أبناء قبيلة الماندنغو(٢) الناطقين بلغة جولا ، الّذين كانوا في طريقهم إلى الأراضى المقدسة لأداء مناسك الحج، ووصلوا إلى مدينة كانو مارين ببلاد غوبروكاتسينا .(٣) وكان ملوك ؛ هذه البلاد من أمثال الملك "ياجى طن طسامبا" (١٣٤٩م - ١٣٨٤م) هم وأسرهم وعائلاتهم ورجال بلاط حكمهم وأسرهم كانو من أوائل الذين اعتنقوا دين الإسلام في تلك المناطق. وكان هذا هو النّمط العام الذى اتصف به انتشار الإسلام في السودان الأوسط . لكن تضاربت الآراء حول الزّمان الذّي وصل فيه الإسلام إلى بلاد الهاوسا على وجه التحديد . إذ تذكر بعض مصادر أن التجار المسلمين من أبناء قبيلة "الماندنغو" غادروا موطنهم الأصلي في السودان الغربى (مالي) في سنة

---

(١) هي إحدى كبريات ولايات الجماهيرية العربية الليبية اليوم .

(٢) ويطلق عليها الوانغر أو البامبرا أيضا .

(٣) تقعان فى شمال نيجيريا .

٨٣٥ الهجرية الموافقة لسنة ١٤٣١م ووصلوا إلى بلاد الهاوسا لاسيما مدينة كانو، في عهد ملكها محمد رونفا (١٤٦٣ -١٤٩٩م). غير أن مصادر تاريخية أخرى تشير إلى أنه كان للإسلام الوجود العملى في مدينة "كانو" قبل تولى هذا الملك حكمها بفترة طويلة وأنّ عهد الملك يعقوب بن عبد الله بورجا الذى استغرق زمان ملكه إحدى عشرة سنة (١٤٥٢- ١٤٦٣م) قبل مجيء الملك محمد رونفا قد شهد تدفق علماء الدين من أبناء القبيلة الفولانية الذين هاجروا من السودان الغربى ، إلى بلاد الهاوسا حيث قاموا بتدريس العلوم الإسلامية من التفسير والحديث والتوحيد والفقه واللغة العربية .

إسهام الملوك في نشر الإسلام في السودان الأوسط

ثمة ثلاثة ملوك ارتبطت أسماؤهم بجهود نشر الإسلام في السودان الأوسط . هم "ميي دونما" الذى عاش في القرن الثالث عشر الميلادي و"ميي على غاجي" ، الذى حكم في القرن الخامس عشر الميلادي و"ميى إدريس ألوما " الذي عاش في القرن السادس عشر الميلادي . ولم يكتف الملوك الثلاثة بإبداء الاهتمام بانتشار الإسلام والحفاظ على مكانته الاجتماعية في داخل بلدانهم فحسب ، بل عملوا على توطيد العلاقات الثقافية والتجارية والسّياسية بين دولهم والأمم الإسلامية الأخرى الشهيرة وقتئذ ، مثل مصر ومقر الخلافة العثمانية(٤) وتونس وطرابلس الغرب (ليبيا) والعراق . وتميز عهد الملك " ميي

(٤) كانت تركيا مقر الخلافة الإسلامية في ذلك الوقت.

إدريس ألوما" خلال الرّبع الأخير للقرن السادس عشر، على وجه الخصوص، بتصاعد الدعوة الإسلامية في السودان الأوسط لاسيما في بورنو مما أضفى على دولته صفة إسلامية على غرار الخلافة العثمانية ودولة الأشراف بالمغرب الأقصى . واتسمت المملكة البورنوية في عهد الملك "ميي إدريس ألوما" المذكور بإعلان الجهاد ضد القبائل الوثنية المجاورة ، التى كانت تعرقل مسيرة الدعوة الإسلامية ، لاسيما في الجزء الجنوبي لدولته .

وقد عثر الأستاذ م.أ. الحاج الذي كان محاضرًا بجامعة "بايرو" النيجيرية في عام ١٩٦٦م على نسخة من رسالة كان قد وجهها السلطان العثمانى مراد الثالث (المتوفي عام ١٥٧٥م) ، إلى الملك "ميي إدريس ألوما" حول العلاقة التي كانت قائمة بين الدولتين .

وبالمثل تؤكد المصادر التاريخية وجود تبادل مبعوثين دبلوماسيين بين "مملكة ميي إدريس ألوما" ودولة الأدارسة فى المغرب الأقصى في عهد مولاي أحمد المنصور الذهبي. فقد توجه سفير الملك " ميي إدريس ألوما" إلى مراكش في عام ٥٨٢هـ حاملاً رسالة من سيده يطلب فيها تزويد مملكة "بورنو" بجيش ومعدات حربية ، ووافق السلطان السعدى على ذلك الطلب شريطة موافقة الملك البورناوي ، أيضاً على مبايعته بوصفه الخليفة الشّرعي للمسلمين . وتشير المصادر المذكورة إلى أن سفير الملك "ميي إدريس ألوما" كرر زيارته إلى المغرب مرتين ، وفي المرة الثالثة عاجلته المنية وهو في طريقه إلى مراكش ، فواصل أعضاء وفده السفر إلى المغرب الأقصى . ولم يثبت تاريخياً أن الملك "ميي إدريس ألوما" قد

قام شخصيًا بأي سفر إلى هناك لإعلان المبايعة المطلوبة ، أو أوفد أحدًا للقيام بتلك المهمة ، غير أن مملكة "بورنو" ظلت ذات سيادة واستقلال بين الأمم الإسلامية الأخرى في ذلك الوقت، كما احتفظت بعلاقات سياسية وثقافية معها . أما في الوسط الغربي ، فقدظهر ملوك عظماء دفعوا عجلة الدعوة الإسلامية إلى الأمام ، منهم "محمد كاورو" ، ملك كاتسينا والملك "رونفا"، ملك كانو ، والملك محمد رابو ، ملك زاو زاو . كما اضطلع هؤلاء الملوك بأدوار حيوية ملموسة لإرساء الوجود الإسلامي وإصلاح مؤسساته التشريعية والاجتماعية خلال القرن الخامس عشر الميلادى، وتجدر الإشارة إلى أنه كان للملك "دوناما بملى" البورنوي ، اليد الطولى في تعزيز العلاقة الثقافية والسياسية بين بلاد السودان الأوسط والعالم الإسلامي . فهو الذي أنشأ وقفاً ورواقاً تابعين لمدرسة ابن رشيق في مصر لتوفير الدعم المادى والمعنوى للطلاب الوافدين من الغرب الإفريقي للدراسة فى مصر . وقام برحلته الشهيرة إلى أرض الحجاز لأداء مناسك الحج في قافلة ضمت أعدادًا كبيرة من رعاياه رجالاً ونساء ، فعقد فى عهده صداقة شخصية بينه وبين ملوك وأمراء البلاد الإسلامية ، في تونس ومصر وليبيا والعراق ، وامتد نفوذ دولته حتى وصل إلى حدود فزان شمالاً وبحيرة تشاد غرباً . وقامت الأمصار الإسلامية في المشرق والمغرب بإيفاد عدد من العلماء إلى بلاد السودان الأوسط لنشر الثقافة الإسلامية . وكان ذلك بفضل الجهود الشخصية التى بذلها الملوك والحكام في الغرب الإفريقي . وكانت الحروب الأهلية والاضطرابات الداخلية بين القبائل المتناحرة في المنطقة ، وبين دولة

السّيفاوا وقبائل بولالا، هي التى أدت إلى نقـل مقـر دولـة بورنـو – مـن شـرق بحيرة تشاد إلى غربها في القرن الرابع عشـر الميـلادى . وسرعان مـا عـادت حالة الاستقرار السّياسي النسبي إلى المنطقة الشرقية فانتقل مقر الحكـم إليهـا مرة أخرى في عهد ملكها الجديد ، "على غاجى" فى نفس القرن ، وأصبحـت مدينة بيرنين – "إنغزرغا" عاصمة جديـدة ثـم مركـزاً ثقافيـاً وتجـاريـاً . وقـد تدفق عليهـا علمـاء المسلمين من شمال إفريقيا ، ومن بينهم الشيخ أبو القـواط والشيخ عمر عثمان اللذان تقلدا مناصب في البلاط . واستمرت شهرة المدينـة في التزايد إلى القرن التاسع عشر الميلادى . ويعتبر الملوك والحكام المسلمون في بلاد السودان الأوسط والغرب الإفريقـى رواد انطـلاق الدعـوة الإسـلامية ، والمصلحيـن الاجتمـاعيين ، وقـد قـام الملـك "محمـد رونفـا" (١٤٦٣م — ١٤٩٩م) ملك كانو بتأسيس مدارس لتطبيق نظم الإدارة الإسلامية في بـلاده . كمـا شـهد عهـده تصـاعد العلاقـات الثقافيـة والتجاريـة مـع بلـدان الشـمال الإفريقي. وكان محمد بن عبد الكريم المغيلي التّلمساني الجزائرى مـن أشـهر العلماء الذين وصلوا إلى بلاد الهاوسا في السودان الأوسط في القـرن الخـامس عشر الميلادي ، وأقـام في مدينة كانو حيث تولى منصـب المستشـار الدّينـى والقاضى الشّرعى في بـلاط الملـك محمـد رونفـا . ونهـض أثنـاء إقامتـه فـي كانو ، بتأليف كتابين ذاعت شهرتهما ، وهما " تـاج الدّيـن فيمـا يجـب علـى الملوك " الذي يعالج مسائل الحكم والإدارة على ضوء القـرآن والسّـنة النّبويـة الشّريفة . و " جمل مختارة " الذي يتعلق بجانب تطبيق العدالة الاجتماعية .

الإسلام في بلاد الهاوسا

تشير المصادر التّاريخية عن غرب إفريقيا إلى أن الإسلام قد دخل بلاد الهاوسا قبل القرن الخامس عشر الميلادى ، وكانت طبقة الملوك والحكام في طليعة الذين اعتنقوه وتبعهم المجتمع بأسره . ولعب أبناء قبيلة الوانغارا (الماندنغو) من التجار المذكورين آنفًا دوراً رئيسياً في نشره في تلك البلاد الّتى شملت مناطق كانو وكاتسينا وزّازو وغوبر وداورا ورانوابيرام الشّرقية. ويؤكد مصدر تاريخي من "كانو" أن تجار الوانغارا الذين أتوا من مالى بزعامة فقيه يدعى عبدالرحمن زيتى هم الذين نقلوا الدين الإسلامي إلى هذا الجزء من بلاد الهاوسا . وتشير مصادر أخرى إلى أن ذلك كان في عهد ملكها الحادي عشر ،"ياجي" (١٣٤٩ ـ ١٣٨٥م) . وقد شهد القرن الخامس عشر الميلادي هجرة جماعية لقبيلة الفولاني أو الذين نزحوا من أقصى الغرب الإفريقي إلى وسطه وشرقه ، حيث بدأت الأنشطة الثقافية ومحو الأمية ، على أيديهم ، خاصة بين الطبقة الحاكمة والأرستقراطية . وأصبح الإسلام ديناً رسمياً للدولة في عهد الملك "محمد رونفا" الذى أبدى اهتمامًا بالغاً بنشره متعاوناً في ذلك مع العلماء ، كما أدخل إصلاحات دينية كثيرة فى سياسة وإدارة دولته والمناطق المجاورة لها ، فاستبدل العادات والممارسات الوثنية القديمة السائدة بين الناس بالممارسات الإسلامية . وشهدت المنطقة بنهاية القرن الخامس عشر قدوم أجلة العلماء المسلمين من المغرب العربي والسودان الغربي إلى المنطقة وقيامهم بالتدريس ونشر

الوعي والثقافة الإسلامية بين أهاليها . ومن بين الذين استقدموا إلى مدينة كـانو وضواحيها الجد الأكبر للشيخ أحمد بابا التنبكتوى الشيخ أحمد بـن عمـر بـن عقيت في عام ١٤٨٧م . كمـا وصـل العـالم الشـهير محمـد بـن عبـد الكريـم المغيلي إليها قبيل نهاية ذلك القرن حيث طلب إليه الملك رونفا أثنـاء وجـوده فيها وضع كتـاب يضـم إرشـادات حـول الإدارة والسياسـة الإسـلاميتين اللتيـن تساعدان على تسيير شؤون دولته . فألف كتاباً سماه " الجملة المختصـرة " . كما نهض كل من حاكم دولتـى زازو وكتسينا محمـد بـراو ومحمـد كـوراو اللذين كانا معاصرين للملك محمد رونفا ، بإدخال الإصلاحـات المماثلـة فـي بلديهمـا تحقيقـاً للرعايـة السـليمة لشـعبيهما. وكـانت مدينتـا كـانو وكاتسـينا بحلـول القـرن السـادس عشـر الميـلادي وصـاعداً مركزيـن للتعليـم والتثقيـف الإسلاميين انجذب إليهما كثير من العلمـاء مـن المغـرب والمشـرق والسـودان الغربي . فعلى سبيل المثال ، أتـى إليها العـالم المغربـي عبـد الرحمـن سـوقيني الذي تتلمـذ علـى ابـن الغـازى ، وهـو عـائد إلـى كـانو مـن مصـر، وقـد قـام بـالتدريس فـي إحـدى مدارسـها العربيـة . وبـالمثل ، جـاء عـالم آخـر يدعـى التزاختى (متوفى عـام ١٥٠٣) مـن المشـرق واسـتقر فـي مدينـة "كتسـينا" وشـغل فيهـا منصـب القـاضي الشـرعي وقـام هـو الآخـر بتأليـف وتفسـير نصـوص بعـض المختصـرات الفقهـية مثـل " مختصـر خليـل" فـى الفقـه المـالكى . وشـهدت بـلاد الهاوسـا فـي القـرن السـابع عشـر انتشـار حركـة التأليف بين علمائها من أمثـال محمد الكتسـيناوى المعـروف بـ طـن مرينـا ، وابن السباغ المشـهور في بـلاد الهـاوسـا ومـا جاوزهـا في منطقـة السـودان

الغربي والأوسط في النصف الثاني من ذلك القرن . وقد وصفه محمد بللوّ في كتابه " إنفاق الميسور " بأنه شاعر ومفسر ، ولامع في العلم والمعرفة . ولا تزال معظم هذه المؤلفات موجودة . وعالم آخر ذاعت شهرته في المنطقة هو محمد طن ماسينا الذى ولد في كاتسينا في عام ١٨٥٩م ، وتعلم على يد الشيخ محمد طن مرينا المذكور. وقد أشار كل من محمد بن أبى بكر البرتيلي في كتابه " فتح الشكور" ومحمد بللوّ في كتابه "إنفاق الميسور" إلى بعض مولفات محمد طن ماسينا . ومن بينها "النفحات العنبرية" الذى يشرح فيه متن كتاب العشرينيات لألفا الزازى الأندلسى وكتاب " شفاء الربّا " في تحرير فقهاء يوروبا " . إذ يبدو من عنوان الكتاب الأخير أن المؤلف يعالج قضايا تاريخية أدبية لعلماء بلاد يوروبا. وفي القرن الثامن عشر ظهر عالم آخر اشتهر في المنطقة وهو محمد بن محمد الفولاني الكاتسيناوى (توفي عام ١٧٤١م) الذى ولد في مدينة كاتسينا، وعاجلته المنية في مصر عندما كان عائداً من أداء فريضة الحج ماراً بالقاهرة . وذكر المورخ المصرى عبد الرحمن الجبرتي (١٧٥٤-١٨٢٢م) أن محمد بن محمد الفولاني جاء إلى مصر والتحق بدائرة علماء اللغة والفقه والعلوم الفلكية بواسطة والده حسن الجبرتي ، وأن والده قد أخذ بدوره كثيراً من مختلف فروع العلم والمعرفة من محمد بن الفولاني الذى نزل ضيفاً عليه إلى أن التحق بالرفيق الأعلى . وأضاف أنه كان عالماً متبحراً في شتى مجالات العلم والمعرفة . بعض مؤلفاته مدونة بقائمة كتب المكتبة الخديوية الأميرية بالقاهرة . من بينها : كتاب منح القدوس ، وهو عبارة عن منظومة شعرية في

علم المنطق وكتاب بلوغ الأرب من كلام العرب الذى تناول فيه قواعد اللغة العربية ونظريات صوفية .

وبعض هذه المؤلفات محفوظ في مكتبة دار الكتب المصرية بالقاهرة ونيجيريا ومكتبة جامعة لندن بإنجلترا . وأشار الشيخ عبد الله بن فودى(٥) في كتابه " إيداع النسخ مما أخذت من الشيخ " إلى عديد من كبار العلماء الذين برزوا في القرن الثامن عشر في السودان الغربي . ومن بينهم الشيخ جبريل بن عمر الذي أخذ عنه الشيخ عثمان دان فودى وأخوه الشيخ عبد الله العلم . ولم يكن الشيخ جبريل هذا عالماً فحسب ، بل كان مصلحاً اجتماعياً بادر بإدخال إصلاحات دينية واجتماعية في بلاد الهاوسا . ومنه استوحى ، كما تشير بعض المصادر التاريخية ، الشيخ عثمان دان فودى فكرة الجهاد الذى اضطلع به فيما بعد . وقد حظي الشيخ جبريل بأداء فريضة الحج مرتين في حياته ، وقضى قرابة عشرين سنة متنقلاً بين الحجاز ومصر لتلقي العلم وازدياد المعرفة . وقد عاجلته المنية في بلدة "أغديس" بالنيجر أثناء رحلته قاصداً الأراضي المقدسة للمرة الثالثة . وعنه يقول المستشرقان ، بيجار وهسكيت : "قام الشيخ جبريل بإسهام كبير في الأدب الديني المعاصر له، كما نلمس ذلك في كتاب الشيخ عثمان بن فودى " نصائح الأمة المحمدية " حيث استشهد بكثير من مقولاته ومؤلفاته ، خاصه كتابيه " المتن في القصائد " والمنظومة في الشعر ".

---

(٥) هو أخ الشيخ عثمان دان فودى ، مؤسس دولة صوكتو في غرب إفريقيا ، انظر ما أوردناه عن تلك الدولة.

وقد ظهرت مراكز ثقافية في بلاد الهاوسا في القرن الثامن عشر الميلادي خاصة في مدنها الرئيسية مثل زاريا وكانو وكاتسينا وياند وتووتو ديجيل . وكان العلماء يتنقلون بينها إما للتدريس أو لتحصيل العلم . وكانت منطقة السودان الغربي وبيئتها - بحلول القرن التاسع عشر - مهيئة لاندلاع الثورات الدينية والاجتماعية ، التى تمثلت فى حركات جهاد عثمان بن فودى واحمد لوبا بارى وعمر الفوتى فى الغرب الإفريقى .

باء – دولة صوكتو

بدأت حركات الهجرة التدريجية لجماعات الجنس الفولاني من مواطنها الأصلية بفوتا تورو الواقعة في منطقة مجرى نهر السنغال ، متجهة صوب الشرق منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادي ، حيث اجتازت أرجاء السّودان الغربي وصولاً إلى الحجاز عبر مناطق وسط إفريقيا وجنوبها وشرقها ، واستقر بعضها في مناطق الحزام السهلى الذى يشمل بلاد الهاوسا في شمال نيجيريا وجمهورية النيجر وشمال الكاميرون وذلك بحلول القرن السادس عشر الميلادي . وقد تميزت هذه الجماعات ، منذ تعرّفها على الدين الإسلامي ، بالحماس والاندفاع نحو اكتساب ثقافته ونشره بين قبائل إفريقية أخرى مجاورة لها . وحظى أفراد منها بهذه الثقافة وأصبحوا ضالعين في العلوم الإسلامية واللغة العربية خاصة في الغرب الإفريقي .

ويقسم المؤرخون وعلماء الجنس البشرى أبناء الجنس الفولاني إلى قسمين . قسم يقوم بتربية الماشية ، بعيداً عن الحياة الاجتماعية الحضرية ، وقسم يزاول الزراعة والتجارة وينخرط في الحياة الاجتماعية الحضرية ، ويتولى الأنشطة الدّينية المتصلة بالدعوة الإسلامية. وثمة ترابط عرقي وانتماء لغوى وعادات موروثة توحّد بين القسمين . وقد أوجدت هذه العوامل روح التّضامن التى استغلتها

قيادة الجهاد الذي اكتسح بلاد الهاوسا في وقت لاحق ووصل إلى مناطق أخرى نائية في غرب إفريقيا . وتجدر الإشارة إلى أنه كانت هناك ظروف هيأت إعلان الجهاد من قبل المصلح عثمان دان فودى .

فقد واجهت الأمة الإسلامية في غرب إفريقيا صدمة سياسية ودينية وتشتت شمل بسبب انهيار إمبراطورية صونغاي التى كانت تتمتع بالقيادة الإسلامية الحيوية والنشيطة حتى القرن السادس عشر الميلادي . وفقدت شعوب المنطقة اتجاهها العقيدي الإسلامي الثابت ، فأخذ أفرادها يتظاهرون طوراً بالدّين الإسلامي شكلاً خاصة في الأعياد والمناسبات المماثلة ، وينتكسون إلى عبادة الأوثان وممارسة العادات المناوئة للإسلام طوراً آخر. وأصبحت عامة النّاس على دين ملوكهم . وكانت دولة البورنو هي الوحيدة التى اتصفت بالقيادة الدينية الإسلامية بفضل ملوكها المسلمين الذين كانوا يحملون لقب "ميي" . وبحلول القرن الثامن عشر الميلادى أخذ الحماس الدّيني الإسلامي والانقياد له يفتر مما استدعى انبعاث حركات التجديد الإسلامية من قبيل حركة الجهاد التى قادها الشيخ عثمان دان فودى .

عثمان دان فودى ، مؤسس دولة صوكتو .

ميلاده ونشأته

ولد الشيخ عثمان في بلدة "مراتا" الواقعة اليوم في جمهورية النيجر في يوم الأحد من شهر صفر سنة ١١٦٨ الهجرية الموافق لشهر ديسمبر ١٧٥٤

الميلادي ، وكان جده الأكبر الذي يدعى موسى جوكوللى من بين الجماعات الفولانية التى هاجرت من موطنها الأصلى في "فوتا تورو" بشمال السنغال واستوطنت بلاد الهاوسا فى القرن الخامس عشر الميلادي. وقد سكنت تلك القبيلة في الوهلة بادئ الأمر ، في مكان يعرف بـ " كونّى " قبل انتشارها في بقية أرجاء تلك البلاد، ومن بينها منطقة "مراتا"، حيث ولد الشيخ عثمان .

تلقى الشيخ عثمان تعليمه الأوّلي من خلال الأسلوب التقليدى السائد فى المجتمعات الإسلامية عبر القرون، والمتمثل في حفظ القرآن ثم دراسة الفقه واللغة العربية. وقد وصف المؤرخ التربوي البروفسور إيفور ويلكس هذا المنهج التعليمى قائلا ً: ترسل جماعة من قبيلة جولا(٦) المسلمة أبناءها الذين تتراوح أعمارهم ما بين ٦ و ١٤ سنة إلى المدارس التقليدية التى تفتح بمجرد من يقوم بالتّدريس، ويتلقون العلوم الإسلامية الابتدائية بدءاً من تلاوة القرآن وتحفيظه عن ظهر قلب . ويستمر التلميذ في التحصيل السّريع حتى يستوعب قواعد اللغة العربية من نحو وصرف وآدابها من شعر ونثر. كما يأخذ مبادئ الفقه المالكي مع التعمق النّسبى كلما تقدم في النمو والتحصيل. ولايصل إلى المرحلة المتقدمة جدًا من التثقيف إلا ندرة من التلاميذ والطلبة. بينما يرسب معظمهم ، مع اكتساب بعض الخبرات المبسطة في كتابة اللغة العربية وقراءتها ولو بطريقة خاطئة . وينتقل الماهرون الطّموحون منهم، بعد

(٦) هى فرع من قبيلة البامبرا أو الونغارا المنتشرة فى غرب إفريقيا.

هذه المرحلة إلى علماء آخرين ويقيمون معهم لمواصلة التحصيل حتى يترسّخوا في الفروع العلمية . حينئذ يمنحون إجازات تؤهلهم للقيام بتدريس تلك العلوم . وبهذا الأسلوب يحصل الطّالب الطَموح على عدة إجازات من مختلف المرشدين والمدرسين ، ومن ثم يحظى بالاعتراف من عامة النّاس مع ذيوع الشهرة ، وتدفق طلبة العلم عليه ، سواء في حالة الحل أو التّرحال .

تتلمذ عثمان دان فودى في قراءة القرآن الكريم وتجويده على والده محمد بن صالح فودى ، ودرس كتاب العشرينيات والكتب الأخرى المماثلة على أستاذ آخر يدعى بيدو الكباوي . وشملت هذه الدراسة أيضاً قواعد اللغة العربية من نحو وصرف من كتاب الخلاصة . كما أخذ من شيخ يدعى عبد الرحمن بن حمادى ودرس كتاب مختصر الخليل فى فقه المذهب المالكى من خاله بدورى بن الأمين بن عثمان بن حمّا بن علي . وكان هذا الأخير من بين العلماء الذين شهد النّاس لهم بتقوى الله ومخافته ، الآمرين بالمعروف والنّاهين عن المنكر ، مما دفع عثمان دان فودى إلى الاقتداء به تشبثاً بمكارم أخلاقه ، حيث لازمه قرابة سنتين ، مقتديًا به في أساليب الدعوة والإرشاد . وكان يصحح أخطاء عثمان عند مراجعة الدّروس معه دون الاطلاع على الكتب ، لأنه كان حافظًا لمحتوياتها عن ظهر قلب. وانتقل الشيخ عثمان بعده إلى أشهر مشايخه وهو الشيخ جبريل بن عمر ، واستمر معه لمدة سنة تقريباً ، إلى أن وصلا فى أحد

أسفارهما إلى بلده أغديس(٧). ثم عاد بعد ذلك إلى أهله بينما واصل أستاذه الرحلة إلى الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج . ومن المعتقد أن عثمان دان فودى تأثّر في أفكاره الثورية بأستاذه هذا إلى حد كبير وقد اصطدم الشيخ جبريل مع الحكام والأمراء فى بلاد الهاوسا بسبب انتقاده الشديد للعادات المناهضة للإسلام وأساليب الاستبداد السائدة هناك ، وحاول الشيخ جبريل في الوهلة الأولى، إعلان الجهاد لاستئصال هذا النظام المناوئ للإسلام ، ولكن الحظ لم يحالفه ، فأبعده حكام قبائل الطوارق من المنطقة كلياً قبل حجته الثانية وقام بحملة شديدة بعد العودة ، ضد العادات والتقاليد الوثنية المتجسّمة في حياة الغالبية العظمى من شعوب بلاد الهاوسا ، وكان عثمان دان فودى يكِنّ لأستاذه جبريل بن عمر المذكور الإجلال والاحترام وعظيم التقدير لغزارة علمه وصدق إخلاصه في الدعوة إلى الإصلاح الدّيني والاجتماعى بين الشعوب في الغرب الإفريقي. إلا أن ذلك لم يمنع من نشوب بعض الخلافات في وجهات النظر الفقهية بين الشيخ عثمان وأستاذه في وقت لاحق .

يذكر عبد الله بن فودى، شقيق عثمان في كتابه إيداع النسخ عن الشيخ جبريل قوله : " ذكر لي أخي، الشيخ عثمان أنه أخذ علم تفسير القرآن عن أحد أعمامنا وأخوالنا يدعى الشيخ أحمد بن محمد بن الأمين، وأنه حضر مجلسًا (حلقة دراسية) لشيخ يدعى هاشم الزنفري حول تفسير القرآن من أوله

(٧) تقع اليوم في جمهورية النيجر .

لآخره ، وأخذ علوم الحديث عن عمّنا وخالنا الحاج محمد بن راجى بن مودبّو بن حمّا بن علي . وقد درست (يقول عبد الله بن فودى) كتاب صحيح البخارى بكامله عنده".

أنشطته الخاصة بالتّدريس والدّعوة

بدأ عثمان دان فودى الدّعوة والإرشاد في سنة ١١٨٨هـ الموافقة ١٧٧٤م ، في عمر لم يتجاوز عشرين سنة . وكان يقوم بالتّدريس جنباً إلى جنب مع الدّعوة والإرشاد في تجمعات عامة . وشد الرحال إلى أماكن مختلفة بعيدة وقريبة، يدعو النّاس إلى اعتناق الإسلام والابتعاد عن الوثنية ، وإرشاد المسلمين منهم إلى ترك ممارسات وعادات الشرك المتفشية هناك آنذاك . وكان يطلب منهم الاستنارة بمبادئ التّوحيد الغراء . وقد وصف عبد الله دان فودى في كتابه " تزيين الورقة " احتشاد الأصفياء من المسلمين حول أخيه الشيخ عثمان قائلاً :

"قمنا جماعة وأفراداً بتأييد الشيخ عثمان في جهوده لنصرة الدّين الإسلامي الحنيف. وقد اضطلع في هذا الصدد بسفريات شرقاً وغرباً يدعو النّاس إلى دين الله الحنيف قولاً وعملاً. دعاهم بلغة عادية ، كما دعاهم من خلال قصائد ومنظومات شعرية بلهجات محلية مختلفة ، من بينهما الفولانية والهاوسوية ، داعيًا بذلك إلى تحطيم العادات والتقاليد المناوئة للشريعة الإسلامية السمحة . واستجابت له جماعات من المناطق والبلدان المجاورة

لدى السّماع عنه وذهبوا إليه مشجعين ومؤيدين له". وسافر في أول الأمر إلى بلاد "كيبي" ودعا أهاليها إلى إصلاح أمور دينهم والعمل بالإسلام ديناً والتحلّي بالعادات الحسنة والأعمال الصالحة خلقاً وتجنب الطالحة منها. وتدفقت عليه جماهير غفيرة لإعلان الولاء والمبايعة وللاستفادة من ينابيع العلم والمعرفة ، يستمعون إليه بالاهتمام والاعتناء الكاملين وهو يلقى عليهم دروسه . وتوجه في سفره الثّاني إلى منطقة "زنفرا " حيث قضى مايربو على خمس سنوات يدعو خلالها أهاليها إلى احتضان الإسلام . إذ يذكر عبد الله بن فودى فيما نقل عنه أيضًا ما يلى : "أن الجهل بأمور الإسلام كان يسود منطقة "زنفرا " وأن غالبية أهاليها لا تعرف عن حقيقة الإسلام شيئاً. فقام الشيخ بتنظيم حلقات دراسية لهم. وعندما كانوا يحضرون تلك الدروس ترافقهم نساءهم اللائى يختلطن بالرجال أحياناً. فحاول الشيخ عثمان منع ذلك الاختلاط قائلاً لهم إن ذلك يتعارض مع تعاليم الإسلام. لكنه فشل وتعرض لانتقادات شديدة من بعض علماء الدّين من جراء ذلك، ومن بينهم مصطفى الغوانى أحد كبار علماء بورنو حيث طلب من الشيخ عدم السّماح للنساء حضور محاضراته وحلقاته الدراسية ، ودوّن عبد الله بن فودى في كتابه " تزيين الورقة " هذا الانتقاد المنظوم . وهو كما يلى :

عليك منّا تحيات مباركة　　شممن مسكاً وسكا من يلاقونا

أيا ابن فودى قم تنذر أولى الجهلاء　　لعلهم يفقهون الدنيا والدّنيا

فامنع زيارة نسوان لوعظك إذ　　خلط الرّجال بنسوان كفى شينا

لا تفعلن مايــودّى للمعــايـب إذ   لم يأمـر الله عيباً كـان يـؤذينـــا

أبيــات المصـفيى "يـج" يتممهـــا   في عام "رش" مع زيد العدّ يكفينـا

عندما تلقى الشيخ هذه القطعة الشعرية طلب من أخيه عبد الله أن يعد رداً عليها ، فنظم الرّد التالى :

أيـهـاذا الذي قـد جـاء يرشــدنـا   سـمعـاً لما قلت فاسمع أنت ما قلنـا

نصحت جهـدك لكن ليت تعذرنـا   وقلت سـبحان هـذا كـان بهتانـا

إن الشـياطين جـاءوا لمجلسنــا   هم يبثـون سـوء القـول طـغيانــا

لسـنا نخـالـط بالنسـوان كيـف وإذ   كـنا نحذر لكـــن قلت سلّمـــنا

إن كان ذاك ولكن لا أسلّم إذ يتركن   بالجـهـــل حمـــلاً كان إحســـانا

إذ إرتـكاب أخف الضرر قد حتمـا   يكفر الجهل إنّ ذاك كان عصيـانـا

هـذه البـلاد وجدنا قومهـا غرقـوا   في الجهـل نمنعهم أن يفقهوا الدّينـا

قد قيل تـحدث للأقـوام أقضيــة   بقدر ما أحدثوا خـذ ذاك ميـزانا

الحمـد لله ذي الأنعــام هادينــا   ثم الصّلاة علـى المختـار هـادينـا

وآلـه صحبــه أبياتنــا كملـــت   وعـدّهـا حـبّ والتاريخ نشـفنـا

دافع عبد الله دان فودى عن ضرورة توعية النّساء بأمور الدّيـن وتعاليمـه . فقال إنّ تركهن في الجهل بما يجب عليهن معرفته في دينهـنّ ودنيـاهنّ أكثر ضرراً من اختلاطهن بالرّجال مع ضمان التعليم والوعي ، وبرر الاختـلاط قـائلاً إنّ الضرر الأول قد يعد من كبائر الإثـم لأنـه يتعلـق بصميم الدّيـن أي الإيمـان

والأوامر والنّواهي والأعمال الصّالحة . بينما يتعلق الضّرر الثّـاني أي الاختـلاط بين الجنسين بالأخلاقيات وهو أخف الضّررين . غـادر الشيخ وأتباعـه منطقـة "زنفرا" بعد قضاء خمس سنوات عائدين إلـى منطقـة كبّـى. وتجاوزوهـا حتّـى وصلـوا منطقـة "مجـرى كـوارا" (فـي وسـط ولايـة النيجـر) وإيلـو غربـاً، قبـل رجوعهم إلى بلدة ديجيل. كما قاموا بزيـارة "زابـو" (سـوجو) مـارين بمنطقـة زاوما، وهناك قابل الشيخ حاكم المنطقة الـذى اعتنـق الإسلام. أحـسّ الشـيخ عثمان بحلول عام ١٧٩٣م بضرورة إبقاء مركز دعوته في "ديجيـل" لاستقبال النّاس الّذين يتدفقون إليه آخذين العلم والمعرفة ، أو للإعلان عن اعتناقهم ديـن الإسلام. يرى الدكتور فتحي المصري أنه من الأسباب التى دعـت الشـيخ إلـى اتخاذه هذا القرار بالبقـاء والاسـتقرار فـي بلـدة "ديجيـل" هـو انتشـار أصحابـه وتلاميذه فـي القـرى والأمصـار داعيـن إلـى سـبيل ربهـم بالحكمـة والموعظـة الحسنة تمشياً مع الخطط التى رسمها لهم معلمهم الرّشيد ، واسـتطاع الشـيخ عثمان أن يثبت نفسه كعالم جليل كرّس جهده باذلاً لكـل غـالٍ ورخيـصٍ فـي سبيل إعـلاء كلمة الله وإحياء سنة نبيه عليـه أفضـل الصّـلاة والسّـلام وللقضـاء على كل الأعراف والممارسات المناوئة للإسلام والسائدة في تلـك المنطقـة . وقد تمكّن تدريجيًا من إزالة تلك الأعراف والممارسـات الموروثـة مـن الآبـاء والأجداد كابراً عن كابرٍ. وقد وجه انتقاداته بادئًا ذي بدءٍ ، إلى الحكام الذيـن بسطوا أيديهم على أرض الله طغياناً وتمكّنوا من المساس بحرية عباد الرّحمـان جـزافاً، دون مراعـاة لله إلاًّ أو ذمـةً . وكان جنود هـؤلاء الحكـام والمـداوين التقليـديين وبعض علمـاء الدّين الّذين اشـتروا الضّلالـة بالهدى واتخذوا إلههـم

هواهم فأضلّهم الله على علم، موضع انتقاداته في المقام الثّاني . ويلي هذه الفئات صنف آخر من النّاس وهم الّذين ادّعو الإسلام قولاً، لكن أعمالهم وتصرفاتهم لاتمت للشّريعة الإسلامية بصلة من قريب أو بعيد . وأخذت شهرة الشيخ عثمان في الذيوع والانتشار حتّى شملت أصداؤها ربوع بلاد الهاوسا ، وأخذ النّاس ينزحون إليه من كل فجٍ عميقٍ معلنين ولاءهم ومبايعتهم له، إيماناً منهم بأنه قد نجاهم بإذن الله ، من الهلاك ، إلى برّ الأمان ، ومن العبودية الحمقاء والاستغلال البشع إلى الحرية والكرامة الإنسانية .

علاقته مع الحكام في بلاد الهاوسا

لم يبد الشيخ عثمان في بداية أنشطته في الوعظ والإرشاد أي اهتمام بالأمراء والحكام أو الاكتراث بشؤونهم أو القيام بزياراتهم ، بل كان -كما ذكره ابنه محمد بللو- يحاول تجنبهم والابتعاد عنهم قدر المستطاع ، وكان شغله الشّاغل هو الاهتمام بتعليم وتوعية الشّعب الكادح من عامة النّاس، والقضاء على العادات المبتدعة الدّخيلة على الإسلام. وعندما عظمت شوكته ونما نفوذه وازدادت شعبيته لافي بلاد الهوسا فحسب، بل في منطقة غرب إفريقيا برمتها، عقد العزم على الإقدام على مواجهة الملوك والأمراء، لإفهامهم حقيقة الإسلام بعيداً عن الشوائب والانحرافات المضللة، فاتصل في أول الأمر بحاكم "غوبير"، الأمير "باوا نفاتا" وعرض عليه تطبيق الشّريعة الإسلامية السمحة وإقامة العدل فيما بين رعاياه. عاد الشيخ بعد ذلك إلى بلده "ديجيل"

حيث واصل اكتساب مزيدٍ من المعجبين به والمؤيدين له ، وكانت زيارته لحاكم "غوبير" شيئاً مشجعاً لجماعته ومعززاً لجهوده، وقد قال أخوه عبد الله في هذا الصدد إن الذين لم يمتثلوا لأوامر الشيخ مخافةً لله، فعلوا ذلك خشية من السلطان "باوا". وثمة قصة تحكى عن حدث وقع في أواخر سنة ١٢٠٣هـ، ١٧٨٩م ؛ مفاده أنّه في حدة تصعيد أنشطة الشيخ عثمان وجماعته في الوعظ والإرشاد في منطقة "زنفرا" أحس حاكمها السلطان "باوا" بخطورة الأمر وما قد يسفر عنه من تهديدات لملكه ونفوذه . وعندما أتى عيد الأضحى طلب السلطان احتشاد جميع علماء سلطنته ومن بينهم الشيخ عثمان في ساحة تعرف بساحة "مغاني" حيث تؤدّى صلاة العيد. وتبين فيما بعد ، أن هناك مؤامرة دبّرها السلطان في تلك المناسبة لاغتيال الشيخ، ونفر من جماعته لكنّها فشلت ، ومن ثم لجأ السلطان إلى الإغراء والخدعة عن طريق تقديم الرّشوة، فقدّم إلى الشيخ عثمان هدية تضمنت خمس مائة (٥٠٠) مثقال من الذّهب. لكنّ الشيخ ومن معه رفضوها وعرضوا على السّلطان النقاط الخمس التالية للموافقة عليها بغية تحقيق التعايش السلمى بين الطرفين :

١- السّماح للشيخ وجماعته بدعوة النّاس في سلطنته إلى دين الإسلام .

٢- عدم اعتراض أو منع أى شخص يعتزم التّجاوب مع تلك الدّعوة واعتناق الدين الإسلامى طوعاً من عمل ذلك .

٣- احترام السّلطان وحاشيته جماعة الشيخ، وأي شخص يرتدي العمّة التى اتخذها الشيخ وأتباعه شعاراً خاصاً بهم .

٤- إطلاق سراح جميع الذين اعتقلوا من قبل السّلطان بحكم انتمائهم إلى الجماعة .

٥- تخفيف عبء الضّرائب المقررة على أهالي السّلطنة .

وافق السّلطان "باوا" على الالتزام بهذه المطالب ، وقيل إن السبب هو تقدمه في السن، و عجزه بدنيًا عن مواصلة المقاومة . وأعلن أكثر من ألف شخص من الأعيان والعلماء في سلطنة "غوبر" انضمامهم إلى الجماعة أثناء الاحتفال بعيد الأضحى لتلك السّنة .

تعرّض الشيخ وجماعته للاستفزاز والإهانة والتعذيب من أعدائهم بسبب نماء جماعتهم المطرد وذيوع شهرتهم بين النّاس،فلجأ الحكام والسّلاطين، بعد اليأس والإحباط إلى تحريض النّاس عليه وجماعته. وعن ذلك ذكر محمّد بللو أن الحكام ومعاونيهم قد بدأوا بتعذيب أفراد الجماعة وتحريض أناس آخرين ضدهم وإساءة معاملتهم، وأرادوا الحيلولة بين جماعة الشيخ وبين عامة النّاس، ومنعهم من اعتناق الدّين الإسلامي، والتحلّي بأخلاقياته، تعرضت ممتلكاتهم للاستيلاء ، وهددوا بالقضاء عليهم ما لم يمتنعوا عن مواصلة دعوة النّاس إلى الإسلام وتشجيعهم على الانضمام إلى صفوفهم. ففي هذه المرحلة من المضايقة والتهديد والعدوان السّافر التى بلغت الذّروة، لم يجد الشيخ وجماعته بداً من اللجوء إلى المواجهة والتصدى المسلح لملوك بلاد الهوسا وأعوانهم دفاعًا عن النّفس والعقيدة. وعندما شعر الشيخ بازدياد حالة العداء من طرف الحكام ونماء جماعته وقوة شوكتهم ونفوذهم في وجه التهديد بالخطر

المحتوم ، أخذ يسدى إلى جماعته النّصائح بضرورة التسلح والاستعداد لخوض معارك محتومة دفاعًا عن الأنفس والأعراض والممتلكات ، امتثالا لآيات الذكر الحكيم والأحاديث النبوية الشريفة. يقول الله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهِ لاَ يُحِبُ الْمُعْتَدِينَ﴾(٨)

وعن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال" ((جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم والسنتكم.))(٩) وعن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله.))(١٠) وتحديًا للشيخ وجماعته قرر السّلطان نفاتا ، سلطان "غوبر " الجديد السّماح للشيخ فقط بالقيام بالوعظ، وعدم السّماح لأى شخص آخر أن يعتنق الإسلام أو ينضم إلى صفه، مالم يكن مسلمًا أصلاً. وطالب بإرجاع الّذين دخلوا في الدين الإسلامي مؤخراً وإعادتهم كرهًا إلى دياناتهم السّابقة، وأخيراً عدم السّماح لأي من رجاله ارتداء العمامة أو للنساء بارتداء الحجاب أو الخمار . قد نجا الشيخ بأعجوبة ، من مؤامرة اغتيال دبّرها السّلطان. يونفا الذى خلف السلطان "نفاتا" بإطلاق بندقية عليه ، عندما دعا الشيخ لزيارته ذات يوم . وتشير كل هذه الأمور والتّصرفات إلى مدى عدم التسامح وضيق الصدر والمكيدة ، التى كان

---

(٨) الآية : ١٩ من سورة البقرة .

(٩) رواه أحمد والنسائى وصححه الحاكم .

(١٠) متفق عليه .

ملوك الهاوسا ونظراؤهـم يضمرونهـا للشيخ وجماعته عندمـا شعروا بـالخطر المتربص بمصـالحهم وحتمية القضـاء على النظم الاستبدادية السائدة فـي بلادهـم. ونتيجة للنجاحات التى أحرزتهـا الجماعة والشـهرة التـى تـزداد لحركتهم يومًا بعد يوم ، قام الملوك بكل مالديهم من القوة بمحاولة للحيلولـة دون انتشـار آراء الشيخ وجماعته بين النّاس، لكن هـذه المحاولات بـاءت بالفشل الذريع بسبب انتشار تلك الأفكار والآراء على طول البلاد وعرضها من خلال تلاميذه والمعجبين بـه . وكـان عـام ١٧٩٥م نقطة التّحول التـاريخى للجهاد الذى أعلنه الشيخ عثمان دان فودى فـي بـلاد "الهاوسـا" وتـردد صداه عبر إفريقيا جنوب الصحراء والعالم أجمع . لقد قرر الشيخ وجماعته في هـذا العام وضع الحد الفاصل بين الكفرة والمشركين وحماتهم مـن الحكـام الطغـاة وبين الأتقياء المسلمين عباد الرّحمن المستضعفين .

وقد ذكـر أنه رأى في منامه إرهاصـات ذلـك الجهـاد قبـل اندلاعـه بسـنة واحـدة ؛ وفي ذلك يقـول في مقالة بعنوان "الورد" أو "ولما بلغت": "عندمـا بلغت أربعين سنة وخمسة شهور وبضع ليال مـن العمـر أرانـى الله فـي منـامى إعـلائى وتقرّبى إليه سبحانه وتعالى وهناك أدركت مقاماً رأيت فيه سيد الأنام والجان ، محمد بن عبد الله عليه السّلام وأفضل صلوات الله، وكـان معـه نفـر من أصحابه الكرام ورسل الله وأوليائه الصّالحين. أظهروا لـى عظيـم التّرحـاب وأجلسونى بيـن أيديهـم، حينـذاك شـهدت الزّعيـم الروحـى الصوفـى للعـالمين الإنسى والجنّى، الشيخ عبد القادر الجيلانى وبيده رداء أخضر اللون كتب عليه

كلمة " لا إله إلا الله ومحمد رسول الله". وشمر عثمان دان فودى، من ذلك التاريخ، عن ساعد الجد وشد الرّحال على المضى قدماً في تنفيذ ما يرى أنه مكلف به لإعلاء كلمة الحق بمواجهة أعداء الله نداً بندٍ .

نستخلص مما سبق أن الشيخ عثمان قد تأثر روحياً، في جهاده ضد الطغاة والكفرة ، بالشيخ عبد القادر الجيلاني . واعترافاً منه بهذا الفضل حيث يراه أهلاً للمقام ، خصص الشيخ عثمان كتابه المعنون بـ : " تبشير الأمة المحمدية ببيان بعض المناقب القادرية" لتمجيد الإمام عبد القادر الجيلاني حيث يضم بعض مثله العليا ونبذة عن حياته وفضائله .

قيام الجهاد ونشوب الاقتتال :

كان الشيخ عثمان أحد المترددين على بلاط السّلطان "باوا" برغم وجود بعض الخلافات بينهما ؛ وعندما توفى السّلطان وخلفه ابنه "نفاتا" الذى كان أحد أتباع الشيخ قبل وفاة والده انقلب الوضع وتصاعدت حدة التوتر واتسعت هوة الخلاف والنزاع بين الطّرفين مما دفع الشيخ إلى الإنقطاع عن البلاط والذهاب إلى بلدة "ديجيل" بغية الانطلاق بنشاط الدّعوة فى جوّيتسم بحرية أكثر . هنالك استمر في الوعظ والإرشاد مع توجيه إنتقادات لاذعة للتصرفات الاستبدادية الطاغية لملوك بلاد الهاوسا بصفة عامة والملك "يونفا باوا نفاتا"، ملك "غوبر" على وجه الخصوص . أدى هذا النزاع المتواصل مع ازدياد حدته إلى تخطيط الملك يونفا باوا مؤامرة لاغتيال الشيخ والتخلص منه، بالتالى

إخماد نيران الثورة التي كانت وشيكة الاندلاع. غير أن تلك المؤامرة قد فشلت . ونجا الشيخ بأعجوبة ، كما ذكرنا سابقًا . وكانت المؤامرة الفاشلة هي الشعلة الأولى للمواجهة المسلحة بين الطّرفين وإعلان الشيخ عثمان وجماعته الجهاد المفتوح ضد الأنظمة الملكية القائمة في كافة بلاد الهاوسا (في نيجيريا والنيجر) ؛ ومن الواضح أن هدفه المباشر هو استئصال القيادات الملكية الظالمة، وبناء مجتمع إسلامي نزيه ينقاد للشريعة الإسلامية. بهذه الأهداف حظي الشيخ وجماعته بتأييد شعبي منقطع النظير، حتّى من بين العناصر غير الإسلامية من سكان المنطقة؛ لقد كان النّاس، تحت تلك الأنظمة الملكية الطاغية، يعانون من وطأة الضرائب الباهظة التي كانت تفرضها تلك الأنظمة على الشعب البائس المغلوب على أمره. كما أنها كانت أنظمة مرتكزة على الرشاوى والاستغلال والاستبداد وإنعدام العدالة. إضافة إلى ذلك، هو شيوع النّمط الإسلامي الممتزج بالوثنية والشعوذة والخرافات البالية التي انبنت عليها أسس ودعائم تلك المجتمعات في بلاد الهاوسا، سيما قياداتها السياسية والاجتماعية . وبالطبع، لم يجد الشيخ عثمان وجماعته، لمحاربة تلك العادات والتقاليد وأنظمتها القيادية ، أي بديل آخر .

مراحل الجهاد وانتشاره

يمكننا تقسيم المراحل التي اجتازها جهاد الشيخ وتوجهاته في نيجيريا وبعض مناطق غرب إفريقيا إلى المراحل الثلاث التالية :

المرحلة الأولى وتشمل الفترة من عام ١٨٠٤م حيث تم القضاء على دويلات هابي(١١) الوثنية أو الشبه الوثنية واستئصال قياداتها . المرحلة الثانية ، واتسمت بالمواجهة المسلّحة ، في الفترة ما بين عام ١٨٠٥م وحتّى عام ١٨١١م ، بين دولة صوكتو العثمانية الحديثة الإنشاء ومملكة "بورنو" التى كانت فريدة النفوذ والسّلطة الدّينية الإسلامية المعتبرة في تلك المنطقة قبل ظهور الأولى .

جاءت تلك المواجهة بين الطرفين بسبب انحياز مملكة البورنو إلى دويلات "هابى" المعادية للجهاد ومساندتها، وفي ذات الوقت أصبح الإسلام في بلاد "بورنو" منغمساً في معتقدات منحرفة. فكانت البيئة الاجتماعية برمتها في أمس الحاجة إلى الإصلاح والتطهير من الشوائب الوثنية والشرك بالله. وفي يونية ١٨٠٤م، انتصر جيش الشيخ عثمان دان فودى على جيش مملكة "غوبر" في موقع يعرف بـ"تابين كواتو"، رغم تفوق جيش مملكة "غوبر" على جيوش المجاهدين رجالاً وعتاداً.

لذا كان هذا الانتصار حافزاً مشجعاً لمختلف فئات المسلمين وبداية تدفقها للانضمام إلى صفوف المجاهدين، لاسيما أبناء العشائر الفولانية، الذين تسلم كل زعيم منهم راية الجهاد ، مع تعيينه من قبل الشيخ عثمان رائداً لتوصيل الجهاد والدعوة إلى المناطق المجاورة والنائية التى لم يصلها الإسلام بعد ، ومواصلة العمل في سبيل استئصال ما تبقّى من الآثار الوثنية والشرك،

---

(١١) هابي الجمع وكاطو المفرد ومعناها الوثنى بلغة الفولانى .

وكانت استجابة القبائل في المناطق المفتوحة إيجابية ومشجعة . شهدت كافة أرجاء بلاد الهاوسا وشمال نيجيريا عامة، بحلول عام ١٨٠٨م وبعد خضوع كبريات ممالكها مثل: "زازو" و"كانو" و"كاسينا" لنفوذ وسلطان الجهاد وسيطرته المحكمة عليها، قيام إحدى أعظم إمبراطورية تحت راية الإسلام في عموم إفريقيا جنوب الصحراء والغرب الإفريقي على وجه الخصوص. وعندما لاحظت القبائل الفولانية التى كانت تعيش في كنف مملكة "بورنو"، وجود تحالف سرى بين تلك المملكة وممالك هابى الوثنية التى تحارب دولة صوكتو الإسلامية وأحست بالخطر المتربّص بمصير الجهاد من جراء ذلك ، قامت تلك القبال بتدبير ثورة داخلية بزعامة أحد منهم يدعى "أرطو ليرليما" ضد الملك مي أحمد، البرناوى وانتصرت على قواته في مدينة "إنغورو" البورنوية، بينما قامت مجموعة أخرى من نفس العشائر بزعامة غوانى مختار، بمد زحف الجهاد إلى اعماق المملكة البورنوية وإحتلت عاصمتها "إنغازار غومو" في عام ١٨٠٨م(١٢). فرّ الملك مي أحمد، ولجأ إلى المناطق الحدودية الشرقية الشمالية بين تشاد وليبيا حيث يعيش خليط من القبائل الإفريقية والعربية التى كانت فى ظل المملكة الكانيمية القديمة التي أخذت بنهاية القرن الرابع عشر الميلادى ، في الانحطاط المستمر حتى قضت عليها مملكة صونغاي نهائياً

---

(١٢) من الإنصاف التاريخى أن نشير إلى أن مسألة المواجهة المسلحة بين الدولتين الإسلاميتين - فى صوكتو وبورنو - تعد مأسوية وانتكاسًا لمسيرة الإسلام فى تلك المنطقة بغض النظر عما تكون لها من مبررات. (المولف) .

بقيادة ملكها الشهير الحاج محمد أسكيا في القرن السادس عشر الميلادي. امتدت مملكة الكانيمى المذكورة وشملت مناطق ضفتى بحيرة تشاد شرقاً وغرباً .

استنجد الملك ميي أحمد، بالقبائل الكانيمية بزعامة ملكها محمد الأمين، (لامينو) الذى ولد في فزان بليبيا الحالية. وتمكّن محمد الأمين وقواته من استرجاع عاصمة بورنو بعد قتل الزعيم غوانى مختار. بذلك أفلتت تلك المملكة من قبضة دولة صوكتو العثمانية. بذلك كان محمد الأمين الكانيمى هو مؤسس دولة بورنو الحديثة وأول من تقلّد لقب "شيهو بورنو" أى شيخ (زعيم) أهل بورنو. وقد توفّى شيهو محمد الأمين في عام ١٨٣٥م وتولى ابنه عمر الأمين الحكم خلفاً له. ثم جاء رابح زبير، مولى سلطان مصر زبير باشا رحمة منصور(١٣) وقائد قواته في السودان الشرقي ، وأطاح بحكم عمر الأمين واستولى على تلك الدولة في عام ١٨٩٣م. قامت القوات الاستعمارية الفرنسية بقتل رابح زبير في تشاد في ٢٢ إبريل ١٩٠٠م، بينما استولت القوات الاستعمارية الإنجليزية على زمام الأمر في بورنو . استمر بعض الأجزاء من مملكة بورنو في الخضوع لسيطرة دولة صوكتو. قام الشّيخ عثمان دان فودى بتعيين محمد منغا نجل الزّعيم الفولاني غوانى مختار، قائداً جديداً لجماعته في مملكة بورنو، وقام القائد الجديد ، بتأسيس عاصمة جديدة ببلدة داوترو(١٤)

---

(١٣) هو من أصل جلاسبي أي زنجي وعربى .

(١٤) هى كلمة فولانية. تعنى (داو تورو) اى بكّرو إنحن (على البئرفي صباح مبكر) لتجلب الماء منه، ثم حرفت الكلمة الى "داماترو".

كما أخضع منطقة "ميساو" لنفوذه". وفي الجنوب والجنوب الغربي لمملكة بورنو الكانيمية أى في منطقة "غومبى" نهض أحد تلاميذ الشّيخ عثمان دان فودى يدعى بوبا يرو بنشاط دعوة الوثنيين إلى دين الإسلام. تمكّن، هو الآخر من إخضاع تلك المنطقة برمتها للانقياد لراية الجهاد في ظلّ دولة صوكتو العثمانية. وبالمثل قام المعلم يعقوب أحد أتباع الشّيخ الأربعة عشر الذين تسلموا أعلام الجهاد منه لنشر الإسلام - بتوصيل نفوذ الجهاد إلى منطقة باوتشى وصولاً إلى مناطق أنهار بينوى وغونغولا والجزء الشّمالى لجمهورية الكاميرون الحالية .

وفي عام ١٨١٠م وصل الجهاد إلى بلاد "نوبى" في الجنوب الأوسط، من خلال المعلم ديندو الفولانى . وعندما توفى ملك بلاد "نوبى/نوفى" في عام ١٨١٨م، تولى المعلّم ديندو حكم تلك البلاد . وقد انتقل إلى رحمة الله في عام ١٨٣٢م تاركاً وراءه كل بلاد نوبى خاضعة لدولة صوكتو. واصبحت كافة أرجاء ماهو اليوم شمال نيجيريا قاعدة الشريحة الأساسية للإمبراطورية الإسلامية الفولانية التى امتدت غرباً حتى شملت أجزاء لما هو اليوم جمهورية بينين والجنوب الغربي لجمهورية النيجر وبلاد آداما وفي الشمال الغربي لجمهورية الكاميرون الحالية .

وفي الجنوب الغربى وصل الجهاد إلى مملكة "أويو" ومقاطعة "إلورين" اللتين شكلتا جزءاً من تلك الإمبراطورية . انتقل الشيخ في عام ١٨٠٩م من

مدينة "صوكتو" عاصمته إلى مدينة السّيفاوا التى تبعد عنها بحوالى أربعين ميلاً واستقر هناك ، وقام في عام ١٨١٢م بتقسيم مسؤولية إدارة شؤون دولته إلى قسمين :

١- وضع الجزء الشّرقي الذى يشمل مناطق "باوتشى"، "داورا"، "كانو"، "كتاغون"، "كاتسينا" و"زانفرا" تحت الإشراف المباشر لنجله محمّد بللو.

٢- وضع الجزء الغربي الذي يشمل مناطق "غواندو"، "برغو"، "ديندى"، "إلورين"، "ليبتاكو" وبلاد نوبى، تحت الإشراف المباشر لعبدالله دان فودى شقيقه.

اتسمت الدولة الإسلامية الجديدة فى صوكتو بالأمن والاستقرار لامتثالها للشفافية فى القيادة ، والعدالة الاجتماعية والمسؤولية الفردية والجماعية وفقًا لأحكام الشّريعة . وشهدت منطقة الغرب الإفريقى فى ظلّ تلك الدولة التى أطلقوا عليها تسمية الخلافة ، نهضة ثقافية وحضارية لم يسبق لها مثيل فى تاريخها (المنطقة) .

عندما توفّى الشيخ عثمان فى عام ١٨١٧م، انتقل زمام الحكم إلى ابنه محمّد بللو(١٥) الذى تقلد لقبى أمير المؤمنين والسّلطان خلفاً لوالده . استمر حكمه زهاء عشرين سنة. وتوفى فى عام ١٨١٧م. وجاء من بعده أخوه أبوبكر العتيق الذى حكم من عام ١٨٣٧م إلى ١٨٤٢م . ثم تولّى، من بعده نجل محمّد بللو ، على بابا، من ١٨٤٢م إلى عام ١٨٥٩م. ظلّ نظام الحكم

(١٥) بللو كلمة فولانية ومعناها المساعد أو المعاون .

الذى تركه الشيخ عثمان واستمر به نجله محمّد بللو مثلاً يحتذى به للقيادة المثالية المبنية على إخلاص النية والعدل والأمانة. وقد تضاءلت حيوية تلك الدولة الإسلامية فى بداية القرن العشرين بمجىء الاستعمار الأوروبى الغربى وفرض سيطرته على المناطق الشاسعة المترامية الأطراف التى غطتها تلك الإمبراطورية بغرب ووسط إفريقيا .

المنهج الفكرى لجهاد عثمان دان فودى

كان الشيخ يرى أن كل جهاد ماهو إلا ثورة يقوم بها نفر من النّاس ، بهدف إحداث تغيير لواقع اجتماعى معين ، ومن ثم يجب أن تكون لكل ثورة مناهجها لتحقيق الأهداف التى تصبو إليها . لذا حدد هو وجماعته النّقاط الخمس التالية لتكون أهداف جهادهم المعلن فى الغرب الإفريقى :

١- السّعي لتصحيح المعتقدات والمفاهيم الخاطئة عن الإسلام والتى يتمسك بها بعض الطبقة المتعلمة؛ لاسيما علماء الدين وطلبة العلم . وتشمل هذه المعتقدات جوانب إيمان الإنسان المسلم بالله وانعكاسات ذلك على حياته .

٢- تطبيق الشّريعة على كافة مجتمعات المسلمين فى ذلك الجزء من العالم على ضوء كتاب الله وسنة رسوله الكريم ، كما أنزلها الله وأوضحها الرّسول قولاً وعملاً .

٣- تشجيع النّاس على إتباع السّنة المحمّدية والامتثال لها قولاً وعملاً والحرص على انتشار مفاهيمها الصحيحة بين عامة المسلمين .

٤- السّعي من أجل القضاء على البدع الشيطانية الدخيلة على عقيدة المسلمين ؛ والعمل للتخلص من العادات والتقاليد المناهضة للأسس الصّحيحة للشّريعة، وعدم الانسياق لممارسات الشّعوذة والخرافات العقيمة .

٥- السّعي من أجل نشر الوعى الإسلامى بين عامة النّاس ، وذلك عن طريق الاعتماد على مؤلفات وآراء أجلة العلماء المجتهدين والمتعلقة بتفسير القرآن الكريم والأحاديث النّبوية الشّريفة وتوضيحها وشرحها .

ويتحقق هذا المنهج الفكرى وأهدافه السّامية فى إطار دولة إسلامية ذات ثلاثة عناصر أساسية هى: (١) العلماء الذين يقومون بدور التوجيه . (٢) عامة النّاس الذين يقومون بالامتثال لهذا التوجيه . (٣) الحكام الذين يشرفون على مسيرة هذا التوجيه والامتثال له .

ويتعين على تلك الدولة أن تكون كاملة النضوج الإنمائى الذى تجتاز خلاله المراحل الثلاث التالية لكي تتمكن من إنجاز أهدافها المذكورة على الوجه الأكمل :

١- المرحلة المبكرة : وهى ماقبل إعلان الجهاد العام. وهى مرحلة توجيه الأمة، وتتسم بالاعداد الثقافى والروحى لعامة الناس عن طريق الوعظ والإرشاد والتعليم ونشر الوعي بصورة عامة .

٢- المرحلة المتوسطة : وهي المرحلة التأسيسية للدولة ، وتتميز بالسّعى من أجل التّخلص من العناصر السلبية الفاسدة من الحكام . والتركيز على إصلاح أخلاق النّاس وإنعاش الجوانب الرّوحية فيهم .

٣- المرحلة الأخيرة : وهى أعلى مرتبة اكتمال قيام الدولة ، وتتميز بوضع المنهج الفكري والعملى للحياة بصفة عامة ، علما بأن النّاس منقسمون بطبائعهم وظروفهم إلى ذوى الاستعداد للانسياق إلى التّوحيد الخالص ، وهم العلماء . والفئة الثانية هم عامة النّاس الذين ، وإن كان لهم الرّغبة فى هذا الانسياق ؛ فهم فى حاجة إلى تقليد واتباع العلماء .

صراع فكري بينه وبين علماء عصره

تشير المناهج والأساليب المرنة التى التزم بها الشّيخ عثمان فى نشر آرائه الدّينية فى غرب إفريقيا ، لاسيما فيما يتعلق بجوانب الحياة الاجتماعية والسّياسية ، إلى أنه كان ، منذ قيام الجهاد مهتماً اهتماماً خاصاً بمصالح الدهماء ومصيرهم. ولايعنى هذا أنه كان يقر كل العادات والأعراف الموروثة بين النّاس، بل كان ينتقد كل التقاليد المناوئة للتعاليم الإسلامية عبر مؤلفاته باللغتين العربية والفولانية وغيرهما . ومن خلال حلقاته الدراسية ومحاضراته الدّينية، وبأساليب اتسمت باللطف والتّفهم، امتثالاً لقوله تعالى : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة). وقد حظى الشيخ عثمان بتأييد الجماهير لرأيه وانضمامهم إليه بفضل هذا الأسلوب السّمح، الذى استخدمه فى الدّعوة ، والذى أغاظ به ، من ناحية أخرى فئة من العلماء ، كان لها نفوذ وقدر كبير من السّلطة، وتريد إبقاء الحال على وضعه ، حتّى تضمن استمرار

استغلالها للشعب ، الذى ظلت مهيمنة عليه سنين طوال. ويمكننا تقسيم هذه الفئة من العلماء إلى المجموعات الثلاث الآتية :

(أ) الذين أرادوا استغلال الشّعب عن طريق استخدام مالديهم من المعارف الفقهية الجامدة .

(ب) الذين يدّعون بأنهم أصوليون ويحاولون تبرير المفاسد السّياسية، والانحلال الخلقى بجميع أنواعه بغية تحقيق مصالحهم الخاصة .

(ج) والآخرون هم الذين نصبوا أنفسهم روادًا للبدعة ، بتشجيع التقاليد والعادات البالية المناوئة للشّريعة . وكانت ثمة مواجهة صارمة بين الشّيخ عثمان وأتباعه من ناحية ، وهذه الفئة من العلماء من ناحية أخرى ، وأراد هؤلاء العلماء تلبيس الحق بالباطل فاتهموا الشّيخ وجماعته بالنفاق والابتزاز وإثارة الفتن ، وطلبوا الاستنجاد بالحكام لمنعه من ممارسة أنشطته الدّينية وبث آرائه حول الإصلاح الدّيني والاجتماعي .

مؤلفات الشّيخ عثمان دان فودى

بلغت مؤلفات الشيخ عثمان دان فودى ألفاً ومائة ما بين الكتب والمقالات. وقد قام بكتابة هذه الأعمال، التي عالجت القضايا الدّينية السّياسية والاجتماعية والاقتصادية ، خلال فترة استغرقت أربعين عاما . وقد كان هناك جهود تبذل منذ بداية القرن التاسع عشرة ، لوضع قائمة لها . ومن الأوائل الذين قاموا بذلك ابنه محمّد بللو ، في كتابه "إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التّكرور " .

وقد ذكر فيه حوالى ثمانية عشرة مؤلفاً تتعلق بالمرحلة التكوينية لجهاد صوكتو التي تميزت بالتّدريس والوعظ والإرشاد، قبل تأسيس جماعته التي عرفت فيما بعد " بالجماعة "، وأشار محمّد بللو في آخر تلك القائمة إلى أن مؤلفات(كتب) والده قد بلغت أكثر من مائة . ويمكن تقسيم أهمها وأهدافها الرئيسية والمباشرة ، وأطرها الزّمانية إلى الثلاثة مجموعات التالية :

أولاً : مؤلفاته خلال الفترة من ١٧٧٤م إلى ١٨٠٤م. وعالجت قضايا الإيمان والكفر في الغالب، وإحياء السنّة النّبوية الشّريفة، ومحاربة البدع الداخلة على معتقدات المسلمين، بواسطة عاداتهم وتقاليدهم، وحقوق المرأة المسلمة وضرورة تربيتها دينيًا وثقافيًا. وحملت مؤلفاته حول هذه القضايا العناوين التالية :

أ – إحياء السنة وإخماد البدعة .

ب – ببيان البدعة الشيطانية التي أحدثها النّاس في أبواب الملة المحمّدية .

ج – تنبيه الإخوان على جواز اتخاذ المجلس من أجل تعليم النساء الفرائض الدينية .

ثانياً : مؤلفاته خلال الفترة من ١٨٠٤م إلى ١٨١٠م. وتناولت أعماله فى هذه الفترة ، موضوعات ومسائل فكرية عقائدية . مثل دواعي الهجرة والجهاد ، ظهور المهدى المنتظر ، مبادئ العدالة الاجتماعية إلى آخره . ومن تلك الكتب :

أ – بيان وجوب الهجرة .

ب – النبأ الهادي إلى أخبار الإمام المهدي .

ج – أصول العدل لأولات الأمور وأهل الفضل .

ثالثًا : تضم مؤلفاته لهذه المرحلة كتاباته في الفترة من ١٨١٠م إلى ١٨١٧م. عالج فيها الأصول الفكرية للمؤسسات الإسلامية التي تقوم عليها الدولة المبنية على قواعد الشّريعة في ضوء القرآن الكريم والسنّة النّبوية الشّريفة وممارسات الصحابة عليهم رضوان الله سبحانه وتعالى. بررت هذه المؤلفات قيام الجهاد في تلك المنطقة والأهداف التى يرمي إليها ومنجزاته الملموسة ، وأهم الكتب الصادرة في هذه الفترة هي :

أ – كتاب الفرق .

ب – نجم الإخوان .

ج – سراج الإخوان .

د – نصيحة أهل الزّمان ، إلى آخره ...

وفي الخلاصة ، أشير إلى أن الأعمال الأدبية والدّينية والاجتماعية التى قام بها الشّيخ عثمان قد تراوحت ما بين مائة كتاب ، وأربعمائة وثمانين قطعة شعرية . وبلغت جملة ما ألفه أصحابه وخلفاؤه وأفراد عائلته ومن بينهم أخوه عبد الله وابنه محمّد بللو وبنته أسماء ، أكثر من خمسمائة (٥٠٠) عمل أدبي وديني واجتماعي وسياسي .

آثار دولة صوكتو الثقافية على الشعوب المجاورة

قال الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه العظيم :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الذِين آمنُوا مِنكُم وعمِلوا الصَّالِحاتِ لَيستخلِفنّهُم في الأرضِ كَمَا استخلَفَ الَّذينَ مِن قَبلِهِم وليُمكنَنَّ لهُم دينهُمُ الّذِي ارتَضَى لهُم ولُيبدِلَنّهم مِن بعِد خوفِهِم أمناً يعبُدُونَني لا يُشرِكُونَ بِي شَيئاً ومن كَفَر بعَد ذلِك فأُولئك هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ (١٦)   صدق الله العظيم

وعن ابن عبّاس ﷺ : أن النّبي صلى الله عليه وسلم ، قال : ألا أخبركم بخير النّاس ؟ رجل مسك بعنان فرسه في سبيل الله . ألا أخبركم بالّذي يتلوه : رجل معتزل في غنيمة له يؤدى حق الله فيها .

إنه لمن الإنصاف والأمانة العلمية والتّاريخية أن نعترف بفضل جهاد الإصلاح الدّينى والاجتماعي والنّهضة الثقافية والفكرية الذى قام فى منطقة السّهل الشمالي لغرب القارة الإفريقية تحت قيادة المجاهد الكبير الشّيخ عثمان دان فودى ، ولايزال دوي ذلك الجهاد يتردد في جميع أرجاء المنطقة حتّى يومنا هذا ، وسيستمر إلي ماشاء الله تحقيقاً لما وعد الله به المؤمنين .

إذ لايغيب عن أذهاننا أنه كانت هناك ممالك وإمبراطوريات ذات شأن سبقت دولة صوكتو إلى الظهور في منطقة الغرب الإفريقى بقرون. وكانت هناك نهضات ثقافية وحركات تجارية وإصلاحات اجتماعية وانطلاقات فكرية

(١٦) الآية : ٥٥- من سورة النور .

ترافق مسيرات تلك الممالك الإفريقية هبوطاً وصعودًا ، بحيث يجوز لنا أن نطلق على تلك الأحداث التّاريخية اسم "الحضارة". ونذكر على سبيل المثال إمبراطوريات : غانة (١٠٦٨م) ومالي (١٢٣٠م) وصونغاي (١٢٧٥م) وهاوسا (١٣٤٩- ١٣٨٥م) وبورنو (١٢٥٩م) وأشانتي (١٦٨٠م) ويوربا (في أواخر القرن الرّابع عشر الميلادى) الخ . وكانت هناك ، قبل هذه الدول إمبراطورية ظهرت على ضفة نهر السنغال ووصل نفوذها حتّي غامبيا فى الألفية الأولى قبل الميلاد ، وعرفت بإمبراطورية التكرور ، نسبة إلي مدينة التّكرور ، عاصمتها. كما كانت أعظم شأنا من بين الممالك والإمبراطوريات الإفريقية التي ظهرت إلى حيز الوجود فى تلك المنطقة فيما بعد، مما جعل المؤرخين الأوائل ينسبون جميع شعوب المنطقة إليها تجاوزاً (١٧) .

غير أنه ، وللحق نقول إن الحقبة التّاريخية أى الفترة ما بين عام ١٨٠٠م إلى عام ١٩٠٣م التى عاشتها دولة صوكتو الإسلامية ، وعلى الرّغم من قصر عمرها تعتبر "عصرًا ذهبياً" بالنسبة لإفريقيا جنوب الصحراء ، على غرار العصور الذهبية الأخرى التي سجلها التاريخ في مختلف مدار النهضة الثقافية والحضارية ، الإسلامية منها وغير الإسلامية . وبالتالي يمكن ، في رأينا ، أن نقارن على سبيل المثال عصر دولة صوكتو بالعصور الذهبية الآتية :

---

(١٧) يطلق على كل إنسان ينتمى إلى غرب إفريقيا ، اسم "التكرور" وتجمع الكلمة على "التكارير".

أولاً : العصر العباسي الأول (سنة ١٤٣هجرية) في تاريخ الإسلام ، حيث قام فحول العلماء والمثقفين المسلمين في تصنيف الحديث والفقه والتفسير وكتب اللغة العربية والأدب والتاريخ وأيام النّاس ألخ . وكان من أشهر علماء ذلك العصر الذهبي ، الإمام مالك رضي الله عنه الّذي ألف كتابه المشهور "الموطأ"، وابن إسحاق الذي كتب السيرة النّبوية الشريفة، وأبي حنيفة الذي صنف في الفقة والرأى الخ ... يصف لنا البروفسير نيكولسن **NICHOLSON** فى كتابه "تاريخ الأدب العربي - **a Literary History of the Arabs**" هذا العصر الذي بلغت فيه نهضة الثّقافة الإسلامية ذروتها قائلاً : " كان جلة الباحثين وطلاب العلم من المسلمين يرحلون في حماس وشغف وينتشرون في أوساط القارات الثلاث أى إفريقيا وآسيا وأوربا التي كانت تمثل العالم المعروف بأسره آنذاك . ثم يعودون إلى أوطانهم كما يعود النّحل جماعات إلى قفيرها حاملة عسلاً شهياً . فيجلس هؤلاء الباحثون ليرووا شغف الجماهير التي كانت تنتظر عودتهم لتلتف حولهم وتنال من علومهم ومعارفهم زاداً وفيراً وخيراً عميماً. كما كان هؤلاء الباحثون يعكفون أحياناً على تدوين ما جمعوا أو سمعوا من المعلومات ثم يخرجون للنّاس كتباً قيمة هي بدوائر المعارف أشبه مع نظم شعرية ونثرية وبلاغاتها العذبة . وكانت تلك الكتب هي المصادر الأولى للعلوم العصرية في ذلك الوقت ، بأوسع ما تحتمله الكلمة من المعنى. وهي مراجع العلماء والباحثين يستمدون منها فنوناً من الثّقافة والمعارف بصورة أوسع مما يظنه النّاقدون . "

ثانياً : العصور الذهبيـة في الثقـافة الأوروبيـة الآتية :

أ – الأدب اللاتيني القديم في حوالي عـام (٧٠) قبـل ميـلاد عيسـى عليـه السّلام حتّى حوالى عام ١٣٣ بعد الميلاد ، أى في عهد ملكي الدولة الرّومانية سيسرونى (Cicernian Period) وأوغوسـتن (the Augustan period). شـهدت هذه الفترة التّاريخية فـي الحضـارة اليونانيـة القديمـة منجـزات أدبيـة وفكريــة عظيمـة. وكـان مـن أشـهر علمــاء هـذا العصـر الذهبى ، فيجيليــوس ســاروا المعروف بــ (VIRGIL) الـذي يعتـبر أعظـم شـاعر رومـاني فـي مجـال الشـعر عموماً . (Epic) وقـد اشـتهر بقطعتـه الشـعرية : أينيـد (Aeneid) التّـي لـم تمـتز بالإيقاعات الموسيقية والبلاغة الأدبية فحسب ، بل فاقت بقصـص روائيـة ممـا حملت الأمة الرّومانية على الاعتقاد بأن عليها تقع مسؤولية سماوية لقيادة سائر الأمم الأخرى إلـى التّمـدن والحضـارة . والشـاعر ، كونتـوس هـورا سيسـوس فلاكـــوس المعروف بـ (Horace) : الذي رفع مكانة الأدب اللاتيني في الشعر الغنائي العاطفي الوطني والدّعوة إلى الامتثال لأخلاقيات المحبة والإخاء والوئام والسّمو الرّوحي في إتقـان الشّعر اللاتيني الرفيع .

ب – العصر الذّهبي في الأدب الأسباني في حوالى أعـوام (١٥٠٠ حتّـى حوالي عام ١٦٨١ الميلادي بلغ الحماس الوطني والدعوة إلى التّمسك بـالقيم الرّوحية والامتثال للحماسة الشّعرية التي اشتهرت بها الثقافة اليونانية القديمـة . ذروة وكان من أشهر أدباء هذا العصر الذهبـي، الكـاتب الرّوائـي ميجيـل دي سرفانتس جورج والأديب فرانسسكو غوميز دى كوفيـدو . كمـا تعتبر الفـترة

من ١٥٤٧م إلى عام ١٦١٦م أعظم شأناً في تاريخ الحماس الأدبي لأسبانيا، لاسيما في كتابة القصص الرّوائية التى تأثر بها الأدب الأوروبي بصفة عامة في الأوقات اللاحقة .

خلفية ثقافية لدولة صوكتو

تأثرت هذه الإمبراطورية بالثّقافات الإسلامية السائدة في منطقة الغرب الإفريقي من خلال المجتمعات الإسلامية التي ظهرت في تلك المنطقة منذ قرون . واستمرت آثارها تتبلور مع اتساع النّمو الاجتماعي . لكن امتازت هذه الآثار عن سواها، كما أشرت إليه سابقاً بفضل الحيوية التي اتسم بها علماء وأدباء تلك الدولة في الإنتاج الأدبي والفكري الإسلاميين ، وكانت سمة هذه الحيوية هي الحماس الجماعي الذي تجسم في عقلية قيادة الخلافة رجالاً ونساءً . وقد عكف قائد الجهاد الشيخ عثمان دان فودى على التأليف ، و التف حوله أصحابه وإخوانه وأبناؤه وبناته وتلاميذه ، هم أيضاً عاكفون على التصنيف والوعظ والإرشاد ، وأخذوا في التّفاني في تمجيد العلم وإعزازه ، وكانت تلك هي سر نجاح خلافة صوكتو وخلود آثارها على مر الأزمنة ، ولمزيد من إلقاء الضوء على هذه الشّخصية العلمية الجاذبة (Charisma) لخلافة صوكتو تتعين الإشارة إلى المفهوم الحماسى الجماعي أو الفكر الجماعي الذي اتسمت به قيادة تلك الدولة وسكانها جماعةً وأفراداً. لقد عرف البروفسير روبرت ع. بارك (١) ROBERT E. PARK عالم الإجتماع الأمريكي ؛ السّلوك الجماعي بأنه ذلك التّصرف الذي ينتهجه الأفراد استجابة

لتأثير أو دافع مشترك ، أي هـــو تصرف الفرد بصفته عضواً في مجتمعه ، مع كون الحافز الذي يستجيب له ناجماً عـن خـبرة جماعيـة مشـتركة مـن واقـع تفاعل اجتماعي معين . ويرى كل من العالمين الاجتماعيين رالف هـ . تيرنر (Ralph H. Turner) ولويس م. كيليا : (Lewis M. Killia) أن السّلوك الجمـاعي ماهو إلا ردود فعل الأفراد لمجتمع معين لمسايرة التّطـورات والممارسـات أو التّصرفات التي تحدث تلقائيا على نقيض العادات والتّقاليد المـألوفـة في ذلك المجتمع. أما المفكر التّربوى نيل جي سملسير .(Neil J. Smelser) ، فإنه يرى أن السّلوك الجماعي لابد أن يتخذ أسـلوباً مبنياً علـى العقيـدة التي تسـتهدف إعطـاء مفهـوم جديـد للتفـاعل الاجتمـاعي . بينمـا يطلـق العـالم الاجتمـاعي الإسلامي الإفريقي الشهير عبد الرحمن ابن "خلدون" علـى النتـائج التـي يسـفر عنها السلوك الجماعي اسم الميلاد الجديد للمجتمعات البشرية. وكان انـدلاع جهاد عثمان دان فودى حقـاً ميـلاداً جديـداً لمجتمـع شـمال نيجيريـا ومنطقـة الغرب الإفريقي برمتها ، وما كان لذلك الجهاد بد من أن يـترك أثـراً ملموسـاً على المجتمعات المجاورة وما جاوزها في تلك المنطقة على الوجه التالي :

أولاً : تنطبق كل التّعريفات المذكورة آنفـاً علـى مميزات الجهـاد الـذي أعلنه الشيخ عثمان ؛ إذ نجد هذه الجماعة (جماعـة عثمـان دان فـودي) علـى الرّغـم من أن الوسائل المتوفرة لديها للتعبئة كانت محدودة فـي ذلـك الموقـت إلا أن درجة ردود الفعل وتجاوب الأفراد والجماعات لها كانت عاليـة للغايـة،

مما يؤكد بدون شك ، وجود أسباب كامنة ومهيئة وظروف قابلة للانفجار في بيئتهم تلك ترحاباً بذلك الجهاد .

ثانياً : كانت أنشطة التثقيف التى شهدتها تلك الدولة في فترة قاربت عشرين سنة في التّوعية والوعظ والإرشاد مثمرة وناجحة . كما كانت ذات أثر كبير ومنقطعة النظير، فكانت تمثل فترة التعبئة تلقائية لروح معنويات الشعب وحشدها .

ثالثاً : لم يكن مجتمع منطقة السّهل الشّمالي التي شملها نفوذ إمبراطورية صوكتو فيما بعد ، خارج نطاق التأثير الثقافي والاجتماعي اللذين تأثرت بهما مناطق السّهل الغربي والسّاحل الجنوبى ، والتي كانت ذات علاقة بنفوذ دولة المرابطين التي أسسها المسلمون بمساعدة قبائل صنهاجة وامتدت سيطرتها على الشّمال الإفريقى والأندلس ، وكانت متأثرة بالتّيار الثّقافي الّذي هبّ عليها من المشرق العربي .

رابعاً : أوجد ظهور إمبراطورية صوكتو بعد انتصاراتها الكبيرة على ملوك الهاوسا ، في نفوس أتباع الشيخ عثمان والجماعة حماساً جديداً وشغف الانتماء إلى الإسلام والاستعداد للدفاع عنه والرّغبة في مواصلة الجهاد والاندفاع للتثقّف والتثقيف . كما رفع الروح المعنوية لجيشه فأقبل المسلمون من القرى والأمصار يشتركون في ذلك الجهاد طوعاً .

آثارها الثقافية على المناطق المجاورة

العامل الأول : يعتبر عام ١٨٠٤م عامًا حاسماً بالنّسبة للدولة الإسلامية التي أسسها المجاهد عثمان دان فودى وأتباعه والتي عرفت فيما بعد بخلافة صوكتو . وهو العام الذى بدأت فيه حركة الجهاد تتخذ شكلاً جديًا واستراتيجيًا خاصًا بها . ففي ذلك العام أعطى الشيخ أعلام الجهاد إلى لفيف من أتباعه وتلاميذه وأقاربه ، وأخذ منهم المبايعة ، كما تعاهدوا على نصرته والعمل لإعلاء كلمة الله ونشر الوعي الديني بين النّاس ؛ وكان لهذا العمل أثر كبير فى انتشار نفوذ تلك الخلافة وآثارها على غرب إفريقيا عموماً . توجه عدد كبير من دعاتها إلى مختلف أرجاء البلاد ، مدنها وقراها، لنشر الدّعوة الإسلامية أثناء مسيرة الجهاد ، ومنهم :

١- عمر دلاجي إلى إقليم كاتسينا وضواحيها .

٢- سليمان إلى إقليم كانو وضواحيها .

٣- المعلم موسى إلى إقليم زاريا وضواحيها .

٤- غوانى مختار إلى إقليم بورنو وضواحيها .

٥- سامبو دجسا .ابن أرطو أبدورى من بلاد ماسينا توجه إلى إقليم هطيجا .

٦- مودبوآدما إلى إقليم آد ماوا .

٧- بوبا يرو إلى إقليم غوامبي .

٨- المعلم زاكى إلى اقليم كتانغوم .

٩- عبدالعليم (عبدالعظيم) إلى إقليم إلورين .

١٠- محمد (أهي - بولو) إلى اقليم بغامي كلفو .

١١- المعلم إسحاق إلى إقليم دورا وضواحيها .

١٢- الشيخ يعقوب إلى إقليم باوتشى وضواحيها .

وكان لكل واحد من الدعاة والمجاهدين والقواد رجال مقاتلون تحت قيادته وقاموا بدورهم بتسليم وتوزيع إعلام الجهاد إلى أفراد آخرين، للتوجه إلى الأقاليم الأخرى التى لم يتم فتحها بعد. وكانوا مجهّزين أنفسهم بما لديهم من كتب ومصنفات علماء صوكتو وغيرهم. فمن خلال إقليم "لاردين أدماوا" (بلاد آدماوا) الواقع فى أقصى الجنوب الشّرقي من مقر الخلافة انتقلت آثارها إلى المناطق الساحلية فى غرب إفريقيا . حيث وصل الفقيه مودبو آدما ، أحد كبار تلاميذ الشيخ عثمان ومعه علم الجهاد ، وأسس دولته هناك على نمط دولة صوكتو . وأصبحت كتب ومؤلفات علماء صوكتو هى المراجع الأساسية، إلى جانب القرآن والسنة النّبوية، لعلماء لاردين آدماوا .كما نشهد ذلك حتى الآن في مدنها الكبرى مثل "يولا وغيرى ونستارى" وغيرها . ومن خلال إقليم "إلورين" فى بلاد اليوربا الواقعة على الجنوب الغربى لصوكتو ، وصل الشيخ صالح بن محمد بن جنتا المشهور بالشيخ عبد العليم الذي كان من كبار علماء صوكتو ومن أقرب الشخصيات لقائد الجهاد الشيخ عثمان . وقام بتأسيس أول مسجد لمدينة "إلورين"، حيث نشأت أول حكومة إسلامية ، ومن خلاله وصل نفوذ صوكتو إلى المنطقة الجنوبية في نيجيريا .

العامل الثانى : إدارة الدولة

عندما انتقل الشيخ عثمان دان فودى من مدينة غواندو "GWANDU" بعد فتحها، كانت مدينة صوكتو العاصمة الجديدة لتلك الدولة. ثم انتقل منها إلى مدينة السّيفاو حيث يقيم شخصيًا وولى أخاه عبد الله بن فودى مسؤولية الإشراف على شؤون البلدان المفتوحة فى المنطقة الغربية للخلافة متخذاً غواندو عاصمة لها . وولى ابنه محمّد بللو مهمة الإشراف على شؤون البلدان الواقعة على المنطقه الشّرقية متخذًا صوكتو عاصمة له . وأصبح كل واحد منهما يعمل جاهدًا لتوسيع رقعة الخلافة ومد نفوذها .

العامل الثّالث : حث المسلمين على الهجرة

كانت الهجرة الطّوعية التي حث الشيخ عثمان دان فودى جماعته على القيام بها عند اقتضاء الحاجة من أهم العوامل التى ساعدت على نقل الآثار الثقافية لخلافة صوكتو إلى مناطق أخرى في كثير من بلاد الغرب الإفريقي . وقد جاء في كتابه "مسائل مهمة" أنه يجب على المسلم أن يهاجر من دار الكفر إلى دار الإسلام . شجع هذا التوجيه العام جمهوراً من أتباعه على أن يكونوا مستعدين للانتقال من مكان إلى آخر وأن يكونوا ذوى إحساس شديد بما يمس كرامتهم وشخصيتهم ، حتى ولو لم تصل درجة المضايقة حد الانتقال والهجرة . وحظت خلافة صوكتو بوجود أعداد كبيرة من العلماء والفقهاء . إذ يذكر لنا الوزير غيطاطو (المتوفي سنة ١٨٥١م) في كتابه " بسط الفوائد " أنه كان هناك مالا

يقل عن أربعمائة وخمسة وعشرين (٤٢٥) عالماً وفقيهاً اشتهروا في تلك الخلافة . إذن من البديهي ، بعد أن وضعت الحرب أوزارها ألا يبقى كل هذا العدد من الفقهاء في صوكتو. لاسيما بعد وفاة قائدهم الشيخ عثمان . فغادر بعضهم ، إما لخلافات شخصية أو لحافز اقتصادي أو خلافهما ، لكن أهم عامل هو نزعة الهجرة التي اتسم بها كبار شخصيات الخلافة جراء سقوطها فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى على أيدي المستعمرين الإنجليز ، الذين اعتبرهم المسلمون ، خاصة العلماء منهم ، كفرة ، ويجب الابتعاد عنهم ، الأمر الذي جعل معظمهم يرتحلون عن الدولة إلى أماكن أخرى حاملين معهم ثقافتهم الإسلامية والعربية .

منافذ تلك الآثار الثقافية

بإلقاء النظر إلى جغرافية غرب إفريقيا نجد أن هناك طرقاً عرفها الإنسان الإفريقي واستخدمها في نقل عروضه التّجارية عبر التاريخ ، وبالطبع لم يلعب الإنسان الإفريقي دوراً أساسياً في بناء هذه الطرق التجارية عن قصد ، كما كان الأمر بالنّسبة للشعوب الأخرى . بل كانت ظروف الطقس من مواسم سقوط الأمطار والجفاف هي التي تحكمت فى رسم تلك الطرق ، التي تسلكها القوافل التجارية ويستخدمها الأفراد في الحل والتّرحال ، ويمكننا تقسيم هذه الطرق التي عرَفها الجغرافيون بالحزام التجاري الذي ربط بين مناطق السّهل وجنوبها امتداداً مما هو اليوم شمال نيجيريا ، مكتسحاً جمهورية النيجر ووصولاً حتّى المناطق الواقعة فى أقصى الشّمال الجنوبي والغربي للقارة الإفريقية . كما يمكننا تقسيم هذا

الحزام إلى قسم يشمل مناطق مجرى نهر النيجر مؤدياً إلى بلاد نوبي (NUPE) في المناطق المدارية ووصولاً إلى مناطق الغابات الكثيفة ، وكان التّجار يستعملون هذه الطرق في موسم الجفاف لحماية عروضهم التجارية المتمثلة في الناترون (NATRON) والكحل وحبوب الكولا، والحيوانات التي يعتمدون عليها في نقل تلك العروض لحمايتها من الرّطوبة المرتفعة والأمطار الغزيرة. وأما القسم الثّاني فيشمل المناطق الصحراوية والسّهول التي تربط بين شمال نيجيريا وجيرانها من مناطق السّهل الأخرى من النيجر وشمال بينين وتوغو وغانا وسواحلها وحتّى صحراء إفريقيا الكبرى وصولاً إلى الشمال الإفريقي(١٨). يصلح هذا الجزء لمرور القوافل التجارية في فصل الشتاء وموسم الأمطار الخفيفة لقلة رطوبة طقسها وجفاف أجوائها. وبالمثل ، انتقلت الآثار الثقافية والاجتماعية لخلافة صوكتو من خلال هذه المنافذ إلى المناطق الأخرى المجاورة في الغرب والوسط الإفريقيين ، نذكر فيما يلي بعض الأمثلة لتلك الآثار في بعض بلدان المنطقة .

جمهوريتا توغو وغانا

المبحث الأول : الهيكل الاجتماعي

١- إذا أخذنا المجتمع الإسلامي في هذين البلدين نجد أن ثمه ثلاثة عناصر أساسية هي التي تشكل نواته . ويتكون العنصر الأول من أهالي البلاد

---

(١٨) انظر الخريطة التى تبين تلك الطرقات فى هذا الكتاب .

الأصليين الذين اعتنقوا الدّين الإسلامي على أيدي المهاجرين الذين نزلوا عليهم من البلدان المجاورة وهم أقلية .

٢- والعنصر الثّاني هم المهاجرون الّذين أتوا إلى هذه البلاد واستوطنوها وتصاهروا مع الأهالي الأصليين وهم الأغلبية .

٣- أما العنصر الثّالث فهو متمثل أيضا في المهاجرين لكن من الذّين لم يطل بهم الإقامة والاستقرار ، وبالتّالى لم يتصاهروا مع أهالي البلاد الأصليين ، وهم أقلية مميزة من حيث الثقافة اللغوية والعادات والتقاليد، لأنهم متمسكون بتقاليدهم وعاداتهم المتميزة .

المبحث الثّاني : الآثار الاجتماعية

لا يختلف اثنان حول كون الدّين الإسلامي قد دخل إلى هذه البلاد قبل ظهور دولة خلافة صوكتو إلى حيز الوجود ، بقرون . كما لا ينكر أحد أيضًا كون هذه البلاد قد تأثرت بالعادات والتقاليد الإسلامية التي وصلتها من شرق المنطقة حاملة في ثناياها ملامح تلك الخلافة . غير أنها ، ومن خلال علمائها وتلاميذهم على التعاقب قد تركت آثاراً دينية واجتماعية على هذه البلاد عقب اتصال الطرفين . وكان ولا يزال للمجتمع الإسلامي سيمات يتميز بها في هذه المناطق ، أولاها أحياء أو أماكن الإقامة التي يلطقون عليها (زنغو ZANGO [١٩] بلغة الهاوسا . وهي أحياء خاصة بهم تتميز بسيمات .

---

(١٩) معنى "زنغو" "محطة" بلغة الهاوسا .

ثانيهما : حكومة صورية يشكلونها على غرار خلافة صوكتو في صورة مصغرة حيث يقوم أفراد الجالية بمبايعة واحد منهم، في الغالب يكون هو أسبقهم وصولاً إلى المكان ـ رئيساً لهم ويطلقون عليه اسم (سركين زنغو) بلغة الهاوسا، يختارون من بينهم شخصاً يعاونه ويطلقون عليه اسم "غالا ديما" أى الوزير ، وإلى جانبه ثمة شخصيات يضمهم مجلس رئيس الجالية ، منهم القائد الرّوحي ، الذي يطلقون عليه : إمام الدّين ونائبه ،" وسركين دوغراى" الذي يكون بمثابة رئيس جهاز الأمن . إلى آخره . كذلك تضم الحاشية كبار شخصيات البلدة أو الحي ، يختارهم رئيس الجالية معتمداً على السّن وحيازة الثروة والتفقّه في المبادى العامة للإسلام والنفوذ . ويكون لأصحاب الحرف والمهن رؤساء هم ، كل مجموعة على حدة . مثل رئيس الحلاقين ، رئيس الطّبالين ، رئيس المزارعين ورئيس الحدّادين الخ . ويقوم رئيس الجالية بمخاطبة كل فئة من خلال رئيسها .

ليس ثمة رواتب أو مكافئات شهرية تخصص لأصحاب هذه الوظائف الطّوعية التشريفية . ولا يعدو هذا أن تكون هناك تبرعات وهبات وزكوات تأتي إلى المجلس من أفراد الجالية وتوزع على رجالات الحاشية، وبالمثل يكون كل واحد من الرؤساء المهنيين والحرفيين مسؤولاً عن جماعته وممثلهم أمام رئيس الجالية ، ويحمل ولي العهد أو الابن الأكبر لرئيس الجالية ألقابًا مثل : تشيروما (CHIROMA) أو يريما (YARIMA) .

هناك ألقاب أخرى استعملت في خلافة صوكتو لكنّها لاتستعمل في هـذه البلاد نظراً لاختصاصات أصحابها أصلاً . فالألقاب مثل : "تراكي ، مادواكي، برادى" الخ .. لـم تستعمل فـي المهجـر لأنهـا تتعلـق بالشـؤون الحربيـة التـي تنعدم ، بالطبع في هذه الجاليات الإسـلامية فـي المهجـر. ولاغـرو، إن كـانت هذه النظم الاجتماعية التي ذكرناها في هـذه المجتمعـات الواقعـة بعـيداً عـن مهد خلافة صوكتو لكنّها تعكس صورة مصغرة لطراز الحكومة الإسلاميه التّي أسسها المجاهد الكبير الشيخ عثمان دان فودى وجماعته .

المبحث الثّالث : الآثار اللغـويـة

تعتبر لغة الهاوسا – إلى جانب تشكيلها اللغوى الإسلامي لكثرة مفرداتهـا العربية الأصل – أكثر لغات غرب إفريقيا انتشارًا ، (٢٠) وذلك لعوامل عديـدة منها : التجارة . وبالنظرة ، عن كثب إلى فروع لغة الهاوسا ، التّي كانت اللغة السائدة في شمال نيجيريا آنذاك ، وبرزت أثنـاء الانتقـال الثقـافي ، نجـد أنهـا وصلت إلى المنطقة المجاورة من خلال الوسائل الثلاثة الآتية :

١- التّجار .

---

(٢٠) تتكون مفردات هذه اللغة أساساً ، من المصادر الثلاثة الآتية :

الفولانية والعربية والهاوسوية ، وينتمي الشيخ عثمان دان فودى إلى القبيلة الأولى وهى من أقـوى لغات إفريقيا جنوب الصحراء متانة وتعبيراً وتنوعاً . يمكن للقارئ الرجوع إلى آخر الكتاب عـن الجنس الفولانى واللغة الفولانية .

٢- العساكر الّذين كانوا في خدمة الحكومة الاستعمارية البريطانية والّذين نقلتهم من مختلف قبائل شمال نيجيريا إلى مستعمراتها الأخرى في حوالي عام ١٨٨٨م لقمع حركات العصيان والانتفاضات الشّعبية ضدها.

وقد كان ساحل الذهب (غانا) من بين تلك المستعمرات التي استقبلت قوات الاستعمار البريطانى لقمع الاضطرابات والانتفاضات الوطنيه الداخلية .

٣- علماء الدّين من نيجيريا ومعظمهم من صوكتو أصلاً أو من المناطق الأخرى التي كانت خاضعة لنفوذ خلافة صوكتو، لذا كانت لهجتهم هي الغالبة في الأوساط الإسلامية فى المهجر وهى تنقسم إلى :

أ - اللهجة العامية التجارية التي تضم بعض مفردات محلّية ، ذات طابع تجاري ، وأحياناً تتخذ تركيب الجمل أى (MORPHOLOGY) للغات أو لهجات القبائل المحلّية. وهذه اللهجة هي أكثر انتشارًا في هذه المناطق .

ب - لهجة ثكنات الجيش أو الشّرطة ، وهي التي يستعملها أفراد الجيش والشّرطة الّذين قلما يوجد منهم من هو هاوساوى القبيلة، لكن معظمهم من القبائل المعروفة "بغواراوا" فى نيجيريا . وهذه اللهجه ركيكة بصفة عامة ولايفهمها ، غالباً ، إلا من يختلط بالمتحدّثين بها. وفيما يلي بعض الأمثلة لهذه التركيب اللغوى : يقولون (KAYI WAWA) بدلاً من(KAI WAWA NE) أى أنت غبي (KAYI HAUKA) بدلاً من (KA HAUKA CE) أو(KAI MAHAUKACI NE) أي أنت مجنون . قولهم (NA GANIKA YA DADE) بدلاً من (NA DADE DA GANINKA) أي لم أرك منذ وقت طويل . أو

يقلّبون بعض الحروف ويستبدلونها بحروف أخرى مثل قولهم: (KAI MIZINI) بدلاً من (KAI NA MIJINE) أي أنت رجل (شجعان) أى بإقلاب الجيم إلى الزّاء الخ ...

ولما كان معظم الّذين يلتحقون بخدمات الجيش والشّرطة للسّلطات الاستعمارية في هذه المنطقة غلبت لهجتهم فى الغالب في التحدث بلغة الهاوسا ، مما جعل لغة الهاوسا المتداولة هناك متميزة ، ومعروفة بلهجة الجيش أو لهجة الشمال(٥).. ومن ثم عمت لهجتهم هذه كل ثكنات الجيش والشّرطة . كما غلبت على ألسنة من لهم صلة بهم من النّاس حتّى خارج بيئة تلك الثكنات .

ج – اللهجة الدّينية : وهي أفصح اللهجات ، لأنها أصلية ولغة علماء الدين ، يتم تفسير القرآن الكريم بها . وبها ويتم شرح كتب الأدب والأحاديث والفقه والتّاريخ وهي لغة المراسلات أيضًا ، كما يتم بواسطتها قرض الشّعر وسرد القصص وقول الحكم والأمثال إلى آخره .

ولما كان معظم الّذين يقومون بهذه المهمة أي تدريس العلوم الدّينيه هم ممن أتوا من صوكتو أو شمال نيجيريا ومتحمسين للشيخ عثمان دان فودى، أصبح من الطبيعى أن تكون لهجتهم هي الغالبة وذات أثر قوى على تلاميذهم فى المهجر . ولكونهم القائمين بالوعظ والتوعية والدّعوة الدّينية فلهم آثار

---

(٥) يقصد به شمال غانا وتوجو وبينين .

ملموسة على لهجة عامة المسلمين هناك . إذ نلمس في الأمثلة التالية مدى تأثرهم بالشيخ عثمان دان فودى والاحترام البالغ الذى يكنونه له، على مدار التّاريخ؛ وينقسم إنتاج هؤلاء الدّعاة إلى :

١- الرثاء والمناجاة .

٢- السّرد التّاريخي .

٣- الشّريعة من حيث شرح الأصول والفروع الفقهية .

ويستحسن أن أشير إلى أننى لا أقصد بهذا التقسيم الإيحاء بوجود نوع من التّخصص في أدبيات خلافة صوكتو، وإنما أريد فقط التلميح إلى هذه الاتجاهات الثلاثة في شخص واحد ، وقد تتفاوت ملكتها فيه أيضًا ، كما قد تتساوى هذه الملكة فيه . ولا نقصد بهذا التقسيم أيضًا حصر الملكات الأدبية في شخصيات علماء تلك الدولة أو غيرها في منطقة الغرب الإفريقي .

لقد صنّف بعضهم ، كما يفعل البعض الآخر حتى الآن ، في مجالات أخرى ، مثل الفلك والحساب واللغة والفقه إلى آخره . بيد أن هذه المصنّفات لاتصل مستوياتها درجة التخصص في العلوم المعنية.

المبحث الرّابع نماذج أدبية دينية

أ - تجدر الإشارة ، قبل ذكر بعض الشّخصيات الأدبية ونماذج من أعمالهم في هذا الميدان ، إلى أن الدّين الإسلامى، لاسيما النزعة الصوفية وعلوم الشريعة منه هي المجال الأساسى للأنشطة الأدبية في تلك المنطقة

عموماً . كما لم تخرج دائرة اهتمام علمائها من إطار دراسة اللغة العربية وآدابها التى تؤدى إلى الفهم المتعمق لهذا الدّين فحسب .

النموذج الأول :

يشمل الاتجاه الأول المدح والتسبيح والإجلال ومناجاة الله سبحانه وتعالى، والنزعة إلى التوحيد والتوكل في حالات الحزن أو السرور والتّزهد. حيث يغلب عليه الطابع الصّوفي بصفة عامة. كما نلمس من أبيات الرّثاء الآتيه للسيدة نانا أسماء بنت المجاهد الشيخ عثمان، تغمّدها الله برحمته. ترثي فيها السيدة عائشة بنت عمر الكموى زوجة أخيها محمّد بللو:

١- إلى الله أشكو من صنوف البلابل	ثوت في سويداء قلبي داخل
٢- لفقد شيوخ قادة الدين سادة	وأخوتنا أخدان خير ونائل
٣- وذكّرني موت الحبيبة من مضت	من الإخوات الصّالحات العقائل
٤- وزادت كروبى وانفرارى ووحـ	شتى وسكب دموع فوق خدى هواطل
٥-بفقد العائشة الكريمة يالها	من امرأة حازت جميع الفضائل
٦- من الصالحات القانتات لربّهم	من الحافظات للغيب ذات النوافل

النموذج الثّانى :

يشمل الاتجاه الثّاني الاهتمام بتسجيل الأحداث التاريخية التي تقع في زمانهم أو أزمنة غيرهم ، سواء في نفس المنطقة أو في المناطق الأخرى المجاورة . مثل مجيء الاستعمار . وقد ذكر معظم أدباء وعلماء خلافة

صوكتو (في المهجر) سواء في النثر أو الشعر باللغات الأهلية والعربية هذا الحدث التّاريخي المشئوم في نظرهم . وستأتي بعض الأمثلة عن ذلك عند دراسة بعض الشّخصيات الأدبية في منطقة الغرب الإفريقي ، إذ يعتبر كتاب "إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التّكرور" لمحمّد بللو أحد كتب الأدب التّاريخي . فلنستمع إليه وهو يصف إحدى غزواتهم في الأبيات الآتية :

١- سائلو عنا وعن أعدائنا ... يوّة دار الحرب كانوا الحفر
٢- قد تركناهم بها مثل الهبا ... أوكأحطام الهشيم المحتظر
٣- ولكم كربه فرساننا ... في صناديد "كياوا" المنكسر
٤- إذا رجعنا لهم وقت الضحى ... بجنود كجراد منتشر
٥- وكأن الخيل في أرجائها ... حدأ تخطف أشلاء البقر
٦- فلقيناهم وأوغلنا بهم ... برماح وسهام كالمطر

.... الخ

بينما يغطي كتابا الشّيخ عثمان نفسه "إحياء السنة وإخماد البدعة، وحصن الأفهام من جيوش الأوهام" جانب الفقه والشريعة. اتخذ الاتجاه الأدبي لعلماء وأدباء منطقة الغرب الإفريقي الطابع الصوفي أو الزّهد بصفة عامة وأيام الناس والفقه والشريعة. وبما أن هناك قواسم مشتركة بين علماء المنطقة ، يسهل تأثير عالم أو فقيه على نظرائه من خلال تيارات فكرية وأدبية ، إذا أخذنا

شخصية الشيخ أحمد بامباه الخديم فى السنغال، على سبيل المثال (١٨٥٠م – ١٩٢٧م) وهو صوفي النّزعة، الذى كان متزامنًا مع التّيار الأدبي الإسلامى لخلافة صوكتو، نجد اتجاهه الفكرى متأثرًا بتلك الخلافة بشكل أو بآخر. فبالمقارنة بين المقتطفات التي تلي من قصيدته الرّائية والأخرى الدّالية للشيخ عثمان نجد القصيدتين متشابهتين جملة وتفصيلاً ؛ فلنبدأ بقطعة الشّيخ عثمان دان فودى حيث يقول :

النّموذج الثالث

١– هل لي منسيرة نحو طيبة مسرعا	لأزور قبر الهاشمي محمدا
٢– لما فشا ريّاه في أكنافها	وتكمش الحجاج نحو محمدا
٣– غودرت الهمل الدموع موبلا	شوقا إلى هذا النّبي محمدا

إلى أن قال :

١– مالشّمس شيء والخسوف يزورها	دمعي يفيض لفقد هذا السّيدا
٢– تهمي دموعي إن ذكرت فناءه	قد ذاب قلبي إن ذكرت محمدا

الخ ...

النّموذج الرّابع (للشّيخ أحمد بامباه) :

١– قلبى له في عتاب الجسم تكرار	لأنّه للمهدى والنّور جرار
٢– يلوم جسمى دأبًا في الجلوس بلا	علم ولا عمل والنّفس غرار

٣- مازال للخير يدعوه ويجذبه وللسّعادة دأبًا وهو غرار

٤- يلومه وهو غير وفي كبل بأذن ربي والمحبوس مبرار

٥- قد عاق جسمي عما القلب يطلبه من المناقب تسويف وإصدار

إلى أن قال :

١- ذاك الملاذ الذي أرجو النجاة به دنيا وأخرى فليت حوله جار

٢- وهوالذي عيق جسمي عن زيارته لكن لساني كالقلب زوار

.... الخ .

لاشك أن هاتين القطعتين متشابهتان في الاتجاه الفكري الواحد . وتكادان تكملان بعضهما البعض كأنهما صدرتا عن شخص واحد . ومعروف أنّ الشيخ عمر الفوتى الذي أسس دولته في أقصى الغرب الإفريقي وهو من منطقة ضفة نهر السّنغال ، كان زعيما سياسيًا واجتماعياً وروحياً وأدبياً ، وكان له أتباع كثيرون في بلاد السّودان الغربية . وقد ثبت أنه زار صوكتو أكثر من مرة . وأنّ هناك صلة المصاهرة بينه وبين قيادة تلك الخلافة .

ومن المرجح أن يكون الشيخ أحمد بامباه قد تأثر بهذا التّيار الأدبي من خلال أعمال الشّيخ عثمان دان فودى وأتباعه التي وصلت إلى تلك المنطقة بواسطة الشّيخ عمر الفوتى وأتباعه وغيرهم .

النّموذج الخامس (للشيخ محمد بللى الفوتى- ١٦/١٢/٢٠-٢٨/٤/٩٩)

إنّ أحد الذين تشملهم دراستنا في هذه المنطقة هو الشّيخ محمّد بللى من بلدة طليما الواقعة في أقصى شرق منطقة صوكتو . ولد في غانا من أصل نيجيرى. ترعرع في كانو وعاش فيما بين غانا وتوغو ثم عاد إلى كانو في نيجيريا حيث استقر أخيراً وتوفي هناك يوم الأربعاء ١٢محرّم للسنة ١٤٢٠ الهجرية، الموافق ٢٨ إبريل عام ١٩٩٩م . نقتبس فيما يلى أبيات من قصيدته اللامية التي تمثل نموذجاً من اتجاه الصّوفية والمناجاه ، الغالب في الأدب الإسلامي الذي اشتهر به علماء غرب إفريقيا .

تستهل قصيدته اللامية :

١-إلهي لا اله سواه ربّي تعالى لا تمثله العقول
٢-إلهي قلت ادعوني أجبكم فهاك العبد يدعو ياوكيل
٣-إلهي ظاهراً أدعوك ربي كذلك باطنا أنت الجليل
٤-إلهي فاز من ناداك ربي أتاه الخير حقاً والقبول
٥-إلهي حفني باللطف يامن له الغفران والفيض الجزيل
٦-إلهي زحزح الأسواء عنّي وكن لي ناصراً نعم الوكيل

وقال أيضاً في قصيدته التائية :

١- يارب أهلني لحبك والتقى واجعل رضاءك منتهى رغباتي
٢- واملأ فؤادي باليقين وكن معي دوماً وسلمنى من الآفات

٣-وأدم غـــداك علـىّ واجعـــلنى بـــه ممـــن يريـــد رضـــاك بالحسنات
٤- وأدم علىّ الفضل واحفظنى وخـــذ بيـــدي وأمنّـــي مـــن العثـــرات

النّموج السّادس : (على محمد براو توفى فى عام ١٩٥٥م)

هو الشّيخ على بن محمد، المعروف باسم مالام (المعلم) بـرو الصلغـوى. أتى والده من بلدة براؤ الواقعة على شرق بلاد صوكتو لكنّه ولد في غانا وتوفي فيها سنة ١٩٥٥م . تعلم على يد الشـيخ الحـاج عمـر ناكرتشيى الكاتسـناوى المولـود فـي مدينـة كـانو بشـمال نيجيريـا وعـاش فـي غانـا وتوفـي فيهـا عـام ١٩٣٤م. كان الشيخ علي محمد بـرو ، مثلـه مثـل معظـم علمـاء غانـا وتوغـو والمناطق المجاورة لهما الذين تأثروا بأعمال خلافة صوكتو . قام المعلّـم علـى بن محمد برو بتربيع قصيدة (هل لـي مسيرة) للشيخ عثمـان دان فـودى التـى ذكرنا مقتطفات منها سابقًا . وأصبحت تربيعته معروفـة بيـن علمـاء المنطقـة . وعثرت علـى مخطوط هذه القطعة من حامعة ليجون الغانية وهى النسخه التـى كتب لها المقدمة التالية :

"بسم الله الرحمن الرحيم . وصلى اللـه علـى النبـى الكريـم . قـال الفقـير لرحمة ربه الراجي لغفران ذنبه علي بن محمد المشهور بالحاج برو الصلغوي : هذا تشطير على قصيدة "هل لى مسيرة" من نظم ولي اللــه عثمـان دان فـودى تغمده الله برحمته آمـــين " . بلغت أبيات التشطيـر مائة وخمسـة وعشـرين بيتًـا ، قـــام بتنظيمهـا فـي سـنة ألـف وثـلاث وسـبعين بعـد الهجـرة ، ويقـول فيهـــا :

١- هل لي مسيرة نحو طيبة مسرعًا لأشم رائحة ضريح محمد
٢- هل لي رحيل للبقيع مهرولاً لأزور قبر الهاشمي محمد
٣- لما فشا رياه في أكنافها أربحت الحمي بين محمد
٤- وتعطرت وتنورت أرجاؤها وتكمش الحجاج نحو محمد

إلى أن قال في آخر القصيدة :

١- بعون رب العالمين ختمتها ورصعت فيها بعض مدح محمد
٢- وبحمد رب العالمين شطرتها بلغت بذلك ضعف سن محمد(٢٢)
٣- في عام فش بعد فج فافهما تاريخ متن قصد شيخ مجدد
٤- تشطيرها فى عام شرفع فأعلمها من هجرة الهادى النّبىّ محمد

النّموذج السّابع (للشيخ عمر أبى بكر-١٨٥٠م-١٩٣٤م) :

إن الشّخصية الأدبية السّابعة والأخيرة هو أديب وفقيه اشتهر فى غرب إفريقيا. وهو الشيخ عمر بن أبى بكر الكباوى، المشهور بالحاج ألفا عمر ناكركي (كيتى كراتشى). ولد بمدينة كانو، شمال نيجيريا في عام ١٨٥٠م وتوفّي في ساحل الذّهب (غانا) في ٣٠ يونيو عام ١٩٣٤م . ويذكر لنا التّاريخ أن جده الأكبر قد أتى من بلاد غوبر النيجيرية، وكان من كبار تلاميذ الشّيخ عثمان دان فودى، كان والده أبوبكر يزاول تجارة حبوب كولا (غورو)

(٢٢) يقصد بذلك تمديد العمر الزمنى للاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم.

متنقلاً بين نيجيريا وغانا ، واستقر ابنه الحاج عمر في غانا حيث نشأ وترعرع. كما اشتهر بأعماله الأدبية الإسلامية، وكان ناقدًا اجتماعياً وسياسيًا ، ويعتبر من أعظم العقول الأدبية التي ظهرت في منطقة غرب إفريقيا في مجال الفكر الإسلامى في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . ناهزت مصنفاته بين الشعر والنثر مائة مطبوعة ومخطوطة . ويوجد بعضها بمكتبة ليغون الغانية وجامعة أبادان النيجيريه ومتحف تاريخى ، فى كدونا بشمال نيجيريا، وهو محلّ اهتمام باحثين من المستشرقين الأوروبيين الذين يتوافدون إلى منطقة الغرب الإفريقى بحثاً عن مؤلفاته . وقد أثر الشيخ عمر ناكركي على الفكر الإسلامى تأثيرًا كبيرًا في غانا وتوغو على وجه الخصوص ، والمجتمعات الإسلامية المجاورة .

ومن أعماله الأدبية تربيعته فى كتابى "الزّهد والوصية" المنسوبين إلى على بن الحسين بن على بن أبي طالب رضى الله عنهم. وكتاب قصيدة "البُردة" للبصيرى في مدح النّبي عليه الصّلاة والسّلام يشعر الشّيخ عمر ناكركي بالافتخار بانتمائه إلى أدباء خلافة صوكتو، واعتبر نفسه من تلاميذ الجيل الثّالث للشيخ عثمان دان فودى. كما نلمس ذلك في قصيدته المعنونة: "بحق رب الورى " التي يعاتب فيها أحد علماء عصره بسبب خلاف نشب بينهما حول مسألة فقهية :

١- بحــق رب الورى ياقوم انتبهـوا فــإنّ في دهـرنا هـــذا أباليســا

٢- جــاءوا وحلـوا بأقوال محرفـة وكل أقوالهـم إفـك متى قيســا

٣- هجموا على مدرستنا سفهاً على سفح وصار مازوروا فينا وساوسـا

وقال :

١- يستنصر الخبث لا فينا وإن لنا نقـل نمـيز بـه إنسانا وطاوسـا

٢- فإن أستاذنا عثمـان علمنــا فقهـا اذا قيـل حاموسـا فحاموسا

٣- بجاحــة من أتى كيما يكذّبنا ولو أتـى من بعيد الطوف أوطوسا

٤- يلـم إثمًا وغيظًا من غباوتــه ألهوكة بين أهـل الله إن قيســا

إلى أن قال :

١- مــن جاءنا بمكيدات وحيلتــه لـو أتانا بتيجـان وبرنيســا

٢- يخيب فيمــا نواه من تعنّتنــا لما درسناه على عثمـان تدريسـا

لم يكن الشّيخ عمر نـاكركي أديبًا و نـاقداً اجتماعياً فحسـب، بـل كـان مؤرخاً محنّكاً في تدوين أحداث تاريخية، وتعتبر قصيدته ذات شطرين التّي تتكون من مائتى بيت بلغة الهاوسا من أكبر مصدر تاريخ دخول الاستعمار الأوروبي إلى غرب إفريقيا بقلم أحد أبناء المنطقة. كما نلمس فيها مهارة فنية في وصف وتسجيل المواجهات الحربية بين الأوروبيين الغزاة والإفريقيين الذين تصدوا لهم، دفاعاً عن أوطانهم وأنفسهم. يذكر لنـا الشيخ عمر مجابهـة تلو

مجابهة بين الطّرفين وجبهة تلـو أخـرى ، وزعمـاء مختلـف القبـائل ومواقفهـم الباسلة في خوض تلك المعارك الدامية ، إلـى أن استشـهد مـن استشـهد منهـم وسقط من سقط منهم أسيرًا . ونذكر فيما يلي بعضاً من هـذه القصيـدة بلغتهـا الأصلية لإبقاء الذوق والأيقاء .

1- ABINGA DA YATTAHO SHI, ZAMU TSARA
KU SAURARA GA LABARIN NASARA

2- DA SUNAN RABBANA MUKAFARA AIKI
SHI GERU SHI ZAMO DA KYAU INDA TSARA

3- MU GAIDA MUHAMMADU BABBANMU BAYI
SAHABAINEN DA ALAI MASU GARA

4- MUNANAN DUNIYARMU CIKIN KASARMU
FA BABU BATUN YAHUDU BALE NASARA

5- ANANAN ANKACE AIBABU GORO
ANA FITINA "ASHANTI"DA ANNASARA

6- ANANAN ANKACE KUMA BA "ASHANTI"
KASAR DUK TA PASHE DOMIN NASARA

7- FA BAYI SUN ZAMO YEYA DA MURNA
SUNA YIN TAKAMA DOMIN NASARA

إلى أن قال في أماكن أخرى :

1- DA SUNKATAHO KASAN NUFE ZASU MULKI
SAI ABUBAKARINMU YAKI BIN NASARA

2- NAN YAYI KOKARI YA KASHE GUDANSU
TO; ASHE BABU KYAU AKASHE NASARA

3- DA DE SUNKA JA DA BAYA, SUNKA SHIRYO
TO ABIN NAN BAYIKKYAU BA ZUWAN NASARRA

وقال أيضـــاً :

1- KASAN GOBIR MAZANE MASU YAJI
DA YAJINSU SUNYI GUDUN NASARA

2- DA SUNKA TABOSU SUNKAGA SUN BUWAYA
MAKAMAI BASU KAI GA WAGEN NASARA

وأنهى القصيـدة بقولـه :

1- FA YA SATTARU YA RABBAL IBADI
KA TSARSHEMU GA TASKUN ANNASARA

2- DA ALFARMAN MUHAMMADU NUHU MUSA
DA RUHULLAHI ISSA MAI NASARA.

الترجمـة : بقلم مؤلف الكتاب

١ - في ذكر الأحداث نورد القــول   ياقـــوم استمعوا أخبـار النّصارا(٢٣)
٢ - باســم ربّنـا نستهل العمـــل   ليكـــن موفقـــًا وخيـر المنـذرا
٣ - الصـّلاة والسّـــلام لســـيد   الأنام وصحبـه وأهلـــه الخيـــارا

(٢٣) الكلمة مأخوذة من كلمة مدينة الناصرية . أى مسقط رأس عيسى عليه السلام . ويقصد بها هنا الاستعماريين الأوروبيين .

٤- إذ في بلادنا كنا جلساء   لا نعلم عن اليّهود ولا النّصارا
٥- إذ قيل توقّف الاتجار   في "كولا"لفتنة بين" أشانتي[٢٤]والنّصارا
٦- ثم قيل إنها قد دمرت   "أشانتي" مع الدّنيا غير النّصارا
٧- فإن العبيد قد تحرروا   فهم سعداء بإتيان النّصارا
٨- فكل شخص قائم بذاته   مفتخر من أجل هذا النّصارا

إلى أن قال وصفًا للمواجهة بين المستعمرين وقبائل المنطقة :

١- لدى اقتحامهم بلاد "نوبى"   تصدى عبد الكريم لملك النّصارا
٢- فتجرأ بقتل جند منهم   ذاك ئذ تفطن خبث النّصارا
٣- أعدّوا عدتهم ثم عادوا   فعرف القوم بعدئذ شر النّصارا

ثم قال فيما بعد :

١- رجال "غوبر" هم شجعان قوم   لكنّهم فروا من مواجهة النّصارا
٢- عندما جربّوا الهجوم عليهم   أخفق سلاحهم صوب النّصارا

ثم ختم القصيدة بقوله :

١- فيا السّتار يارب العباد   قنا وأهالينا شر النّصارا
٢- بجاه محمد موسى ونوح   وروح الله عيسى رب النّصارا

---

(٢٤) اسم أكبر قبيلة فى غانا .

وأود أن أشير أخيراً إلى قصيدة له بعنوان "تنبيه الإخوان في ذكر الأحزان "لألفا(٢٥) الحاج عمر ناكركي . نظم القصيدة في حوالى عام ١٨٩٢م عندما اندلعت الحرب الأهلية في تلك المنطقة . تقع القصيدة في حوالى ثلاث مائة بيت باللغة العربية. وتدور حول تلك الأحداث المأسوية التي أودت بحياة مئات الأبرياء وتدمير مدينة "بولغا" الّتي كانت معقل تجارة حبوب "كولا". وكان الاتجار في هذه الحبوب(٢٦) هو السّبب الرئيس لوجود معظم أبناء قبائل الهاوسا والفولاني والكانورى أو البورناوى والنوفي اليوروبا وغيرهم من الذين سافروا إلى غانا والمناطق الموصلة إليها واستقروا بها وأصبحوا فيما بعد من مواطنيها بحكم التّزاوج والتّوالد . نذكر فيما يلى بعض أبيات من القصيدة الّتي تستهل بـ :

الحمد لله الذي توحدا — في ملكه أموره ووكده

ليس له مساعد في حكمه — ولا له مشاور في أمره

يصرف الدهر كيفما شاء — ويحكم السرور والإساءه

وقال حول الموضوع نفسه :

بداية الأمر إذا نظرت — تجده سهلا كما سمعت

ووسطه أشكال لوفهمت — وطلعت عقول بثبوت

---

(٢٥) من أصل كلمة "الفاهم " التي تطلق على العالم أو الفقيه. ثم اختصرت لدى التداول بين أهل المنطقة فأصبحت "ألفا" .

(٢٦) منها يصنع مشروب "الكوكاكولا" .

طارت عقولنا بهذه الحرب وضعضع الأقوام بالتخريب
حتّى تراهم بلا عقول ولا يشاورون أهل العقول
يأتمر الأقوام في السّؤال ويختتم القرآن بالأموال
ويجمع العلماء للدعاء في السّر والجهر بلا جفاء
وتصدق الأموال للفقراء والعض والأعور والنّساء
وللتلاميذ وللأعراج أيضاً إلى القرباء وللإعلاج

إلى آخرها .....

توفي الحاج عمر بن أبي بكر ناكركي في ٣٠ يونيه عام ١٩٣٤م بعد عمر مديد حافل بإنجازات أدبية مثمرة وخلف وراءه تلاميذ كثيرين.

وأقول في ختام هذا البحث عن آثار رجال دولة صوكتو وأمثالها في الغرب الإفريقي وغيره الذين أثّروا على مجريات تاريخ أممهم في هذه المنطقة والمجتمعات الأخرى: هكذا يستخلف الله رجاله هذه الأرض ويرثهم إياها، ويمكّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، فتتجاوز شخصياتهم المعتبرة حدود حياتهم البيئية العادية والزّمانية القصيرة والقاصرة ليصل نفوذهم وآثارهم إلى مجتمعات وأفراد ، بحدّ بعيدين عن تلك البيئات والمجتمعات التي عاشوا فيها. تصل ذكراهم ونفوذهم إلى أماكن لم تخطر ببالهم إذ هم أحياء .

لم يكونوا يعرفون بأنّ لهم آماد تتجاوز أعمارهم الزّمانية . هؤلاء همّ صانعو التاريخ وليس التّاريخ بصانعهم . لذا يعرفون بالشّخصيات التاريخية.

أما رسل الله وأنبياؤه الكرام المعصومون، فهم ليسوا منتمين إلى هذا الصنف من مسميات التاريخ ، لأنهم يسبقون التّاريخ إلى الوجود كما يتجاوزونه في مجريات الأحداث . ومن ثم ، ليس للآثار البيئية والاجتماعية عليهم الفضل والرّجحان في مدار تكوين شخصياتهم وصيرورة حياتهم . بل إليهم يرجع رجحان الموازن والفضل على بيئات الإنسان ومجتمعاته . ففي طي مهام الرّسل والأنبياء أمور تفلت عن مدارك التّاريخ وكينونة الأحداث . بل تخضع لغيبيات المعلوم التى تختص بها المصادر اللّدنية التي يعلمها خالقها فحسب. إذن الرّسل والأنبياء فهم بحكم الاختصاصات المنوطة بهم، خارجون عن دائرة مباحث البشر وتحليلاته التجريبية. فهم ينجزون أعمالاً ذات شؤون موثرة على مصائر الشّعوب والأفراد المعاصرين لهم والمتعاقبين في أمكنة وأزمنة لايعمل لها حسبان. لكن ذاك هو وعد الله للمؤمنين . وكان وعده مفعولاً. ولقد اعتاد التّاريخ أن يطلق على رجاله "الأولياء" الأتقياء الصّالحين باللغة الصّوفية، والعباقرة عند الفلاسفة ذوى العقيدة المجردة ؛ والأدباء بلغة أصحاب النّثر والشّعر ؛ والمجاهدين في المجابهة المادية ؛ والمجتهدين في مجال البحث الفقهي الدّيني واستنباط الأحكام وصنع القوانين؛ والمواطنين فى النظريات السياسية. لكن سواء هذه التسمية أو تلك فإنّها عوارض كلها . والجوهر الذي يخلد بعد إخفاء أصحاب تلك الألقاب والمسّميات هو حقيقة كونهم عاشوا للمبدأ الذي لم يجدوا أمامهم له بديلاً آخر فماتوا من أجله . ألا هو "الإخلاص والتّفاني"، عاشوا بنصرة الحق بالإخلاص . فورثهم الله أرضه

ومكّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وأخلف من ورائهم أناسا يؤازرون ذلك المبدأ ويعضدونه أملاً في أن يرثهم الله أرضه كما ورثها لأسلافهم من قبل. فكانوا خالدين عبر التاريخ والأجيال اللاحقة فباتوا من الشخصيات التّاريخية.

لم تكن الشّخصيات التاريخية التى أنبتتهم تربة الغرب الإفريقي الإسلامية من أمثال المجاهدين الكبار أحمد بابا ، الأمين محمد الكانيمى ، عثمان دان فودي ، أحمد لوبّو ، عمر الفوتى وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، لم تكن هذه الشّخصيات متصورة فى عقول أسلافها ، كما لم تخطر ببالها أيضًا أنها تكون ذات أثر يتجاوز حدود بيئاتها الّتي ألفتها أو الظّروف التي أحاطت بها . لكن الله صاحب الوعد الحق، قد اختص بعلم لا يعرفه سواه ، علم يتجاوز حدود الزّمان والمكان فضلاً عن البيئات والأفراد . وهو القائل :

أ- ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا، يَعْبُدُونَنِي لَايُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.(٢٧)

ب- ﴿وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَانُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢٨)

---

(٢٧) الآية : ٥٥ - سورة النور .

(٢٨) الآية : ١٢٠ - سورة هود .

ج- ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٢٩)

صدق الله العظيم

(٢٩) الآية : ٢٦ - سورة النساء .

" جيـــم "

دولـــة ماســـينا

"أحمد لوبّو باري"

تقع ماسينا في الشّمال الغربي لمنطقة السـودان الغربـي أى فـي جمهوريـة مالي حالياً فى منعطف نهر النيجر . ثمة تفسيرات عدة لمعنى كلمة "ماسينا ". ولكن من المرجح أن تكون الكلمة قد اشتقت من كلمة "موسينى" أو "موينى" اى أرضعت باللغة الفولانية. وأطلقت الكلمة على منطقة رعى المواشى. توحي هذه الخصلة ، أى تربية الماشية التـي طبـع عليهـا أبنـاء قبيلـة الفولانـى سـكان المنطقة ، أن يكون إطلاق التّسمية على البلاد قد جـاء توصيفـاً لنعمـة خصوبـة أراضيها وصلاحيتها للزراعـة وتربيـة المواشـى . كـان هنـاك خليـط مـن شـتى الأجنـاس مـن أقـــوام مسـلمين ووثنييـن مـن البـامبرة والسـوننكى والصونغـاى والـبربر ، سـكان الصحـراء الكـبرى ، يشـاركون قبـائل الفولانـي الأصلييــن ، التعايش في تلك المنطقة . تأثرت ماسينا بالثّقافـة العربيـة الإسـلامية المتأصلـة بفضل وجودها، بجوار مركزيـــن امتـازا بتلـك الثّقافـة فـي السـودان الغربـي آنذاك. هما مدينـة "جينّـى" التـي أسسـت فـي القـرن الثـالث عشـر الميـلادي ومدينة تنبكتـو الّتـي اشتهرت منـذ القرنيـن الرابـع عشـر حتـى السّـادس عشـر الميلاديين ، الأمر الذي هيأ إمارة ماسينا إلى أن تنهض في نهايـة القـرن الثـامن عشر بدور ملموس في نشـر الدعـوة الإسـلاميـة ، سيما بين الأمييـن الذين لا

يجيدون الكتابة والقراءة ، من خلال تعليمهم قصائد ومنظومات شعرية ينظّمها الدعاة والمدّاحون بلغتهم الفولانية . استطاع علماء ماسينا ، بهذا الأسلوب الارتجالى تلقين شعوب المنطقة الثقافة الدينية الإسلامية الأساسية من التوحيد والفقه والسيرة النّبوية الشريفة . وكان ثمة عالم صوفى انحدر من شمال شرق تنبكتو فى منطقة "أزواد" بمالى الحالية، يدعى سيدى المختار الكونتى الكبير(٣٠) هو الذي قام بنشر الطّريقة

---

(٣٠) هو الشيخ سيدى المختار بن أحمد بن أبي بكر المعروف بالكبير تمييزًا له عن حفيده الذى كان يحمل نفس الاسم ؛ (١١٤٢هـ/١٧٣٠م - ٤ جمادى الأولى ٨/١٢٢٦ مايو ١٨١١م). عاش في منطقة أزواد بين تنبكتو ، وغاو (مالي) ولعب دورًا رئيسيًا في نشر الطريقة القادرية في غرب إفريقيا والصحراء ، خاصة في مالي، وغينيا ، والسنغال ، وموريتانيا .

كانت له علاقة مع دولة "صوكتو" التى تأسست فى شمال نيجيريا ، وأمراء "بورنو" وسلاطين المغرب الأقصى ، كما كان له نفوذ كبير على أمراء الطوارق والقبائل العربية فى غرب إفريقيا.

ترك بعد وفاته ثروة هائلة من مؤلفات كثيرة بلغت فوق الثمانين ورسائل وقصائد شعرية في شتى العلوم ، فيما يلى أمثلة منها :

في التفسير : كشف النقاب على فاتحة الكتاب ، في التوحيد : الشموس الأحمدية ، فى الفقه : هداية الطلاب على فتح الوهاب ، في اللغة : شرح المقصور والممدود لألفية ابن مالك، في التصوف : الكوكب الوقاد في فضل المشائخ والأولاد ، وجذوة الأنوار في الذب عن أولياء الله الأخيار .

يعتبر الشيخ المختار الكنتى الكبير مجدد الطريقة القادرية التي ورثها من أحد أجداده وهو سيدى عُمر الشيخ سيدي أحمد البكاي الّذى أخذها عن الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني المعروف . وسميت طريقته بالبكائية أو الكنتية. وقد تخرج على يده عدد كبير من العلماء والمشايخ، حتى سمي شيخ المشايخ ، كان له علاقة قوية مع أمراء ماسينا، استمرت بعد وفاته مع أبنائه وأحفاده ، الذين دافعوا بالقلم والسيف عن إمارتها الإسلامية بقيادة آل لبو، حيث نالوا نصيبهم من الكارثة التي سببها الصراع المؤلم بين تلك الإمارة وإمارة الحاج عمر الفوتي في النصف الأخير من القرن الماضي.

الصّوفية القادريـة بصورة أكثر مما كانت عليه بين أهــالي ماسينا وغـيرهـم مـن سكان الغرب الإفريقي . كانت القادرية هي أقــدم الطـرق الصّوفيـة فـي غـرب إفريقيا وأكثرها انتشاراً بين أهــالي المنطقـة قبـل ظهـور الطريقـة التجانيـة التـي ازدادت شهرتها وذيوعها في المنطقـة مؤخـراً . أولـت القادريـة اهتمامـاً كبـيراً بشؤون التعليم والدعوة بينما ركّزت التجانية على جوانب التربية الرّوحية للذين ينتمون إليهما . انتشرت الطريقة القادرية بين أهالى منطقة مجـرى نهـر النيجـر الأوسط عن طريق بعض أفراد مشايخها مـن قبيلـة كونتـة الصحراويـة، بحلـول القرن السابع عشـر الميـلادى . اتخـذت الطريقـة صـورة منظمـة ثابتـة معروفـة الهوية بين السكان المسلمين هناك في منتصف القرن الثامن عشر . وقـد لعـب سيدى المختار الكبير الكونتى الذي يعتبر أحد المشايخ الذين تأثّر بهـم الشـيخ عثمان دان فودى، دوراً رئيسياً في نشـرها فـي منطقـة غـرب إفريقيـا . تعـرّف الشيخ عثمان دان فودي علـى الشـيخ الكونتـى فيمـا يبـدو ، عـن طريـق بعـض تلاميذ هذا الأخير . وفي كتابه "السّلاسل القادرية" ذكر الشيخ عثمان أنه أخذ ورد القادرية عن أكثر من شـخص واحـد، لكنّـه أشـاد بالتعـاليم الصوفيـة التـي حصل عليها بواسطة الشيخ سيدى المختار الكونتى . وكـان للشـيخ المختـار الكونتي أثر كبير على الفكر الصّوفي القــادري لعلمـاء ماسينا ، ومـن خلالهـم وصل إلى أرجاء إفريقيا الغربية . وفيما يلـى قصيـدة رائيـة ينسـبها أتباعـه إليـه ويتلونها لتحقيق الانتصار على الأعداء عند المجابهة : "اللّهم صلّى على سـيدنا محمد وأهله وصحبه وسلم . هذه القصيـدة للسـيد مختـار الكونتـي القـادرى.

تقرأ صباحاً ومساء مرة واحدة لحفظ النفس وقهر الأعداء وللحماية والوقاية من كل مكروه . ومن كثر أعداؤه وحسّاده فعليه أن يلازم قراءتها ثلاث مرات صباحاً وثلاث مرات مساء بعد قراءة سورة قريش ثلاث مرات وحسبنا الله ونعم الوكيل أربعمائة وخمسين مرة قبل الشروع في قراءتها كل يوم . فإن الله ينصره عليهم ويذلهم بمشيئته . ولها كيفيات أخرى . وتسمى السّيف القاطع " .

١- " يَاذا الثنَا لاَ ينْحصرْ	إنى غُلبْتُ فانْتَصرْ
٢- فَابعْثْ عَلىَ أعدَائنا	سَوْطَ عذاب مَعْه صرْ
٣- وَارسلْ أبابيلَ البَلاَ	عَليْهمْ في يومٍ عَسرْ
٤- وَعمهمُ بنَقمَة	وَبعذَاب مُستَطرْ
٥- يَرميهمُ منْ جَو السّمَا	بحَجَر لَمْ ينْحَجرْ
٦- مُسْرمَداً عَلَيْهمْ	في يَوم نَحْس مُستَمرْ
٧- يَغْشَاهُمْ منْ فَوقْهمْ	شَر عَبوُسٌ قَمْطريرْ
٨- ياعُدتي في شدتَي	لكُل مارد مُضرْ
٩- مَزقْ وَفرقْ شَمْلهُمْ	كشْمل عاد إذ نُثرْ
١٠- أوْكَسَباً إذ مزقُوا	بسيل يَمّ مُنهمرْ
١١- أو كثمُودَ إذ مزقُوا	غُثَاءَ سَيل مُنْحدرْ
١٢- سُنتهُ في منْ مضَي	كَذَاكَ منْ يَاتي دُبُرْ
١٣- مُقتدرٌ لما بقَي	أبادهُ القَوم التتَرْ

١٤- يـارب يـارب تــرى مَامَسّـني مـنْ ذي بَطَـرْ
١٥- أنْتَ وكيـلي ياوكيـلْ عَليْهـم يامُقْتَـدرْ
١٦- فخُـذْ بثـأري منْهُـمُ بَسيْف نقمَـة بَتَـرْ
١٧- واطمسْ علَـى أمْوَالهـمْ بالجَدب والْقَحْـط الُمبـرْ
١٨- فَقَدْ طغُوا مـعَ ذُلهـمْ وغاثُـوا غوْثـاً مُعتكـرْ
١٩- إنـكَ لاَ تبْغـي عَلَـيّ الظُّلْـم ولاَ عَلَـيّ النُكُـرْ
٢٠- فَصَـيرهُـمْ عبْـرةً لكُل عَبـد مُنْـزَجـرْ
٢١- شَـرِدْ بهـمْ منْ خَلْفهـمْ حَتى يَئـوبَ مُنكَسـرْ
٢٢- يَامـنْ حَمَـاهُ فـي هَنَـا نحْنُ حمَـاكَ المُستَجـرْ
٢٣- أُنتَ المُحيـطُ غيـرَةً وأنـتَ خيْـر مُنْتصـرْ
٢٤- ويَاشَـديـدَ البطْش يَـا مُنْتقـم علينَـا غـرْ
٢٥- أنتَ غيـوُرٌ أنْ يُـرى حمَـاك غَيْـر مُنْجَبـرْ
٢٦- فاْردُدُ يَـدَ العَـادينَ مـنْ قَبْـل الوُصُـول للُنحَـرْ
٢٧- جـدي إغَـارَةَ العَزيـر بالبيـضَ والقَنـا السُمُرْ
٢٨- وبَدد جَمْـعَ العـدى عَنّـا كَلَمْـح بالبَصَـرْ
٢٩- وَصَـل يـارَب عَلَـى خَيْـر نَبي مـنْ مُضَـر"(٣١)

(٣١) انظر نظم القادرية ونظرياتها في الفصل الخاص بها في هذا الكتاب. قيل أن سيدى الكونتى نظم هذه القصيدة فى شبابه. عندما أرسله شيخه ذات يوم فى طلب إرجاع إبل نهبته إحدى القبائل الصحراوية لكنها رفضت أن ترد إليه الإبل مما جعله يتوسل إلى الله بهذه القصيده، فاستجاب له الله بتسليط قبيلة أخرى أقوى على تلك التى أخذت الإبل منه واستردته إليه. ومن ثم صار أتباعه يستنجدون بها للانتصار على أعدائهم.

التّيارات الفكرية الّتي
سادت المنطقة

شهدت منطقة سليمانى في فوتا جللو ، الواقعة اليوم في جمهورية غينيا، تدفق جماعات من قبائل الفولاني وعلمائهم من الدول والبلدان المجاورة، لاسيما منطقتى ماسينا وفوتاتورو في كل من مالي والسنغال وموريتانيا. كانت تلك الجماعات تقوم بتأسيس أماكن للاستيطان فى أوقات معينة لفصول السنة وفق ما يلائمهم من احتياجات القيام بالأنشطة الزراعية وتربية الماشية . ومن بين تلك المستوطنات منطقة تعرف بـ "فوغومبا" حيث تجتمع أعداد كبيرة من الجماعات وزعمائها لتناقش وتتداول حول قضايا تتصل بحياتها في حالتى الحل والترحال . وكانت حلقات التدريس والوعظ والإرشاد ودور تحفيظ القرآن تلحق دوماً بتلك المستوطنات . ومن خلال تلك الحلقات والندوات برز فقيهان تميزا فيما بعد بقيادة حركات إصلاح الدين الإسلامي في غينيا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، هما : الشيخ إبراهيم موسى ، المعروف في تاريخ الغرب الإفريقي بألفا باه والشيخ إبراهيم سورى المعروف هو الآخر ببطل حرب الإصلاح الديني . وعندما أراد الزعيمان على التوالي تأسيس دولة تكون قائمة على مبادئ وأصول الشريعة

الإسلامية ، انضم أحد زعماء تلك الفصائل الفولانية يدعى "أرطــو كيكـالا" (١٧١٥م –١٧٨٠م) وجماعته إلى صف ، إبراهيم موسى المذكور، مما شجع هذا الأخير على الاندفاع لتوسيع نطاق دعوته لكنّه واجه معارضة شديدة مــن بعض القبائل الأخرى المجاورة . فقام في عام ١٧٢٥م بـإعلان الجهاد ضد القبائل الوثنية والمرتدّة منها عن الإسلام مع العمـل على إصلاح أحوال المسلمين دينياً واجتماعياً . لم يستطع الشيخ إبراهيم موسى تحقيـق رغبته في تأسيس دولة إسلامية كما كان يصبو إليه، لكنّه ظل مناضلاً ومرشـداً لجماعته إلـى أن عاجلته المنيـة فـي عـام ١٧٥١م بعـد عمـل دءوب دام قرابـة خمـس وعشرين سنة. وتم اختيـار مودبّو (المعلـم) إبراهيـم سـورى خلفـاً لـه كزعيمٍ جديدٍ لجماعة الدعوة والإصلاح الديني . غير أن نزعته الدكتاتورية جعلته يفقد ثقة شعبه ، مما أدى إلى اندلاع حركة عصيان وتمرد قامت بهما تلك الجماعة بزعامة فقيه يدعى "مودبّو مادا" وأطاحت بحكمه. وتولى الزعيم الجديد تحت لقب "الإمام "، لكونه فقيهًا وحاكمًا في نفس الوقت .

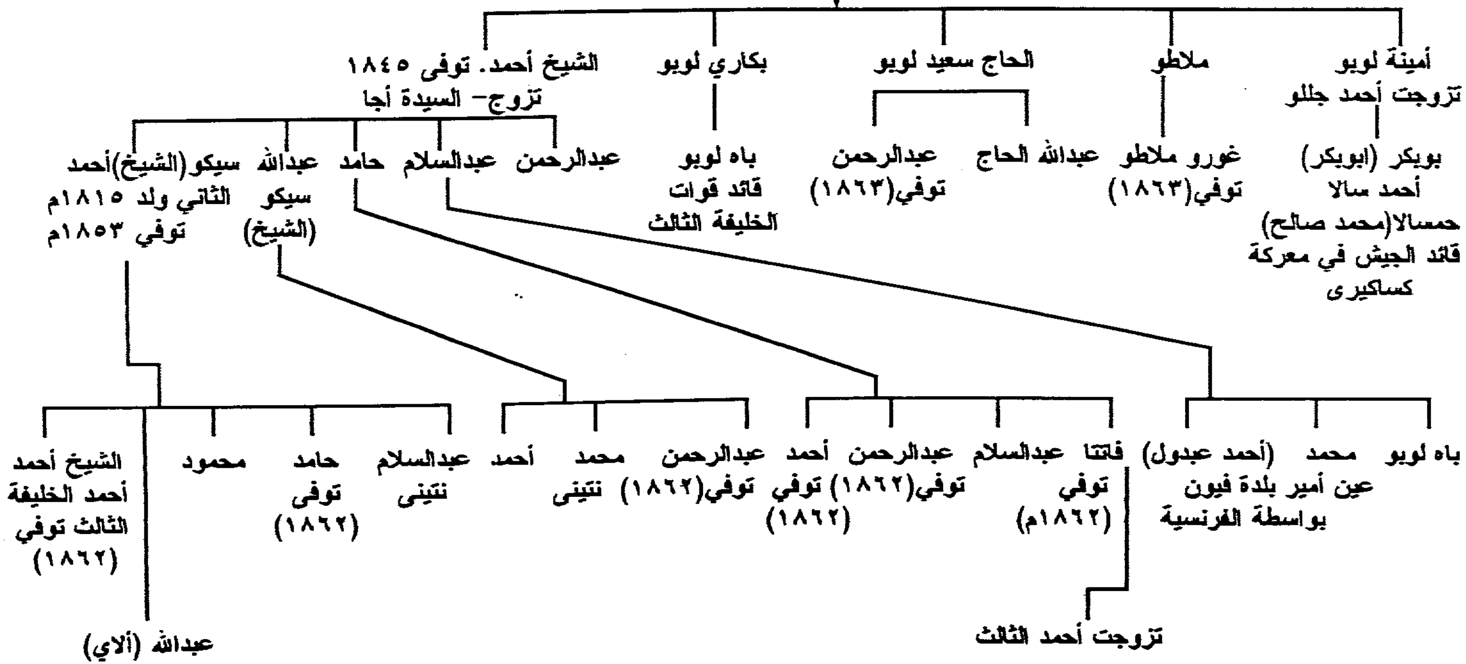
لم تدم ولاية الفقيه "مودبّو مادا" لفترة طويلة أيضاً ، بل انقسمت صفـوف المجاهدين، وضعف نفوذهم في النّهاية بسبب الخلافات والنزاعـات السّياسية الداخلية التي أدت إلى نشوب الحرب الأهليـة . أخذت تلـك الفتنه السّياسية والانقسامات الداخلية تختفي حيناً وتظهر حيناً آخر ، الأمـر الـذي دفع كثيرًا مـن المجـاهدين وعامـة النـاس إلـى القيـام بهجـرات مــن تلــك الدولــة إلــى المجتماعات والدول المجاورة البعيدة والأكثر أمناً واستقراراً . لكن احتفظـت

تلك الجماعات وأفرادها بأملهم في إنشاء دولة تكون قائمة على أسس الشريعة الإسلامية أينما حلّوا . وقد توصلوا ، نتيجية تجاربهم السّابقة إلى ضرورة الاعتماد على مبدأ الشورى في تنصيب القائد أو الزعيم الذي ما برحوا يطلقون عليه لقب "الإمام" . وكان يتم اختيار الامام بواسطة أربعة من أعيان البلاد الذين يتم اختيارهم مباشرة من بين جماهير محتشدة ، ويقوم الأشخاص الأربعة، بعد إجراء تشاور فيما بينهم ، بترشيح أحد العلماء ليكون "الإمام والأمير"، ثم يطلبون إلى الجماهير المحتشدة مبايعته علناً . اعتمد ذلك الترشيح على نزاهة الشخص المرشح وتزكية الناس له بتقوى الله ومخافته وقدرته على ممارسة الحكم المخول له وقدرته على اتخاذ قرارات حاسمة وعادلة والإشراف على مصالح الأمة وشؤونها. والعمل على توفير الحماية والأمن من الأعداء والمعتدين ؛ ويقوم الإمام وفق هذا المبدأ ، بدوره باختيار ولاته الّذين يطلق عليهم اسم "لاميبى" الجمع و"لاميطو" المفرد ليقوموا بالإشراف على مصالح المواطنين في مختلف المقاطعات الخاضعة لهم . وأهم ما تميز به هذا النظام هو إصرار الجماعة وفريق تنصيبه على أن يكون الإمام فقيهاً وعالماً بأحكام الشريعة ، وملماً بخبرات الحياة حتى تطمئن الجماعة بأن قائدها على بينة من منطوق كتاب الله وتوجيهات رسوله الكريم ، ومتمسكاً بتعاليم دينه ومتحلياً بأخلاق تليق بمنصبه كإمام أو حاكم ، وكانت حركة الإصلاح التي انبعثت في "فوتا جللو" هي الأولى من نوعها التي قضت على رواسب الوثنيات القديمة والأعراف المناوئة للتعليمات الإسلامية الصحيحة في

تلك المنطقة وأدت إلى إنبعاث أشعة حركات أخرى أكثر صلابة واتساعاً للإصلاح الإجتماعي والدّعوة إلى الدّين في المجتمعات المجاورة . فثمة حركة الدعوة الإسلامية والإصلاح التى اندلعت في إمارات فوتا تورو بزعامة فقيه آخر يدعى سليمان بال الذي أعلن جهاده الإسلامي ضد بعض القبائل الفولانية التي امتنعت عن الاستجابة للدعوة وعمدت إلى إعاقة جهود فيها في القرن الثامن عشر الميلادي . وقد استطاع الفقيه سليمان بال تأسيس دولة إسلامية مبنية على كتاب الله وسنة نبيه المطهّرة قبيل وفاته في عام ١٧٦٩م ؛ فجاء الفقيه ألفا عبد القادر خلفاً له ومد نفوذ تلك الدولة حتّى شمل مناطق تمركز قبائل ألولوف والسوننكى والبامبرا (الماندنغو) المجاورة . ففي ظل تلك التيارات الثّورية والتطلعات لإنشاء دولة إسلامية تعم كل غرب إفريقيا ، ولد أحمد لوبّو وترعرع . انهارات إمارة ألفا عبدالقادر في عام ١٨٦٤م بسبب نزاعات وخلافات نشأت بين أبناء الأسرة المالكة مما أدى إلى انشقاق صفوف قيادة الدولة وضعفها وتشتت شمل زعمائها ، وكان دين الإسلام الذى اعتنقه أبناء هذه القبيلة بحماس وحيوية ، عاملاً أساسيًا فى بناء كيان الشخصية الوطنية المتميزة لجماعة الفولانى . شكلت هذه القبيلة النواة الأولى للإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء . كان الدافع الدينى وراء هجراتهم الجماعية في داخل القارة الإفريقية ورغبتهم في نشر هذا الدين بين سكانها الذين لم تصلهم الدعوة أو لتجديد حيوية هذا الدين وإصلاح أمره بينهم .

جدول رقم (١)

سلسلة نسب أسرة الشيخ محمد برى (باري)



الشيخ أحمد لوبّو بارى (برى)
مؤسس دولة ماسينا الإسلامية

مولده ونشـأته :

يذكر لنا بعض المصادر التاريخيـة عـن غـرب إفريقيـا، أن مملكـة ماسـينا دامت أكثر من خمسمائة سنة قبل ظهور الشـيخ أحمـد بـن محمـد بـن سـعيد بارى، الذي عـرف أيضـاً: بـامير المؤمنيـن أحمـد لوبّـو (أى أحمـد الطيـب)، كداعية ومصلح دينى واجتماعي في تلك المملكة وماجاورها. وأنه قد تعـاقب خلال تلك المدة أربع وعشرون ملكاً كلهم من المسلمين إلى أن وصل الـدور إليه لكن لم تقم هناك دولة إسلامية قبله. وكان ابنه "أحمـد مـو أحمـد" آخـر هؤلاء الملوك وأكثرهم شهرة وأصغرهم سناً لأنه قتل وهو فـي السـابعة عشـرة من العمر .

ولد الشيخ أحمد بن محمد بن سعيد بارى، المعروف بأحمد لوبّو ببلـدة بامغال(٣٢) باقصى الشمال الأوسط بمجمهورية مالي حاليا، في ١٧٧٥م. نشأ الشيخ أحمد يتيماً لأنه فقد أبويه وهـو فـي سـن الطفولـة فكفلـه أخوالـه بنفـس البلدة . حفظ أحمد لوبّو القرآن الكريم وهو فـي سـن الصبـا كمـا هـي العـادة لدى العائلات المسلمة المتدينة في الغرب الإفريقي في ذلـك الوقـت. واسـتمر في تحصيل الفقه وقواعد اللغة العربية مع أبناء أخواله الذين كـان يرعـى لهـم

---

(٣٢) تشير بعض المصادر إلى أنه ولد فى بلدة كايال أو "ملاغال" الجبلية .

الماشية من البقر والغنم . وشوهد فيه منذ المرحلة الأولى من نشاته ، حب حياة العزلة والانطواء و الزهد ، لذا كان يوجه انتقادات ضد حياة الترف واللهو ، سيما العادات الوثنية التي كان يتباهى بها أبناؤ الأثرياء والمترفين . وبعد فترة من الزمان التي استغرقها أحمد لوبّو في تحصيل المعرفة وإحراز التقدم في طلب العلم مع تقوى الله ، بات الشاب فخوراً بثقافته الدينية والعربية .

فأخذ يعظ أترابه من الفتيان ويسدى إليهم النصح ويدعوهم إلى التحلّى بالأخلاقيات الإسلامية الحميدة والفاضلة والابتعاد عن الرّذائل وأعراف الشرك البالية . ورأى الشاب ، أحمد لوبّو ، في منامه ذات ليلة أن الله جل جلاله يأمره بالنّهوض وإنقاذ أبناء جلدته من الانخراط في الممارسات الوثنية الشّائعة في بلاده ومجتمعه آنذاك . وعندئذ شمر وهو في سن الكهولة عن ساعد الجد ليجهّز نفسه بالتبحر في العلم وكسب المعارف والإلمام بالتنظيم الإداري أولاً، ثم بتعبئة الشباب والرّجال ثانياً. فسافر من مسقط رأسه متوجهاً إلى مدينة "جينّى" حيث تمركز علماء الدين من أهل اللغة والفقه بغية تحقيق رغبته في العلم والمعرفة. وبعد ذلك انتقل إلى بلدة "روندى سيرو" بماسينا حيث استقر وأخذ يعظ الناس ويدرس النّشء . ومن المرجح أن أحمد لوبو الذي أصبح يعرف "بالإمام والشيخ" قد تأثر بالتّيارات الفكرية الثّورية الإسلامية التي كانت سائدة في العالم الإسلامي وقتئذ وبتوجهات خلافة صوكتو بقيادة الشيخ عثمان دان فودى ، مؤسس تلك الدولة الإسلامية وأخيه عبد الله ، الّذين كانا متأثرين ، ايضاً بآراء الإمامين أبى حامد الغزالى وابن تيمية . وقيل إنه سافر بالفعل إلى بلاد

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

الهاوسا بشمال نيجيريا في عام ١٨٠٥م وانضم إلى الجهاد الذي كان الشيخ عثمان دان فودى وجماعته قد أعلنوه في تلك المنطقة .

عودته إلى ماسينا وتأسيس الخلافة

كان هناك عديد من المسلمين من قبيلتى الفولاني والسوننكى في منطقة ماسينا التي تعيش معاً جنباً إلى جنب وبجوارها قبيلتا الماندنغو والبوزو حيث يوجد من بينهم وثنيون وذلك في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي . وكانت ثمة حالة من العداء والتناحر القائمة بين القبائل المسلمة وغير المسلمة . ومن ثم باتت المنطقة مشحونة بمواجهات واصطدامات من وقت لآخر وبالتالي أصبحت بيئتها قابلة لانفجارات دموية ونشوب حروب أهلية ، وكانت زعامة إمارات ماسينا وقتئذ في أيدى عشيرة فولانية حاملة لقب "جللو" وتنافسها في الزعامة عشيرة فولانية أخرى حاملة لقب "برى أو بارى". وإلى هذه الأخيرة ينتمى الشيخ أحمد لوبّو ، لكن شاءت الأقدار أن تنتقل حكم ماسينا من أيدى أبناء العشيرة الأولى إلى أيدى أبناء العشيرة الثانية . ومن ناحية أخرى، كانت هناك مجموعة تدعى "الرّمة/الرماة" انحدرت من بقايا الحسين المغربى وكان لها نفوذ قوى في تلك المنطقة بعد هيمنتها على شؤونها إثر سقوط مملكة صونغاى في عام ١٧٩١م . ووقع خلاف بين الشيخ أحمد لوبّو وزعيم الرّمة الذى أبعد الشيخ أحمد كلياً عن أراضى صونغاي التي كانت خاضعة لسلطانه . وتوجه الشيخ الى بلدة "سيبيرا" الواقعة في إمارات ماسينا حيث

استقر وأخذ في التّدريس والوعظ والإرشاد . وهناك احتشد حوله لفيف من طلبة العلم والأتباع العاديين الّذين أصبحوا يزدادون حشوداً يوماً بعد يوم . وفي ذات يوم وبمشيئة الأقدار ، تشاجر أحد طلاب الشيخ أحمد مع ابن "أرطو" الذى كان حاكما لإحدى مقاطعات ماسينا . وضرب الطّالب ابن الحاكم وأرداه قتيلاً . وأراد الحاكم أخذ الثأر عن ابنه القتيل وطلب من الشيخ أحمد لوبّو تسليم الطالب القاتل إليه . لكن الشيخ أبى وإمتنع عن الأمتثال لمطالب الحاكم . فتفاقم الموقف بين الطرفين ، فانتاب الحاكم "أرطو" الخوف لكنّه أصر على مقاتلة الشيخ أحمد لوبّو وجماعته إذا تمادى في عناده ورفضه تسليم الطالب القاتل والتخلص عنه . لكنّ الشيخ رفض تلبية رغبة الحاكم ، الذى استنجد بمملكة سيغو البامبرية لأنها كانت خاضعة لزعامة ماسينا . وانشغل الشيخ في تلك الأثناء بأنشطته في الوعظ والإرشاد والدعوة . وأرسل أحد تلاميذه إلى أراضى "الرّمة" لدعوة الناس إلى دين الإسلام ، كما كان يفعل بالنسبة للمقاطعات الاخرى ، ولم يرفض زعيمهم السّماح بالقيام بتلك الأنشطة الدينية فحسب ، بل أمر باعتقال رئيس الدعاة وقتله على الفور، تحسباً وخوفاً من الا تتأثر منطقته بدعوة الإصلاح الذي ينهض به الشيخ أحمد وجماعته . وقام الشيخ رداً على تلك الجريمة وردعاً لعدوان حاكم إمارات ماسينا وحليفه ملك مملكة سيغو ، بإعلان الجهاد الذي عم المنطقة برمتها . فاحتل مدينة "جينّى"، وأسس عاصمة جديدة لدولته الفتية وسماها "حمد الله" في عام ١٨١٩م . وأخذت مملكة ماسينا الجديدة بقيادة الشيخ أحمد لوبّو بارى بعد انتصاره على أعدائه ، تنمو شيئاً فشيئاً إلى أن اصبحت

دولة عظيمة الشأن ومترامية الأطراف شرقاً وغرباً ، وشملت كـل مجـرى نهـر النّيجر الأوسط، من منطقتى جينّى وتنبكتو وصولاً إلـى المنـاطق التـي تسـكنها قبائل البامبرا والبوزو والدوغون الخ .

لم تكن أهمية مملكة ماسينا بسـبب اتسـاع مسـاحتها أو عمرهـا الزمنـى وفق معايير الممالك التي قامت في إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى ، بقـدر مـا اشتهرت وامتازت بـه مـن حسـن الأنظمـة الإداريـة المحكّمـة . إنّ الشـخصية الإسلامية التى اتصفت مملكـة ماسينا وخلافتهـا بهـا هـي التـى مهـدت الجـو الثّقافي والعقيدى المناسبين وأرست الأبنية البيئية الدينيـة الأساسـية التـي انبنـى عليهـا الجهـاد اللاحـق للشـيخ عمرتـال الفوتـى ، مؤسـس الدولـة العمريـة فـي السودان الغربي . فعلى سبيل المثال ، قام الشيخ أحمـد لوبّـو بتشـكيل مجلـس تكون من عضوية أربعة وسـتين عالمًـا و قاضيـاً . خـول لهـذا المجلـس سـلطة تشريعية وتنفيذية لكنّه ظل خاضعاً للمجلس الآخر الـذي ترأسـه الشـيخ نفسـه ويضـم عضوين آخرين ، وكان من شـروط العضويـة ألا يقـل عمـر العضـو عـن أربعين سنة . كان لكل مقاطعة من مقاطعـات الدولـة أمـير ومعـه قـاض وأميـن الخزنة يقومان بمساعدته في تسيير شؤون مقاطعته ، وكانت إيـرادات الدولـة تـأتى مـن حصيـلات الضرائـب وغنـائم الجهـاد والغرامـات وتركـات الوقــف والثروات أو الممتلكات التي تتم مصادرتها شرعاً .

العوامل الحافزة إلى إعلانه الجهاد

كان الجهاد الذى أعلنه الشيخ أحمد لوبّو جزءاً من الجهود الرامية إلى إحياء الدّين الإسلامي في الغرب الإفريقي؛ انطلاقاً من مختلف حركات الدعوة إلى الإسلام أو لإصلاح أمور المسلمين في الغرب الإفريقي ، ابتداء من القرن الثامن عشر الميلادي . ونذكر فيما يلى أهمها :

أ- عدم ارتياح المسلمين بالانقياد والخضوع للحكومات غير الإسلامية مهما عظم شأنها التى كانت منتشرة في معظم أنحاء السودان الغربى .

ب -اعتبار المسلمين دينهم الإسلامي أرقى وأسمى من أى دين آخر بغض النظر عما يتمتع به غير المسلم من الثروة أو السلطة أو الجاه أو النفوذ أوغير ذلك من المناصب الاجتماعية والسّياسية تحت الحكومات التى لاتطبق الشريعة أو الوثنية .

ج- إجادة المسلمين القراءة والكتابة بالحروف العربية بفضل تعلمهم القرآن الكريم إلى جانب تعليم الفقه مماجعلهم يشعرون تلقائياً بضرورة أن تكون للقيادة الدينية والحياة الدينية الإسلامية الأفضلية والأسبقية في مجتمعاتهم الإفريقية في الغرب الإفريقي مهما كلفهم ذلك .

د- اشمئزاز المسلمين من دفع الضرائب إلى الحكام والملوك الذين لايحترمون الشريعة أو الوثنيين الذين يقومون بتقديم القربان إلى أصنامهم ويصنعون الأسلحة بالأموال المحصلة من تلك الضرائب لتقوية دويلاتهم القائمة على عقيدة الكفر والطغيان الضالة .

هـ- اعتقـاد الكهنـة وعبـدة الأصنـام فـي أن ديـن الإسـلام دخيـل عليهـم وبالتالى فإن نموه في أوساطهم ، يهـدد مصـالحهم الاجتماعيـة والاقتصاديـة ، كما يؤدى إلى انتزاع الاحترام والتقديـر والطاعـة التـي يضمرهـا السّـكان لهـم ولعاداتهم الوثنية ؛ لذا اعتبروا اعتناق الدين الإسلامي عملاً عدوانياً .

و- عـدم إبـداء الملـوك الكفـرة الاستعداد أو الرّغبـة فـي التخلّـي عـن المعتقدات والعادات الوثنية والتمادى فى إضمار حـالات العـداء ضـد الإسـلام والتواطؤ ضد المسلمين . ومن بين ذلك التواطؤ والتآمر ضد المسلمين وإغـراء بعض الأفراد من المسلمين السذج واستدراجهم للتآمر ضد عقيدتهم وإخوانهـم من المسلمين لصالح أولئك الملوك وإمدادهم بأدوات حربية .

ز- إضفاء الحماس القبلى أو الوطنى على دين الإسـلام فـي تلـك الحقبـة من تاريخه ومكانه . إذ اعتبر أبناء بعض القبائل المسـلمة الجهـاد كأنـه جهـاد من أجل حماية قبيلتهم ورفع مكانتها ؛ اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً . من بينهـا قبائل الطوارق الصحراوية والصونغـاى والمـاندنغو والفولانـى . ولا غرابـة فـي ذلك ، لأنه عندما جاء الإسـلام إليهـم وجـدوه يدعـو إلـى السّـجايا والأخـلاق الحميدة التى توافق وتنسجم مع ما ألفوه من العادات كتكريم الضيف وحمايتـه واحترام العدالة الاجتماعية وضرورة حمايـة المـرأة والمسـتضعفين مـن العجـزة ضد الاستغلال البشع في مجتمعاتهم .

قيام دولته

وفي بداية القرن الثامن عشر عندما أخذت ثروات الرعاة والمزارعين من قبائل الفولاني تقل تدريجياً بسبب القحط والجفاف المستمرين ، أراد بعض الإقطاعيين من تجار البامبرا والفولانى من سكان "جينّي" وغيرها من المدن التجارية الشهيرة ، أن يستغلوا ثمار جهود صغار المزارعين والرعاة الذين يعيشون في المنطقة ، وذلك عن طريق فرض الضرائب العشوائية المغرضة عليهم ونهب ثرواتهم عنتاً ، وإبان تلك الأوضاع ظهر أحمد لوبّو باري الذي أخذ في الدّفاع عن هذه الفئة الكادحة من الشعب بغية إزالة الظلم عنها. فطالب بتطبيق الشّريعة الإسلامية والعمل بمنطوق كتاب الله وسنة رسوله الكريم . واستطاع في مطلع القرن التاسع عشر الميلادى أن يشكل جيشاً مؤلفاً من الشباب المتحمسين للدين الإسلامي والغيورين عليه في منطقة جينّى .

واجه الطغاة الظالمين من حكام المنطقة وحقق النصر عليهم بهزيمة جيش البامبرا في عام ١٨١٨م ، وبعدئذ أقام دولته الإسلامية . وفي غضون بضع السنوات التى تلت ، إستطاع أحمد لوبّو الّذي تقلد لقب "الشيخ" القضاء على معاقل الوثنية . وفي عام ١٨١٩م أقام عاصمة جديدة لدولته وسماها "حمد الله" . ووضع نظم انضباط تنقلات رعاة المواشى وأدخل الإصلاحات الدينية وأنشأ مجلساً استشارياً مكوناً من العلماء والفقهاء ذوى النّزاهة التّاريخية للإشراف على شؤون رعاياه على ضوء الكتاب والسنّة . فحظر الاتجار فى المسكرات والتبغ إلى آخره . كما أوصى بتحديد اختلاط

الرجال بالنساء الا في حالات ضرورية . كما حظر تبرج النساء بارتداء الملابس التي لا تليق بهن وإظهار السلوكيات المنحرفة . كانت دولة ماسينا، خلاف الدويلات الأخرى في المنطقة ، متميزة بمركزية النظم الإدارية وتحصيل الضرائب وتوفير المصالح العامة وتنظيم القوى الأمنية والعسكرية . استطاع الشيخ أحمد لوبّو بارى بحلول عام ١٨٢٥م ، مد نفوذه شمالاً حتى شمل منطقة مجرى نهر ديبو ومنطقة تنبكتو التي كانت تحت سيطرة قبيلة كونتة الصحراوية . اشتهرت تنبكتو بالتجارة وكملتقى للثقافة الإسلامية ، وقد تمتعت فيما بعد بإستقلالها النسبى وبدء التعاون والتفاهم بين علماء ماسينا وعلماء تنبكتو في مختلف القضايا التي تهم الطرفين إعزازاً لتقدم الإسلام في بلاد السودان الغربي والأوسط .

انتقل الشيخ أحمد لوبّو إلى رحمة ربه المنان في يوم الجمعة الموافق اثنى عشر من شهر ربيع الأول للسنة ألف ومأتين وست وسبعين الهجرية (١٢٧٦م) بعد العمل الدؤوب الذى دام عشرين ونيف سنة في الاجتهاد والجهاد والإصلاح الاجتماعي . غمده الله بواسع رحمته . هو الذي أضفى الشخصية الإسلامية على الشخصية الفولانية حتى أصبحت كلمة "الإسلام" مرادفاً لكلمة الفولانى في إفريقيا جنوب الصحراء . استخلف الشيخ أحمد لوبو بارى قبيل وفاته ابنه أحمد الثاني الذي تولى الحكم بعد والده في عام ١٨٥٢م . وعرف بأحمد "مو" أحمد أى أحمد بن أحمد .

نشأة أمير المؤمنين أحمد "مو" أحمد لوبّو.

ولد الأمير أحمد مو أحمد بمدينة حمد الله المذكورة آنفاً التي كانت مقر خلافة الإمامية الماسنوية في حوالى سنة ١٢٦٠ الهجرية الموافق عام ١٨٤٤م . حفظ القرآن الكريم عن ظهر القلب عند والده في بواكير حياته ولم يكن قد جاوز العقد الأول من العمر . كان أكبر أبناء والده ذكوراً . ونظراً لما كان يتمتع به من الذكاء واتزان الشخصية والشغف للعلوم والتّدين الذي فطن عليه ، حظي بحب مفرط من والده ورجال بلاط الخلافة الإسلامية بإمارات ماسينا مما جعل كل من يرزق من المسلمين الفولانيين بأول مولود له ذكر يسميه أحمداً تخليداً لذكرى ذلك الاسم ، حتّى أصبحت العادة عند الفولانيين أن يلقّبوا ابنهم الأول "بأحمدٍ" حتى وان كان له اسم آخر . تلقى الأمير أحمد تعليمه الاولى فى مدينة "حمد الله"، لكن لم تشأ الأقدار أن يستمر على عرش الإمامية لإمارة ماسينا مدة طويلة .

تعاهد التاريخ مع صانعيه ليطول الأمد ببعضهم ويقصر بالبعض الآخر. مات الأمير أحمد بن أحمد لوبّو في السن السابع عشر من العمر ، أى وهو في عنفوان شبابه نتيجة حرب وقع هو ضحية لها . ولم يكن له فيها ناقة ولا جملاً بل وجد نفسه متورطاً فيها لمواجهة الشيخ عمر تال الفوتى الّذى كانت تلك الحرب ، بطبيعة الحال ، كرهة له أيضًا . تولى الأمير أحمد مو أحمد ، عرش ماسينا خلفاً لوالده الشيخ أحمد لوبّو ، وهو ابن خمسة عشرة سنة . كانت تلك الحرب التي أطاحت بعرشه مفاجأة ولم يتخذ لها خطوات التحسب

بحكم حداثة سنه وقلة خبرته فى الحياة . وكان يعلم أن عرشه الذي ورثه من أبيه ، قد أسس ليخفق علم الإسلام في كل ربوع الإمارة وما جاورها . لم يكن متحسباً للحرب، لاسيما من خصمه الذي كان منذ عهد قريب والدًا له وضيفاً مشرفاً نزل على والده الشيخ أحمد لوبّو وعلى عرش ماسينا وأهلها. قضى أمير المؤمنين ، أحمد مو أحمد قرابة سنتين فقط على عرش ماسينا. وهي نفس الفترة التي قضاها خصمة على العرش نفسه بعد سقوطه (العرش) من يده وانتقل إلى يد الشيخ عمرتال الفوتى الذي توفى نتيجة ثورة قام بها أهل ماسينا عليه بعد مرور سنتين فقط على استيلائه ذلك العرش . رحمهما الله وكل من كانوا معهما من المسلمين والمسلمات جميعاً وأدخلهم فسيح جنات النعيم .

السبب المباشر للحرب :

أشير ، باختصار إلى السبب المباشر لنشوب تلك الحرب المشؤمة بين الشيخ عمر تال الفوتى وأمير المؤمنين أحمد مو أحمد ، نجل الشيخ أحمد لوبّو، مؤسس خلافة ماسينا . أدت تلك الحرب في نهاية الأمر إلى انهيار ثلاث دول إسلامية حظت بثقافة إسلامية وعربية رفيعة المستوى . كما أودت بحياة ما يقرب من ثمانين ألف قتيل من أبناء المسلمين وسقوط زعماء الممالك الثلاثة في السودان الغربي ؛ أى أحمد مو أحمد ، عمر الفوتى ، الشيخ سيدى المختار البكاى الكونتى .

كان هناك خلاف قد وقع بين الشيخ عمر الفوتى ، أثناء تجواله وهو شاب ، طلبًا للعلم على أيدى علماء وفقهاء مالى ، وقبل سفره إلى الحجاز

وبلاد المشرق العربى ، وبين الملك "فارما على مونزو ويتلا" ملك دولة سيغو البامبرية . فأمر الملك باعتقال عمر تال الفوتى واحتجازه ثم أراد قتله فيما بعد . لكنّ زوجة الملك حالت دون ذلك وطلبت إلى زوجها إطلاق سراح سجينه ، فلبّى لها تلك الرغبة وأفرج عنه . واصل الشيخ عمر الفوتى سفرياته بعد ذلك ماراً بكلٍ من دولة صوكتو العثمانية في نيجيريا والدولة المهدية بالسودان الشرقي ، وصولاً إلى الأراضى المقدسة بالحجاز والأردن ومصر. وعندما عاد إلى المنطقة كداعية إسلامي وخليفة الطّريقة التّجانية وقوت شوكته وأصبح شيخًا ، بوجود أتباع ومريدين كثيرين ، كانت دولة سيغو أحد الأهداف الرئيسية للهجوم والقضاء على ملكها من قبله . وبالطّبع ، تعرضت تلك الدولة ، كغيرها ، من الدويلات البامبرية الأخرى الوثنية القائمة في المنطقة، للمواجهة مع الجيش العمرى . دخل جيش الشيخ عمر الفوتى مدينة سانساندنغ ، عاصمة مملكة سيغو وإحتلها في السنة ١٢٧٣هـ الموافقة للعام ١٨٥٦م ، بعد هزيمة جيش البامبرا بقيادة ملكهم "فارما على مونزو ويتلا" . اختفى الملك ويتلا مختبئاً في مكان مجهول عن الشيخ عمر وأتباعه . وبعد مرور خمسة أشهر من احتلال بلاده لجأ الملك ويتلا إلى مملكة ماسينا المجاورة ، وطلب إلى ملكها (الصبى) "أحمد مو أحمد" أن يحميه من الشيخ عمر الفوتى وجماعته ، قائلاً إنه أسلم وإعتنق دين التوحيد . طلب الشيخ عمر الفوتى إلى أمير المؤمنين ، ملك ماسينا ان يعيد إليه "ويتلا" خصمه ، لأنه كافرًا ولا زال على عقيدته الوثنية ، على رغم تظاهره بدين الإسلام . لكنّ الأمير "أحمد مو احمد" رفض هذا الطلب من الشيخ عمر الفوتى . واستفتى

علماءه الذين أفتوا إليه بعدم جواز تسليم خصم استجار بإنسان مسلم إلى من قد يقضي على حياته ، لا سيما أنه كان زعيم قوم ، ولو كان كافراً وبينهما حالة عداء قديم . ويجب عدم إفساح المجال لتصفية حسابات قديمة . واستدلوا بآراء كثيرة منها :

أنّ الله سبحانه وتعالى قال في سورة التوبة :

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشركينَ استجارك فأجرهُ حَتّى يسمعَ كَلاَمَ الله ثُم أَبلغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلكَ بأنهُم قَومٌ لا يعْلمُونَ﴾ .

ب- وقال في سورة النساء : ﴿يَأَيُّهَا الذينَ آمنوا إذا ضَربتُمْ في سَبيل الله فتبينوا ولاَ تقُولُوا لمَنْ ألقَى إليكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمناً تبْتَغُونَ عَرضَ الحياة الدنْيا فعندَ الله مَغانمُ كَثيرة كذَلكَ كُنْتُمْ منْ قَبلُ فمَن اللهَ عَلَيْكُم فتَبينوا إن اللهَ كَانَ بمَا تعْملُون خَبيرا ﴾ .

وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: " إنكُمْ تَختصمُونَ إلىَّ فَلَعل بَعضَكُمْ أَنْ يكُونَ أَلحَنَ بُحجته منْ بَعض فَأقْضى لَهُ عَلَى نَحْو مَا أَسْمَعُ منْهُ ، فَمَنْ قَطَعْتُ لُهُ منْ حَق أَخيه شَيئاً فإنمَا أَقْطَعُ لَهُ قطعَة منَ النار " حديث متفق عليه .

وجاء في صحيح البخارى : عن عمرة عن عائشة رضى الله عنها، عن النّبىﷺ. قال : "مازال جبريل يوصيني بالجّار حتى ظننت أنه سيوّرثه " .

وعن أبى شريح الخزاعى ، عن النّبي صلى الله عليه وسلم قال :" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت .

في سيرة ابن هشام : أن الرّسول صلى الله عليه وسلم قد سمح للعباس رضى الله عنه أن يجير أبا سفيان عند فتح مكة ، وكان أبوسفيان يومئذ مشركاً وزعيم قومه . بل أكرمه رسول اللّه ﷺ أمام قومه . فقال : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن".(٣٣) أعلن الشيخ عمر الحرب على دولة سيغو وإمامية ماسينا وإمامية كونتى . استشهد الزعماء الثلاث من جراء تلك الحرب وتشرد الآلاف الباقون من أتباعهم الذين ظلوا على قيد الحياة ، إلى مجاهيل التاريخ .

كان للجهاد الذى قام في السودان الغربي تحت إمامية ماسينا ، حصيلة إيجابية في تاريخ انتشار الإسلام في غرب إفريقيا . منها : تعميم تحفيظ القرآن على قرى وأمصار تلك الدولة والمناطق المجاورة لها . كما ارتفعت نسبة الحفاظ وأهل الفقه وعلماء اللغة بين مختلف طبقات المجتمع . كان التعليم بصفة عامة متجاوباً مع تطلعات الحكومة المركزية لتلك الدولة باختيارها المستشارين والإداريين معتمدة في ذلك على الكفاءة العلمية

---

(٣٣) مخطوطات عثر عليها المؤلف أثناء زيارته إلى مدن : تنبكتو وموبتى، وحمد الله ، بجمهورية مالي في يوليو عام ١٩٩٠م .

والخبرة . كما انتعشت الحركة الأدبية في الشعر والتاريخ باللغة المحلية التى كانت تكتب بالحروف العربية. يقدر بعض المصادر التّاريخية عدد العلماء والفقهاء المشهورين في دولة ماسينا بنيف وثلاثمائة . لكن معظم إنتاجاتهم العلمية والأدبية قد اندثرت بفعل الحرب الأهلية التى نشبت هناك . وفيما يلى قصيدة نونية نظّمها أحد أدباء ماسينا - يدعى الشيخ أحمد حمّا بركى ، أجمل فيها بعض فحول علماء بلاط الدولة .

١- بِحَمْدِ اللَّهِ "حَمْدُ اللَّهِ" وَطَنِى ... وَمَسْقَطُ جِبْهَتِى وَمِفْتَاحُ عَيْن
٢- وَفِي حَافَاتِ حَمْدِ اللَّهِ قَوْمٌ ... كِرَامٌ لَمْ يَنَلْهُمْ كُلُ شَيْن
٣ - وَجَدَدَ سُنَّةً فِي عَامِ شَرْجَلْ ... أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِغَيْرِ مَيْن
٤ - لَقَدْ أَحْبَبْتُهُ حُبًّا بَلِيغًا ... لِمَنْ قَدْ كَانَ صَلَّى الْقِبْلَتَيْنِ
٥ - وَحُبُّ الشَّيْخِ مُقْتَلِعٌ بِقَلْبِى ... إِلَى صَدْرِى وَمَوْضِعِ مِنْخَرَيْنِ
٦ - خِلاَفَةُ أَحْمَدِ بْنُ مُحَمَّدِ كَبْحٌ ... وَمُدَّةُ عُمْرِهِ لَوْ مَرَّتَيْنِ
٧ - أَحْمَدُ وَعَبْدُ اللّهِ مُوبُّو ... حَيَاتُهُمَا كَانَتْ جَوْهَرَيْنِ
٨ - مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدُ اللَّهِ ذُو حَظٌّ ... كَذَا عَلى شَيْخٌ كَنَا عَابِدَيْنِ
٩ - وَمُدَّةُ سَبْطِهِ كَطٌّ وَطَاءٌ ... خِلاَفَةُ أَحْمِدِ مِنْ أَحْمَدَيْنِ
١٠- وَحَامِدُ شَيْخٌ كَذَا عَبْدُ السَّلاَمِ ... بَعِيدَيْنِ الْمَلاَمِ وَأَجْدَرَيْنِ
١١- وَمَحْمُودُ الَّذِي قَدْ بَلَغَ الْعُلى ... سَخِيُّ الْيَدِ مِنْ سَيِّدَيْنِ
١٢- وَبَالُوبُّو كَرِيمٌ سَيِّدٌ مِنْ ... خِيَارِ الْقَوْمِ وَصَافِى الْوَالِدَيْنِ
١٣- كَذَا الْحَاجُ مَعَ غُورُو سَعِيدُ ... وَأَحْمَدُ لُوبُّو مُنْبَسِطُو الْيَدَيْنِ

١٤- كَـذَا أَلْفَا سَعِـيدُ وَجَاجِى إِخْـوَانٌ وَنَجَــلاَ حَمَّا كَانَـا عَـابِدَيْـنِ

١٥- كَـذَا أَلْفَــا عَلِـى شَهِـيرُ عِلْـمٍ صَاحِبـا الشَّيْـخِ وَنِعْمَ الصَّاحِبَيْنِ

١٦- أَلْفَــا حَمَّــا مَسَــارُ سِـــينٍ شَـاهِــدُ الشَّـيْخِ وَنِعْمَ الشَّاهِدَيْنِ

١٧- وَأَلْفَــا نُــوحُ ذُو عِـــزٍّ وَجَــاهٍ وَأَلْفَـــا مُوبُـو كَـانَا زَاهِــدَيْنِ

١٨- كَذَلِكَ "هَنْبَرْكِى" ذُو عِـلْمٍ وَعَدْلٍ يَقُـومُ لَنَــا مَقَــامَ الشَّـاهِـدَيْنِ

١٩- وَعَبْـدُالْقَـادِرِ الْجَيْـلاَنِى مَعًــا كَانَا بَعِيدًا عَمَّـا يُوَصِّلُهُ لِلرَّيْـــنِ

٢٠- "لَيْتِنِى" تَسْـأَلْ بَنِـى الْحَمْدِ طَـرًّا لَقَـالُـوا أَنَّـهُ مِنَ الْمُبَــارَكِيـنَ

٢١- وَسِيرِى الْغَلِـي وَبَرْكِى "إِخْــوَانٌ" مَشْـهُورَيْــنِ كَـانَـا فَائِقَيْـــنِ

٢٢- وَأَلْفَـا مَـلِكٌ اِبْنُ الحَـاجِّ عُمَــرْ عَمِيــقُ الْعِـلْـمِ بَيْــنَ الْعَـالَمِينَ

٢٣- سُلَيْمَانُ لَهُ فِـي البَيْــتِ قَــبْرٌ وَأَلْـفَـا بُوبَـا كَانَـا فَـائِزَيْــنِ

٢٤- وَأَلْفَــا وُلْــدُ وَلْـعُ الْمُحِبَّـةْ لَخَـيْرِ الْعَـالَمِينَ جِـدِ الحُسَّيْـنِ

٢٥- رَاعَـانَا "الفُــولاَنِــى" بِطَــاعَةْ أَمْـرٍ يُوَصِّلْنَـا لِـرَبِّ الْعَـالَمِــينَ

٢٦- أَلَــمْ تَرَ بَعْضُــهُمْ إِلاَّ يَقِيـنًــا وَإِيمَـانًــا بِــرَبِّ الْمَشْـرِقِــينَ

٢٧- أَلاَ بَلِّـغُوا عَنِّـى يَابَنِـى الفُـولاَنِى أَبْطَـالُ حَمْــدِ اللَّهِ كَانُوا فَائِزِيـنَ

لقد حظي علماء الدّين والثّقافة العربية والإسلامية بصفة عامة، بتشجيع واهتمام بالغين في اظل إمامية الشيخ أحمد لوبّو . ضرب بذلك مثلاً يحتذي به. وسقوط تلك المملكة بالصّورة التى حدثت تعتبر حقاً مأسوية تاريخية ونكصة التردى ألمت بها مسيرة الإسلام في الغرب الإفريقي .

كانت مدينة "حمد الله" في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي تماثل في السودان الغربي ما مثلته عواصم العالم الإسلامي من أمثال: بغداد ودمشق والقاهرة بالنسبة للنهضة الإسلامية في المشرق العربي في القرون الوسطى. كانت تلك العاصمة ذات حيوية ثقافية آهلة بحفاظ القرآن وفحول العلماء والفقهاء وأهل اللغة . كما كانت تفتخر بمآذنها الشامخة والمنتشرة على طول العاصمة وعرضها حيث يسمع منها دوى أصوات المؤذنين في أوقات الصلوات المتوالية . لكن أصبحت اليوم مدينة خاوية على عروشها وكأنّما لم تكن قط . تشهد على أنقاضها قبور الشهداء وآثار المساجد والحصون . وفيما يلى قصيدة نونية نظمها أحد علماء إمامية ماسينا يدعى ألفا يحيى موسى لوبّو يرثى فيها مدينة "حمد الله" وأميرها أحمد مو أحمد :

١- هجوم أخ على أخيه جنون ... غدر أخ انظر كيف يكون

٢- من ظن أن العار يذهب سدا ... دعه واعلم أن ذاك جنون

٣- من قال إن الذنب يخفى لأعين ... فثق بأن ذاك صار جنون

٤- إن الذي طمع في شرب دم ... أخيه احذره واستيقن بأنه سيخون

٥- وبقدر ما استطعت تجنب وعده ... فاسرع واتق شر الخائنين

٦- ففي شهر عيد الله والقتال حرام ... أباحوا دم شقيق بدون حصون

٧- ياليت لو اعتبروا شوال المحرم ... مدينة سلم رضيعة رب العالمين

٨- وكل يهتف والدموع تسيل ... لغدر أخ على أخيه جنون

٩- وكل يهتف بحمد الله ترحمًا ... بأميرها أحمد كفيل أحمدين

١٠- ارتجفت مـآذن كانت لله وقـفًا　　وتعـانقت القـلوب بمـاء جفون

١١- أى مدينـة بعـد حمد الله تقـوم ؟　　ثنـاء لله وهبـة رب العالميـن

١٢- تآلفـوا مع الدوغـون هـابى هـيرى　　والبورزو والتومبو(٣٤)جماعـة الأوثان

١٣- لـم يكونـوا الحلفـاء الصالحين　　بـل كان حلفًـا لمـدائن الأوثـان

١٤- انخدعت الدوغون والبوزو والتومبو　　حلفـاء شـر تحطيم مدينـة أحمدين

١٥- فارتشوا بحلية أساوير ذهبًا وفضًا　　كثمـن لاغتيـال ابـن أحمـدين

١٦- ذاك الولى ، بل ونجل الصّالحـين　　تقـى الله رضيـع أحمـديـن

١٧- سقطت شهيـداً في نهـر مانـى　　صـار مـأوى لرفـات الصّالحيـن

---

(٣٤) أسماء القبائل .

"دال "

الدولة العمرية الفوتية

بلاد فوتا تـورو :

تقع بلاد فوتاتورو[٣٥] في الأودية الوسطى لنهر السنغال فيما بين صحـراء موريتانيـا ومنحـدرات منطقـة السـنغامبيا علـى بعـد حوالـى ١٠٠ ميـل شـمال المحيط الأطلسي . يمتـاز موقـع بـلاد فوتـا تـورو بأحسـن الممـرات الداخليـة والأراضـي المنبسـطة والمسـتنقعات الصّالحـة للإنتـاج الزّراعـي بـأقل درجـة سـقوط الأمـطار مـرتيـن خـلال السـنة . لـذا اشـتهرت بـلاد فوتـاتورو بالمحاصيل الزراعيـة والثـروة الحيوانيـة التـي تجـذب المهـاجرين إليهـا مـن أهـالي مختلـف منـاطق السـودان الغربـي والمغـرب العربـى وسـكان الصحـراء الكبرى عبر القرون . يتمد حـزام أوديتها بحوالـى ٢٥٠ ميـلاً شـرقاً وبحوالـي ٢٠ ميـلاً غربـاً . ليس هنـاك حواجـز طبيعيـة تحمـي أراضيهـا الشاسـعة مـن هجمـات وغـارات متكـررة فـي الماضـي بيـن مختلـف قبائلهـا والقبـائل المجـاورة التـى اكتسـحـت أجـزاءاً من موريتـانيـا وصـولاً إلى المغـرب

---

(٣٥) هناك أربعة أقسام من بلاد فوتا ، وهى : (١) فوتا تورو الموجـود فـى السـنغال وموريتانيـا (٢) وفوتـا جللـو فـى غينيـا (٣) وفوتـا بونـدو فـى مـالى (٤) وفوتـا ملّـى فـى بـلاد آدمـاوا بنيجيريـا والكاميرون حاليًا .

والجزائر. أدى هذا الوضع البيئى ، في العصور الغابرة ، بمختلف قبائل الفولاني في بلاد فوتاتورو إلى الانتقال من المناطق الشّمالية النائية الأكثر تعرضًا لتلك الهجمات وتوجه صوب مجرى نهر السنغال جنوباً في المناطق الوسطى حيث أقامت دولتها المركزية التى أصبحت قوية تدريجياً واستطاعت الصمود أمام تلك الغارات وردعها . استطاعت دولة التوروبى(٣٦) تجسيد الشخصية الإسلامية لنفسها في أواسط القرن الثامن عشر الميلادى عن طريق النشاط التّعليمي والاهتمام بالتثقيف ونشر الإسلام ، حتى أصبحت كلمة "التوروطو" مرادفاً لكلمة "الفقيه" أو العالم بالشّريعة الإسلامية . تميز عهد ملكها ألفا (أى ألفاهم) سليمان بال بأنشطة الدعوة وإقامة القوة العسكرية التي إستطاعت الصمود أمام تهديدات دولة المرابطين في المغرب العربى وإلغاء ولاء شعب فوتاتورو لتلك الدولة في مطلع القرن الثامن عشر الميلادي . جاء ألفا عبد القادر خلفاً لألفا بال في زعامة دولة التوروبى ، فواصل مسيرة سلفه في نشر دين الإسلام عن طريق التوعية والتثقيف في هدوء واستقرار . فكان أول من تقلد لقب "إمام الدّين" (ألمامى بلغة الفولانى) في تلك الدولة لدى بلوغه السن الخمسين من العمر المديد . ومن ذلك التّاريخ أصبحت الإمامية التوروية في مقدمة حركات الجهاد الإسلامية التي تعاقبت في منطقة السودان الغربى والأوسط . أحرزت الإمامية التّوروية انتصارات كثيرة في مجالات الدّعوة الإسلامية بقيادة الإمام

---

(٣٦) المفرد = التوروطو ، نسبة الى بلاد فوتاتورو .

عبد القادر الذي عرف أيضاً بعبدول .(٣٧) ففي سنة ١٨٩٦م قامت دولة التّوروبى بقيادة عبدول بعد استرجاع الجزء الشرقي من تلك البلاد من سيطرة قبيلة جاننكى وإنهاء الاحتلال الموريتانى لشمال ضفاف نهرها . دخلت الإمامية التّوروية في معاهدة مع السلطات الاستعمارية الفرنسية التي احتلت مناطق شاسعة في غرب إفريقيا . تقوم بموجبها تلك السّلطات بدفع رسوم للإمامية على العروض التّجارية التي تحملها عبر الأراضى الإمامية شريطة عدم تعرض المسلمين من رعاياها للاسترقاق من جانب تلك السّلطات الاستعمارية بيعاً أو شراءً . امتد نفوذ تلك الدولة حتّى اكتسح مناطق قبائل "ولفو "وقبائل سيرى غرباً ومقاطعات بوندو وغاجاغا وخاسو شرقاً . قام الإمام عبدول بتعيين دعاة وفقهاء وأئمة المساجد وقضاة للعمل في المنّاطق الخاضعة لنفوذه . وطلب من زعماء قبائل تلك المناطق أن يقوموا بحماية دعاته وأهاليهم وممتلكاتهم أثناء وجودهم فى تلك المناطق . كما عرض عليهم قبول دين الإسلام والامتثال لشريعة القرآن الكريم والسنة النّبوية الشريفة . وبعد مرور قرن واحد من الزّمان على قيام دولة الإمامية التوروية وأجهت تلك الدولة مرحلة الاضمحلال والانحطاط بسبب خلافات داخلية . ففي تلك المرحلة ولد الشيخ عمر الفوتى الكدوى(٣٨) مؤسس الدولة العمرية .

---

(٣٧) إختصارًا لإسمه الكامل (عبد القادر) .

(٣٨) أضاف الشيخ عمر الفوتى هذا اللقب إلى اسمه . ويشير إلى المقاطعة التى ينتمى إليها في بلاد فوتا تورو .

قامت الدولة العمرية على يد داعية إسلامي ومجاهد ظهر في بلاد السودان الغربي في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي . وهو الحاج عمر بن سعيد بن عثمان بن مختار بن أحمد الفوتى . ويعرف أيضا في تاريخ الحركة الإسلامية في الغرب الإفريقي بالحّاج عمر تال .

مولده ونشأته

ولد الحاج عمر الفوتى في قرية هلوار الواقعة في مقاطعة فوتاتورو بشمال جمهورية السنغال لأبوين مسلمين ينتميان إلى القبيلة الفوتية الفولانية في حوالى سنة ١٢١٠هـ، والموافقة للسنة ١٧٩٦م. نشأ الحاج عمر في كنف والده الشّيخ سعيد تال الذي قام بتحفيظه القرآن الكريم ولم يكن قد جاوز سن البلوغ بعد . تلقى دراساته الأوّلية في الإسلام من التوحيد والفقه واللغة العربية لدى أفراد عائلته وعلماء قرية هلوار . وفي عام ١٨١٥م سافر إلى بلاد فوتا جللو الواقعة في غينيا واستقر في قرية تسمى كرموسنتانا حيث قضى فترة من الزّمان يعلّم أبناء المسلمين العلوم الإسلامية. هناك التقى بأحد مشايخ الطرق الصوفية يدعى الشيخ عبد الكريم بن أحمد وأخذ عنه الأوراد التّجانية ومبادئ علم العروض . سافر بعد ذلك إلى موريتانيا ، حيث التقى بشيخ آخر يدعى الشّيخ مولود فال الّذي جدد له العهد بتلك الأوراد التّجانية . ارتحل بعدئذ قاصداً الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحجّ مع شيخه عبد الكريم بن أحمد المذكور . مر الحاج

عمر ، خلال سفره هذا، بعدة عواصم ومدن بلاد السودان الغربي والأوسط ، انطلاقاً من مدينة "حمد الله"، عاصمة دولة ماسينا ووصولاً إلى مدينة صوكتو مقر خلافة صوكتو الإسلامية . هناك استقبله السّلطان محمّد بللو ، أمير تلك الخلافة. كانت صوكتو في ذلك الوقت مزاراً للأدباء والفقهاء ورجال السّياسة من مختلف أرجاء بلدان الغرب الإفريقي. أتيح للحاج عمر الفوتى أثناء تواجده هناك، فرصة مقابلة شخصيات من العلماء والزوار، من بينهم الشيخ أحمد(٣٩) سيدى البكاى بن الشّيخ سيدى المختار الصّغير بن الشيخ سيدى محمد بن الشّيخ سيدى المختار الكونتى الكبير زعيم الطريقة الصوفية القادرية في تنبكتو. كما قابل "هوج كلابيرتون" Clapperton Hugh (١٧٨٨-١٨٢٧م) المستكشف

---

(٣٩) هو الشيخ سيدى أحمد البكاى بن الشيخ سيدى محمد بن الشيخ سيدى المختار الكنتى الكبير (١٨٠٣-١٨٦٥) الخليفة الثالث للطريقة القادرية . ترعرع في أحضان جده ، ثم في مدرسة والده ، حيث كان أحد العلماء واكثرهم مهابة وصولة في الحق ، وأحد الشعراء المفلقين ، ورث الزعامة الزمنية والرّوحية التي خولت له. ولعب دورًا سياسيا حاسمًا في المنطقة خلال النصف الثانى من القرن الأخير .

كان الزعيم الروحي لأمراء المنطقة وخاصة أمراء "ماسينا" والطوارق والعرب ؛ وطد علاقته مع محمد بللو أمير "صوكوتو" ، إستمرارا للعلاقات التي كانت قائمة بين والده وجده مع زعماء تلك الخلافة .

كانت له مراسلات مع سلاطين المغرب الأقصى وأمراء موريتانيا ، وملكة بريطانيا ، حيث أجاد فن الرسائل الدبلوماسية التى كانت إحدى استنباطات جده ، لدعم العلاقات الخارجية ودعم نفوذه .

كان حليف أحمد شيخ الثاني أمير ماسينا في الصراع المرير مع الحاج عمر الفوتي ، حيث قاد الجيوش التي حررت عاصمته "حمد الله" وماتبعها من معارك . ظل سيد تنبكتو والمنطقة الصحراوية حتى وفاته .

الإنجليزى الذي جاء ليمهد احتلال تلك الدولة الإسلامية من قبل الحكومة الاستعمارية الإنجليزية . وكان هوج كلابيرتون هذا قد تعلم اللغة العربية كعادتهم لتضليل المسلمين . ومن صوكتو توجه الحاج عمر إلى فزان بليبيا ومنها إلى مصر حيث التقى بأحد الأثرياء المسلمين الذي ساعده بما يمكنه من الزاد لمواصلة سفره إلى الأراضى المقدسة . ولدى وصوله إلى مكة المكرمة التقى بشيخ يدعى محمد الغالى مغربى الأصل وأحد تلاميذ الشيخ أحمد التجانى ، مؤسس الطّريقة الصّوفية التّجانية . توجه الاثنان ، بعد انقضاء موسم الحجّ لتلك السنة (١٢٤٣هـ)، إلى المدينة المنورة لزيارة مسجد الرّسول عليه أفضل الصلوات . قضى الحاج عمر الفوتى قرابة ثلاث سنوات هناك في خدمة شيخه محمد الغالى تبركاً به . أشار إلى هذا في هامش كتاب جواهر المعاني- تحت عنوان :"رماح حزب الرحيم" قائلاً" : أسلمت له ، أى الشيخ محمد الغالى ، نفسي ومالي وألقيت إليه القيادة وبقيت أخدمه ثلاث سنين ". وبعد انقضاء هذه المدة عيّنه الشيخ محمد الغالى خليفة الشيخ أحمد التّجاني . قال الحاج عمر الفوتى في نفس الكتاب : " ولما بلغ أوان الفطام وانتهى ما قدر الحليم العلاّم جعلني (شيخه) خليفة من خلفاء الشيخ(٤٠) رضى الله عنه". سافر الشيخ عمر بعد ذلك إلى مصر مرة أخرى حيث قضى فترة من الزّمان . وارتحل عنها عائداً إلى غرب إفريقيا مع التوقف في كل من دولتى بورنو وصوكتو . وشارك أثناء وجوده في

(٤٠) يقصد به الشيخ أحمد التجانى .

صوكتو في بعض حروب الجهاد مع مجاهدي تلك الخلافة ، مثل معركة داكوراوا بقيادة محمّد بللو نجل الشيخ عثمان فودى مؤسس دولة صوكتو العثمانية . وعندما عاد إلى مدينة "حمد الله" عاصمة دولة ماسينا نزل ضيفاً على أميره الشيخ أحمد لوبّو برى حيث قضى فترة من الزّمان ، والتقى ، خلالها ، بالشيخ سيدي البكاى الكونتى القادرى التنبكتوى للمرة الثانية . غادر "حمد الله" متوجهاً إلى مملكة سيغو البامبرية في عهد ملكها "فاما نيفولو" . وقع خلاف بينه وبين الملك ، فأمر الملك باعتقاله واحتجازه . ثم أطلق سراحه فيما بعد ، بسبب تدخل زوجة الملك ؛ وقيل أن الملك قد أراد قتل الشيخ عمر ولكن زوجته حالت دون ذلك . عاد الحاج عمر الفوتى بعد تلك الحادثة إلى بلاد فوتا جللو وأقام في مدينة كنكان الغينية لمدة اقتربت من سنتين . هناك أخذ يعظ الناس ويعلم الصبية والنشء . ثم انتقل إلى بلدة كندى ومنها إلى بلدة جغنكو بمقاطعات غينيا حيث قضى قرابة أربع سنوات مواصلاً لأنشطته في الوعظ والإرشاد والتدريس . من هناك عاد إلى مسقط رأسه في فوتاتورو ماراً بمقاطعة غامبيا مستخلفاً وراءه أفراد أسرته في غينيا . عندما علم الحاكم الاستعمارى الفرنسى في السنغال ، الكولونيل (العقيد) كاى ، بقدوم الشيخ عمر الفوتى إلى المنطقة الخاضعة لسيطرته ، استدعاه وطلب منه أن يكتب تعهداً بضمان استمرار الأمن والاستقرار حسب زعمه . استجاب الشيخ عمر الفوتى له هذا الطلب فكتب التعهد بتاريخ أغسطس عام ١٨٤٧م. قام الشيخ عمر ، لدى وصوله إلى بلاده فوتاتورو ، بتوجيه رسائل إلى أعيان البلاد من العلماء والأمراء وكبار الشخصيات

يدعوهم فيها إلى تأييده ونصرته في الجهاد الذي يعتزم إعلانه ضد الكفرة والوثنيين . لكنّهم رفضوا ذلك الطلب خوفاً من ألا يؤدى ذلك إلى حدوث أية مواجهة . حينئذ لجأ الشيخ عمر إلى الشباب الذين جاء لفيف منهم واحتشدوا حوله واستجابوا لدعوته وأعلنوا له المبايعة . من بينهم ألفا عمر تشرنوبيلا الذي أصبح في وقت لاحق ، قائدًا لقواته . رجع الشيخ عمر إلى بلدة "جغنكو" مع أتباعه من الشباب المتحمسين وأخذوا في شراء الأسلحة النّارية من الأوروبيين الذين ينزلون إلى سواحل غرب إفريقيا لشراء الرقيق. توالى تدفق الشباب من مختلف أرجاء المنطقة، لاسيما من فوتا تورو وينضمون إلى جماعته في بلدة "جغنكو" حتّى كوّنوا جيشاً قويًا مسلحاً. وقع خلاف بينه وبين الإمام الراتب للبلدة يدعى مودبّو عمر بسبب هجوم قامت به جماعة الشيخ عمر الفوتى على بعض المسلمين في مقاطعة " لابى" الغينية. قرر الشيخ عمر، بعد هذا الحادث الانتقال من "جغنكو" إلى بلدة "دانغراى" التى اتخذها مقراً جديداً له ولجماعته. وفي "دنغراى" قام بتأسيس زاوية له لممارسة الأوراد التّجانية. وقام بتأليف كتابه المشهور "رماح حزب الرّحيم على نحور حزب الرّجيم" الذي يعتبر أحد المرجعين الأساسيين لتلك الطائفة . والمرجع الثانى هو كتاب "جواهر المعاني " وغاية الأماني للشيخ على حرازم . والكتابان في الواقع ، مندمجان في كتاب واحد .

إعلانه الجهاد :

وفي يوم الاثنين الموافق للعشرين من ذي القعدة ١٣٦٨هـ الموافق لستة أيام خلت من سبتمبر عام ١٨٥٢م استدعى الشيخ عمر أتباعه وأخبرهم بأن الله قد أذن له في الليلة السابقة بإعلان الجهاد المسلح في سبيل الله قائلاً : "أعلمني الله تعالى بعد العشاء ليلة الاثنين وعشرين من ذى القعدة الحرام عام ١٣٦٨هـ بانى مأذون في الجهاد بهاتف ربّاني يقول : أذنت في الجهاد في سبيل الله". من هنا بدأ جهاده وبالتّالى قيام دولته العمرية في الغرب الإفريقي(٤١). يستحسن أن أذكر بعض العوامل الأساسية التي انبنت عليها المعارك التي خاضها الشيخ عمر الفوتى في منطقة السودان الغربي حتى يكون التاريخ منصفاً له في تحليل المكاسب والنكصات التي اعتراها أثناء جهاده الإسلامي وما تأثرت به دولته لحاقاً جراء ذلك .

يجدر بالذكر أن دولة صوكتو الإسلامية التي قامت في القرن الثّامن عشر الميلادي ، كانت عظيمة وأكثر تأثيراً على المجتمعات الإسلامية المعاصرة لها في غرب إفريقيا . ولا يزال هناك بقايا نسبية لهذا التأثير . وانطلاقا من ذلك ، كانت الدولة العمرية أقوى الدويلات الإمامية التي ظهرت مؤخراً في السودان الغربي في القرن التاسع عشر الميلادي وأكثرها ارتباطاً بإمبراطورية صوكتو السّالفة الذكر . وقد قام الشيخ عمر الفوتى ، بسفريات إلى صوكتو ،

(٤١) راجع كتاب سفينة السعادة للشيخ عمر ، وشرح وتعليق الشيخ محمد بللى .

مقر قيادة تلك الدولة في عهد السطان محمد بللو ، نجل الشيخ عثمان دان فودى ، كما شارك في بعض المعارك التى خاضها السلطان محمد بللو دفاعاً عن الإسلام ونشره بين أهالي المنطقة . وتزوج بنت السلطان المدعوة رحمة التى أنجبت له ولداً سماه محمد النّور . وفيما يلى بعض مميزات الإمامية أو الدولة العمرية .

أ- كانت تلك الدولة ، بخلاف سائر الإماميات التي ظهرت في السودان الغربي والأوسط ، حركة صوفية في المقام الأول . كان حماس مؤسسي تلك الإمامية واندفاعهم وراء الجهاد والأهمية التي علقوها بالطّائفة التّجانية الصّوفية وراء سرعة انتشارها والحيوية التى اتسمت بها في تلك المنطقة، مما أدى إلى انجراف الطوائف الصوفية الأخرى بالاندفاع والحماس خوضاً للمنافسة .

ب ـ وبخلاف سائر الإماميات الأخرى السّابقة للعمرية في السودان الغربي والأوسط ، تميزت هى بحيازة الأسلحة النارية الأوروبية الأكثر تطوراً بالمقارنة مع ما ألفتها الإماميات والدويلات السابقة والمعاصرة لها من أسلحة بدائية تقليدية من السيوف والنبال (القوس والسهام) والأرماح . كانت الإمامية العمرية تحصل على تلك الأسلحة من الأوروبيين الذين كانوا ينزلون إلى سواحل غرب إفريقيا بهدف الاسترقاق . وقد نقل عنه ما قاله توجيهاً لمريديه : "جدّوا في شراء السلاح والبارود من النّصارى ، أى الأوروبيين ، فعن قريب ،

لو أعطيتموهم كل ما بأيديكم من مال لما باعوا لكم شيئاً منه (السلاح). " فكان يشترى هو وأتباعه تلك الأسلحة بتسديد القيمة من الذهب والرقيق.(٤٢)

ج- استفاد الشّيخ عمر الفوتى ، من الخبرات التى أسفرت عنها سفرياته الواسعه عبر بلدان المشرق العربى وإقامته بمصر لوقت وجيز . كما تأثر بمشايخ موريتانيا الّذين أخذ عنهم العقائد الصّوفية المتفشية في تلك المنطقة. ويليق بهذا المقام أن نشير إلى أن تعليمات مشيخة الطائفة الصّوفية التّجانية التي انتمى إليها الشيخ عمر الفوتى ، تتسم بالغلو والتشدد في عقائدها فى بعض الأمور . إذ ورد في كتاب" جواهر المعاني وبلوغ الأماني" للشيخ علي حرازم الذي ، الذى يعتبر المرجع الأول لأتباع هذه الطائفة، أقوال نسبت إلى مؤسس الطائفة أبى العباس أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد بن محمد التّجاني ؛ منها : "أن تلاوة ورد "صلاة الفاتح" مرة واحدة تعادل تلاوة القرآن الكريم بكامله ٦٠٠ (ستة ألف) مرة ، وأنه لاتجوز تلاوة ورد "جوهرة الكمال" بدون الوضوء الذى يتم بالماء" ؛ مع أن الله سبحانه وتعالى قد أباح لنا تلاوة القرآن واداء الصلاة بدون الوضوء الذى يتم بالماء عند الحاجة . وأنه قال كذلك : "رجلاي هاتان على رقبة كل ولى من لدن آدم إلى يوم القيامة " . وليس بوسع عقل المسلم العادي تفهّم هذه التلفقيات المبالغ فيها بأنها لا تتجنب الصواب الشرعي الذى كان الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الرّاشدون عليه ، عند علماء السنة .

---

(٤٢) المرجع السالف الذكر .

وللإنصاف العلمى نقول إن الشيخ عمر الفوتى يعد من علماء الدّين الإسلامي والثقافة العربية الذين أفاء الله عليهم من نعمه وخصهم بما لم يخص به غيرهم من الذكاء والقدرة التنظيمية القيادية الفائقة فى تاريخ الفكر الإسلامي في الغرب الإفريقي . بيد أنه كان وليد بيئته وثقافة مجتمعه، كما أنه لم يكن يعدو بشريته كإنسان . لأنه غير معصوم التجاوز في إصدار حكم يمنعه من وقوعه ضحية الانزلاق الثقافى وانزواء الأهداف . كانت ثقافات الطرق الصوفية في مجتمعات الغرب الإفريقي الإسلامية هي الواجهة المقبولة . كما تعد حيازتها بلوغ المرامى وإنجاز الأماني باعتبارها قمة الثقافة الإسلامية والعربية والتي يأمل أى عالم أو مفكر إسلامي وجيه فى أن يرتقى إليها في ذلك المجتمع وتلك العصور . عليه كانت كل أسرة تتوخى وتتطلع إلى أن يكون لها نصيب أوفر من تلك الواجهة . كان الشيخ عمر الفوتى في تلك الآونة من بين مئات الفتيان النشء ذوى الطموحات الواسعة . كان هو من بين القلة التي حظيت بالارتقاء إلى قمة الثقافة الصّوفية في الغرب الإفريقي آنذاك .

توجهاته العسكرية :

أشير ، بادئاً ذا بدء إلى أشهر الإماميات أو الممالك الإسلامية التي تزامنت مع قيام الدولة العمرية في الغرب الإفريقي. كانت هناك الدولة العثمانية التي اشتهرت باسم خلافة صوكتو أو إمبراطورية صوكتو وكانت هناك دولة الكانمى البورنوية وإمامية سيد البكاى الكونتى فى تنبكتو ودولة ماسينا وإمامية

ساموری ؛ ثم هناك دولة البامبرة وغيرها من الدويلات الوثنية الأخرى في غرب إفريقيا . قام الشّيخ عمر الفوتي بعد إعلامه لأتباعه ومريديه بأن الله سبحانه وتعالى قد ألهمه بهاتف ربّانى بإعلان الجهاد المسلح لنصرة الإسلام والقضاء على الوثنية في السودان الغربي ، بالتوجه إلى سلطنة تامبا الوثنية وكان سلطانها يومئذ يدعى "غمبا ساخو"، وكان بينه وبين الشيخ عمر حالة من العداء بسبب أنشطة الوعظ والإرشاد التي يقوم بها الشيخ وجماعته في المناطق الخاضعة لنفوذ ذلك الملك . قام الشيخ عمر الفوتى ورجاله بمحاصرة مدينة جلانكادا وعاصمة تامبا التي تقع على شمال دانغيراى رباط الجيش العمرى لمدة ستة أشهر ، ثم احتلها بعد هزيمة جنود السلطان ساخو . تمادى الشيخ عمر الفوتى وجماعته إلى سلطنة كارطة البامبرية واستولوا على عاصمتها نيورو في شهر شعبان للسنة ١٢٧٠هـ الموافقة لشهر إبريل للعام ١٨٤٥م .

كانت نيورو آنذاك معقلاً للوثنية وحافلة بالكهنة . لم يكد بيت من بيوتها يخلو من أصنام وأوثان. لذا طلب الشيخ عمر الفوتى من أهالى البلد، لاسيما الكهنة منهم إحضار كل ما لديهم من تلك الأصنام وإلقائها في ساحة كان قد خصصها لهذا الهدف . أقدم الشيخ ولفيف من أصحابه ومريديه على كسر تلك الأصنام المتراكمة وإشعال النّار فيها . ومن ثم قام بوضع الخطوط الإرشادية لقواعد السلوك يتمثل لها جميع الناس في ظل الشريعة الإسلامية واعتناق دين الإسلام لمن لم يكن مسلمًا بالفعل . تتلخص تلك الخطوط الإرشادية في النّقاط التاليـة :

١- ضرورة قيام الرجال بحلق شعر الرأس وارتداء القلنسوة .

٢- عدم تجاوز العدد الشرعي للزيجات ، وهو أربع فقط .

كان بعض الناس من أهالي ذلك البلد ، لاسيما الملوك والأرستوقراطيين من الطبقة الحاكمة والأثرياء يتزوجون زوجات كثيرات . يبلغ عددهن أحياناً خمسين زوجة لشخص واحد .

ازدادت منطقة السودان الغربي شهرة في انتشار كتاتيب تحفيظ القرآن ودراسة الفقه الإسلامي على مذهب السادة المالكية خلال الفترة الأولى للإمامية العمرية . قام الشيخ عمر الفوتى في شهر فبراير للعام نفسه بتوجيه رسائله إلى زعماء المسلمين في مقاطعة اندار(٤٣) السّنغالية يعلمهم فيها بقيام جهاده الإسلامي المسلح وأن قواته تمثل قوة إسلامية في المقام الأول وفوتية فولانية في المقام الثّاني . وأنه قد جاء لمقابلة أعداء الله ونصرة دين الحق تبارك وتعالى . عليه يوجه الدعوة إلى شباب فوتاتورو ويدعوهم للانضمام إلى جنوده للقتال في سبيل الله .

أقدم الشيخ عمر وجماعته ، بعد استيلائهم على نيورو على ملاحقة أعدائهم المنتشرين في شتى أرجاء ومقاطعات مالى والسنغال الذين فروا من مداهماته ولجأوا إلى تلك المناطق إثر هزيمتهم وإسقاط دويلاتهم . وكان يعاود هؤلاء الفارون من المواجهة مع الشيخ عمر، التمركز وبناء قواتهم

(٤٣) تقع هذه البلده في الجنوب الشمالى لجمهورية السنغال .

مجدداً للهجوم على المعسكر العمرى الذي أصبح بالفعل مهدداً لبقاء الدويلات الوثنية في السودان الغربي . قام الشيخ عمر بعد الانتصارات التي أحرزها بتعيين ابنه البشير واليًا فى مقاطعة كونياكارى . وبذلك أصبح البشير أول من تولى منصب الوالى للإمامية العمرية . ففي السّنغال اصطدمت القوات العمرية أثناء زحفها في السنة ١٢٧٣هـ الموافقة للعام ١٨٥٦م مع قوات الاحتلال الفرنسية بقيادة الجنرال لويس " فيد يهربى" وأجبرتها على التراجع (القوات العمرية) والتّوجه شرقاً حيث دخلت في الحرب مع دولة ويتلا البامبرية ، واحتلت عاصمتها الثانية سانسندنغ حيث وقضت قرابة خمسة أشهر . تقدمت بعد ذلك لاحتلال عاصمتها الأولى - سيغو ، وكان ملكها يومئذ يدعى تاتا تورو كرومارى ، ويعرف أيضاً بالملك على مونز ويتلا. اضطر الملك على مونز ويتلا إلى الفرار واللجوء إلى الشيخ أحمد مو أحمد ، أمير إمامية ماسينا الفولانية الإسلامية بعد الهزيمة التي منى بها على أيدى القوات العمرية . وكان أمير ماسينا يومئذ حديث العهد بعرش ماسينا الذي ورثه من والده الراحل الشيخ أحمد لوبّو . وكان يومئذ ، أحمد شاباً يافعًا لم يتجاوز عمره سبعة عشر (١٧) سنة على الأرجح .

المواجهة مع إمامية ماسينا :

وفي عام ١٨٦٢م دخل الشيخ عمر في مواجهة يبدو أنها غير مقصودة مع دولة يعتبرها شقيقة لدولته، وهى دولة ماسينا بإعلانه جهادًا عليها . اتسمت

تلك المواجهة بتناقضات عدة ومأسويات حقيقية. قامت دولة أسست تحت راية الجهاد الإسلامي تقضى على دولة أخرى قامت على الهدف نفسه. بل وعلى أيدى أبناء قبيلة مسلمة صرفة من كلتا الجانبين. كانت الإماميتان ـ الفوتية والماسنوية أشد امتثالاً للروح والشريعة الإسلاميتين من بين الإماميات الإسلامية في منطقة السودان الغربي. لقد أجبرت الإمامية العمرية، بذلك التصرف ، شقيقتها الإمامية الماسنوية على إنهاء حالة العداء التقليدية القديمة بينهما ودولتى كل من البامبرا الوثنية والكونتية التنبكتوية ، اللتين كانتا خاضعتين لها ، والدخول في التحالف معهما ضد الإمامية العمرية . كما أدت تلك المغامرات الحربية الناجمة عن الطموحات التوسعية الجامحة غير المتأنية إلى النهاية المأسوية للإماميات الثلاث . أى الماسنوية التنبكتوية والعمرية نفسها . وكانت الإماميات الثلاث تمثل معا النّهضة الإسلامية تحت التجربة الحقيقية للحكومة الإسلامية الحديثة في الغرب الإفريقي لحاقاً بدولة صوكتو العثمانية في السودان الأوسط ، ونقول أن إمامية ماسينا باعتبارها طليعة تلك النّهضة قد مرت بمراحل تجريبية أساسية ثلاث في مواجهتها مع الإمامية العمرية الفوتية الحديثة الإنشاء . وهذه المراحل هي :

(١) مرحلة تثبيت مكاسب ذلك الاحتلال .

(٢) مرحلة التعبئة وقيام الثورة الماسنوية المضادة لقوات الاحتلال والقضاء على قائدها نهائياً، وكانت الشخصيات البارزة في مسرح الأحداث هى: الشيخ عمر الفوتى ، قائد ومؤسس الإمامية العمرية والشيخ أحمد مو أحمد ،

خليفة وأمير الإمامية الماسنوية والشيخ مختار سيدى البكاى الكونتـى- الزعيـم الرّوحي وقائد الإمامية الكونتية التنبكتوية . لقى هؤلاء الثلاثة مصرعهـم جميعاً نتيجة تلك المغامرة الاقتتاليـة وسـقط ضحيتهـا عشرات آلاف مـن المسـلمين معهم ، بحيث لم يبق سوى قليل نادر ممـن كـانوا أطرافـاً في تلـك الحـروب الطاحنة لسرد وتدوين حقائق عما حدث لفائدة المؤرخين والأجيـال اللاحقـة. ثمة عوامل تبدو أساسية ساعدت على انهيـار إمامية ماسينا في وجه الدولـة العمرية الفوتية وبتلك الصـورة المذهلـة مع كونهـا ، أكـثر نفـوذاً وشـهرة في منطقة السودان الغربي خاصة بين أبناء الجنس الفولاني الذين كـانوا سـندا فـى طرفى النزاع .

ومن هذه العوامل :

أ- كانت إمامية ماسينا في مرحلة التجربة واكتمال النمو . لم يزد عمرها، كحكومة إسلامية عن أربعين سنة فقط من التأسيس .

ب- اتسام الإمامية بمركزيـة السـلطة في عاصمتهـا "حمـد اللـه" وتمتـع المقاطعات التابعة لها بشبه الاستقلال عنهـا ، وتحـول جماعـات مـن رجـال الخلافة إلى الطبقة الحاكمـة ذات امتيـازات ، الأمـر الـذي كـان منافيـاً لـروح الجهاد الإسلامي التي استنهض بها الخليفة الأول الشيخ أحمد لوبّو .

ج- وجود النزاعات والانقسامات فيما بين أفراد العائلة الحاكمة ، لاسيما بعد وفاة الخليفة الأول ، وانتقال زمام الحكم إلى ابنـه أحمـد مـو أحمـد رغـم حداثة عمره . إذ لم يتجاوز عمره يومئذ مرحلة المراهقة مما انعكس علـى قلـة

خبرته في شؤون الحياة ، فوقع ضحية تآمر خصومه من نفس العائلة ، ومن بينهم قائد قواته وعمه أبوبكر لوبّو (الطيب) المعروف باه لوبّو . لعل ذلك كان السّبب في عدم موافقة الشيخ عمر الفوتى على تلبية رغبته (باه لوبّو) عندما أبدى الرغبة فى الحصول على منصب من المناصب القيادية فى بلاطه بمدينة حمد الله بعد هزيمة إمامية ماسينا والاستيلاء على عرشها .

د - لعل الشيخ عمر الفوتى قد تَفطن إلى هذا الجانب من شخصية باه لوبّو ، أو لعله يعرف الدور الذي لعبه في الغدر بابن أخيه أحمد مو أحمد مما أدى إلى إسقاط ملكه ، وكان باه لوبّو هذا بالفعل هو المدبر للثورة الماسنوية التي أطاحت بدولة عمر الفوتى فى نهاية الأمر ، وأدت إلى قتله اختناقاً في غار ديغمبري . هناك قول مأثور مفاده : " أن من خان لك سيخون عليك". والحرب ، كما روى عن الرّسول صلى الله عليه وسلم ، مكيدة . وباه لوبّو هذا قد أجاد هذه المكيدة بمعنى الكلمة . وكان حقاً بطلاً حربياً . إذ أبدى الرغبة في أن يرث عرش إمامية ماسينا بعد أميرها الشيخ أحمد ، فاستلطفه الأمير الشيخ أحمد لوبوّ وعينه قائداً لجيشه في ماسينا إرضاءً له بعد أن عين ابنه الكبير ، أحمد مو أحمد وليا للعهد . لقد أولد هذا التصرف من الشيخ أحمد الكبير ضغينة وحسدًا خفيًّا في قلب باه لوبّو ضد أحمد مو أحمد بعد وفاة أبيه وتوليه حكم إمارة ماسينا من بعده . وكما جاء فى قوله عليه الصّلاة والسّلام : "كل ذى نعمةٍ محسود" . كان باه لوبّو كما ذكرنا آنفا ماهراً في المراوغات الحربية . كان هو الوحيد الذي نجا من تقلبات الحرب التي

دارت هناك في تلك الآونة من بين أبطالها الأساسيين . وهم أحمد وعمر الفوتى وألفا عمر تشير نوبيلا وباكاى كونتى وعلى مونزو ويتلا . كلهم سقطوا ضحية تلك الحروب باستثناء باه لوبّو الذي ظل على قيد الحياة إلى أن مات موتاً طبيعياً في المناطق الشرقية لمسرح الأحداث . ذلك لأنه أكثر احترافاً لتلك المهارة الاقتتالية التي تسمى "المكيدة .

هـ- قلة العلماء والمفكرين ذوى الخبرة في مجالات الدّين والحياة السّياسية والاجتماعية في بلاط حكم ماسينا بسبب وفاة معظم كبار المستشارين الذين أسسوا الخلافة ودعموها منذ البداية ، فكان معظم رجالات البلاط في عهد أمير المؤمنين "أحمد مو أحمد" من نظرائه في السّن والنّضج؛ أى الشباب النشء الذين يفتقرون إلى خبرات الحياة وتقلباتها بحكم السّن، وكانوا يتباهون فقط بالشّجاعة والبطولة العسكرية الميدانية وحيازة الأسلحة البيضاء من السيوف والأقواس والنبالة والرّماح البدائية . وقد أثبتوا جدارتهم بتلك المعدات الحربية المهجورة في هذا الخصوص ، بالمقارنة مع الأسلحة النارية من البنادق والبواريد الأوروبية الصنع التي حصلت عليها القوات العمرية الفوتية، إضافة إلى فارق السن فى القيادة . كان الشيخ عمر يناهز السن السبعين بينما لم يبلغ الشيخ أحمد مو أحمد العقد الثاني بعد، في ذلك الوقت(٤٤).

(٤٤) كان عمره سبعة عشر سنة كما ذكرت سابقا.

ز- ثمة بعض أهل ماسينا الذين قاموا بتحرى أخبار بلاط الحكم فيها والاستطلاع على استعداداتها العسكرية وتزويد الجيش العمرى بتلك المعلومات . كان هؤلاء الماسنيون يدينون للشيخ عمر وجماعته بالولاء بحكم انتمائهم إلى الطّريقة الصّوفية التّجانية التى كان يعمل لتقويتها ، وكان لهم عدد لا يستهان به في ماسينا . وكانوا ينتقدون حكام ماسينا ويتهمونهم بالتهاون بأمور الدين ، لاسيما لامتناعهم عن الانقياد للطائفة التجانية التي روّجها الشيخ عمر الفوتى ورجالاته . نعود الآن إلى ذكر الأسباب المباشرة التي سبقت وأدت إلى اندلاع تلك الحرب بين الشيخ عمر الفوتى وجماعته من ناحية وبين أهل ماسينا تحت قيادة أميرها الشيخ أحمد مو أحمد من ناحية أخرى. كان هناك العداء الشخصى القديم بين ملك سيغو فراما على مونزو المعروف بعلى ويتلا وبين الشيخ عمر الفوتى عندما كان الشيخ عمر يقوم بتجوال استحصال العلوم بين علماء مالي وقبل سفره إلى الحجاز وبلاد المشرق العربى . وقيل أن الملك فراما على مونزو اعتقل الشيخ عمر الفوتي واحتجزه ثم أراد قتله فيما بعد، لكن حالت زوجه دون تنفيذ ذلك، وطلبت منه إطلاق سراح سجينه . وعندما عاد الشيخ عمر إلى المنطقة وقوت شوكته كداعية وزعيم الطريقة التجانية وأعلن الجهاد ، كانت مملكة سيغو أحد الأهداف الرئيسية له . وبالطّبع كانت سيغو كغيرها من معظم الدويلات القائمة في أرجاء بلاد البامبرا وثنية ، بصفة رئيسية . دخل جيش الشيخ عمر الفوتى مدينة سانساندنغ ، عاصمة سيغو في السنة ١٢٧٣م الموافقة للعام ١٨٥٦م بعد هزيمة جيش البامبرا بقيادة ملكهم ويتلا وقضى فيها قرابة

خمسة أشهر . فر الملك ويتلا إلى دولة ماسينا وطلب من أميرها الشيخ أحمد مو أحمد أن يحميه ضد خصمه الشيخ عمر وجماعته ، وقال إنه قد اعتنق دين الإسلام .

طلب الشيخ عمر من أمير ماسينا إعادة الملك على ويتلا وتسليمه إليه مستنكراً مزاعمه بأنه يدين بالإسلام . وأصر بأنه وثني العقيدة والممارسة ، ولا يستحق الاحتماء بحق الجوار الإسلامي . رفض أمير ماسينا هذا المطلب من الشيخ عمر بتسليم خصمه إليه بعد استدعاء علماء ماسينا واستفتائهم في الأمر ذاته . احتدم الخلاف بين الطرفين ، الفوتى والماسنوى واتسعت هوة النزاع . وجرى تبادل رسائل عدة بينهما ، حاول كل طرف الدفاع عن وجهة نظره شرعياً(٤٥). ألف الشيخ عمر الفوتى كتاباً فيما بعد وسماه " بيان لما وقع بيننا وبين الأمير أحمد" في وجه الانتقادات الحادة الناجمة من الأوساط الإسلامية ضد الاعتداء الذي وقع على إمامية ماسينا وإسقاطها ؛ وذهب ضحيته أكثر من ثمانين ألف قتيل . وبعد أن تعذرت تسوية الخلاف القائم بين الشيخ عمر الفوتى والأمير أحمد مو أحمد بصورة سلمية ، أعد كل من الطرفين جيشاً لمواجهة خصمه. كان الجيش العمرى بقيادة ألفا عمر تشيرنو بيلا ومتحالفاً مع قبائل دوغون وبوزو وتومبو بينما كان الجيش الماسنوى بقيادة باه لوبّو أى أبى بكر الطيب ، عم أمير ماسينا ، أحمد مو أحمد متحالفاً مع قبيلة البامبرا التي

---

(٤٥) أنظر مملكة ماسينا .

كان لجوء ملكها فارما على مونزويتلا إلى ماسينا والاستجارة بأميرها سبب نشوب القتال ، وقبيلة تنبكتو بقيادة المختار البكاى الكونتى . التقت جيوش الطرفين في مكان يدعى جغرابى بالقرب من مجرى نهر بانى . واصل الجيش العمرى زحفه بعد هزيمة جيش ماسينا إلى "حمد الله" عاصمة إمامية ماسينا وإستولى عليها في يوم الخميس ، العاشر من شوال للسنة ١٢٧٨هـ الموافقة للعاشر من شهر إبريل للعام ١٨٦٢م . تأثّر الأمير أحمد مو أحمد بجرح أثناء المعركة وحمله رجال من قواته حتى وصلوا به قرب نهر مانى حيث لحقهم مطاردوهم من الجيش العمرى ، فاستشهد الأمير أحمد مو أحمد في يدهم ودفنوه فى مكان مجهول فى داخل النهر .

بعد سقوط إمامية ماسينا فى يد الشيخ عمر الفوتى ، وجه إليه سيدى المختار الكونتى ، الزعيم الرّوحى للطائفة القادرية ، رسالة استنكار لما حدث منه ، وذكّره بعدم جواز اعتبار عائلة الشيخ أحمد لوبّو ، خاصة زوجة الأمير أحمد مو أحمد أسرى فى يده . قام الشيخ عمر الفوتى بعد ذلك بشهور بإرسال عامليه إلى "تنبكتو" لاستحصال الضرائب التى كان أهلها يدفعونها لإمارة ماسينا سنويا. لكن رفض سيدى المختار الكونتى وأهل إمامية تنبكتو لاستجابة لهذا المطلب ، فقام الشّيخ عمر الفوتى بإرسال كتيبة يرأسها قائد جيشه ألفا عمر تشير نوبيلا إلى إمامية تنبكتو . لكن غادرها الشيخ سيدى المختار الكونتى قبل وصول الجيش العمرى ولجأ إلى أماكن نائية في الصحراء الكبرى ليستنجد بقبائل الطوارق الصحراوية . احتل الجيش العمرى مدينة تنبكتو مقر

القيــادة الرّوحيــة للطائفــة القادرية فــي الســودان الغربــي والأوســط فــي شــهر ذى القعــدة للســنة ١٢٧٩ الهجريــة الموافقــة للعــام ١٨٦٣م . عــاد الشيخ سيدى المختــار البكــاى الكونتــى التنبكتــوى بعــد ذلــك إلــى تنبكتــو ومعــه جيــش مــن قبــائل الطــوارق وقتلــوا قــائد الكتيبــة العمريــة فــي مكــان يدعــى مــانى بقــرب مــن بحيرة ديبــو وأسـروا الآخريــن وعــاد البــاقون إلــى مدينــة "حمــد اللــه" العاصمــة الجديــدة للإماميــة العمريــة .

وبعــد مــرور قرابــة سنة واحــدة علــى هــذا الحــدث قــام أهــل ماســينا بضــرب حصـــار علــى حصــون مدينــة "حمــد اللــه" لمــدة تســعة أشــهر. وعندمــا اشتد الأمـر بالشيخ عمـر الفوتـى ومـن معــه مــن عائلتــه وحاشــيته وقواتــه فــى داخــل الحصــون، استدعى كبــار رجالاتــه وتشــاوروا فــي الأمـــر، فتوصلــوا بعــده إلــى ضــرورة طلــب نجــدة وتعزيزات ليستنقذوا بهــا. فطلبـــوا مــن أحمــد التجـــاني، أحــد أبنـــاء شــقيق الشــيخ عمــر الفوتــى أن يخــترق الحصـــار المضـــروب عليهـــم الـــذى بلــغ خلالـــه الســـيل الزبـــى وأبـــاح علمــاؤهم أكــل جيــف المواشــى وبعــض المحظــورات لــدى نفــاد مــا معهــم مــن المــواد الغذائيــة ، تســلل أحمــد التّجــاني عبر شــقوق الحصــون زاحفًــا فــي ظـــلام ليــال حالكــة مكتســحاً وعــور الجبــال الخطــيرة التــي تحيــط بالمنطقــة . خــرج فـــي ليلــة الخميــس الحــادي عشــر مــن شــعبان للســنة ١٢٨٠هـــ الموافــق للحــادي والعشــرين مــن ينــاير للعــام ١٨٦٤م حتــى وصــل إلــى المنــاطق البعيــدة عــن نفــوذ الثــائرين المحـــاصرين لمدينــة "حمــد الله" فــأخذ يبحــث ويفــاوض للحصــول علــى القبــائل التــى تقبــل الدخــول فــي التحــالف مــع الجيــش العمــرى المــترابط فــي مقاطعــة ســيغو تحــت قيــادة أحمد الابــن الأكــبر للشــيخ عمــر الفوتــى وخليفتــه الأول لــم يحصــل أحمــد

التّجاني على الحلفاء المطلوبين في وقت مبكر إلى أن وصل به الأمر إلى الاتصال بقبائل الدوغون الجبلية والبوزو والتومبو الوثنية البدائية التي وافقت على عرض أحمد التّجاني للدخول في التحالف مع الجيش العمري مقابل حلية أساوير الذهب والفضة التى كانت فى حوزة أحمد التجاني الذى أتى بها من قصر الدولة العمرية في "حمد الله".

وقد دخل فى الشهر التاسع في من تاريخ تسرّبه، وكان الاتصال بينه وبين القيادة العمرية فى "حمد الله" قد انقطع طوال ذلك الوقت . ولما تأخر مجيئه بالنجدة المطلوبة وكان الشيخ عمر الفوتى وأسرته ومن معهم من الرّجال والنّساء والأطفال في احتدام المشقة والإرهاق ، أرادوا أن يغامروا باختراق الحصار ، عندئذ أشعلو النار فى مخازن البارود فى داخل الحصون مما أدى إلى انفجارها وتصاعد دوى أصواتها ونيرانها . كان ذلك في ليلة الاثنين، الثاني والعشرين من شعبان للسنة نفسها ، الأمر الذى أجبر أهل ماسينا المحاصرين للقوات العمرية إلى التراجع ، وتمكن الشيخ عمر الفوتى وجماعته من كسر جزء من الجدران والخروج منه راكبين الحصان ، حتى وصلوا قرية تسمى "يوغنّا". هناك أدركه مطار دوه من أهل ماسينا حيث اشتبك الطرفان فى قتال مرير دام ساعات . استطاع الشيخ عمر وجماعته الخروج مرة أخرى من قرية "يوغنّا" إلى قرية أخرى تسمى "غورو" وبضاحيتها جبل يسمى "ديغمبرى" فدخل الشيخ عمر ومن معه إلى الغار فجاء خصومه . وأشعلوا النار على باب الغار الذي امتلأ بالدخان مما أدى إلى استشهاد الشيخ عمر الفوتى

مختنقاً ومعه ثلاث عشرة آخرون من بينهم أبناؤه الثلاثة هم : مكى ومالى وهادى عمر الفوتي إلى رحمة الله . عثر خصومه على جثته ودفنوه في مكان مجهول . وكان ذلك يوم الخميس الموافق ثلاثة من شهر رمضان المعظم للسنة ١٢٨٠هـ الموافق للحادى عشر من فبراير عام ١٨٦٤م. كان الشيخ عمر يبلغ عندئذ سبعين سنة من العمر . وكان قد قضى سنتين فقط على عرش ماسينا . وهي نفس الفترة التى قضاها الأمير أحمد مو أحمد لوبّو على العرش نفسه . رحمهما الله ومن معهما وأدخلهم جميعاً فسيح جنات النعيم .

بعد هذا الواقع المفجع والمصاب الجلل وصل أحمد التّجاني المبعوث للشيخ عمر الفوتى معززاً بقوات من قبائل الدوغون والبوزو والتومبو والقبائل الفولانية الأخرى التي تعيش في المناطق الشرقية والتي كانت بينها وبين دولة ماسينا حالة عداء مزمنة بسبب سيطرة ماسينا عليها . وصل أحمد التّجاني وتعزيزاته العسكرية إلى المكان ، بعد فترة وجيزة واستأنف القتال مع أهل ماسينا ومعهم أهل تنبكتو . وقد كانوا مستنفذي القوة والعدة من جراء الحروب المتوالية فهزمهم أحمد التّجاني بعد مقاومة ضئيلة وإحتل المنطقة مرة أخرى بعد قتل من تبقّى من رجال الدولة وتبعثر الآخرون . أدى هذا الحادث إلى ضياع كثير من الوثائق التاريخية والثقافية بسبب شراسة القتال . لأن الأمر قد تحول من طابع الجهاد الإسلامي إلى مجرد الحرب الأهلية العمياء بين الأشقاء الذين ينتمون إلى العقيدة الواحدة والقبيلة الواحدة . حكم أحمد التجاني تلك البلاد متخذاً مدينتى سيغو وبنيغرا عاصمة له متجنباً للعودة إلى "حمد الله" إلى أن وافته المنية في السنة ١٣٠٤هـ الموافقة

للعام ١٨٨٧م. انتقل الحكم من بعده إلى ابن عمه سعيد بن الشيخ حبيب الله بن يلليمان(٤٦) سعيد لفترة قصيرة أى لم تتجاوز ثلاثة أشهر . ومن بعده جاء محمد المنير ابن الشيخ عمر الفوتى وتولى في عهده أخوه أحمد إمرة بلاد ماسينا حتى العام ١٨٩٠م عندما جاء حكم الاستعمار الفرنسى الذي طلب إبعادهم عن المنطقة كلياً .

أما بالنسبة للشيخ سيدى البكاى الكونتى التنبكتوى فقد توفي في شهر رمضان للسنة ١٢٨١هـ أى بعد مرور سنة واحدة على وفاة الشيخ عمر الفوتى . أما ألفا أبوبكر الطيب المعروف ب : باه لوبو ، قائد القوات الماسنوية فقد انتقل إلى شرق مقاطعة غمبلاً واستقر هناك إلى أن عاجلته المنية عن عمر ناهز السبعين . وبذلك انتهت مسرحية الاقتتال بين الإماميات الإسلامية الثلاث الشقيقة في السودان الغربي . وتحول الحكم العمري الذي كان أحمد الكبير ، ابن شقيق الشيخ عمر ، هو المؤسس الحقيقي له إلى نظام الحكم الوراثي ركّز على الاهتمام بنشر الطريقة التجانية . بل أصبح الاهتمام الأول والأخير هو تقوية الطريقة التجانية . ذلك لأنه لم يكن فقيهاً كسلفه . يمكن للقارئ الكريم الرجوع إلى هجرة الفولانيين في فصل الجنس الفولاني لمتابعة سير جماعة الشيخ عمر

---

(٤٦) اسم أول القرية التى أحرز فيها الشيخ عمر الفوتى انتصارًا في الجنوب الغربي لجمهورية مالي . أطلق أحفاده الاسم على بلدتهم التى تقع اليوم في شمال نيجيريا .

الفـوتى وأبنـــائـه وأحفاده في المهجر بعـد أن تعـذر التعـايش مع السلطات الفرنسية الاستعمارية في السودان الغربي .

الخـلاصـــة :

يعتـبر الشـيخ عمـر الفوتـى أحـد أبطـال الحركـة الوطنيـة والإسـلامية فـي السنغال والغرب إفريقي خلال القرن التاسع عشر الميـلادي . ولـد الشـيخ فـي إقليم فوتا تورو الواقع في جمهورية السنغال ومنه جاءت تسـميته .كـان مولـده في عـام ١٧٩٤ وعاش حتـى عـام ١٨٦٤ الميلاديين وتوفـي عـن عمـر نـاهز سـبعين سنة . بـدأ الشيخ عمر الفوتـى الـذي يعـرف أيضـاً بالحـاج عمـر تـال حياتـه العمليـة بالانتمـاء إلـى الطائفـة التّجانيـة التـى أتـت مـن خـلال المغـرب وموريتانيـا في القرن الثـامن عشـر ، الـى السـنغال . وفـي عـام ١٨٢٦م غـادر الشيخ عمـر موطنـه الأصلى في السـنغال قـاصداً مكـة المكرمـة عـن طريـق البـر لأداء مناسـك الحج وتحصيل العـلم . اسـتغرقت رحلتــه تلـك قرابـة أربـع سـنوات قضاها متنقـلاً بين مكـة والقـدس ودمشـق والقاهرة . قام لـدى عودته إلى بلاده بنشر دين الإسلام وثقافته . استطاع عن طريق طائفته الصوفيـة أن يجمـع حولـه كثيرين مـن الأتبـاع والمريديـن الذيـن تشـكلت منهـم قـوة عسـكرية استخدمها فـي جهـاده المسـلح ضـد الوثنييـن . كـان الفرنسـيون المستعمرون يحتلون بلاده السنغال وأجزاء من إقليم الغرب الإفريقي فـي ذلـك الوقت فاصطدم هو معهم عندما أرادوا تضعيفه خوفاً من تعزيز وتقويـة شـوكته واتسـاع نفـوذه في المنطقة . نجح عمر الفـوتى في فتح أراضى مملكة البامبرا

الوثنية في مالى ثم نشب خلاف بينه وبين زعماء إماميتى ماسينا وتنبكتو مما أدى إلى اندلاع حرب أهلية فيما بينها. قرر المواجهة مع القوات الاستعمارية الفرنسية مالم تدفع الجزية إليه. رفضت السلطات الاستعمارية الفرنسية التجاوب مع هذا المطلب، فأعلن الشيخ عمر الفوتى عليهم الحرب فثار عليهم المسلمون بمدينة سنت لويس وتصدوا لتقدمهم في وادى نهر السنغال حتى اضطروا إلى التفاوض معهم في عام ١٨٦٠م. ورغم ذلك لم تتمكن تلك السلطات الاستعمارية من تحقيق الاستقرار والتوسع . وبعد ثلاثة أعوام كان قد أسس لنفسه وأتباعه دولة كبيرة امتدت من نهر النيجر شرقاً إلى نهر السنغال غرباً . قامت تلك الدولة على أسس إسلامية إصلاحية . غير أنه لم يعش بعد ذلك أكثر من سنة واحدة . قد مات إبان الحرب الأهلية التى اندلعت بينه وزعماء مملكة ماسينا وتنبكتو . ولقد رويت أنسجة من أساطير خرافية كثيرة حول شخصيته ووفاته وورعه وكراماته الصوفية . لم يكن الشيخ عمر الفوتى داعية إسلامياً ومصلحاً فحسب، بل كان فضلاً عن ذلك، مثقفاً متعمقاً في العلوم العربية والإسلامية خاصة الصوفية منها، وقد قام وهو في متوسط العمر، في سنة ١٢٤٤هـ الموافق ١٨٢٨م ، عندما كان في مدينة الرّسول صلى الله عليه وسلم وفي روضته الشريفة ، بتأليف قصيدته الأرجوزية المشهورة ب : "تذكرة المسترشدين وفلاح الطالبين" تضمنت حوالى نيف ومائتين بيت تأملي ؛ اعتبرها مريدوه وأتباعه دستوراً أخلاقياً على ضوء القرآن الكريم والسنة

النبوية الطاهرة ، وينشدونها بتكرار للإنعاش الروحي والتّوجيه الأخلاقي . فيما يلى النصوص والمقدمة التى كتبها الشيخ عمر الفوتى عن هذه الأرجوزة :

بسم الله الرحمن الرحيم : أصلى وأسلم على أفضل البرية ، ساكن هذه الرّوضة الشريفة عليه أفضل الصّلاة وأزكى السّلام . فلما وصلنا مدينة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم زرنا قبره كما ينبغي ، وتحققت رغبتنا، بحمد الله تعالى، اشتاقت نفسى إلى تنظيم هذه القصيدة في تلك المدينة الطاهرة وتلك البقاع المقدسة، وذلك تبركاً بصاحبها، عليه أفضل الصّلوات والسّلام. إني ما قصدت بهذه القصيدة إظهار مكانتي في علم العروض والنحو والصرف أو المعاني والبيان والبديع أوغير ذلك من علم البلاغ. بل قصدت بها تحقيق النفع للمؤمنين الذين لهم الاعتناء والاهتمام بإصلاح أنفسهم ونفوس غيرهم. إنها قصيدة نافعة إن شاء الله تعالى لمن عول عليها وعمل بما تضمنتها. وسميتها "تذكرة المسترشدين وفلاح الطّالبين". وقد تم تنظيم القصيدة وتسويدها وتبييضها في المدينة المنورة وفي مسجده عليه الصّلاة والسّلام وفي روضته المشرفة وبين منبره وقبره . ووجهي متجه إلى مكان وجهه الطاهر . كان ذلك في وقت الضحى ليوم الخميس ، أربع مضين من شهر شوال المبارك للسنة أربع وأربعين ومائتين وألف من الهجرة. اللهم صلى على محمد وسلم تسليماً كثيراً آمين؛ مبارك الابتداء لا إله إلا هو ولا إله غيره ميمون الانتهاء :

"تذكرة المسترشدين وفلاح الطالبين"

١- يَقُولُ الْفوتيُ وذَاك الأَفقَــــرُ　　الْكِـدّوِى بـنْ سَـعيدٍ عُمَــرُ
٢- الحَــمَدُ لِلّـهِ الّـذِى توحّـــدَا　　فِى مُلْكِــهِ كَفَرَ مَــنْ جَحَــدَا
٣- إلاَهــنَا صَـلِّ دَوامــاً سَــلِـم　　عَلى الرّسُــولِ المُصْطفَى المُكرَّم
٤- يأيّهــَا الإِخْـوانُ لاتشــتغِلُوا　　بالمــاَلِ وَالْبَنِينَ خَيْرًا اعْمَــلُوا
٥- هــمٌّ وغَــمٌّ دائِــمٌ الْمُشْتَغِلْ　　بِالْمَــالِ والأَولاَد دُوْنَ اللّهِ جَــلْ
٦- إذْ هَذِهِ الدُّنْيَا غُــرورٌ باطِـــلٌ　　وَاعْمَلْ لِـدَارٍ دَائِــمٍ يَاغَافِـلٌ
٧- إذْ كُلُّ شَيْئٍ كَانَ لَكِــن زَائِــلٌ　　فَهُــوَ غــرُورٌ اعتَبِــرْ ياعَاقِــلٌ
٨- لاَتَطْلُبُوا فِيهَا سِــوَى مَاَيَنفَـــعُ　　فِي الْحَالِ وَالمَـالِ لاَ مَا يَـوْدَعُ
٩- ذرُوا عِبَــادَ اللّهِ مَا تُشْـغِلُكُــمْ　　عَنْ ذِكرْ رَبٌّ وَاعْمَلُـوا لِرَبّكُمْ
١٠- يَاأَيُّهَا الْمَغْــرُورُ بِالآمَـــالِ　　وَيْحَكَ تُبْ وَاقْصُدْ إِلَى الأَعْمَـالِ
١١- نَكَالَ رَبٌّ الْخَلْــقِ وَالنِّيـــرَانُ　　لاَيَنْجُ مِنْهَـا الْمَــالُ وَلاَالْوِلْـدَانُ
١٢- أَحَلْ وَلاَجَـــاهٌ وَلاَ قَرَابَـــهْ　　وَلاَ شُجَاعَــــةُ وَلاَ حَرَابَـــهْ
١٣- إِذَا رَأَيْتَ النَّـاسَ فِي الْقِيَامَـــهْ　　يُحَاسَبُونَ هُــمْ ذَوِى النَّدَامَــهْ
١٤- مُزَوَّجٌ كُلُّ امْـرِءٍ بِمِثْلِـــهِ　　نَدِمْـتَ مَافَعَلْـتَ مِنْ عِصْيَانِـهِ
١٥- نَدَامَةٌ عَظِيمَـــةٌ لاَتَنْفَــعُ　　تُبْ قَبْلَ أَنْ تَطْلُبَ مَـا لاَيُسْمَعُ
١٦- وَلاَ يَغُرُّكَ الّـذِى عَلِمْتَــهُ　　مِنْ رَحْمَـةِ الرَّحْمَـنِ أَوْ سَمِعْتَهْ
١٧- إِذْ رِبُّنَـا لَـوْ كَنَ ذَا الْغُـفـرَانِ　　فَهُــوَ ذُو النِّعْـمَـةِ وَالنِّيـرَانِ
١٨- لاَتَقْبَلُــوا قَــوْلَ عَـدُوِ اللّهِ　　بِالـزُّورِ وَالْبَاطِـلِ أَهْـلَ اللّـهِ

١٩- إنْ إلاَهَ الْخَلْقِ قَدِ أَخْبَرَنَا عَدَوَاةَ اللَّعِينَ حِينَ غَدَّنَا
٢٠- تَرَى عَدُوَّ اللَّهِ مَاكِرًا بِنَا مَكْرَ عَدُوٍ حَاذِقٍ وَمَأْوَنَا
٢١- لِقَوْلِهِ اعْمَلْ فَإِنَّ رَبَّكَا يَغْفِرُ وَيَرْحَمُ وَغَيْرَ ذَلِكَ
٢٢- هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ آدَمَ النَّبِيَّ مِنْ جَنَّةِ الإِلَهِ أَمْرُهُ أَبِي
٢٣- كِلُوا أُمُورَكُمْ إِلَى بَارِئِكُمْ لأَنَّهُ خَالِقُكُمْ مُنْشِئُكُمْ
٢٤- مَتَى إشْتَغَلْتُمْ بِذِكْرِ رَبِّكُمْ يُعِنْكُمْ اللَّهُ عَلَى عَدُوِّكُمْ
٢٥- إلاَهُنَا ضَمِنَ أَنْ يَنْصُرُ مَنْ يَنْصُرْ دِينَهُ بِلاَ خُلْفٍ زُكِنْ
٢٦- مَنْ يَشْتَغِلْ بِالذِّكْرْ وَالْعِبَادَهْ يُعَنْ بِلاَ شَكٌّ لِخَرْقِ الْعَادَهْ
٢٧- وَلِلَّذِي يَذْكُرْ خَمْسَةَ عَشَرْ فَضِيلَةٌ وَكُلُّهَا اللَّهُ قَدْ ذَكَرْ
٢٨- أَعْنِي بِهِ الْمُسْتَغْرِقِينَ بِالذِّكِرْ بِشَرْطِهِ الْمَعْلُومِ دُونَ مَنْ ذَكَرْ
٢٩- لأَنَّهُ مَقْرُونَهُ بِالتَّقْوَى وَالكرُ قُوتُ الْمُتَّقِي وَالْمَأْوَى
٣٠- كَذَا لأَنَّ الذِّكْرَ جِنْسُ الْعَمَلِ خُذْهَا بِتَرْتِيبٍ بَدِيعٍ وَجَلِ
٣١- مَعْرِفَةٌ هُدًى وَعَوْنٌ وَفَلاَحْ مَحَبَّةٍ تَقْبَلُ لِذِى الصَّلاَحْ
٣٢- وِلاَيَةٌ بُشْرَى نَجَاةُ النَّارِ دُخُولُ جَنَّةٍ مَعَ الأَبْرَارِ
٣٣- لَهُ مِنَ الهُمُومِ مخْرَجٌ حَسَنْ والرِّزْقُ والتَّيْسِيرُ حَيْثُ يُظَنْ
٣٤- إِدَامَةُ الْغُفْرَانِ ثُمَّ بَعْدَهْ إِعْظَامُ أَجْرِ لِينَالَ قَصْدَهْ
٣٥- واشْتَغلُوا بِالْعِلْمِ ثُمَّ العَمَلِ لاَ نَفْعَ فِي عِلْمٍ بِغَيْرِ عَمَلِ
٣٦- لأَنَّ خَيْرَ النَّاسِ عَالِمٌ عَمَلْ بِعِلْمِهِ وَغَيْرُ هَذَا عَنْهُ مِلْ

٣٧- إِنَّ الَّذِي عَلِمَ دُونَ الْعَمَلْ | شَرُّ الْعِبَادِ اعْمَلْ وَلاَ تَعْتَزِلْ

٣٨- دُمْ مُسْتَقِيمًا يَاأَخِي لِتَسْلَمَا | إِيَّاكَ وَالْعِصْيَانِ كَيْ لاَتَنْدَمَا

٣٩- كُنْ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا أَوْ فِي | مُسْتَمِعًا أَوْ كُنْ مُحِبًّا لِذَوِي

٤٠- مَعْرِفَةٍ وَلَكِنْ خَامِسَهُمْ | تَرْبَحْ أَخَانَا وتكُنْ رَفِيقَهِمْ

٤١- نَسْأَلُهُ بِالفَضْلِ أَنْ يَرْزُقَنَا | دَوَامَ فِعْلِهِ كَمَا أَمَرَنَا

٤٢- ذِكْرُ الإِلاَهِ مُنْتَهَى الْوِلاَيَةِ | لأَنَّهُ الْمَبْدَأُ وَالنِّهَايَةِ

٤٣- كُونُوا إِلَى الرَّحْمَنِ مُقْبِلِينَ | عَنْ كُلِّ مَاسِوَاهُ مُدْبِرِينَ

٤٤- رَؤُفٌ رَحْمِنٌ رَحِيمٌ غَافِرٌ | قَوِّ قُلُوبَنَا فَأَنْتَ النَّاصِرْ

٤٥- أَنْتَ الَّذِي تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ | وَأَنْتَ الَّذِي تُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ

٤٦- لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ الَّذِي فِي النَّارِ | مِنْ حَيَّةٍ وَعَقْرَبٍ وَغَار

٤٧- لَكُنْتَ هَارِبًا مِنَ الذُّنُوبِ | لِفِعْلِ طَاعَةٍ بِلاَ عُيُوبِ

٤٨- هِدَايَةُ الرَّحْمَنِ وَالرِّضْوَانِ | أَفْضَلُ مَايَطْلُبُهُ الإِنْسَانِ

٤٩- وَاجْتَهِدُوا لاَتُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ | عَنِ الْعِبَادَةِ وَذِكْرِ رَبِّكُمْ

٥٠- مِنَ الإِلاَهْ نِعْمَةَ الأَوْلاَدِ | لاَتُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ عَنْ هَادِ

٥١- مَوَالُهُ اقْتَضَتْ دَوَامَ ذِكْرِهِ | لأَنَّهُ الْوَهَّابُ دُونَ غَيْرِهِ

٥٢- يَدُومُ ذُو الْعَقْلِ مِنَ الْعِبَادِ | عَلَى الْعِبَادَةِ بِلاَ عِنَادِ

٥٣- فَكُلُّ مَنْ شَغِلَ بِالأَوْلاَدِ | وَكَثْرَةِ الْمَالِ عَلَى التَّمَادِ

٥٤- عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ فَذَوْ خُسْرَانِ | لأَنَّهُ خَالَفَ ذَا النِّيرَانِ

٥٥- لاَ خَيْرَ فِي مَالٍ وَلاَ وِلْدَانِ | إِنْ كَانَ مُشْغِلاً عَنِ الدَّيَّانِ

٥٦- ذَوِ الْعقُـولِ مَـا أَرَادُوا غَيْـرَمَـا　　يُعِينُهُـمْ خِـلاَفَ مَـنْ تَقَدَّمَـا

٥٧- إِنَّ الَّـذِي أَمَـرَنَـا بَالذِّكْـرِ　　أَمَـرَ بِالإِكْثَـارِ دُونَ الْهجَـرْ

٥٨- لِقَوْلِهِ جَـلَّ وَعَـزَّ اذْكُـرُوا　　وَالذَّاكِـرِينَ الَّـذِينَ يَذْكُـرُوا

٥٩- كَـذَلِكَ الرَّسُولُ قَـدْ رَغَّبَنَـا　　إِلَيْـهِ فَاذْكُرْهُ يَاخَلِيـلَ رَبَّنَـا

٦٠- فَالعِـزُّ والإِكْـرَام وَالرِّضْـوَان　　وَالرِّبْـحُ فِي الطَّاعَـةِ يَانَوْمَـانُ

٦١- إِنَّ الْخَسَـارَةَ مَـعَ النُّقْصَانِ　　وَالْفَقْـرِ وَالْهَوَانِ فِـي العِصْيَانِ

٦٢- وَرَبُّنَـا مَـاحَصَّـلَ اليَقِـينُ　　لِـذِي تَكَـاثُرٍ كَمَـا يَبِيـنُ

٦٣- لاَيَجْمَـعُ الْحَـلاَلَ وَالْحَرَمَـا　　إِلاَّ غَبِـيٌّ حَـوْزَ نَـارٍ زَامَـا

٦٤- إِنَّ الَّذِي نَهَـى عَنِ التَّكَـاثُرِ　　لَـهُ عَـذَابٌ دَائِـمٌ لِلْخَاسِـرِ

٦٥- أَمَّـا حِسَابُ صَاحِبُ الْحَـلاَلِ　　فَخَطَـرٌ يَعْظُـمُ الرِّجَـالِ

٦٦- كَانَ الَّذِي يَكُونُ لاَ تَعْلَمُ هَـلْ　　كُنْتَ سَعِيدًا أَوْ شَقِيًّا فِي الأَزَلْ

٦٧- هَـذَا الَّـذِي يُخَـوِّفُ الرجَـالُ　　لَـوْ بَلَغُـوا الْغَايَـة والْكَمَـالَ

٦٨- مَاتَعْلَمُ الْجَـوَابَ فِي الْقَبْرِ هَـلْ　　يَكُونَ ثَابِتًـا بِلاَ خَـوْفٍ حَـلْ

٦٩- إِنْ نُشِرَتْ صَحَـائِفُ الأَعْمَـالِ　　هَـلْ بِالْيَمِينِ الأَخْـذُ أَوِ الشِّمَالِ

٧٠- لَمْ تَدْرِ فِعْلَ اللهِ فِي الْحِسَـابِ　　هَـلْ بِالْمُنَاقَشَـةِ وَالْعِتَـابِ

٧١- خِذْلاَنُ مَنْ فَلِسَ مَرْوِيٌّ وَهَـلْ　　رَدَدَتْ مَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلِ الخَجَـلْ

٧٢- إِنْ وزنَ الأَعْمَالِ لاَ تَـدْرِ هَـلْ　　يَثْقُلُ فِعْلَ الْخَيْـرِ أَمْ لاَ فَاعْقِـلْ

٧٣- سَعْيَكَ فِي الصِّرَاطِ لاَ تَدْرِ هَـلْ　　يَكُـونُ ذَا سُرْعَـةٍ أَوْ بُطْإٍ يَـلْ

٧٤- رُؤْيَةُ رَبَّنَـا هُـوَ الْمَنَّـانُ　　لَـمْ تَـدْرِ هَلْ يَكْثُرُهَـا الرَّحْمَانِ

٧٥- وَأَيْنَ آمِنُكُمْ مِنَ الْخُسْرَانِ   قَبْلَ دُخُولِ جَنَّةِ الْمَنَّانِ

٧٦- نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ وَالْهِدَايَةَ   وَالسَّتْرَ فِي الدَّارَيْنِ وَالْوِلاَيَةَ

٧٧- وَانْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ لِلَّهِ   قَبْلَ نَدَامَةِ عَدُوِّ اللَّهِ

٧٨- إِنَّ غَنِيًّا مُمْسِكاً فَاسَ الغِنَا   يَحُوزُ غَيْرَ مَالُهُ بَعْدَ الْفَنَا

٧٩- نَدَامَةُ الْمُمْسِكِ لاَ يَسُدُّهَا   شَيْءٌ نَعَمْ إِذَا فَاتَهُ مَحَلُّهَا

٨٠- فَلَيْسَ لِلإِنْسَانِ شَيْءٌ غَيْرَ مَا   قَدَّمَهُ مِنْ مَالِهِ كُنْ فَاهِمَا

٨١- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ أَوْ مَا أَكَلاَ   أَوِ الَّذِي لَبِسَهُ فَابْتَلاَ

٨٢- وَكُلُّ مَا قَدَّمْتُمْ مِنْ مضالِكُمْ   فَهُوَ الَّذِي يَنْفَعُ عِنْدَ رَبِّكُمْ

٨٣- إِذْ كُلُّ مَا أَخَّرَهُ لإِنْسَانِ   فَذَاكَ لِلْوَارِثِ يَانَوْمَانِ

٨٤- مَنْ تَرَكَ الأَمْوَالَ لِلْوِلْدَانِ   وَمَاتَ لاَزَادَ فَذُو خُسْرَانِ

٨٥- مَتَى يَكُونُ عَاقِلاً مَنْ أَغْنَى   غَيْرًا وَأَرْدَى نَفْسَهُ وَاَقْنَى

٨٦- أَدُّوا حُقُوقَ اللَّهِ مِنْ أَمْوَالِكُمْ   مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيكُمْ حِمَامُكُمْ

٨٧- رَزَّقَنَا الدَّيَّانُ هَذَا الْمَالَ   وَقَالَ أَنْفِقُوا اسْمَعُوا مَاقَالَ

٨٨- زِينَةُ هَذَا الْمَالِ تَزِيدُ   إِلاَّ سَوَادَ الْقَلْبِ يَامُرِيدُ

٨٩- قِلَّةُ مَالِ الْمَرْءِ لاَ تَمْنَعُ أَنْ   يُنْفِقَ قَدْرَ وُسْعِهِ يَامَنْ فَطَنْ

٩٠- نَذْكُرُ قَوْلَ اللَّهِ مَادِحًا لَهُمْ   فِي سُورَةِ الْحَشْرِ بِمَا أَلْهَمَهُمْ

٩١- إِذْ قَالَ رَبَّنَا وَيُؤْثِرُونْ   اقْرَأْ إِلَى تَمَامِ مُفْلِحُونَ

٩٢- كَفَاكَ قَوْلُ اللَّهِ لَنْ تَنَالُوا   رَدْعًا وَإِنْ تَبْخَلْ فَبِيسَ الْمَالِ

٩٣- مَالِلْبَخِيلِ نِعْمَةُ الرَّحْمَانِ   سِوَى عَذَابِ اللَّهِ وَالنِّيرَانِ

٩٤- مَـنْ كَـنَ مُوقِنًـا بِـأَنَّ اللَّهَ   يَـرْزُقُ لاَ يَبْخَـلُ خَـافُـوا اللَّهَ
٩٥- نَهَـى الْعَظِيمُ خَـالِقُ النِّـيرَانِ   عَـنِ التَّكَـاثُرِ لِـذِي الطُّغْيَـانِ
٩٦- قَالَ إِلَهُنَـا وَمَالَكُـمْ إِلَـى   تَمَامِـهِ كُـنْ عَالِمًـا وَعَامِـلا
٩٧- بَادِرْ إِلَى الْخَيْرَاتِ قَبْلَ الْفَـوْتِ   لِكَـيْ يَطِيبَ الْعَيْشُ بَعْـدَ الْمَـوْتِ
٩٨- لاَتُطِـعُ النَّفْسَ وَلاَ الشَّيْطَـانَ   تُفْلِـحُ وَتُرْضِـى رَبَّنَـا الرَّحْمَـانَ
٩٩- ارْفضْ أَخِـي دُنْيَـاكَ لِلنُّقْصَـانِ   خَالِـفْ هَوَاكَ مِـنْ خُسْـرَانِ
١٠٠- نَجَـاةُ إِنْسَـانٍ بِـلاَ انْفِصَـامِ   فِـي قَتْـلِ نَفْسِهِ عَلَـى الـدَّوَامِ
١٠١- يَا أَيُّهَـا النُّوَّامُ قَـدْ أَمَـرْتُكُمْ   بِتَوْبَــةٍ نَصِيحَــةٍ لِرَبِّــكُمْ
١٠٢- إِنْتَبِهُـوا قَبْـلَ حُلُـولِ الأَجَـلِ   لِكَـيْ تَنَالُـوا الأَمْنَ يَوْمَ الوَجَـلِ
١٠٣- تَدَارَكُوا مَافَاتَ مِنْ تَقْصِيرِكُـمْ   قَبْـلَ الْمَمَـاتِ وَلِقَاءِ رَبِّكُـمْ
١٠٤- يُحَاسَبُ الْمَرْءُ عَلَـى النَّقِيرِ   يَا صَاحِ فَاعْلَمْ وَعَلَـى القِطْمِـيرِ
١٠٥- إِيَّاكَ الشُّحَّ وَطُـولُ الأَمَـلِ   مَنْ كَـانَ زَاهِـدًا فَذُو تَأَمُّـلِ
١٠٦- حَـانَ الْمَمَـاتُ وَعَلَى مَا تَغْفَلُ   عَلَـى الْعِبَـادَةِ وَمَـاذَا الْكَسَـلُ
١٠٧- دَوَامُ ذِكْـرِ اللَّهِ خَيْرُ مَا اشْتَغَـل   بِـهِ عِبَـادُ اللَّهِ قُـوُوا لِـى أَجَـلْ
١٠٨- كَمْ ذَاكِرٍ صَـارَ بِـهِ وَلِيّـًا   كَـمْ غَافِـلٍ لاَءِ بَقَـى غَبِيّـا
١٠٩- مَنْ تَـرَكَ الدُّنْيَـا لأَجْـلِ اللَّهِ   يَنَـالُ مَايَشَـاءُ عِنْـدَ اللَّـهِ
١١٠- أَلاَ اتْرُكُواْ يَاقَـوْمِ سُمًّـا قَاتِـلاً   يَغُـرُّ مِـنْ لَيْـسَ لَبِيبًـا عَاقِـلاً
١١١- لاَ تَطْلُبُوا أَنْ تُكْرَمُـواْ بِالنَّسَـبِ   لأَنَّـهُ بِالـدِّينِ لاَ بِالحَسَـبِ
١١٢- مَـنْ طَهَّـرَ الْقَلْـبَ مِنَ الْعُيُـوبِ   يَعِيـشُ صَالِحًـا بِـلاَ ذُنُـوبِ

١١٣- وَحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ   تُحَاسَبُوا يَوْمَ الْعِقَابِ وَالْفِتَنْ

١١٤- تَرَاكُمُ الذُّنُوبِ فِي الْقُلُوبِ   يَمْنَعُ أَنْ يَتُوبَ ذُو الذُّنُوبِ

١١٥- فَكُنْ رَحِيمًا بِعِبَادِ اللَّهِ   تَكُنْ عَظِيمَ الشَّأْنِ عِنْدَ اللَّهِ

١١٦- يَحْرُمُ احْتِقَارُ أَهْلَ الأَرَبِ   لِلنَّهْيِ عَنْ ذَاكَ وَسُوءُ الأَدَبِ

١١٧- قُواْ يَاعِبَادَ اللَّهِ أَنْفُسَكُمْ   نَارًا وَأَهْلِيكُمْ وَمَمْلُوكَكُمْ

١١٨- وَأَمَرَ اللَّهُ كَذَا الرَّسُولُ   تَعْلِيمُهُمْ اسْمَعْ كَمَا أَقُلُ

١١٩- لاَتَتْرُكُوهُمْ بِلاَ عِلْمٍ وَلاَ   عِبَادَةِ المَنَّانِ جَلَّ وَعَلاَ

١٢٠- رُمِ التَّوَاضُعَ ذَرِ التَّصَنُّعَا   وَطَلَبَ الشُّهْرَةِ يَامُسْتَمِعَا

١٢١- بِرٌّ لِوَالِدَيْكَ فِي كُلِّ هُدَى   وَاعْصِهِمَا إِنْ أَمَرَاكَ الاعْتِدَا

١٢٢- لاَ تُهْمِلِ النَّظَرَ إِلَى الْحَرَامِ   وَأَمْسِكْ لِسَانَكَ عِنِ الْكَلاَمِ

١٢٣- وَاجْتَنِبُوا الرِّيَاءَ وَالتَّكَبُّرَ   وَالحَسَدَ وَالحِقْدَ تَكُنْ مُكَبَّرَ

١٢٤- لاَ تُدِمِ الشَّبعَ فِي الْحَلاَلِ   إِيَّاكَ وَالْحَرَمُ ذَا النَّكَالِ

١٢٥- إِسَاءَةُ الظَّنِّ بِعَبْدِ اللَّهِ   تُبْطِلُ مَا تَعْمَلُهُ يَا لاَهِ

١٢٦- اجْتَنِبُوا الْغِيبَةَ يَا إِخْوَانِ   كَذَا النَّمِيمَةَ مَعَ الْبُهْتَانِ

١٢٧-خَيْرُ عِبَادِ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ   أَشْفَقُهُمْ عَلَى ضَعِيفٍ وَاهِ

١٢٨-رُمِ اصْطِحَابَ كُلِّ شَخْصٍ مُهْتَدَى   إِنَّ الْقَرِينَ بِالقَرِينِ مُقْتَدِى

١٢٩- تَمُرُّ الأَيَّامُ كَذَا الشُّهُورُ   وَأَنْتَ فِي الْغَفْلَةِ يَا مَغْرُورُ

١٣٠- نَهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ التَّدْبِيرِ   وَالاخْتِيَارِ فَهُوَ ذُو التَّقْدِيرِ

١٣١- يَافَوْزَ قَائِمٍ بِأَمْرِ اللَّهِ … وَنَهْيِهِ مُسْتَسْلِمٍ لِلَّهِ

١٣٢ - أَكْرِمْ بِعَبْدٍ مُخْلِصٍ أَوَّبِي … مِنْ غَيْرِ إِعْرَاضٍ عَنِ التَّوَّابِ

١٣٣- لَيْسَ لَهُ تَعَلُّقٌ بِالغَيْرِ … لاَ طَمَعٌ فِي السِّرِّ أَوْ فِي الْجَهْرِ

١٣٤- إِذَا رَأَى مَعْصِيَةً يَجْتَنِبُ … مَوْضِعَهَا جِدًّا وَلاَ يَقْتَرِبُ

١٣٥- أَكْرِمْ بِهِ يَوْمَ لِقَاءِ اللَّهِ … أَكْرِمْ بِعَبْدٍ عَابِدٍ أَوَّاهِ

١٣٦- جَزَاؤُهُ الْجَنَّةُ وَالرَّيْحَانُ … وَالْحُورُ وَالْقُصُورُ وَالرِّضْوَانُ

١٣٧- لَيْسَ لَهُ هَمٌّ وَلاَ أَحْزَانُ … فِيهَا وَلاَ غَمٌّ وَنُقْصَانُ

١٣٨- قَدْ نَالَ كُلَّ الْخَيْرِ فِي الجِنَانِ … مِنْ دُونِ مَاشَكٍّ وَلاَبُهْتَانِ

١٣٩- رُؤْيَةُ رَبِّ الْخَلْقِ فِي دَارِ الْبَقَا … أَدْرَكَهَا أَنْعَمُ عَبْدٍ إِنْ تَقَى

١٤٠- يَفُوزَ عَبْدٍ نَالَ كُلَّمَا اشْتَهَى … دُونَ تَخَلُّفٍ وَنَالَ الْمُنْتَقَى

١٤١- بَلْ نَالَ كُلَّ الْقَصْدِ وَالْمُرَادِ … مَا نَالَهُ جَمْعٌ مِنَّ الْعِبَادِ

١٤٢- فَازَ بِمَا لَمْ تَسْمَعِ الآذَانُ … وَلَمْ تَرَا الْعُيُونُ وَالْجَنَانُ

١٤٣- أُفٌّ لِعَبْدِ الثَّوْبِ وَالدِّينَارِ … وَالدَّارِ وَالدِّرْهَمِ وَالأَغْيَارِ

١٤٤- صَارَ أَسِيرًا لِحُكَّامِ الدُّنْيَا … وَالنَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ بِيسَ الْبُغْيَا

١٤٥- دَيْدَنُهُ تَمَتُّعُ الْبَهَائِمِ … أَكْلاً وَشُرْبًا زِدْ نِكَاحَ الْبَاهِمِ

١٤٦- قَرِينُهُ الْمَحْبُوبُ فِي الأَنَامِ … أَخُو الثَّرَاءِ وَلَوْ مَعَ الأَثَامِ

١٤٧- وَظَنَّ أَنَّ الْعِزَّ عِنْدَ اللَّهِ … تَحْصِيلُ أَمْوَالٍ بِلاَ تَنَاهِ

١٤٨- أَلْجَاهُ الْجَهْلِ إِلَى احْتِقَارِ … سَادَاتِ أَهْلِ اللَّهِ وَالْكُبَّارِ

١٤٩- كَيْ لاَيَنَالَ فَضْلَهُمْ لِلشِّقْوَةِ … إِذْ قَصَدَهُ دُنْيَاهُ دُونَ الصَّفْوَةِ

١٥٠- نَفَّرَهُ الْخِذْلاَنُ عَنْ إِكْرَامِ ... أَهْلِ الْهِدَايَةِ بِلاَ انْفِصَامِ
١٥١- مَاخَابَ مَنْ أَحَبَّ أَهْلَ اللَّهِ ... وَمَعَهَا خَادِمُهُمْ لِلَّهِ
١٥٢- نَسْأَلُ بِالْفَضْلِ أَنْ يَرْزُقَنَا ... مَحَبَّةَ الْقَوْمِ كَمَا أَمَرَنَا
١٥٣- اعْلَمْ أَخِي أَنَّ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ ... إِلاَّ الَّذِي نَسْعَى مِنَ الإِحْسَانِ
١٥٤- لاَيُحَمَّلُ الإِنْسَانُ مِنْ أَوْزَرِى ... قَرِيبِهِ شَيْئًا أَوِ الاصْطَهَارِى
١٥٥- صَلِّ الْفَرَائِضَ مَعَ الْخُشُوعِ ... رَتِّلْ سُجُودَكَ مَعَ الرُّكُوعِ
١٥٦- أَوْجَبَ رَبُّنَا إِقَامَةِ الصَّلاَةِ ... لاَوُجُودَهَا كَمَا قَدْ انْجَلاَ
١٥٧- إِذْ ذَاكَ كَمِّلْهَا بِلاَ نُقصَانِ ... بِالشَّرْطِ والأَدَابِ وَالأَرْكَانِ
١٥٨- خَانَ مَمَاتُكَ وَأَنْتَ تَلْعَبُ ... مِثْلَ مُنَافِقٍ يُصَلِّى يَلْعَبُ
١٥٩- يَنْقُرُ فِي الصَّلاَةِ نَقْرَ الدِّيكِ ... مَا نَالَ غَيْرَ لَعْنَةِ الْمَلِيكِ
١٦٠- نَصُّوا بِأَنَّهُ كَإِنْسَانِ مَلَكْ ... جَارِيَةٌ مَاتَتْ وَأَهْدَاهَا الْمَلَكْ
١٦١- وَكُنْ إِذَا دَخَلْتَ فِي الصَّلاَةِ ... كَمِثْلِ شَخْصٍ كَانَ فِي الْوَفَاتِ
١٦٢- لَمْ يَكُ لِلْفَذِّ سِوَى الَّذِي عَقَلَ ... مِنَ الصَّلاَةِ دُونَ مَا كَانَ غَفَلَ
١٦٣- نَفْلُ الصَّلاَةِ فَضْلُهُ مَأْثُورَةْ ... وَذَنْبُ مَنْ لاَزَمَهُ مَغْفُورَةْ
١٦٤- يَا أَيُّهَا الْعَاقِلُ صُمْ شَهْرَ الصِّيَامِ ... مِنْ غَيْرِ تَفْرِيطٍ وَتَرٍ بِالْقِيَامِ
١٦٥- وَزَكِّ أَمْوَالَكَ دُونَ النَّقْصِ ... إِنْ وُجِدَ النِّصَابُ دُوْنَ وَقْصِ
١٦٦- خُسْرَانُ شَخْصٍ مَانِعِ الزَّكَاةِ ... مُعَايَنٌ دُنْيَا بِلاَ مَمَاتِ
١٦٧- رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَذَرَا ... عَنْ كَنْزِ مَالٍ فَازَ مَنْ تَشَمَّرَا
١٦٨- إِلَى امْتِثَالِ أَمْرِ ذِي الْجَلاَلِ ... سُبْحَنَ ذِي الْجَمَالِ وَالْكَمَالِ

١٦٩- لِمَانِعِ الزَّكَاةِ ذِي الْخُسْرَانِ نَارٌ مَعَ الْحَمِيمِ والثُّعْبَانِ
١٧٠- لَمْ يَكُ فِي الْكَنْزِ سِوَى الْخُسْرَانِ وَالطَّرْدِ وَاللَّعْنَةِ وَالنُّقْصَانِ
١٧١- هَـذَا الَّذِي هَوَّلَ كُلَّ عَاقِلِ عَنْ مَنْعِ حَقِّ اللَّهِ دُونَ غَافِلِ
١٧٢- نَفْلُ زَكَاةِ الْمَالِ قَدْ قَدَّمْتُ فِيهِ كِفَايَةٌ وَمَا نَوَيْتُ
١٧٣- فَضْلُ تَطَوُّعِ الصِّيَامِ قَدْ وَرَدَ فِي الذِّكْرِ وَالسُّنَّةِ لِلَّذِي اقْتَصَدَ
١٧٤- سَعْيٌ بِإِقْدَامِ وَالرِّحَالِ بِفَضْلِ حَجِّ بَيْتِ ذِي الْجَلاَلِ
١٧٥- أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَى الَّذِي قَدَرْ دُونَ تَخَلُّفٍ وَفِي الذِّكْرِ ذَكَرْ
١٧٦- أَمَا جِهَادُ الْمَرْءِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ فَرْضُ كِفَايَةٍ وَأَعْظِمْ شَأْنَهُ
١٧٧- ذَرِ التَّكَاسُلَ عَنِ الْجِهَادِ جَاهِدْ بِجِدٍّ كُلَّ ذِي عِنَادِ
١٧٨- اعْلَمْ أَخِي أَنَّ الرَّحِيمَ بَشَّرَا أَهْلَ جِهَادِ الْحَرْبِ ثُمَّ أَعْذَرَا
١٧٩- إِذْ أَنْبَأَ اللَّهُ بِأَنَّهُ اشْتَرَى نُفُوسَنَا وَمَالَنَا وَأَخْبَرَا
١٨٠- إِنَّ الْجِنَانَ رَأْسُ مَالِهِ لِمَنْ يُقَاتِلُ الْكُفَّارَ حَبَّذَ الثَّمَنْ
١٨١- الْمُشْتَرِي اللَّهُ وَسَيِّدُ الْوُجُودْ وَاسِطَةُ بَيْنَ الْعِبَادِ وَالْوَدُودْ
١٨٢- جَهِّزْ بِأَمْوَالِكَ جَيْشَ الْمُؤْمِنِينْ إِنْ كُنْتَ ذَا عُذْرٍ تَكُنْ مِنْ مُحْسِنِينَ
١٨٣- لِلشُّهَدَاءِ يَغْفِرُ أَوَّلَ الْمُلاَ قَاتِ إِلَهُنَا تَعَالَى ذُو الْعُلَى
١٨٤- هُوَ الَّذِي يَمْنَعُ كُلَّ الأَرْضِ مِنْ أَكْلِ لَحْمِ الشُّهَدَاءِ وَالْعَرْضِ
١٨٥- أَيْ وَالَّذِي جَعَلَهُمْ أَحْيَاءَ مَعَ الْمُتَمَتِّعِ كَمَا إِنْشَاءَ
١٨٦- وَهُوَ أَمَّنَهُمْ مِنَ الْفَزَعْ تَاجَ الْكِرَامَةِ لَهُمْ بِلاَ جُوعْ
١٨٧- إِنْ قُلْتَ هَلْ لَهُمْ شَفَاعَةٌ أَقُلْ نَعَمْ بِلاَشَكٍّ وَرَيْبٍ يَارَجُلْ

١٨٨- لِـوَاحِـدٍ هَـذَا مَـعَ السَّبْعِـينَ حَـوْرَاءِ قَبْـلَ بَعْـثِ عَـالَمِـينَ
١٨٩- لِـوَاحِـدٍ هَـذَا مَـعَ السَّبْعِـينَ مِـنْ أَهْلِـهِ الْخَـاصِّ وَالأَقْرَبِـينَ
١٩٠- هُنَـا هُـمْ مَـعَ اللَّهِ بِنَيْـلِ الأَمَـلِ بِـلاَ حِسَـابٍ وَبِدُوْنِ الْوَجَـلِ
١٩١- خَـافَ الْمُنَـافِقُ مِنَ الْمَمَـاتِ قَبْـلَ تَمَـامِ أَجَـلِ الْوَفَـاتِ
١٩٢- بَلْ جَعَـلَ النَّجَاةَ فِي التَّخَلُّـفِ عَـنِ الْمَعَـارِكِ بِـلاَ تَوَقُّـفِ
١٩٣- يَظُـنُّ أَنَّ أَمَـلَ الإِنْسَـانِ يَـزْدَادُ أَوْ يَكُـونُ بِالنُّقْصَـانِ
١٩٤- رَضِـيَ بِالسُّخْـطِ وَبِالْعِتَـابِ هَـارِبٌ يَـوْمَ الزَّحْفِ وَالْعَـذَابِ
١٩٥- بُشِّـرَ مَـنْ أَخْلَصَ فِـي الْجِهَـادِ بِنَيْـلِ مَـالٍ أَوْ ثَـوَابِ الْهَـادِي
١٩٦- مَا صَعَّـقَ الْجَالِسُ عَـنْ جِهَـادٍ لِلَّـهِ دُوْنَ عُـذْرٍ ذُو سَـدَادِ
١٩٧- اعْـلَمْ بِأَنَّ الأَمْـرَ وَالنَّهْيَ عَلَـى ذِي قُـدْرَةٍ أَوْجَـبَهُ رَبٌّ عَلَـى
١٩٨- تَبًّـا لِمَـنْ مُكِّنَ فِـي الْبِـلاَدِ وَلَـمْ يُغَيِّـرْ مُنْكَـرِ الْعِبَـادِ
١٩٩- عَلَيْـكَ بِالسُّـنَّةِ وَالْكِتَـابِ جَـانِـبْ ذَوِ الزَّيْغِ عَنِ الصَّوَابِ
٢٠٠- مَا أَفْسَدَ الدِّينَ سِوَى الْمُلُـوكِ وَعُـلَمَـاءِ السُّـوءِ بِالأُفُـوكِ
٢٠١- لَمْ يَرْجُـوا فِي بَيْعِهِمْ نُفُوسَهُـمْ وَمَا غَـلَـتْ فِي بَيْعِهِـمْ أَثْمَانُهُـمْ
٢٠٢- وَتَعْـوا فِـي جِيفَـةٍ يَبِـينُ إِنْتَانهَـا لِعَـاقِـلٍ يَدِيـنُ

وفيما يلى المصنفات الرئيسية للشيخ عمر الفوتى :

١- رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم .

٢- سفينة السعادة لأهل الضعف والنجادة .

٣- المقاصد السنية لكل موقف من الدعاة إلى الله من الراعي والرعية .

٤- كتاب الكلام - يتعلق بالعقائد .

٥- هدية المذنبين إلى كيفية الخلاص من حقوق الله والعباد أجمعين .

٦- تذكرة الغافلين عن قبح اختلاف المؤمنين .

٧- أسماء سور القرآن الكريم .

٨- منظومة في إصلاح ذات البين .

٩- كتاب أجوبة مسائل .

١٠- تذكرة المسترشدين وفلاح الطالبين .

١١- سيوف السعيد على رقبة الشقى الطريد .

رحمه الله وأدخله فسيح جنّات النعيم . آمين ثم آمين .

الفصل الخامس

الاستعمار والمقاومة الإسلامية في غرب إفريقيا

كانت حركات الجهاد التي اندلعت وصادفت مجيء الاستعمار الأوروبى وفتوحاته لمنطقة الغرب الإفريقي في بداية القرن التاسع عشر الميلادي ، بمثابة الميلاد الحقيقي للحماس الدّينى والوعي السّياسى والتضامن بين شعوب تلك المنطقة المسلمة . أظهرت المجتمعات الإسلامية استعدادًا كاملاً للانقياد لتوجيهات دينية بزعامة رواد تلك الحركات تحت راية الجهاد بغية إصلاح أحوالهم الإجتماعية والدّينية ومقاومة السّيطرة الاستعمارية ونفوذها المسيحي على تلك المجتمعات . أوجدت تلك الحركات روحًا ثوريًا ونشاطًا فكريًا فى كثير من القطاعات الاجتماعية من هنا وهناك . ومن ثم تواجد الاستعداد لدى جماهير المسلمين للدفاع عن دينهم وتثبيته والمحافظة على قيمه الأخلاقية والاجتماعية والسّياسية على وجه ذلك الاستعمار الأجنبي الدخيل . وانطلاقاً من هذا المضمار وأصالة عن الرغبة الطوعية لمسلمي المنطقة في الامتثال للتوجيهات القرآنية والسنة النبوية المطهرة فى تسيير شؤونهم ، تقوت شوكات دعاة الإصلاح الدينى وارتقت الرّوح المعنوية فيهم لتحدي ذلك الوجود الاستعماري ومواجهته ندًا بندٍ .

إذ تجسدت روح تلك المقاومة من خلال الطرق الصّوفية في القرن التاسع عشر الميلادي عندما أخذ الاستعمار الفرنسى ينمو نمواً مطرداً ويمد

نفوذه شرقاً وغرباً . فكان من الطبيعى ، تجاوباً مع ذلك التيار ، أن يناهض رواد الشعوب حركات العصيان والمقاومة ضد المستعمرين الغزاة في السودان الغربي والأوسط . تمثل أبرز تلك المقاومات في المواجهة بين إمامية التكرور خلال فترة ما بين أعوام ١٨٥٦م و ١٨٦٠م . وتجدر الإشارة إلى أن تلك الإمامية قد انبثقت عن حركات الإصلاح الدينى والاجتماعى التي قامت في بلاد فوتاتورو فى كل من مالي والسنغال وموريتانيا ، وكان الهدف الأساسي من تلك الحركات هو العمل لتوحيد القبائل المسلمة في المنطقة تحت كيان سياسى موحد . كما كانت تستهدف إيقاف مد النفوذ الاستعماري الفرنسى فى حدود ذلك الكيان السياسي . أضطرت السلطات الاستعمارية إلى إبرام إتفاقية والدخول فى هدنة مع تلك الإمامية فى وقت لاحق بعد مرور قرابة عشرين سنة على تلك المقاومة وعلى فترات متقطعة، وبعد ذلك انهارت الإمامية نهائيًا فى عام ١٨٨٠م . لم تستطع السلطات الاستعمارية الفرنسية انهاء المقاومة بعد القضاء على الدويلات الإسلامية وفرض سيطرتها عليها في المنطقة رغم مالديها من الأسلحة الحديثة والأكثر تطوراً. وذلك لأن المقاومة كانت دائرة حول الصراع العقيدى والثقافي ، ولم تكن بسبب مصالح مادية. لهذا اتخذت وجها جديدًا بعد إختفاء الكيانات السياسية المتمثلة فى تلك الدويلات والإماميات . تمثل الوجه الجديد في عقيدة ظهور الإمام المهدي المنتظر ، الذي سيظهر ويؤسس حكومة إسلامية على ضوء القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم .

تستر كثير من الناس بهذه العقيدة في معظم الأوساط الإسلامية في غرب إفريقيا واندفعوا وراءها . ومن ثم ازداد إيمانهم بقرب انتهاء العالم . الأمر الذي زاد حدة المقاومة ضد الاستعمار الأوروبى عنفاً وضراوة ، اعتبارًا من عام ١٩٠٦م حتى وقت اندلاع الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤م ووصولاً إلى نشوب الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٤٠م . نشطت العقيدة المهدية في كل من السنغال وموريتانيا وغينيا ومالي ونيجيريا ، حيث اتخذت صور الطرق الصوفية . وبذلك تحولت المقاومة الميدانية بالأسلحة إلى التعبئة الشعبية عن طريق ممارسات الرّياضة الرّوحية. من هنا ظهرت أدوار الطرق الصوفية وأهميتها في حياة شعوب وأفراد المجتمعات الإسلامية في الغرب الإفريقي، وأخذت هذه الأنشطة تزداد شهرة وانتشاراً مع انبثاق طوائف فرعية عن الطوائف الأم ، كلما يتنامى نفوذ زعيم لهذه أو لتلك الطائفة وتعلو له كلمة على لفيف من مريديه أو جاليات تتبرك به اعترافًا بولايته الجديدة أو لدى إعلانه عن اتصال بكشوفات ربّانية جديدة . نذكر فيما يلى الطرق الصوفية الرئيسية وفروعها المنتشرة في الغرب الإفريقي .

أ – الطرق الصوفية الرئيسية :

١– القادرية ، أسسها الشيخ عبد القادر الجيلانى الذي ولد في إيران في سنة ٤٧١ هجرية وتوفي سنة ٥٦١ هجرية (١٠٧٨–١١٦٦م) . تعتبر القادرية أقدم الطرق الصوفية المعاصرة وأكثرها اعتدالاً في المعتقدات . تضم أورادها ذكر كل مقولة من المقولات التالية (١٠٠) مائة مرة دبر الصلوات المكتوبة .(١) "أستغفر الله (٢) سبحان الله (٣) اللهم صلى على سيدنا محمد وعلى آله

وأصحابـه (٤) لا الـه إلا اللـه . نسـب إلـى الشـيخ عبدالقـادر الجيلانـي مصنفـات عـدة أشـهرها ." الغنيـة لطـالب طريـق الحـق والفتـح الرّبـاني والفيـض الرّوحـاني" الـذي يتنـاول علـم التوحيـد "وفتـوح الغيـب" الـذي يعـالج مسـائل صوفيـة .

يرجع دخول هذه الطريقة في منطقـة الغـرب الإفريقـي إلـى القـرن التاسـع عشر الميلادي من خلال عالم يدعى الشيخ المختار بن أحمد المولد فـي سـنة ١٧٢٩م المتوفـي سـنة ١٨١١م . انحـدر هـذا الصوفـي مـن قبيلـة كونتـا الصحراوية. عاش في مدينة تنبكتـو الواقعـة فـي جمهوريـة مـالي، أنشأ الشيخ المختار المذكور أول زاوية للقادرية في غرب إفريقيـا فـي بلـدة أزواد بشـمال تنبكتو. أصبحت تلك الزاوية أول مركز لهذه الطريقة في غرب ووسط إفريقيا، يذكر لنا كتاب "كنتة الشرقيون" مـايلى عـن الطريقـة القادريـة بيـن أبنـاء قبيلـة الكونتا التى ينتمى إليه الشيخ المختار: "إن كنتة هم المؤمنون بالطريقة القادرية وناشروها ... وفى هذا المعنى فقدت السلسلة القادرية معناها العام الذى يعنـى "السلسلة الصوفية" التى تنطبق على الخلافة أو تعاقب الدعاة لكل الطوائف التى تختص بالطريقة القادريـة ...ولقـد تقمـص كنتـة القادريـة ، مثلمـا تقمصتهـم، وأصبح اسمهم مرادفـا لها ، وغالبا ماتكنى القادرية السـودانية بالبكائيـة نسـبة إلى الجـد الكنتـي ، الشيخ سـيدى عمـر الشـيخ ولـد الشـيخ سـيدى أحمـد البكاى، الذى كان ناشـر هذا الـورد (القـرن السـادس عشـر) أو المختاريـة نسبة إلى الشيخ سـيدى المختـار الكبـير ، الـذى كـان المصلـح الدينـى فـى نهاية القرن الثامن عشر وبدايـة القـرن التاسـع عشـر" ومـن المرجـح أن تكـون

الطريقة قد وصلته عن طريق الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلى التلمسانى.
واستمر الأستاذ محمد محمود ولد ودادى قائلاً :

"يستظهر أتباع القادرية البكائية ، أذكارًا خاصة تؤلف فاتحتهم الخاصة وتختلف نوعًا ما عن أوراد من نفس الشئ لدى فروع القادرية ... وإليكم هذه الأوراد فى نصها الكامل المقدم من المشايخ الكنتيين الأتقياء : "ذاك هو ورد سلسلة القادرية ، وهو أشهرها ، يقوم مقام كل الأوراد الأخرى ، ولايمكن الاستعاضة عنه بأى ورد آخر . ومن يحفظه لايموت إلا فى أحسن الأحوال . ويقوم على قراءة الأدعية التالية دبر كل صلاة :

((حسبنا الله ونعم الوكيل (٢٠٠ مرة) . استغفر الله العظيم (٢٠٠ مرة).
صلىّ الله على محمد وآله (١٠٠ مرة))) .

ولاينبغى الاعتقاد بأن هذه الأدعية الخاصة تقرأ بانتظام – حسبما تقتضى القاعدة – عقب كل صلاة فرض من الصلوات الخمس فى اليوم . وهذا الدعاء الكامل هو الكمال الذى ينبغى الوصول إليه ، والأولياء والشيوخ الأتقياء هم الوحيدون الجديرون به . ولكن عامة المؤمنين لا يقرؤنه إلا بعد صلاة العشاء ، وأيضًا بصورة غير منتظمة تماماً . وتستخدم فى هذا الدعاء المسبحة العادية(١) . كان الشيخ أحمد لوبّو بارى الأول ، مؤسس دولة ماسينا الإسلامية والشيخ عثمان دان فودى مؤسس دولة صوكتو الإسلامية من طلائع أتباع الطريقة

(١) راجع كتاب كنتة الشرقيون ، تأليف بول مارتى تعريب وتعليق محمد محمود ولد ودادى.

القادرية كمذهب صوفي . انتشرت هذه الطريقة بين سكان المنطقة من خلال جهود أفراد من التجار والمشايخ الذين ينتمون إلى قبائل من مالي وموريتانيا والسنغال ونيجريا وغينيا والنيجر .

٢ : الشاذلية ، أسسها الشيخ أبو الحسن على الشاذلي المولود في سنة ١١٩٦م وتوفي سنة ١٢٥٨م . تعتبر هذه الطريقة إلزامية وأفكارًا فلسفية أكثر من كونها طريقة صوفية ذات ممارسات محددة كسائر الطرق الصوفية الأخرى المنتشرة في غرب إفريقيا . قام عالم يدعى الشيخ العربي بن أحمد الدرقاوى (توفي سنة ١٨٢٣م) في المغرب ، بمحاولة إحياء أفكار الشيخ أبو الحسن على المذكور . وقد التقي أحد دعاة الإصلاح الدّينى بالمنطقة يدعى الشّيخ على الصُّوفي ١٨٢٨م - ١٩١٢م الذي انحدر من قبيلة فوتا جللو الفولانية ، أثناء زيارته لمدينة فاس المغربية بالشيخ الدرقاوى المذكور الذي لقنه أفكار أبي الحسن على الشاذلى . ومن خلال الشيخ على الصوفي هذا بدأ إنتشار أفكار أبي الحسن على الشاذلي بين سكان فوتا جللو ومنها إلى المناطق المجاورة في غرب إفريقيا ، جنباً إلى جنب مع الطرق الصّوفية المعاصرة الأخرى . حصل الشيخ عليّ الصوفي على مريدين وأتباع كثيرين وهم الذين قاموا معه بتأسيس زوايا كثيرة في المنطقة نفسها . ومن أشهرها زاوية غومبا واندااما وجاوية التي تقع في غينيا . كما قاوموا دخول الاستعمار الفرنسي في بلادهم ، ولعبوا أدوارًا ملموسة في نشر الإسلام وثقافته فى غرب إفريقيا . ونشبت خلافات طائفية بين الشّاذليين والتّجانيين أدت إلى مواجهات

دموية بين الجانبين. ولا تزال هناك بقايا الشاذليين في غرب إفريقيا لاسيما في منطقة فوتا جللو، ومالي وبوركينا فاسو والنيجر ونيجيريا .

النظرية الشّاذلية :

تضم نظرية هذه الطّائفة ممارسة الصّيام الطوعى والاعتكاف وتلاوة الأذكار التي يسمونها "جاروري" أى إجلال الله بلغة الفولاني ، كل ليلة الخميس . وتتسم بممارسة فردية أكثر منها جماعية . وهي الخصلة التي تتناسب مع أحوال الرّحال من رعاة المواشى وحياة العزلة التي يحبذونها . لجأت السّلطات الاستعمارية إلى ممارسة القمع والاضطهاد ضد هذه الجماعة وزجتهم فى سجونها بتهمة الانخراط فى السّياسة . وقد لعبت تلك الجماعات أدوارًا ملموسة في النهضة الدينية والانتفاضة الشعبية ضد الوجود الاستعماري في إمارات فوتا جللو الواقعة في جمهورية غينيا والمناطق المجاورة في الغرب الإفريقي .

٣ : **التجانية :** أسسها الشيخ أحمد بن محمد المختار بن أحمد بن محمد بن سالم . ويضاف إلى هذه التسمية لقب التّجاني . يرجع أصل الكلمة إلى كلمة تيجانا أو تيجان . وهي اسم لقبيلة بربرية من سكان الجزائر بشمال إفريقيا . وإلى هذه القبيلة تنتمى والدة الشيخ أحمد التّجاني .

مولده ونشأته

ولد الشّيخ أحمد التّجاني ببلدة عين مادى الواقعة في جنوب الجزائر في السنة ١١٥٠هـ الموافقة لسنة ١٧٣٧م . توفي في مدينة فاس بالمغرب في العام ١٨١٥م . أرجع الشيخ أحمد التجاني أصله إلى أهل البيت . أى إلى ذرية محمد

رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذ أضاف لقب "الحسّاني" إلى اسمه وانتسب بذلك إلى ذرية الحسن بن فاطمة الزهراء نجلة الرّسول عليه أفضل الصّلوات ، ويقال له "الشريف" أيضاً إجلالاً لهذا الانتساب . لكن لم يثبت تاريخيًا أن أحداً من أجداد الشيخ أحمد الأوائل قد ادّعى هذا الانتساب إلى أهل بيت الرّسول قبله . ذكر الشيخ على حرازم بن براد ، أكبر تلاميذ الشيخ أحمد ومريديه ومؤلف كتاب "جواهر المعاني" الّذي يعتبر المصدر الأول لتاريخ حياة الشيخ أحمد التجاني وطريقته الصوفية، في هذا الكتاب ، أنه عندما سُئِل عن شيخه وعن مرجعية ادّعائه بالانتساب إلى شرفاء أهل البيت ؛ أن شيخه لم يكن يدّعى ذلك جزافاً ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ظهر له في المنام وقال له : " أنت ابني ثلاث مرات"(٢) .

- نقل الشيخ على حرازم كثيراً من الفضائل والأفكار التي نسبها إلى الشيخ أحمد التّجاني من كتاب المقصد الأحمدي في التعريف بسيدنا ابن عبد الله ، الذي ألفه الشيخ محمد بن عبدالسلام القادري . لكنّه لم يشر إلى ذلك(٣) . تعتبر الطريقة التجانية التي أسسها الشيخ أحمد التّجاني في السنة ١١٩٦هـ عندما أعلن لتلاميذه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أتاه جهرة بمبادرة تقديمه إلى التربية الرّوحية وأعطاه هذه الأوراد، أحدث الطرق الصوفية

---

(٢) كتاب : جواهر المعانى .

(٣) انظر كتاب: الطريقة التجانية للدكتور جميل محمد أبو النصر .

الرئيسية ظهوراً وأكثرها انتشاراً في منطقة غرب ووسط إفريقيا حتّى الوقت الحاضر . تأثر الشّيخ أحمد التجاني بالنزاعات الصوفية في وقت مبكر من حياته ، ولم يكن قد جاوز واحداً وعشرين من عمره وذلك عندما سافر إلى مدينة فاس المغربية فى عام ١٧٥٨م ، بحثاً عن مشايخ للطرق الصوفية بعد حصوله على بعض العلوم الإسلامية والصّوفية في قرية أبيه عين مادى . وتضمنت تلك العلوم حفظ القرآن ودراسة الفقه المالكى من كتب "مختصر الخليل" وكتاب الأخضري . ورسالة جماعة الصوفية ببلاد الإسلام " للشيخ أبي القاسم القشيرى (٩٨٦م-١٠٧٤م) . وقد التقى الشّيخ أحمد التّجاني ببعض علماء الطرق الصوفية أثناء تنقلاته بين الجزائر والمغرب والمشرق العربى، من بينهم شيخ يدعى أحمد بن عبد الله الصّوفي الهندي الذي تأثر به الشيخ أحمد التجاني تأثيراً كبيرًا في النظريات الصّوفية بما فيها كرامات الأولياء (٤) .

انتسب الشيخ أحمد التّجاني إلى عدة طرق صوفية قبل تأسيسه طريقة خاصة به . وقد كان في الوهلة الأولى قادرى المذهب ، فانتقل إلى النّاصرية فطريقة الشّيخ أحمد الحبيب بن محمد ، ثم اختتم بالخلوطية التي أسسها أحد المشايخ الصوفيين في مصر يدعى الشيخ محمد بن عبدالرّحمن .

انتشرت الطريقة التّجانية في شمال إفريقيا من خلال منطقة "جارد" الجزائرية ومناطق أخرى فى تونس بفضل جهود أحد المشايخ يدعى محمد بن

(٤) راجع كتاب جواهر المعانى .

فويدر العبدلاوى (توفي ١٨٢١م) . ومن بلاد المغرب وصلت الطّريقة التّجانية إلى موريتانيا بواسطة شيخ يدعى محمد الحافظ الذي كان أحد مريدى الشيخ أحمد التّجاني في مدينة فاس المغربية .

الرّياضة الرّوحية :

أولاً : الأوراد اليومية، هي التي يقوم بها الصوفي التجاني في نشاطه اليومي، وهي على نوعين :

أ- النوع الأول يطلقون عليه كلمة "اللازم" . ويتم في الفترتين الصّباحية والمسائيّة . يضم تلاوة كل من المقولة التالية مائة (١٠٠) مرة : أستغفر الله ، الصّلاة على النبي ولا إله إلا الله .

ب- النوع الثاني، ويعرف " بالوظيفة" التي تتم مرة واحدة في اليوم : وتضم تلاوة" أستغفر الله العظيم الذي لا اله إلا هو الحى القيوم ، ثلاثين" (٣٠) مرة . صلاة الفاتح ، وهي : "اللهم صلى على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق وناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى أهله حق قدره ومقداره العظيم". خمسين (٥٠) مرة ، "لا إله إلا الله" مائة (١٠٠) مرة ، ثم جوهرة الكمال، اثنى عشرة ، وهى : " اللهم صلى وسلم على عين الرحمة الرّبانية والياقوتة المتحققة الحائطة بمركز الفهوم والمعاني ونور الأكوان المتكونة الآدمي صاحب الحق الرّباني البرق الأسطع بمزون الأرياح المالئة لكل متعرض من البحور والأواني ونورك اللامع الذي ملأت به كونك الحائط بأمكنة المكاني . اللّهم صلى وسلم على عين الحق

التي تتجلى منها عروش الحقائق عين المعارف الأقوم صراطك التـام والأسـقم، اللهـم صلى وسلم على طلعة الحق بالحق . الكنز الأعظـم إفـاضتك منـك إليـك أحاطة النور المطلسم، صلى الله عليه وعلى أهله صلاة تعرفنا بها إياه " .

١) يعتقد بأنها أنزلت على الشيخ محمد البكـرى الـذي عـاش فـي القـرن الخامس عشر الميلادي . (١٤٩٢م – ١٥٤٥م) من السّماء على صحيفـة مـن النور : كما يعتقد أن تلاوتها مـرة واحـدة تعـادل تـلاوة القـرآن الكريـم كلـه (٦٠٠٠) ستة ألف مرة . ذكره كتاب زوال الحـيرة للشـيخ أحمـد سـكيرجى نقلاً من كتاب "جواهر المعاني ".

ويقول الشيخ أحمد التجاني فيما نقـل عنـه فـي الكتـاب نفسـه أن "صـلاة جوهرة الكمال علمه إياها النّبي صلى الله عليه وسلم مباشرة ومشافهة " . وهو أعظم ورد في الأوراد التّجانية . ولا تجــوز تلاوتـه إلا مـع الوضـوء الـذي يتـم بالماء . ويعتقد الصّوفى التّجانى بأنه لدى وصـول العـدد السـابع أثنـاء تلاوتهـا بصورة جماعية ، أى في حلقة الوظيفة ، يحضر الرّسول صلى الله عليه وسـلم وخلفائه الراشدون؛ ويظلون فى الحلقة إلى أن تتم التلاوة . لذلك يجـب فـرش قطعة الثوب الأبيض الذى يطلـق عليـه إسـم "الإزار" أو "السفسـارى" باللهجـة التونسية في وسط الحلقة، ويقولون أن الرسول وأصحابـه الكـرام أى الخلفـاء الراشدين يجلسون عليه أثناء التلاوة الجماعية لجوهرة الكمال(٥) .

---

(٥) المصدر السابق .

حـ - وإضافة إلى ممارسة اللازم والوظيفة المنصوص عليهما ، يتعين على التجانيين الاشتراك في هذه الرياضة الروحية التي تقام بعد صلاة العصر في كل يوم جمعة وتنتهي بصلاة المغرب . وفي حالة عجز أحد المشايخ أو مريديهم عن حضور تلك الحلقة يجب عليه تلاوة التهليل أى " لا إله إلا الله"، (١٠٠٠) ألف مرة . وتكرار اسم الجلالة أى "الله" (٥٠٠) خمس مائة مرة مع الاستعانة بالسبحة ، وذلك تعويضاً لما فاتته من بركة ذلك اليوم - الجمعة وممارسته الصوفية .

دخول الطّريقة التّجانية إلى غرب إفريقيا :

تجدر الإشارة هنا، قبل الدخول في تفاصيل انتشار العقيدة التجانية في غرب إفريقيا ، إلا أن هذه الطريقة كحركة صوفية وسياسية في آن واحد قد استطاعت أن تؤسس دولة تحت رايتها مع اكتساب إعجاب وشعبية المسلمين المتحمسين بسبب مقاومتها للاستعمار الفرنسى في بادئ الأمر ، كما فقدت فيما بعد ، تلك الشعبية والإعجاب بسبب الغلو والتعصب . لعب الشيخ عمر تال الفوتي (١٧٩٤م - ١٨٦٤م) دوراً حيويًا دينياً وثقافياً وسياسياً في تاريخ غرب إفريقيا . غير أن دولته التي أسسها بحماس الطريقة التجانية لم تتسم بالاستقرار منذ البداية لأنها تأسست في غير موطنها الأصلى(٦). إذ وقعت تلك الدولة بعد وفاته في عام ١٨٦٤م فريسة نزاعات وخلافات نشبت بين أبنائه

---

(٦) تأسست الدولة العمرية في مالي .

الذين لم يكونوا على نفس القدر من الحنكة السّياسية و المؤهلات الثقافية التي ارتقي إليها مؤسسها . كان هناك شخص يدعى محمد الحافظ بن مختار الذي كان ينتمى إلى قبيلة أداو – على الموريتانية هو أول من اتصل بالشيخ أحمد التجاني ، مؤسس الطريقة فى فاس بالمغرب عندما كان فى طريقه إلى الحجاز للحج في عام ١٧٨٩م ، وأخذ عنه الطريقة التجانية وهو الذى قام بتقديمها إلى غرب إفريقيا من خلال موريتانيا . ومنها إلى السنغال ومالي. وعندما قامت الدولة العمرية الفوتية حظت تلك الطريقة برعاية ودعم قوى من قبل تلك الدولة في غرب إفريقيا .

وقد أصبحت عاصمتها ومدنها الكبرى مثل سيغو ونيورو بنيغرا بمثابة المنافذ التي انتقلت من خلالها تلك الطريقة إلى أماكن أخرى في المنطقة. ففي مدينة نيورو كان هناك شيخ يدعى محمد المختار بن أحمد بيللّى سال (١٨٦٠م–١٩٣٠م) ، هو الذي لعب دوراً رئيسياً في تقديم الطريقة التجانية إلى المناطق الساحلية ؛ انطلاقاً من الغابون وصولاً إلى غانا وتوغو وكوت ديفوار وسيراليون في غرب إفريقيا . ومن ناحية أخرى وصلت الطريقة التجانية إلى مدينة كانو بشمال نيجيريا بواسطة أحد أتباع الشيخ عمر الفوتي ، يدعى الشيخ أحمد باه والمعروف أيضاً بالشيخ سامبا لييلى الفولاني الذي أتى من مدينة نيورو في (جمهورية مالي حاليا). عاش هذا الفقيه الصّوفي، بعد الهجرة التي قام بها هو وجماعة الشيخ عمر الفوتي من مالي ونيجيريا ، في بلدة "دماغرام" بالنيجر حيث قضى قرابة تسع سنوات في بلاط ملكها تميم.

استقدمه الملك عباس ، ملك مملكة كانو ، لـدى السّـماع عنـه باعتبـاره أحـد الأتقياء الصّالحين الذين تستجاب لهم الدعوات وأسكنه في حي يسمّى قوقـى، الذي لايبعد كثيراً عن قصره الملكي بمدينة كانو. تلقى الشيخ أحمد بـاه من الملك عباس الكرم والحفاوة والترحاب ، الأمـر الـذي شجعه علـى الاسـتقرار والبقاء في كانو . هو الذي أدخل الملك عباس وأفراد أسـرته الملكيـة ورجـال حاشيته وعوائلهم فى الطريقة التجانية . كما قام بفتح أعداد كبـيرة مـن الزوايـا التجانية في مدينة كانو وضواحيها؛ يتردد إليها مريدون حتـى الوقـت الحـاضر. استخلف الشيخ أحمد باه لدى وفاته بنتيه هما : أمينة أحمد التجانى وخديجـة أحمد التجاني وأكثر من ثلاثمائة من مريدينه الذين واصلوا جهود نشر الطريقـة التجانية في معظم أرجاء الغرب الإفريقي .

ب- الطرق الصّوفية الفرعية :

ثمة طرق صوفية انبثقت عن الطّـرق الصوفيـة الرئيسـية الثـلاث المذكـورة آنفًا . وأهم هذه الطرق الفرعية هي :

١- المريديـة : أسسـها الشـيخ أحمـد بامبـا بـن محمـد بـن حبيـب اللـه التكروري السنغالي (المتوفـى سـنة ١٩٢٧م). تفرعـت المريديـة عـن الطريقـة القادرية متخذة معظم أتباعها من قبيلة "ولوف" التـي تسـكن جنـوب السـنغال. تأصلت هذه الطريقة بين هذه القبيلة حتى كادت تسـمية المريديـة عنـد أبنائهـا تكون مرادفة للإسلام . اتخذ أتبـاع هـذه الطريقـة مدينـة "طوبـا" فـى السـنغال

كزاوية رئيسية لطريقتهم ومشهد لزعيمهم الشيخ أحمد بامبا . يقيمون بها أعيادهم الإسلامية ، خاصة إحياء ذكرى عودة هذا الزعيم الروحي من المنفي، ويطلقون على هذا الاحتفال اسم "عيد المغلل"، ويوجد بالمدينة مسجد مركزى وضريحا لهذا الزعيم الصّوفي .

استشار ملك لارديور ، ملك مملكة ولوف القديمة الشيخ أحمد بامبا بعد سقوط تلك المملكة على أيدي المستعمرين الفرنسين وطلب إنقاذ شعبه من قبضة الكفرة الغزاة الأجانب . فقام الشيخ أحمد بامبا في عام ١٨٨٦م ، برغبة الملك لارديور الولوفي بتعبئة مريديه وأتباعه وأعلن الجهاد على الفرنسين قائلاً للمجاهدين المسلمين أن الجنة هي مأواهم وأن الجحيم هو مصير الكفرة المعتدين على الشعب الإسلامي في بلادهم . استطاع الشّيخ أحمد بامبا إقناع عدد غفير من المقاتلين القدامي لمملكة الولوف الذين انضموا إلى صفوفهم. وبذلك حازت قبيلة الولوف شخصية إسلامية في ميدان النضال ضد الوجود الاستعماري الفرنسي في غرب إفريقيا . أضمرت السلطات الاستعمارية الفرنسية مخاوفها حيال الشيخ أحمد بامبا ونفوذه في السنغال مما أدى إلى اعتقاله ونفيه إلى دولتى الغابون وموريتانيا في الفترة ما بين أعوام (١٨٩٥م و١٩٠٧م). تمتع الشيخ أحمد بامبا بشخصية جذابة قوية كزعيم روحي واجتماعي وسياسي . شكل هو وجماعته مقاومة شديدة ضد الوجود الاستعماري الأوروبي في السنغال .

ويجدر بالذكر أن حركات المقاومة الإسلامية ضد الاستعمار الأوروبي لاسيما الفرنسي قد اتخذت صور تنظيمات دينية وسياسية وقومية ووطنية

هددت وجود تلك السلطات، مما أدى إلى استعانتها بالأجهزة الاستخبارية والتبشيرية لبلادها بغية قمع تلك الحركات واضطهاد المسلمين في غرب إفريقيا . ثمة وكالة استخبارات فرنسية (Agents Politiques) : قامت باستخدام شتى الوسائل لإخماد نيران المقاومة الإسلامية ؛ منها إغراء بعض زعماء المسلمين في السنغال عن طريق قيام الحكومة الفرنسية ببناء مسجد لأتباع الشيخ أحمد بامبا وتقديم المعونات لمشاريعهم الزراعية ومساعدتهم على الذهاب إلى الأراضي المقدسة لأداء مناسك الحج وتعيينهم القضاة الشرعيين في المحاكم ومنحهم أوسمة وجوائز فرنسية تشجيعية وتشجيع بعض منهم على حيازة الجنسية الفرنسية . لجأ الرجال الذين يعملون لحساب أجهزة الاستخبارات الفرنسية في المناطق الخاضعة لهم في الغرب الإفريقي إلى تعلم اللغات الأهلية المحلية والإلمام بتقاليد وعادات شعوبها . وبهذه الأساليب الخادعة فقط استطاعت تلك السلطات الاستعمارية تثبيت وجودها في المنطقة والتعايش مع شعوبها المسلمين على مر الأزمنة .

٢-الحماوية : أسسها الشيخ حماه الله بن الشريف محمد بن سندنا عمر. ولد الشيخ حماه الله في مدينة نيورو الواقعة اليوم في جمهورية مالي، في السنة ١٨٩٣ الميلادية لأب من أصل البربر وأم فولانية. نشأ الشيخ حماه الله في بلدة نيورو حيث ترعرع وحفظ القرآن الكريم عن ظهر القلب واكتسب العلوم الإسلامية من الفقه واللغة العربية على أيدى علماء نيورو . أخذ الشيخ

حماه الله الأوراد التجانية عن مقدم يدعى الشيخ الأخضرى الّذي كان يعيش معه في نفس المدينة . وعندما توفي شيخه هذا في عام ١٩٠٩م نشب خلاف بين حماه الله وقيادة الطريقة التجانية بسبب ترابطها وصداقتها بالمستعمرين الفرنسيين الأجانب . قامت السلطات الاستعمارية الفرنسية باعتقال الشيخ حماه الله وسط مخاوفها إزاء اندلاع حركة عصيان وثورة شعبية ضدها، ونفته إلى جنوب موريتانيا في عام ١٩٢٥م . ومن هنا اشتدت نيران العداء بين الطرفين(٧) وقامت ثورة شعبية في عام ١٩٣٠م بمقاطعة كايدي الموريتانية ومات أكثر من (٣٠) ثلاثين شخصاً أثناء الهجوم الذي تعرض له مكتب الحاكم الفرنسى من الجماهير . ومن ثم نقل الشيخ حماه الله بن الشريف محمد بن سيدنا عمر إلى ساحل العاج (كوت ديفوار) أملاً في أن يتم إخماد نيران الثورة الشعبية، لكن إزدادت شهرته بين المتحمسين الإسلاميين والشباب والسياسيين الإفريقيين حتى بين ذوى الثقافة الفرنسية من أمثال : جلاندو ديوف ومحمد الأمين جي . وهما من بين الشخصيات المحترمة والبارزة لدى السلطات الاستعمارية الفرنسية في السنغال وهم الذين توسطوا وطلبوا تخفيف حدة ممارسة الاضطهاد ضد الشيخ حماه الله ؛ مما أدى إلى إعادته في عام ١٩٣٥م من المنفي إلى مسقط رأسه نيورو ، بجمهورية مالي . وبعد مرور خمس سنوات على عودة الشيخ حماه الله إلى بلده أى في عام ١٩٤٠م اندلعت نيران الثورة مجدداً بزعامة ثلاثة من أتباعه ضد الفرنسيين وحلفائهم من الإفريقيين، وهاجم الثوار معسكر

(٧) انظر قاموس الشخصيات الإفريقية ل: رور. كنت.

"تنوجب"، وبلغ ضحاياه عدد أربعمائة (٤٠٠) قتيل ، معظمهم من النساء والأطفال. ألقت السلطات الفرنسية بعد هذا الحادث القبض على أكثر من ستمائة شخص من أتباع الشيخ حماه الله ومريديه ومن بينهم ثلاثة من أبنائه الذين أعدمتهم وزجت بالآخرين في السجن ... عندئذ قام الحاكم العسكري الفرنسي الجنرال بواش باعتقال الشيخ حماه الله مرة أخرى ونفيه إلى الجزائر في شمال إفريقيا. هناك قضى مدة سنتين في معتقل وبعد ذلك نقل إلى فرنسا حيث توفي إلى رحمة الله متأثر بالإضراب عن الأكل احتجاجاً على سوء المعاملة والتعذيب اللذين لقيهما على أيدى السلطات الفرنسية .

يجدر بالذكر أن أساليب القمع والاضطهاد التي لجأت إليها السّلطات الاستعمارية الفرنسية أملاً في إخماد روح المقاومة لم تعن إلا على تصعيد حدة التوتر واشتعال نيران العداء بين المسلمين والمستعمرين الغزاة . ففي عام ١٩٤١م بعد وقوع حادث معسكر "تنوجب" وإعدام عدد من أتباع الشيخ حماه، اندلعت ثورة شعبية أخرى في مقاطعة بوبو جولاسو، في فولتا العليا (بوركينافاسو) لقى أثنائها ستة من الجنود الفرنسيين مصرعهم، كما تعاقب وقوع حوادث شغب وثورة في مختلف أرجاء غرب إفريقيا من وقت لآخر حتى عام ١٩٥١م عندما أستهدأت أساليب العنف السياسي والمواجهة المسلحة بين المسلمين والسلطات الاستعمارية ، اندمجت حركات العصيان الجماعية فى الحركات السياسية التى عرفت بحركة التّجمع الديمقراطي التي كانت أكبر حركة مناوئة للاستعمار الفرنسى في غرب إفريقيا في ذلك الوقت .

٣- الأحمدية : أرى أنه من المناسب في اختتام الحديث عن الطرق الصوفية ودورها في مناوأة الوجود الاستعماري في الغرب الإفريقي ، أن أشير إلى الطائفة الأحمدية استكمالاً لذلك الوجود الاستعماري في المنطقة ذاتها .

قام أحد دعاة الإسلام وهو سني المذهب أصلاً، يدعى الميرزا غلام أحمد(١٨٣٩ - ١٩٠٨م) من مقاطعة قاديان بولاية بونجاب الهندية بتأسيس هذه الطائفة مدعيا بأنه هو المهدي الموعود والمسيح المنتظر . فنبذه المسلمون السّنيون واتهموه بالافتراء والاختلاق على الله كذبًا . كان الميرزا غلام أحمد رائد العملاء الذين اعتمدت عليهم الحكومة الإنجليزية الاستعمارية فى فرض سيطرتها على شبه القارة الهندية . وقد جاءت في اعترافاته الشّخصية حيث صرح بأن عائلته كانت حليفة للحكومة الإنجليزية وأنه قام شخصياً بخدمة تلك الحكومة بكل تفاني وإخلاص . إذ يقول : "لقد قضيت معظم عمرى في تأييد الحكومة البريطانية ومؤازرتها . وقد قمت بتأليفات بغية إبطال حجية الجهاد في الإسلام ووجوب طاعة أولى أمرنا الإنجليز . ولو جمعت هذه المؤلفات لملأت خمسين خزانة. وقد نشرت جميع هذه المؤلفات في البلاد العربية ؛ من مصر والشّام وكابل والروم .(٨) وقال :"لم تبخل عائلتى ولم تفن ، ولن تبخل بدماء أبنائها في خدمة مصالح الحكومة الإنجليزية أبداً"(٩).

---

(٨) كتاب ملحق شهادة القرآن الكريم.

(٩) كتاب ترياق القلوب لميرزا أحمد.

ادّعى الميرزا غلام أحمد أن الله قد بعثه مجدداً على رأس تلك المائة التي ظهر فيها . وقال : أعطاني الله علوماً ومعارف تجب لإصلاح هذه الأمة ووهب لي من لدنه علماً حياً لإتمام الحجة على الكفرة . وجعلني من المحدثين الملهمين . وأكمل عليّ نعمه ، وأتم فضله ، وسماني المسيح بن مريم بالفضل والرحمة ، وقدر بيني وبينه تشابه الفطرة ، ووهب لي علوماً مقدمة نقية ، ومعارف صافية جلية ، وصب في قلبي ما لم يحيطوا به علماءً . وفي عام ١٩٠٨م أعلن بأنه نبي . قام خليفته بشير أحمد بتحدي المسلمين السنيين فى الهند قائلاً : "بما أننا نؤمن بنبوة الميرزا غلام ، فالمسلمون لا يؤمنون بتلك النبوة ، فهم كفار بحسب ما جاء في القرآن الكريم ، فإن الكفر ولو بنبى واحد هو كفر بالله . وأن الميرزا غلام أحمد أفضل من بعض أولى العزم من الرّسل " .

انقسم أتباع غلام أحمد القادياني إلى قسمين : قسم اعتبر زعيمهم هذا من دعاة الإصلاح الديني والاجتماعي فحسب . بينما اعتقد القسم الآخر بأنه رسول الله مبعوث من عند الله لاستكمال رسالة القرآن بعد النّبى محمد صلى الله عليه وسلم . يضم القسم الأول جماعة ، تعرف "بالجماعة الأحمدية اللا-هورية" والثانية بالجماعة الأحمدية القاديانية أى غلاة الطائفة . ولدى قيام دولة جمهورية الباكستان الإسلامية في عام ١٩٤٧م بعد استقلالها من الهند اعتبر دستورها "الجماعة الأحمدية " الأقلية غير المسلمة في كيان دولة الباكستان الإسلامية. دخلت الطائفة الأحمدية إلى الجزء الجنوبى الغربي للقارة الإفريقية انطلاقاً من عام ١٩١٦م عندما وصل أول مبشر لها إلى نيجيريا . ووصل أول

مبشر لهذه الطائفة ، ويدعى المبشر عبدالرحمن نيار ، إلى ساحل الذهب (غانا) في عام ١٩٢١م واتخذ مدينة سولت بوند (بركة الملح) التي كانت العاصمة لتلك الدولة المقر الرئيسى للأنشطة التبشيرية لهذه الطائفة . وبحلول عام ١٩٢٧م استطاعت الطائفة بمعاونة السّلطات الاستعمارية الإنجليزية أن تفتح قرابة أربعين فرعاً لها في غانا وضواحيها .

انتشرت الطائفة بين الإفريقيين من سكان المناطق الساحلية لغرب إفريقيا الّذين كانوا وثنيين أو مسيحيين من أبناء قبائل اليوربا في نيجيريا وفانتى في غانا. كان دخولها الأول عن طريق المراسلات البريدية التي يتم عن طريقها إغراء الشباب السذج ذوى الثقافة البسيطة، للتعرف على الطائفة عن البعد وتجنيدهم قبل وصول المبشرين لها إلى المنطقة. ظلت الأنشطة الأحمدية المنحصرة في الأجزاء الجنوبية في كل من نيجيريا وغانا وسيراليون . وكانت العامل الأساسى لتعبئة الولاء والتبعية لصالح الحكومة الاستعمارية الإنجليزية باسم الإسلام في تلك المنطقة. لم يحالف جهود الاستعمار الإنجليزى وحلفائه النجاح في كسب الأتباع بدعوى التجديد والتطور والتقدم . ومع ذلك ظل عدد أتباع الطائفة الأحمدية في منطقة الغرب الإفريقي في حدود نصف مليون نسمة فقط ولهم جهود مستمرة .

٤- البهائية : آثرت أن أشير إلى الطائفة البهائية التي تفرعت عن الطائفة الأم الأصلية أى البابية . ذلك لأن الأولى هي المعروفة في الأوساط الإسلامية في الغرب الإفريقي وهي التي تبذل جهود التنامي في هذه الأوساط لكسب الأتباع

غير أن ربط الأحداث التي أدت إلى ميلاد الطائفة البهائية يستوجب البيان عن الطائفة الأم وهي البابية . تأسست هذه الطائفة التي تعتبر دينا جديداً على يد الشيخ الميرزا على محمد الشيرازى الذي ولد في عام ١٨١٩م ببلدة شيراز في بلاد فارس بجمهورية إيران الإسلامية حاليًا . ادّعى على محمد الشيرازى بأن أصله ينتهى إلى أهل بيت الرسول عليه أفضل الصّلاة والسّلام . عاش طفولته وصباه في جو تسوده الهلاوس الدينية التي كانت منتشرة في بلاد إيران. وكان يصعد على سطح البيت في حر الظهيرة ، ويجلس عاري الرأس يحملق في قرص الشمس يغمغم بالأوراد الصّوفية ويهمهم بالحروف والطلاسم السوريانية حتى يغشى عليه . فإذا جاء الليل عكف على كتب التنجيم والسحر وتسخير روحانيات الكواكب . وكان يلازم شاباً آخر على مثاله يدعى السيد جواد الطباطبائى . وكان يحضه على ممارسة تلك الرّياضات ويهيج أشواقه ويوهمه بأنه يرى من سيماه ومحياه الجميل الصبوح ، أنه سيكون هو المهدي الموعود .

كان هناك شيخ يدعى أحمد الأحسائى وكان يجلس في مسجد كربلاء ، وحوله كوكبة من المريدين يعظهم ويبشرهم بقرب ظهور المهدى الموعود . ويؤكد لهم أن ميقاته قد اقترب وبشاراته أهلت . مات الشيخ أحمد الأحسائى ليخلفه شيخ آخر هو كاظم الرشتى الذي قام بعزف نفس الوتر وبشر بقرب ظهور القائم أى المهدي المنتظر . يذكر مؤرخو الطائفة أن الميرزا على محمد لازم الشيخ الرشتى وتتلمذ عليه لمدة سنتين . وخلالها تعرف على زميل في الدراسة الصّوفية . هو الملا حسين البشروئى . اعتكف الميرزا في المسجد . ودخل الخلوة

ليخرج منها معلناً أنه "الباب" ؛ أى الباب الموصل إلى حضرة الإمام الموعود وأنه وكيله وسفيره بين الخلق . وبعد شهور يعود الميرزا إلى مسقط رأسه شيراز ويلحق به الملاحسين البشروئى . وبينما كان الملاحسين البشروئى ماثلاً أمام حضرة الباب ، إذ أعلن له بغتة أنه هو المهدي القائم ، صاحب الزّمان . ودعاه إلى الإيمان به وكان عمر جنابه حينئذ خمساً وعشرين سنة. وقد اعتبر ذلك اليوم عيد المبعث . وكان البشروئى هو أول المبشرين بظهور المهدي وقد أنعم عليه المهدي بلقب "باب الباب" . وكانت علامة المهدوية الصحيحة عند شيوخهم أن يقدم لهم المهدي تفسيراً جديداً لسورة يوسف وأن يكشف لهم عن حقيقة الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر. فماذا قال الباب الشيرازى ؟ قال إن يوسف هو الحسين. وأن الشمس هي فاطمة . والقمر هو محمد . والأحد عشر كوكباً هم أئمة الحق في أم الكتاب . الباكون سجداً منذ الأزل على سجن يوسف ومقتل الحسين. وخر البشروئى ساجداً لما سمع تفسير الباب وسجد بقية الأتباع خلفه . كان والد الشيرازى محمد الشيرازى يحترف التجارة وتوفي وكان ابنه لايزال صغيراً فكفله خاله آغا سيد علي . وواصل السيد على محمد الشيرازى الاشتغال بحرفة والده . كما عنى في الوقت نفسه بالمسائل الدينية . وكان يبالغ في التقشف ويمكث في الشمس ساعات عديدة حتى تأثر عقله بذلك . قام بزيارة مدينة كربلاء حجاً وتلقى العلوم الدينية الإسلامية على أيدى الشيوخ هناك . عندما عاد إلى مسقط رأسه شيراز دعا دعوة الإصلاح وألقى سلسلة من المواعظ في مسجد الحدادين ، حمل أثنائها على رجال الدين الرسميين ، وكان يناهز حينذاك

السن التاسع عشر من العمر . ادّعى "السيد" على محمد الشيرازى في اليوم الخامس من شهر جمادي الآخر السنة ١٢٦٠هـ الموافق ١١ يونيو العام ١٨٤٤م، بأنه باب الحصول على العلم عن طريقة الحقيقة الألهية، ومن ذلك التاريخ أصبح يعرف عند اتباعه ب "الباب". توفي السيد على محمد الشيرازى متأثراً بإطلاق الرصاص عليه من طائفة بهادران المسيحية بتكليف من السلطان في ٢٧ من شعبان للسنة ١٢٦٦هـ الموافق ٨ من يوليو للعام ١٨٥٠م .

معتقدات البابية : لقّن السيد علي محمد أتباعه عقيدة كونه هو المرآة التي تعكس وجود الله. فيها يستطيع كل إنسان أن يرى الله . جاء في كتابه المشهور "البيان العربي" موجهاً حديثه لأتباعه : "اتخذوا مرآة من أنفسكم ومن أعمالكم حتّى لاتروا في هذا المرآة إلا الشّمس التي تحبون ". وتقوم عقيدتهم على :

١- أن الله خلق العالم بسبع صفات تسمى حروف الحق هي : القدر، والقضاء ، والإرادة ، والمشيئة ، والإذن ، والأجل ، والكتاب .

٢- للعدد عندهم شأن كبير . هم يقدسون العدد (١٩) التسعة عشرة . وهذا العدد يوجد في حسابهم في كلمة "واحد " وكلمة "وجود . "

٣- يقسمون أيام السنة إلى ١٩ شهراً والشهر إلى ١٩ يوماً . وتساوى السنة عندهم ٣٦١ يومًا . يقوم مجلس يتكون من ١٩ عضواً بتدبير شؤون جماعتهم كما يتسلم زكوات أفراد الجماعة بواقع الخمس من قيمة العقار .

٤- الزواج عندهم إجبارى لدى بلوغ سن الحادية عشرة . لايحبذون الطلاق بل تترك للزوجين مهلة سنة لمحاولة التوفيق بينهما . وإذا وقع الطلاق بالفعل يجوز الرجوع فيه بعد مضى تسعة عشر يوماً .

والطلاق تسع عشرة مرة . وزواج الأرامل مباح بشرط دفع دية . ولا يتزوج الأرمل إلا بعد مضي ٩٠ يوماً على وفاة زوجته الأولى. أما الأرملة فيمكن زواجها بعد مضي ٩٥ يوماً على وفاة زوجها الأول .

٥- تفرض هذه العقيدة على أتباعها صوم ١٩ يوماً الذي يمثل أيام الشهر في السنة عندهم. هذا الصوم فرض على كل شخص بلغ إحدى عشرة سنة ولم يتجاوز سنة الثانية والأربعين . ولايجب غسل الجنابة عندهم. لكنّه مستحب .

٦- الحج عندهم هو زيارة البيت الذي ولد فيه "الباب" والمكان الذي حبس فيه عندما اعتقل ، وينبغي أن يقام فيه مسجد وبيوت كبار مريده . ولا تقام عندهم صلاة الجماعة إلا صلاة الجنازة فقط .

٧- يجب قراءة "١٩ "فقرة من كتاب البيان السالف الذكر الذي يعتبر الدستور الأساسي لهذه الطائفة، في كل يوم. وأن يذكر اسم الله ٣٦١ مرة، أي أيام السنة . ويجب دفن الميت في قبر من البلور. يعتقد أصحاب هذه الجماعة بأن "الباب" أى السيد علي محمد الشيرازى قد بشر بظهور نبي جديد بعده وهو بهاء الله . يسميه مريدوه " النقطة الأولى أو الحضرة الأعلى ".

بهاء الله – اسمه الحقيقي هو ميرزا حسين على نورى ، ولد في بلدة "نور" من أعمال مازندر – الفارسية في اليوم الثاني عشر من شهر نوفمبر للعام

١٨١٧م . اعتنق بهاء الله المذهب الجديد الذي أتى به أستاذه "الباب" وهو في سن الثلاثين . أصبح فيما بعد خليفة السيد على محمد الشيرازى (الباب) . وهما لم يتقابلا قط .

العقيدة البهائية : تدعو هذه العقيدة إلى ممارسة الحياة المستقيمة وعدم إيذاء شخصٍ آخر وعدم مقابلة أعمال الظلم بالعصيان ووجوب مراعاة الخير وحده واكراس النفس على إبراء المرضى . هذه هى خلاصة المبادئ التي تنادى بها البهائية . وهي صدى واضح من أصداء العقائد المسيحية . ان القصد الأسمي لهذه الجماعة هو أن يعم الأمن والطمأنينة الجميع . وهذا لايتم إلا باعتناق هذا الدين الجديد . لايعترف هذا الدين برجال الدين . بل يطالب بقيام كل قرية بتخصيص مكان تجتمع فيه لجنة تنفيذية يتكون أعضاؤها من تسعة أشخاص . يعرف هذا المكان ببيت العدل . ومورد هذه اللجنة الأكبر من الهبات التي تدفع لصندوقها ومن الغرامات ومن ضريبة يؤخذ بمقتضاها من كل فرد ما يوازى واحد من تسعة عشر من رأس ماله مرة واحدة فقط ، أهم مؤلفات البهائية هو كتابهم الذي يطلقون عليه "الكتاب الأقدس". ولما كان كتاب "البيان " هو المصدر التشريعي الأساسى للطائفتين البابية والبهائيـة، أراد السيد علي محمد الشيرازى ومريده ميرزا حسين على نورى (بهاء الله) أن يفهم أتباعهما بأن الله أعاد خلقهم بعلم القرآن.(١٠)

---

(١٠) راجع دائرة المعارف الإسلامية تحت هذه المواد.

يرجع تاريخ دخول الطائفة البهائية التي تعتبر امتدادًا لسلفها البابية، إلى منطقة الغرب الإفريقي في أواخر الخمسينيات وبداية الستينيات عندما حصلت معظم دول المنطقة على استقلالها السّياسى . ومثلها مثل الطائفة الأحمدية أو القاديانية السالفة الذكر ، قد حظت بمحاباة وحياد السلطات الاستعمارية، سيما الاستعمار الانجليزى . لم تحرز الطائفة أنجحة ملموسة في الأوساط الإسلامية في المناطق التي دخلتها في الغرب الإفريقي . ذلك لأنها لم تكن تدعو إلى ممارسة طقوسه دينية معينة . إنما همها الأول والآخر هو الدعوة إلى التمسك بنظريات أخلاقية فلسفية عقيمة تفوق مستوى الشعب العادي المتوسط الثقافة .

٥- إمامية ساموری (١٨٣٠-١٩٠٠) م :

قامت هذه الإمامية في الغرب الإفريقي علي يد مواطن غيور لوطنه ودينه يدعي ساموری بن لافیاتوری في منتصف القرن التاسع عشر الميلادى. كان قيامها متزامناً لحركات الجهاد التي قامت علي أيدى المجاهدين الأوائل الذين ظهروا في المنطقة، من أمثال: السلطان منسا موسى الأول مؤسس دولة مالي القديمة والسلطان محمد أسكيا ملك مملكة غاو أو صونغاى والشيخ عثمان دان فودى مؤسس دولة صوكتو والشيخ أحمد لوبّو مؤسس الدولة الماسنوية والحاج عمر تال الفوتي مؤسس الدولة العمرية .

ميلاده ونشأته :

ولد هذا الزعيم الذى تقلدَ فيما بعد لقب " الإمام" ساموري بن لافيا توري في عام ١٨٣٠م في قرية كونيان بجنوب شرق مدينة كانكان الواقعة اليوم في جمهورية غينيا الشعبية . قضى الإمام ساموري توري أوائل شبابه في مزاولة التجارة الحرة كما كانت العادة بين أبناء قبيلة "جولاه" التى ينتمى إليها . اشتهرت أفراد هذه القبيلة باحتراف المهن التجارية كما اتصفوا بالتنقلات عبر مدن وقرى غرب إفريقيا، لا سيما في مناطق السنغال وساحل العاج (كوت ديفوار) وبوركينافاسو وغانا وسيراليون . هم مسلمون أساساً كما يوجد فيهم دعاة نشطون هم الذين نهضوا بنشر الإسلام وثقافته بين أهالي المنطقة . تذكر مصادر تاريخية أنه كان هناك ملك جبار لقبيلة "جولاة" أو " الماندنغو " يدعى مورى أوليسيسيى الذي قام بتأسيس دولة قوية في عام ١٨٣٥م لتلك القبيلة .

وفي إحدى السرايا التي كان يشنها ضد القبائل المجاورة وقعت أم الإمام ساموري توري أسيرة في يد جيشه. أراد ابنها الإمام ساموري تخليصها من قبضة هذا الملك فانضم إلى جيشه تحايلاً للتدريب والوقوف على سر قوته وجبروته . وبعد فترة أصبح ساموري توري جندياً ماهراً وشجاعاً وبطلاً حربياً زاع صيته وازدادت شهرته على طول البلاد وعرضها . فكر ساموري بعدئذ فى إقامة دولة مستقلة تحت إمرته فانفصل عن ذلك الملك وأسس له دولة جديدة في منطقة مجرى نهر النيجر . وبدأ مغامراته الحربية في عام ١٨٦٦م بهزيمة ملك دولة كوما دوغو وحوّل بلدة بيساندوغو إلى عاصمه دولته الجديدة . من هنا أخذ يسيطر على

دويلات قبائل البامبرة الواقعة في المنطقة. بدأ بدولة تورون تليها ونيا ثم دولة واسولونكي وفي عام ١٨٧٣م . استولى على مدينة كانكان وبعد ذلك بسنة واحدة أي في عام ١٨٧٤ تقلد لقب إمام الدين الذي يختصر ب : "الإمام" الذي خوله صفة القيادة السياسية والدينية والاجتماعية . امتد نفوذه حتى شمل منطقة باماكو عاصمة مالي وضواحيها وشرقي مجرى نهر النيجر . كانت إماميته متزامنة مع الإمامية العمرية الفوتية التي كانت تقع على الشمال الغربي لإماميته وتقع دولة فوتا جللو غرباً ودولة كينيدوغو (سيكاسو) شرقاً، بينما تتاخمها غابات سيراليون وليبيريا جنوباً .

مقاومته للاستعمار الفرنسى :

حاول الإمام ساموري التصدى لتوغل الاستعمار الفرنسى الذي أرسى قواعده في السنغال ، في المناطق الخاضعة لسيطرته . كان أول اصطدام بين قواته والقوات الفرنسية في شهر فبراير لعام ١٨٨٢م . أحرزت قوات الإمام ساموري في البداية بعض الانتصارات ضد الفرنسيين. لكنه واجه انتكاسات شديدة في الشهر نفسه لعام ١٨٨٣م عندما احتلت القوات الفرنسية مدينة باماكو عاصمة مالى فجاءت المواجهة العسكرية المباشرة بين الطرفين بقرب مكان يدعى" سيغيرى " .

مهارته الإدارية وقدرته التنظيمية :

تميز الإمام ساموري تورى بالحنكة الإدارية والقدرة التنظيمية في المجال العسكرى. إذ وصفه أحد خصومه من قواد القوات الفرنسية يدعي " بيروز " بأن الإمام ساموري هو الإمبراطور بونابارت[١١] السوداني (الإفريقي) لتفوقه في المهارة والخبرة العسكرية.[١٢]

اتسمت قواته بتنظيم جيد . كانت تتشكل تلك القوات من عشر وحدات تمثل عشر قيادات حربية أو كتائب مترابطة في مختلف حدود إمبراطوريته ومكلفة بحماية سيادة وأمن تلك الدولة والعمل من أجل توسيع نطاقها في الوقت نفسه. تكونت تلك الكتائب الفرعية من القوات النظامية تسمي "سوفا " ووحدات تدريبية تسمى " بيلاكورو" بلغة الماندنغو .

يقوم كل قائد أو حاكم أثناء نشوب حرب بتعبئة الشباب والرّجال عن طريق إجبار كل قرية أو بلدة أو منطقة حسب استعدادها على تقديم عشرة متطوعين للانضمام إلى المقاتلين الذين يتحولون إلى قوات إحتياطية أثناء السلم . يقضي كل واحد منهم مدة ستة أشهر يزاول فيها العمل الزراعي في بلده أو الجهة التي ينتمي إليها . ثمة طاقم للحرس الشخصى للإمام ساموري نفسه قوامها خمسُمائة رجل . يرتدى رجال جيشه ، المكون من القوات

(١١) هو موسس الدولة الفرنسية المعاصرة .

(١٢) راجع كتاب: ألف سنة من تاريخ غرب إفريقيا تأليف: جى. ف. أدى أجاى أيان ايسيى.

النظامية والفرسان والمشاة والحرس الخاص ، ملابس عسكرية تميز كل فئة عن فئة أخرى بزى خاص . تتكون تلك الملابس غالباً من القلنسوة والبدلة والسروال الأصفر الضيق الساق . كان هناك أيضاً مصنع للأسلحة والخبراء من الحدّادين يقومون بتصليح الأسلحة الفاسدة أو تصنيع جديدة منها. كان الإمام ساموري توري مثله مثل قواد الجيوش في الإماميات الإسلامية التي قامت في الغرب الإفريقي، من أمثال الشيخ عثمان دان فودى والشيخ أحمد لوبّو والشيخ عمر الفوتى . إذ لم يألفوا استخدام المدرعات أو المدافع الميدانية وإنما كانوا يعتمدون على الأسلحة النارية من البواريد والبنادق السريعة الإطلاق التي كانت تصلهم من الأوروبيين تجار الرقيق الذين ينزحون سواحل الغرب الإفريقي ثم تحولوا فيما بعد إلى قوات الاحتلال الاستعماري .

قسم الإمام ساموري توري قواته إلى ثلاث مجموعات من حيث استعمال الأسلحة والمواجهة مع الأعداء خاصة مع القوات الاستعمارية الفرنسية . تحمل المجموعة الأولى التي تقع في الصف الأمامي البنادق السريعة الإطلاق التي تقوم بمهمة الدفاع والمقاتلة ، وتليها المجموعة الثانية التي تحمل بنادق ذات طلقات فردية بطيئة وهى التي تقوم بحماية المدنيين وإخلائهم عند الحاجة ، بينما تمثل المجموعة الثالثة قوات الرّدع وشن الهجمات واحتلال مزيد من الأراضى وتمديد حدود تلك الدولة .

كان الإمام وقواته وجماعاته يخلون المناطق التي تزحف إليها القوات الاستعمارية قبل وصول تلك القوات . وبهذه الطريقة استطاع الإمام ساموري

توری تمدید آماد مقاومته الحربية ضد القـوات الفرنسـية التی كـانت تتوقـع أن تنتهي المقاومة في خلال بضعة أسـابيع ، فـإذا بهـا تمتـد لسنوات عـدة قـاربت ثمانية أعوام .

خططه الدّبلوماسية :

قامت السّلطات البريطانية المتواجدة في دولة سيراليون فـي عـام ١٨٧٩م بإرسال بعثة لها إلى الإمام ساموری توری وإلي الإماميـات الإسـلامية الأخـرى في المنطقة لا سيما فوتا جللو ، لإظهار نواياها الحسنة تجاه تلـك الإماميـات. استقبل الإمـام سـاموري تلـك البعثة بحفـاوة وترحـاب حـارّين ، وكـان يريـد بذلك التوقيع بين القوتين المستعمرتين ، أى الإنجليزية والفرنسية ، وإثارة سوء التفاهم بينهما فيما يخص مطامعهما الاستعمارية التوسـعية. ففـى عـام ١٨٨٥م عرض الإمام ساموری للسلطات الإنجليزية موافقتـه علـى قيامهـا ببـث نفوذهـا رسمياً في دولة سيراليون باسم حماية ممثلها ، وهـو حـاكم تلـك الدولـة دون التعرض لأى خطر من جانبه ، شريطة موافقتها هي الأخرى علـى مواصلـة بيـع الأسلحة النارية له .

أحست الحكومة الفرنسية بخطورة موقف الحكومـة البريطانيـة فـي تلـك الصفقة ، واحتياز الأراضى الخاضعـة للإماميـة السـامورية . ومـن ثـم احتـلال مناطق نهر النيجر التي تعتبرها فرنسا مجـال مطامعهـا الاسـتعمارية ، فأرسـلت هي الأخرى بعثة حسن النوايا إلى الإمام ساموری فـي عـامی ١٨٨٦و١٨٧٨م تذكّره بأن هناك اتفاقية مبرمة بينهمـا وبيـن والإماميـة السـامورية لتقـوم الأولـى

بحماية الثّانية عسكرياً عند الحاجة . لم يقتنع الإمـام سـاموری بتلـك المبـادرة من قبل الحكومة الفرنسية وتفّطن بأنها خدعة ومكيدة . غير أنه كـان هنـالك بعض التطورات التي ساعدت الحكومة الفرنسية خلال الفترة نفسها التـى أدت في آخر الأمـر إلـى نجـاح الحكومـة الفرنسـية والقضـاء علـى تلـك الإماميـة . تختصر هذه المبادرة فی الأمور التالية :

أولاً : أخذت الإمامية تزداد قوة ونفوذاً يومـاً بعـد يـوم خـلال الفـترة ذاتهـا وأصبحت قـادرة علـى توجيـه الضربـة ضـد دولـة سـيراليون التـي كـانت تحـت السيطرة البريطانية واحتلالها مما كان سيؤدى إلى حدوث المواجهة بينهما وبين السلطات الاستعمارية البريطانية .

ثانياً : أخذت الحكومة البريطانية، في الحسبان صلاحية الاتفاقية المبرمـة بين الامام ساموری والحكومة الفرنسية التي تقتضی قيام هذه الحكومة بحمايـة الامامية عند الحاجة . لذلك لم تتدخل الحكومة البريطانية عندما أرادت فرنسا القضاء نهائياً على تلك الإمامية بتعزيـزات وإمـدادات عسـكرية مـن فرنسـا بـل شـجعتها علـى المضـى قدمـاً. كـان الإمـام سـاموری خبـيراً عسـكرياً متفطنـاً ودبلوماسياً محنكاً . كما كان ادارياً محترفاً . تميزت عاصمة إمبراطوريته التى أسسها على شكل مقاطعات ومسـتعمرات صغـيرة ، بيسـاندوغو ، بالاسـتقرار والأمن والنظافة النسبية .

ثقافته الدينية :

كان الإمام ساموری إنساناً تقيًا ومخلصاً لدينه الإسلامي على الرغم من أنه لم يكن فقيهًا أو متعمقاً في الثّقافة الإسلامية والعربية من أمثال الشيخ عثمان دان فودی وعمر الفوتی أحمدْ لوبّو . غير أنه كان شغوفاً بنشر الثقافة الإسلامية والعربية بين شعوب المنطقة مما أكسبه لقب إمام الدين والمجاهد لأنه كان يقوم بهدم الأصنام والرموز الوثنية ويبنى مساجد ويشجع الكفار علي اعتناق الدين الإسلامی ، ويحث المسلمين على الامتثال لأوامر الله ونواهيه وفق منطوق كتاب الله وسنة نبيه الكريم بتوجيهات علمائه .

لقد حظي العلماء من أهل اللغة والفقهاء والمفسرين بحفاوة الكرم والاحترام البالغ في ظل حكمه . وحث عامة المسلمين ، لا سيما زعمائهم ، على تثقيف أبنائهم في الدين . وكان ينظم مسابقات في تحفيظ القرآن وبعض العلوم الإسلامية ويخصص جوائز للفائزين . وإلى جانب أنشطة نشر الإسلام كان يقوم بتوعية شعبه خاصةً زعماء القبائل حول ضرورة التضامن والاتحاد ضد الغزاة الاستعماريين الأجانب والامتثال للعدالة الاجتماعية والابتعاد عن رذائل الماديات الدّنيوية التي تعكس نمط الحياة الذي تمارسه غالبية قبيلة الماندنغو التي ينتمي إليها الامام ساموری توری نفسه .

تأسيسه عاصمة جديدة :

نقل الإمام ساموري توری مقر حكمه إلى بلدة داباكالا التي أصبحت العاصمة الثانية لإمبراطوريته. لم تكن " داباكالا" كالعاصمة القديمة – بيساندوغو – من حيث الثروة والتناسب. وقد أصبحت علاقته مع دولة سيراليون التي تصل من خلالها احتياجات دولته من الأسلحة الأوروبية متوترة فيما بعد ، عندما توقف استيراد الأسلحة من خلالها بسبب تدخل الحكومة البريطانية ، فأصبح يعتمد كليًا على الحدادّين المحليين من خبرائه في تصنيع الأسلحة (البواريد) . ومن ثم أصبحت تلك الإمامية التي كانت تعتمد على سواحل سيراليون وليبيريا للحصول على احتياجاتها من الأسلحة ، معرضة لهجوم من قبل الفرنسيين الموجودين في ساحل العاج .

وكانت بجوارها في الشمال الشرقي دولة كونج الإسلامية (شمال غانا حاليًا) بينما تقع دولة أشانتي (غانا) على الجنوب الشرقي . وقع خلاف بين زعماء دولة كونج والإمام ساموری توری وأدى إلى نشوب حرب بينهما فسقطت إمامية كونج . بذلك امتدت حدود الإمامية السامورية إلى الجزء الشمالي لجمهورية غانا حالياً . احتلت القوات الفرنسية مقاطعتي سيغاسو وبوبو جولاسو في عام ١٨٩٨م فوقعت الممرات التجارية الشمالية للإمامية فى يد القوات الاستعمارية مما أدى إلى تعرض الإمامية للنقص في المواد الغذائية والمعدات الحربية والأمن الحدودى . كانت مقاومة إمامية ساموری للمستعمرين أشد وأطول مما شاهدتها تلك القوات الاستعمارية في إفريقيا جنوب الصحراء . مثل ما

عملته إثيوبيا مع الاستعمار الإيطالى بالنسبة لشرق إفريقيا. عجز الاستعمار الغربى عن فرض الاندماج الثقافي الكامل على المجتمعات التي تأثرت بحركات الجهاد في السودان الغربي والأوسط .

لجأ الاستعمار الفرنسي والإنجليزى إلى سياسة " فرق تَسُد " في وجه المقاومة الإسلامية الشديدة التي واجهها. وقد نجحا في إثارة الفتن فى المنطقة وتحريض بعض زعماء تلك الإماميات على البعض الآخر ، وإمداد الأطراف المسلمة المتنازعة بأسلحة لمواصلة الاقتتال فيما بينها . قامت فى أبريل ١٨٩٨م . السلطات الاستعمارية الفرنسية ، بعد هزيمة هذه الدويلات والقضاء عليها بتشتيت شعوبها ؛ ومن ثم فرض الفقر والجهل عليها مع تدمير القرى والمدن وإبادة سكانها بدون هوادة حتى الذين أظهروا لها روح الصداقة وتواطؤا معها ضد بلادهم وشعوبهم . اضطر الإمام ساموري لافياتورى بعد ذلك إلى التراجع والتوجه إلى ليبيريا في عام ١٨٩٨م . لكن تمكنت السلطات الفرنسية أخيرًا من إلقاء القبض عليه فى نفس السنة بعد مواجهة بين الطرفين دامت سبع سنوات ، ونفته إلى دولة الغابون في وسط إفريقيا حيث توفي إلى رحمة الله فى عام ١٩٠٠م بعد مرور سنتين متأثراً بالالتهاب الرّئوى .

دور الرؤية المنامية وانعكاساتها على حركات الجهاد فى غرب إفريقيا:

لا شك أن الأسلوب الأمثل والأكثر ضماناً للمسلم ، والذى يجب أن ينتهجه للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى عن طريق ممارسه الرياضة الروحية،

بعيداً عن الخرافة والشعوذة والسطو والاحتيال ، هو الاعتماد على ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته المهديين ، من ممارسة النوافل والأدعية المأثورة . ولا مانع أن يلجأ الإنسان المسلم إلى هذه الممارسة بأدعية أخرى ذات مضمون سليم ، شريطة عدم حض مسلمين آخرين على الاعتقاد بأن الأدعية المقترحة منقطعة الصحة ومؤكدة الاستجابه عند الله . أما العادات التي شهدناها لدى بعض المشايخ خلال الدراسة التي مررنا بها في تاريخ غرب إفريقيا ، حيث يقوم بعضهم بتحريض أناس آخرين من أتباعهم على الاعتقاد بأنهم أولياء الله ومضمونو الصلة به ، ومن ثم هم مختارون من قبله دون سواهم بأمر إلهي جازم التأكد ، هو تجاوز الحد في عقائد السلف الصّالح مما دعا إليها الرّسول وخلفاؤه الرّاشدون . ذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو القائل فى محكم كتابه العزيز ﴿وِلله جُنود السماواتِ والأرض وكانَ الله عليماً حكيما﴾(١٣) وقال : ﴿.. كَذلكَ يُضِلُّ الله مَنْ يَشاء ويَهدِي مَنْ يَشاء وما يَعلَمُ جُنودَ ربِّكَ إلا هُو ومَا هِيَ إلا ذِكرَى للبَشر﴾(١٤).

فالله سبحانهُ وتعاليٰ قد خصّ لنفسه معرفة من هو جند من جنوده في السماوات والأرض ، وما علينا إذن ، كمسلمين ، إلا أن نجتهد عن طريق تقديم تضحيات بأنفسنا وثروتنا وإكثار النوافل وعمل الخيرات والمحافظة على

(١٣) سورة الفتح آية ٤–٧ .

(١٤) سورة الفتح آية: ٣١ .

حدود شرع الله آملين في أن نكون محسوبين عند الله من جنوده . ولكن الإشهار أمام الملأ بأن الله قد أذن لواحد منا فى منامه أن يعلن حربًا مسلحة بزعم نشر الإسلام ، بعد انقضاء فترة نزول الوحي بوفاة الرّسول صلى الله عليه وسلم ، فإن ذلك من ضروب المجازفات بأرواح المسلمين السذج الأبرياء . إن آيات الجهاد المسلح في الإسلام معروفة كما هي واضحة ومتوقفه على ما فعله الرّسول صلى الله عليه وسلم وفهمه الصّحابة الكرام من بعده . إذن إعلان الحرب في الإسلام ليس قضية مطلقة . وإنما له قواعد ومبادئ يجب أن ينضبط بها المحاربون والمجاهدون والمقاتلون والمتحاربون . وألخص فيما يلي هذه القواعد والمبادئ .

(أ) الظلم . (ب) الاعتداء . (ج) عدم الاقتتال .

(د) التعايش السّلمى . (هـ) عدم إجبار أناس آخرين على الدخول في الإسلام حتف أنفسهم .

القاعدة الأولى " الظلم " : على الأمة الإسلامية إعلان الحرب أو الجهاد المسلّح من جانبها في حالة وقوع الظلم أو الاعتداء عليها . لأن الله سبحانه وتعالي يقول :

(أ) ﴿أُذن للذين يُقَاتَلُون بأنهُم ظُلِموا وإن الله علىَ نصرِهِم لقدِير. الذينَ أُخرِجوا منْ ديَارِهِم بِغَير حق إلا أنْ يقُولوا ربنَا الله.﴾(١٥)

---

(١٥) سورة الحج الآية: (٣٩) .

(ب) وفي الحديث : (عنْ أبِى جَعفرَ، أنهُ سَمِعَ أبا هُريرةَ يَقُول : قَالَ النَّبي صلَى الله عَليهِ وَسلّم : ثَلاث دَعَوات مُستجابات لهنّ لا شَكَ فِيهنَّ دَعوَة المَظْلوم وَدعَوةَ المُسافر ودَعْوَة الوَالِدينْ عَلى وَلَدِهِما (١٦).

والظلم في مفهومه اللغوى والشرعي هو انتزاع حق من حقوق المظلوم بدون رضا النفس . وهو على وجهين : الوجه الإلهي . هو الظلم الواقع من العباد تجاه الخالق وهو الشرك . لأن مبدأ التوحيد حق لله يجب الإيفاء به من كل المخلوق اتجاه خالقه الذى لم يخلق من أحد بل هو خالق كل شىء . فيقتضي العدل عدم إشراكه بأى مخلوق ، أياً كان ، سواء في الاعتقاد أو الاستدلال العقلي ، وحدوث خلاف ذلك لا شك هو ظُلم في حق هذا الخالق ، ألوهيته إذن مبنية على العدل . إذ يقول : ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إلا هُوَ وَالملآئِكَةُ وَأُوْلُواْ العِلمِ قائِماً بِالقِسطِ لآ إِلَهَ إِلا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾.(١٧)

أما بالنسبة للعباد ، فإن الظلم هو الاعتداء ، فهو نوعان ؛ المادى والمعنوى . يشمل الاعتداء المادى انتزاع حق من الحقوق الحسية من الإنسان المظلوم ويشمل : شخصه وممتلكه وعرضه. ويشمل الاعتداء المعنوى : إساءة السمعة والاضطهاد أو قمع الحرية والتعذيب العقلي والنفسى .

---

(١٦) أخرجه أبوداود والترمذى وابن ماجه.

(١٧) سورة آل عمران الآية: ١٨ .

القاعدة الثانية : يحثنا الله سبحانه وتعالى على عدم المبادرة بالاعتداء على أصحاب العقائد الأخرى المخالفة للإسلام ، وأن نعيش معهم في السّلم والوئام. وإن كانوا أقلية يعيشون في أوساطنا فهم أهل الذمة نحميهم ضد اعتداءات خارجية ، ونضمن لهم حقوقهم الكاملة ، ونأكل من ذبائحهم ونتزوج من نسائهم عند الحاجة إلى ذلك لأنهم من أصحاب العقائد السماوية أى من أهل الكتاب ، يقول الله تبارك وتعالي : ﴿لا يَنهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُم أَن تَبَرُّوهم وتُقسِطُوا اليهم إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقسِطِينَ﴾* ﴿إِنَّمَا يَنهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُم فِي الدِّينِ وَأَخرَجُوكُم مِنّ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُواْ عَلَى إِخرَاجِكُم أَن تَوَلَّوهُم وَمَن يَتَولَّهُم فَأُوْلَآئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٨) .

قال تعالي : ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعتَدِينَ* وَاقْتُلُوهُم حَيْثُ ثَقِفتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّن حَيثُ أَخرَجُوكُم وَالفِتنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتلِ وَلا تُقَاتِلُوْهُم عِندَ المَسجِدِ الحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُم فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُم فَاقْتُلُوهُم كَذَلِكَ جَزَآءُ الكَافِرِينَ * فَإِن انتَهَوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لله فَإِن انتَهوا فَلا عُدوَانَ إلا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.(١٩) وانظر حديث أبى هريرة السالف الذّكر .

---

(١٨) سورة الممتحنة الآية : ٨ - ٩ .

(١٩) سورة البقرة الآية : ١٩٠ - ١٩٣ .

إذن ، نحن المسلمين أولى بتجنب إنزال الظلم على أحد من مخلوقات الله ، فشكوى المظلوم مسموعة عند الله تبارك وتعالى .

(ج) ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٢٠)

القاعدة الثالثة : عدم جواز حمل المؤمن سلاحاً ضد أخيه المؤمن؛ لا يجوز للمسلم أن يهجر أخاه المسلم فوق ثلاث ليال فضلاً من أن يعلن الحرب عليه ويسفك دمه ويستحل نساءه . قال الله تبارك وتعالى :

(أ) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ.﴾ وقوله :

(ب) ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا

---

(٢٠) سورة المائدة ، الآية : (٥) .

تَعْمَلُونَ. أُولاَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَهُمْ يُنْصَرُونَ﴾(٢١)

(ب) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَتَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ الله مَعَ الصَّابِرِينَ . وَلاَتَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٢٢)

ج – في الحديث :

١– (عن أنس بن مالك ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال) . (عن أبى أيوب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يحل لأحد أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، يلتقيان فيصدّ هذا ويصدّ هذا ، وخيرهما الذى يبدأ بالسّلام) .

٢– (عن أبي هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (لا تباغضوا، ولا تنافسوا ، وكونوا عباد الله إخوانا) .

---

(٢١) سورة البقرة الآية (٨٤–٨٦) .

(٢٢) سورة الأنفال الآية : (٤٥–٤٧) .

٣- عن معاذة(٢٣) قالت سمعت هشام بن عامر الأنصاري إبن عم أنس بن مالك وكان قُتل أبوه يوم أحد ، أنه سمع رسول الله عليه وسلم قال : (لا يحَل لمسلم يصارم مسلمًا فوق ثلاث ، فإنهما ناكبان(٢٤) عن الحق ماداما علي صرامهما، وإن أولهما فيئاً(٢٥) يكون كفارة عنه سبقه بالفئ وإن مات علي صرامهما لم يدخلا الجنة جميعاً أبداً وإن سلم عليه فأبى أن يقبل تسليمه وسلامه ردّ عليه الملك وردَ علي الآخر الشيطان) .(٢٦)

القاعدة الرابعة : لا يجوز حمل السّلاح لإجبار أناس آخرين على اعتناق دين الإسلام . يقول الحق تبارك وتعالى :

أ- ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بَالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدْ إسْتَمْسَكَ بَالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.(٢٧)

---

(٢٣) هي بنت عبد الله أم الصهباء ، امرأة صلة بن أشيم، كانت من العابدات تحيي الليل لم تتوسد فراشًا بعد الصهباء حتى ماتت سنة ٨٣هـ قال بن معين ثقة حجة.

(٢٤) أى مائلا عن الحق .

(٢٥) "أولهما فيئًا" أى رجوعًا .

(٢٦) أخرجه الإمام أحمد. انظر كتاب الأدب المفرد للإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى.

(٢٧) سورة البقرة الآية: (٢٥٦-٢٥٧) .

ب- ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسلام وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَيُؤْمِنُونَ، وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ (٢٨)

ج- ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ. وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَيَعْقِلُونَ﴾ (٢٩)

د- ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَيُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَيَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾.(٣٠)

القاعدة الخامسة: دور الوساطة . لا شك أن الإسلام يعترف بإمكان نشوب اقتتال فيما بين أمم أو جماعات، مسلمة أو غير مسلمة ، كما رأينا في الآيات القرآنية والأحداث النبوية الشريفة السابقة. لكن إذا وقع ذلك بفعل الشيطان ومغرياته وأوقع أطراف المؤمنين أو فئاتهم في الفتن والاقتتالات، فعلى

(٢٨) سورة الأنعام الآية: (١٢٥) .

(٢٩) سورة الأعراف الآية : (١٤٦) .

(٣٠) سورة الحجرات الآية : (١٠) .

الأمة أو القيادة الإسلامية المسئوولة أن تقوم بدور الوساطة لإقرار الصّلح والسّلم ومنع الظلم، لقوله تعالى :

أ- ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ* إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ واتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.(٣١)

ب- ﴿... فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ* إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.(٣٢)

ج- في الحديث الشريف: عن أبي الدرداء عن النّبي صلى الله عليه وسلم قال: (ألا أنبئكم بدرجة أفضل من الصلاة والصيام والصدقة) ؟ قالوا : بلى ، قال صلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة).(٣٣)

لكن ويا أسفى !! لقد كان كثير من الحروب والاقتتالات التي خاضها ولا تزال تخوضها جماعات من المسلمين في الماضي والحاضر ليست مبنية على أسس إسلامية صحيحة، وبالمثل شهدت منطقة الغرب الإفريقي أنواعاً من

---

(٣١) سورة الحجرات : الآية : (٩-١٠) .

(٣٢) سورة الأنفال : الآية (١-٢) .

(٣٣) أخرجه أبو داود في الأدب والترمذي في الزهد وكلاهما عن أبي معاوية.

مثل هذه الحروب والاقتتالات التي أودت بحياة مئات ألوف من المسلمين الأبرياء والمظلومين الآخرين من جراء احتيالات الدّجالين والمشعوذين ؛ ولقد توارث اللاحقون هذا الداء بعد رحيل الأوّلين . كما ورثوا الكراهية والبغضاء فيما بينهم بادعاءات التقرب الأكثر إلى الله العزيز المنّان والحصول على الكشوفات الرّبانية وهي في الواقع دجالية كاذبة . اختلفوا في الطرائق شططًا، وتهاونوا في الفرائض والواجبات المطلوبة واقتتلوا حول النوافل والمندوبات المباحة . فأباحوا بها سفك دماء المؤمنين الأبرياء السذج . نسوا الله بأفعالهم العمياء . فأنساهم الله أنفسهم حتى وقعوا نتيجة ذلك فرائس الفقر والتخلف إضافة الى الجهل المركب . أشير بهذه المناسبة إلى تلك المسميات والتيارات التي هبت على منطقة الغرب الإفريقى آتيةً من بلاد المشرق العربى عبر مصر والسودان ومن بلاد الشّمال الإفريقى عبر المغرب وموريتانيا . حملت تلك التّيارات في طياتها جراثيم معتقدات مختلفة ؛ انطلاقاً من العقائد المهدية والقادرية والرفاعية والسنوسية والشاذلية والتجانية إلى آخر تلك المسميات المنسوبة إلى أربابها الأوّليين يتوارثها أبناؤها اللاحقين .

بيد أن كتاب الله الذى بأيدينا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو شامل لكل ما يسمو به الإنسان المسلم روحياً وعقلياً .

يقول الله عز ـ جلاله : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ ثم إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾(٣٤)

لماذا إذن لا نلتزم بهذا الكتاب في إنماء أنفسنا روحياً كما نفعل جسمانيا وثقافيًا ؟ إن ظروف حياتنا كمسلمين في الوقت الراهن ، دينياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وثقافياً ، في شكل لا يدع لنا مجالاً لنسمح فيه لأنفسنا أن نقع في مطبات مصيدية . وقد حذرنا مرشدنا الأول وهو الرّسول عليه الصّلاة والسّلام من التقصير فى العمل بكتاب الله وسنة رسوله . حيث قال : تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدى أبداً ما تمسكتم بهما ، كتاب الله وسنتى هذه. وكذلك حثنا على التّمسك بما لا يريبنا واجتناب ما يريبنا . وقد حذرنا الله سبحانه وتعالى من مخالفة الرسول حيث قال : ﴿...قَدْ يَعْلَمُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.(٣٥) ﴿وَمَاءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَانَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾.(٣٦) ﴿وإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.(٣٧) ولله در قائل :

---

(٣٤) سورة الأنعام الآية : (٣٨) .

(٣٥) سورة النور الآية : (٦٣) .

(٣٦) سورة الحشر الآية : (٧) .

(٣٧) سورة الشورى الآية : (٥٢) .

إن العلـوم وإن جلـت محاسنهـا فتاجها ما به الإيمـان قد وجبـا
هو الكتـاب العـزيز الله يحفظـه وبعد ذلك علم فـرج الكربـا
فذاك فاعلم حديث المصطفـى فيه نـور النبوة سنّ الشرع والأدبا
وبعد هـذا علـوم لا انتهاء لهـا فاختر لنفسك يامـن آثـر الطلبـا
والعلم كنـز تجـده في معادنـه يأيهـا الطالب ابحـث وانظر الكتبا
واتل بفهم كتاب الله فيه أنـت كـل العلـوم تدبّره تـرا العجبـا
واقرأ حديث المصطفـى وسلـن مولاك ما تشتهى يقضى لك الأربـا
من ذاق طعماً لعلم الدين سربـه إذا تزيـدّ منـه زاد واطـربـا

وأقول : ان ما ابتلى المسلمون بفتنة شدت وطأتها عليهم أكثر ممـا زاقـوا في تجربة الاختلاف حول الطرق الصّوفيـة ومعتقداتهـا فـي غـرب إفريقيـا ومـا زالوا على ذلك شهودًا . لذا أورد فيما يلي بعض النماذج للتربية الرّوحيـة علي ضوء كتاب الله وسنة نبيه الغراء عسى أن ننتفع بها جميعاً .

١- تزكية النفس من ارتكاب المعاصي وقمع حدة شـهواتها الدّنيوية عـن طريق الالتزام بالأوامر والنّواهى الشّرعية .

٢- الإكثار من أعمال الخير الطوعية وإعطاء الصدقـات وتطهير الـثروات بالذكوات .

٣- الإكثار في قراءة القرآن الكريم ، خاصـة الآيـات الأدعيـة منـه ؛ مثـل الأدعية الواردة في أوائل سورة البقرة وأواخرها وتكرار سورة ياسين .

٤- الاستدامة على الأدعية التي لزمها الرّسول صلى الله عليه وسلم. مثل التي كان يفتتح بها الصلوات والتي يختتم بها ؛ منها :

أولاً :

أ- روى عن علي رضى الله عنه أن النبّى صلي الله عليه وسلم كان إذا افتتح الصّلاة كبر ثم قال : "وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّ صَلاَتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَشَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ " .

ب- وروى مسلم في صحيحه عن علي بن أبى طالب عن رسول الله صلي الله عليه وسلم أنه كان إذا قام إلى الصّلاة قال : "وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّ صَلاَتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَشَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ. اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ ، أَنْتَ رَبِّى وَأَنَا عَبْدُكَ ظَلَمْتُ نَفْسِى وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِى فَاغْفِرْلِى ذُنُوبِى جميعًا إِنَّهُ لاَيَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ وَاهْدِنِى لأَحْسَنِ الأَخْلاَقِ لاَيَهْدِى لأَحْسَنِهَا إِلاَّ أَنْتَ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ والخَيْرُ كُلُّهُ فِى يَدَيْكَ والشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ . تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ اسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ".

ج-كان يقول إِذَا افتتح الصلاة : "سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ تَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ وَلاَ إِلَهَ غَيْرُكَ " .

د- عن ابن المنذر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا كبّر في الصّلاة سكت هنينة قبل أن يقرأ ويقول :

"اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ والمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقَّى الثَّوبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَس ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالمَاءِ والثَّلْجِ والبَرَدِ".

ثانياً :

إن المسنون عقب الصلاة هو الذكر المأثور عن النّبى صلي الله عليه وسلم من التهليل والتحميد والتكبير كما كان عليه الصلاة والسلام يقول عقب الصلاة منها :

أ- كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ دُبُرَ كُلِّ صَلاَةٍ: ((لاَإِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ، لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ، وَلاَ نَعْبُدُ إِلاَّ إِيَّاهُ أَهْلَ النِّعْمَةِ وَالفَضْلِ، وَالثَّنَاءِ الْحَسَنِ، لاَإِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ))(٣٨)

- كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلاَتِهِ؛ اسْتَغْفَرَ - ثَلاَثًا - (أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ)، وَقَالَ: ((اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلاَمُ، وَمِنْكَ السَّلاَمُ، تَبَارَكْتَ وَتَعالَيْتَ يَا ذَا الْجَلاَلِ والإِكْرَمِ))(٣٩)

- قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ((مَنْ سَبَّحَ اللَّهَ (أَيْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ) - دُبُرَ كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، وَحَمِدَ اللَّهَ (الْحَمْدُ لِلَّهِ) ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ،

---

(٣٨) رواه أحمد ومسلم .

(٣٩) رواه الجماعة إلاّ البخاري .

وَكَبَّرَ (اللّهُ أَكْبَرُ) ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ، - تِلْكَ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ-، ثُـمَّ قَـالَ تَمَـامَ الْمِائَـةِ: لاَإِلَهَ إِلاَّ اللّهُ وَحْدَهُ لاَشَرِيكَ لَـهُ، لَـهُ الْمُلْـكُ وَلَـهُ الْحَمْـدُ وَهُـوَ عَلَـى كُـلِّ شَـيْءٍ قَدِيرٌ)) - غُفِرَتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ))(٤٠)

الأدعية وقراءة القرآن :

يجب علينا أن نعرف أن تلاوة أو قراءة القرآن الكريم عند المسلمين تـأتى للأوجه الثلاثة التالية : (١) التعبد (٢) التعليم من الغـير (٣) تعليـم الغـير. وفـى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٤١)

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُم الَّذِى اخْتَلَفُـوا فِيـهِ وَهُـدًى وَرَحْمَـةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٤٢)

وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى ، من ناحية أخرى ، بأن نؤمن بكـل الكتـب المنزلة من عنده والسابقة للقـرآن الكريـم . لكنّـه لـم يستوجب علينـا الالـتزام بشرائع الرّسل المنزل عليهم تلك الكتب ولا الالتزام بمناهجهم في دعوة النّاس إلى الإسلام ، كما لم يترك أمر الدعوة إليه (الإسـلام) والعمـل بشـريعته مطلقًـا بدون انضباط . يقول تبارك وتعالى :

---

(٤٠) رواه أحمد والبخاري .

(٤١) سورة النحل الآية : (٤٤) .

(٤٢) سورة النحل الآية : (٦٤) .

أ- ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِّنَ الدِّينِ مَاوَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَتَتَفَرَّقُوا فِيهِ ...﴾(٤٣)

ب- ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَاءَاتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ..﴾(٤٤)

ج- ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَيَعْلَمُونَ﴾.(٤٥)

د- ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّون﴾.(٤٦)

هـ- ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العِقَابِ﴾.(٤٧)

---

(٤٣) سورة الشورى الآية : (١٣) .

(٤٤) سورة المائدة الآية : (٤٨) .

(٤٥) سورة الجاثية الآية : (١٨) .

(٤٦) سورة الحجر الاية : (٥٦) .

(٤٧) سورة الرعد الآية : (٦) .

أ- نقل عنه صلّى الله عليه وسلم أنه قال: (إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه والثناء عليه ، ثم يصلى على النّبي صلى الله عليه وسلم، ثم يدعو بعد ذلك بما شاء) .

ب- وفى الحديث المروى عنه أنه قال :

(استحب الدعاء جوف الليل الأخير ودبر الصلاة). إن الدعاء وقراءة القرآن طرفى النهار وزلفًا من الليل هو سنة الرّسول عليه الصلاة والسلام وعباد الله الصالحين قديمًا وحديثًا. ومن أراد أن ينتهج منهجه عليه الصّلاة والسّلام، فعل ذلك على الانفراد ، ومن أراد أن يشارك الآخرين فى تلاوة القرآن والأدعية فعل ذلك ، لا ضرر فيه . كان الصّحابة رضوان الله عليهم يجتمعون أحيانًا ويأمرون أحدهم بقراءة القرآن والباقون يستمعون إليه ، كما فعل الرّسول صلى الله عليه وسلم بنفسه .

ج- ثبت فى صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : أفضل الكلام بعد القرآن أربع : وهن من القرآن : سبحان الله ، والحمد لله ولا إله إلا الله . والله أكبر .

فإن منهج الدعوة في الإسلام إذن، شيء معلوم بالمدلول الإلهى والتوجيه النّبوى الشريف . ويشمل ائتلاف قلوب أهل الكتاب أو إقناع الكفرة من أهل الشرك والإلحاد وإنارة عقول المسلمين وازدياد وعيهم الدّينى وابتعادهم عن الشوائب والملابسات في المعتقدات .

وإذا كان هذا هو موقف القرآن والرّسول الذى أنزل إليه هذا القرآن ، من الكتب السماوية السابقة والرّسل والأنبياء السابقين الذين استقلبوا تلك الكتب والشرائع المتضمنة فيها ، فما بالنا بأساليب ومناهج للدعوة يزعم بأنه جاء لنصرة الإسلام لكن القرآن لم يبينّه للرّسول صلى الله عليه وسلم ، كما لم يقم الرسول بمفرده باجتهاد تلقائى ليلقن صحابته المهديين المرشدين أو أهل بيته المقربين تلك الأساليب والمناهج، علماً بأنها تمس صميم الإيمان والعقيدة البحت ؟ إذن إصدار حكم يخص تلاوة وقراءة القرآن الكريم وكيفيتها وآدابها ، أمر يخص خالق القرآن وحده وهو الله سبحانه وتعالى . والمصدر الوحيد الذي يستطيع أن يخبرنا بوجود مثل ذلك الحكم، هو النّبى صلى الله عليه وسلم الذى أنزل إليه القرآن .

أما بالنّسبة للمسلم العاصى الذى يخالف أمر الله ولا يلتزم بشريعة القرآن الكريم فحكمه معروف لدى أهل العلم في الإسلام ، وهو التّوبة إلى الله توبة نصوحاً والامتناع عن التّمادى فى ارتكاب المعاصى . ولم يقل الرّسول صلى الله عليه وسلم بأن القرآن ينزّل اللعنة على المسلم العاصى ، كما لم يقل بذلك الصّحابة رضوان الله عليهم فضلاً عن الأئمة المجتهدين من التابعين وتابعى التّابعين، لأن ذلك، إن فعلوا يكون مخالفًا لمنطق العدالة الإسلامية . والله

يقول وهو أصدق القائلين .قل (يا محمد) ﴿يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَتَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنوبَ جَمِيعًا*إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(٤٨)

﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُم العَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ﴾(٤٩)

وعن أحمد عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما أحب أن لي الدنيا، وما فيها بهذه الآية (قل يا عبادى الذين أسرفوا إلى آخرها) فقال رجل : يا رسول الله فمن أشرك ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : (ألا ومن أشرك - ثلاث مرات) .

وروى أحمد أيضاً عن عمر بن عنبه رضى الله عنه قال : جاء إلى النبّى صلى الله عليه وسلم شيخ كبير يتوكأ على عصا له فقال : يا رسول الله إنّ لي غدرات وفجرات ، فهل يغفر لي ؟ قال صلى الله عليه وسلم : ألست تشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال بلى وأشهد أنك رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : قد غفر لك غدراتك وفجراتك .

كانت الحركات الصّوفية ورجالاتها بمثابة القوة الدافعة للنشاط الإسلامي، كما كانت حيوية هؤلاء الرجالات الدينية أيضًا من أجل كسب ما يلزمهم من خيرات وضمان الحصول على الحماية ضد مكروهات من نوازل

---

(٤٨) سورة الزمر : الآية : (٧٣) .

(٤٩) سورة الزمر الآية : (٥٤) .

الدهر ونوائبه . كان العالِم أو الفقيه فيهم لا يعـرف سـوى مـا تتضمنـه الكتـب الفقهية الخاصة بمذهبه وإرشاداته الصّوفية .

ويلقن بالتالى تلاميذه ومريديه تلك المعلومـات . كمـا لا يتـم أى نشـاط، دينى واجتماعى إلا يطلب المسلمون من هذا الفقيه أو الصوفي بأن يبارك لهـم فيه؛ وبه يستوفقون الله فـي شؤونهم . احـترف هـؤلاء العلمـاء والفقهـاء تلـك المهنة للحصول على دخولهم اليومية للمعيشـة. وليـس هنـاك أى مصـدر آخـر يعتمدون عليه لضمان قوت يومهم .

كما لم تكن لعامة الناس أى ملجأ آخر للإنعاش الفكرى والرّوحـى سـوى الثقافة الصّوفية أو ثقافات الشّعوذة الدّجالية . وهـم عن ذلك غير ملومين (عوام الناس) لأن تلك الثقافات والأعراف هى التي آلت إليهم في لبس الإسـلام عـبر تاريخ المنطقة، انبثاقا عن المغرب العربي والتيار الآتي عـبر السـودان الشـرقي. اعتنقت أعـداد كبيرة مـن شـعوب المنطقـة الدّيـن الإسـلامي علـى ضـوء هـذا المفهـوم الـذي ينطـوى علـى جلـب خيرات ماديـة ورد مكروهـات وإنجـاز انتصارات لدى مواجهات فردية أو جماعية في حروب أهلية وخلافها .

١- أما كأسلوب استقامة الخلق والارتقاء إلى مستوى المسؤولية وتوطيـد العلاقة مع الله من خلال التفانى في عبادات الجـوارح وسـباق عمـل الخـيرات ضمن الباقيات الصالحات، كان للإسلام حظـاً يتوافـر فقـط للنـدرة مـن أعـوام الناس هناك .

٢- وبرغم محدودية الثّقافة الدّينية المتميزة بين إمكان الممارسة الدينية الإسلامية بعيداً عن الشوائب والتشويهات وبين الاعتماد على أصحاب الشّعوذة والدّجل بغية استوحاء إرشادات سليمة ، كان هناك الاتفاق الحاسم بين الشّعوب الإسلامية في المنطقة على عدم الارتضاء بأى بديل آخر عن الإسلام كدين . فكانت الحركات الصوفية في هذا المنوال النواة الأساسية لرمز وحدة الصف والقوة الشعبية لردع الزحف الاستعمارى في غرب إفريقيا ولحماية الثقافة الإسلامية وقيمها الأخلاقية.

٣- علاوة على الفضائل المذكورة التى تميزت بها الطرق الصوفية بكونها طليعة الجهود الفردية في نشر دين الإسلام فى الغرب الإفريقى ، للحق أشير إلى أن هذه الطرق كانت في الوقت نفسه متلبسة بأسلوب أو بآخر في بث أنسجة عقائد خرافية حجبت الانطلاق الفكرى الإسلامى السليم بين شعوبها. فيكفينا عبرة أن نلقي نظرة عابرة على الأمثلة التالية التي اقتبسناها من المصادر الصّوفية الشائعة وذات الأثر القوى على عقول ونفوس قدر كبير من المسلمين في غرب إفريقيا .

أولاً : منزلة القرآن بالمقارنة مع الصّلاة على النبى صلي الله عليه وسلم . جاء في كتاب " جواهر المعانى " لعلي حرازم نقلاً عن الشيخ أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد بن محمد التجانى ، أن لتلاوة القرآن المراتب الأربع الآتية :

أ- يقوم بها الصوفى العارف بالله أى الولي الذى يحاكى أثناء تلاوة القرآن الأصوات التي يسمعها مباشرة من الله سبحانه وتعالى . عندئذ تكون تلاوة القرآن الكريم أفضل من أى ورد أو أى كلام صوفى آخر .

ب- يقوم بها إنسان مسلم يجيد اللغة العربية بحيث يعى ما يتلوه من القرآن وكأنه يسمعه من الله سبحانه وتعالي مباشرة .

ج- يقوم بها إنسان مسلم لا يجيد اللغة العربية . ومن ثم لا يعى ما يتلوه من آيات القرآن لكنه ملتزم بشريعته .

د- يقوم بها انسان مسلم عاص لا يلتزم بشريعة القرآن . ذاك يزداد بعدًا عن الله ولعنة منه بتلاوته القرآن الكريم .

ثانيًا :

منزلة الأولياء بالمقارنة مع منزلة الأنبياء والرسل . يبين الكتاب أيضًا (جواهر المعانى) أن ثمة ثلاث مراتب تشريفية من حيث تبليغ الرسالة الإسلامية .

أ- أعلى هذه المراتب هى المرتبة القطبانية.وتخص الأولياء من الصوفيين وتليها مرتبة الرّسل المبعوثين برسالات إلى أمم ، ثم تليها مرتبة الأنبياء الذين لم يرسلوا ، بالضرورة ، إلى أمم أو برسالات معينة . وأن المرتبة القطبانية ترتفع وتندمج فى المرتبة الألوهية التى يتم تصريف أمور الكون بها . ويقول أن حقيقة القطبانية هى الخلافة العظمى عن الله سبحانه وتعالى فى جميع الوجود جملة وتفصيلاً، فحيثما كان الرّب إلهًا كان الصوفى القطبانى خليفة له فى

تصريف وتنفيذ الحكم على كل من تقع عليه تلك الألوهية؛ ثم قيام القطباني بالبرزخية العظمى بين الله وبقية المخلوقات وذرات الوجود جملة وتفصيلاً. ولذلك يصبح الكون كله كأشباح أخرى، فلا يحصل أى مخلوق على أى شىء من خيرات الدّنيا والآخرة إلا بواسطة قطب الزّمان الذى ينوب عن الله فى تصريف حياة النّاس وشؤونهم اليومية ...." .

قال تعالى :﴿ طَهَ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَان لِتَشْقَى * إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى * تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ والسَّمَاوَاتِ العُلَى﴾(٥٠)

وقال : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(٥١)

﴿وَجَاهِدُوا فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ.﴾(٥٢)

وروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال "يسّروا ولاتعسروا وبشّروا ولاتنفروا" .

---

(٥٠) سورة طه الآية من : (١-٤) .

(٥١) سورة الأنبياء الآية : (١٠) .

(٥٢) سورة الحج الآية : (٧٨) .

اختتامًا لهذا الفصل الذى عالجنا فيه المقاومة الإسلامية ضد الوجود الاستعمارى فى غرب إفريقيا ، أشير إلى أن مؤتمر برلين الذى عقد بدعوة من الزعيم الألمانى ، الأمير أوتوفون بسمارك ،(٥٣) فى الفترة من ١٥ نوفمبر ١٨٨٤ إلى ٢٦ فبراير ١٨٨٥م أدى إلى تقاسم البلدان الإفريقية بين الدول الأوروبية كمستعمرات لها ، فقد وقعت المناطق المتأصلة بالحضارة الإسلامية، انطلاقًا من شمال إفريقيا حتى الجزء الغربى منه ووصولاً إلى مجرى نهر الكونغو نصيبًا للمطامع الاستعمارية الفرنسية . وقامت الحكومة الفرنسية فى عام ١٩٠٤م بناء على ذلك ، بفرض نظام فيدرالى تضمّن سبعًا من مستعمراتها فى غرب إفريقيا ، وهى : السّنغال ، موريتانيا، مالى (السودان)، النّيجر ، داهومى ، ساحل العاج ، غينيا واتخذت مدينة دكار عاصمة لها. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه المناطق الشاسعة التى يبلغ تعداد سكانها وقتئذ خمسة عشرة مليون نسمة ، تعادل تسعة أضعاف مساحة جمهورية فرنسا نفسها .

كانت الحواجز الطبيعية من الغابات الكثيفة والكهوف ووعورة المرتفعات الجبلية والصحارى القاحلة، حجر عثرة أمام الإدارة الاستعمارية الفرنسية لهذه المناطق الشاسعة ، الأمر الذى أدى إلى إطالة عمر المقاومة الإسلامية ضدها

(٥٣) ١٨١٥م -١٨٩٨م كان أول رئيس وزراء، للامبراطورية الألمانية فى الفترة من ١٨٧١م، تحت ذلك الكيان السياسى.

إلا أنها جندت أبناء المنطقة أنفسهم للقضاء على تلك المقاومة وفرضت ضرائب مغرضة على سكانها بواسطة هؤلاء العملاء. كانت التدابير التى تلجأ إليها تلك السلطات لإخماد الانتفاضات قاسية للغاية ولا إنسانية، تصل أحياناً حد الإبادة الجماعية ناهيك عن انتهاك أعراض النساء ، خاصة فى الفترة ما بين ١٩٠٨ و ١٩١٢م آخذة فى الاعتبار تجاربها المريرة فى الجزائر . وكان الأثرياء والملوك والأوتوقراطيون هدفها الأول للقمع والاضطهاد والقتل ، لأنهم يشكلون مصدر القلق والتهديد لاتهامهم بالتعاون سرًا مع الدول الأعداء لفرنسا إبان الحرب العالمية الأولى ، وحاولت الحكومة الفرنسية فيما بعد كسب ود وصداقة أفراد هذه الطبقات العليا عن طريق الإغراءات والرشاوى. ومن هنا نزعت شرائح الشعب ولاءها من تلك الطبقة التى أصبحت أو كادت تصبح حليفة للسلطات الاستعمارية ، فكونت تلك الشرائح جبهات منفصلة للمقاومة بزعامة علماء الدين الذين ارتكزوا ، فى بعض المناطق ، على المفاهيم والبدائل الأربعة التالية :

١- حتمية ظهور الإمام المهدي المنتظر .

٢- حتمية مواصلة الجهاد المسلح ضد الغزاة الكفرة مهما كلفهم ذلك حتى آخر قطرة من دمهم . لعل ذلك ينتهي بظهور المهدي الموعود .

٣- ضرورة القيام بالهجرة إلى مكة المكرمة فى حالة تفوق الكفرة عليهم وهزيمتهم فى نهاية الأمر .

٤- قبول الحل الوسط بالدخول فى المفاوضات مع السلطات الاستعمارية بحيث تسمح لهم تلك السلطات بالجلاء التّدريجي عن المناطق الساقطة على أيديها وباللجوء إلى الاماكن الأخرى البعيدة التى تكون غالبا هى المناطق الجبلية والصحراوية .

كان هذا التوجه الأخير هو ما لجأت إليه المقاومة الإسلامية فى موريتانيا ومالي والسّنغال ، كما حدث بالنسبة للشيخ حماه الله وجماعته فى منطقة نيورو (مالى) فى عام ١٩٠٨ م والشيخ أحمد بامبا بعد عودته من المنفى فى موريتانيا فى عام ١٩١٢م . وقد انتقل الشيخ أحمد بامبا إلى منطقة جوربيل فى السنغال ولجأ إلى تحسين علاقته مع السلطات الفرنسية التي منحته لقباً تشريفيًا كبطل حربى .

أما فى شمال موريتانيا ، حيث كان الوضع مختلفًا ، فهناك قام الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل بتعبئة سكان المناطق النائية فى أعماق الصحراء وإعلان الجهاد ضد الفرنسيين ، واكتسحت مقاومته أجزاء كبيرة حتى وصلت مناطق مجرى نهر النّيجر العليا اعتبارا من عام ١٩٠٥م حتى عام ١٩٠٩م. وقد حظى بمساندة سلطان المغرب فى ذلك الوقت . كما برز مجاهدون آخرون من أمثال محمد المختار بن الحامد والشيخ عابدين بن الشيخ سيدى المختار وأبناء قبيلة أبدوكل حيث استمرت المقاومة طيلة ثلاثين سنة . وفى عامى ١٩١٦م و ١٩١٧م ، شهدت منطقة قبائل الأيير الطوارقية فى النيجير وجنوب الجزائر وشمال مالي آخر مراحل المقاومة الإسلامية

المستعصية ضد الاحتلال الفرنسى فى غرب إفريقيا . وكانت تلك القبائل الصحراوية تعيش فى معزل عن مجتمعات الغرب الإفريقى ومستقلة عن أية سلطة مركزية تنقاد لها ، وكانت تعتمد اعتمادًا كلياً فى معظم الأوقات ، على القوافل التّجارية المارة بمناطقها جيئة وذهابًا بين الجنوب والشمال كموارد اقتصادية مع التأثر بالنواحى الثقافية والدينية والاجتماعية . غير أن الاحتلال الاستعمارى الفرنسى الذى هبّ على تلك المناطق أوقف استمرار تلك الأنشطة التجارية ، فأصبحت الحياة فيها أمرًا صعبًا لسكانها وفقدت تلك المنطقة أمنها واستقرارها أمام الرعاة والأفراد التجار . عاودت غالبية هذه القبائل الصحراوية التجمع مجددًا ، فى عام ١٩١٦م ، لكن هذه المرة تحت راية القيادة الدينية من خلال زعماء منتمين إلى الطريقتين القادرية والسنوسية الصوفيتين ، لا سيما فى مركزها بمدينة أغادس النيجيرية .

لكن نزلت عليها القوات الفرنسية من جديد وحاصرتها فى تلك المدينة لمدة ثلاثة أشهر، حتى استنفدت طاقاتها فى الاستمرار فى المقاومة واحتلت المدينة واعتقلت كافة من فيها من رجال القيادة الدينية وأعدمتهم شنقًا . أما فى منطقة الجنوب الشرقى للسنغال فقد نهض علماء الدين فى أوساط قبائل الماندنغو ببذل جهود مضنية لإدخال أعداد كبيرة من الوثنيين إلى الدين الإسلامى. وفى منطقة كازامانص الواقعة فى الجنوب الشرقى للسنغال، على سبيل المثال، تدفق الناس، جماعات وفرادى إلى الاحتضان الطوعي للإسلام، وفى عام ١٩٠٨م نهض داعية إسلامى هو الشيخ سليمان بياغا

بنشاط الوعظ والإرشاد وبنى مسجدا كبيرًا هناك ، الأمر الذى أغاظ السلطات الفرنسية المستعمرة التى اعتبرت ذلك عصياناً وتمردًا ، فأمرت باعتقاله ، لكنه فرّ إلى "جامبيا". حيث لاحقته تلك السلطات وألقت القبض عليه بتواطؤ السلطات الاستعمارية الإنجليزية . ثم أعادته إلى كازا مانص حيث أعدمته شنقًا . وفى الشمال الشرقى لهذه المنطقة ، امتدت المقاومة إلى مملكة موسى (فولتا العليا)(٥٤) بقيادة داعية إسلامى آخر هو ألاسانى مومونى (الحسن مؤمن) الذى أتى من منطقة رامونغو . واستطاع هذا الداعية إدخال أعداد كبيرة من الوثنيين فى المنطقة إلى دين الإسلام . وكون جماعة من الأتباع ولقّنهم فكرة عدم التجاوب والتعاون مع السلطات الاستعمارية الفرنسية فى مطالبتها الأفراد بدفع الضرائب عن كل من يعولونهم وعن رؤوس المواشى التى يمتلكونها . واستجابة لهذا النداء ، احتشد حوله مئات من الأتباع والمريدين . وكوّن جيشًا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل ، زحفوا إلى مدينة "واجادوجو" ، مركز الإدارة الاستعمارية . واشتبكت قواته مع القوات الفرنسية قبل وصولها إلى المدينة ، وقتلت تلك القوات الاستعمارية أكثر من ألفين من رجاله وأسرته ثم أعدمته شنقًا ، وكان ذلك أحد أسباب انهيار

---

(٥٤) أصبحت الآن : بوركينا فاسو، هى كلمة مركبة من ثلاث لغات. أي الموسية والجولاوية والفولانية . معناها : وطن الرجال النزهاء .

مملكة "موسيى" بعد استسلام ملكها "موغونابا".(٥٥) للسلطات الاستعمارية الفرنسية .

(٥٥) انظر كتاب "The Cambridge History of Africa" :
Volume 7, By A.D. Roberts

الفصل السادس

قضية ظهور المهدي بين الماضى والحاضر

أود فى هذا الفصل أن أعالج هذه القضية بشيء من الإسهاب نظرًا لأهميتها الخطيرة بالنسبة للفكر الإسلامى بصفة عامة، ولما لها من صلة بكافة الثورات الدينية والاجتماعية الإسلامية عبر التاريخ، وانعكاس ذلك على العقيدة الإسلامية فى القارة الإفريقية؛ سواء بصورة سلبية أو إيجابية، إذ أرى فى هذا المقام أن خير ما أفتتح به هذه القضية هو ما ورد فى مطلع كتاب "حقيقة البهائية" للأستاذ/ مصطفى محمود الذى قال:

"ما إن مات محمد عليه الصّلاة والسّلام وتحركت المشاعر بذلك الحب الطبيعى لآل البيت، فقال البعض: إن عليّ بن أبى طالب أولى بالخلافة من أبى بكر، حتى انفتحت ثغرة دخلت منها الفتن. وظلت تتسع وتتسع على مدى الأعوام الألف والأربعمائة، واجتمع الأعداء من كل الملل يرمون الإسلام من هذه الثغرة، ويتسللون منها لهدم البيت بحجة التشيع لآل البيت، وبهذا الحب الزائف؛ قال اليهودى عبد الله بن سبأ أن محمدًا لا يمكن أن يموت، فمحمد إله ، وما كان الأنبياء جميعهم إلا مظاهر الألوهية من آدم إلى نوح ، إلى إدريس ، إلى موسى ، إلى عيسى وإلى محمد . فلما انتقل محمد إلى الرفيق الأعلى قال ابن سبأ : إن الأولوهية حلت فى على، فلما قتل على، قال: لم يقتل

بل هو حى وأنه يجىء فى السحاب وأن الرعد صوته ، والبرق خنجره ، وأنه سيرجع إلى الأرض فيملؤها عدلاً بعد أن ملئت جورًا، وسرت هذه الأفكار سريان النار فى الهشيم، وكانت البذرة الخبيثة التى أنبتت التشيع والباطنية. وافترق التشيع إلى ثلاثين فرقة وأكثر، يقول بعضها بالرجعية، وبعضها بالتناسخ وبعضها بالحلول وبعضها بالتّجسد وبعضها بألوهية على، وبعضها بألوهية الأئمة ، وأكثرها بالإمام المختفى فى سرداب منذ ثلاثة عشرة قرناً ليظهر ويكون مهدى آخر الزمان ...وضاع نقاء التوحيد فى هذا الخليط من التناسخ والحلول والتجسد والفيض والرجعية والغيبة . ولم يأت هذا الخلط اتفاقاً ولم يولد مصادفة وإنما بكيد الكائدين من مختلف الملل التى غلبها الإسلام وأزاحها وكسر سلاحها وحطم عروشها فعادت بدورها تغزوه بأفكارها ومذاهبها لتفرق شمله وتمزق وحدته وتشيع الفوضى الفكرية والبلبلة فى صفوفه.

من كان من المتآمرين على قتل عمر بن الخطاب ؟ إن التاريخ يذكر لنا كعب الأحبار اليهودى ، والهرمزان المجوسى ، وجفينة من نصارى الحيرة ، وأبو لؤلؤ المجوسى إلى آخرهم . لقد اشترك فى قتله كل خصوم الإسلام . وما كانت مذاهب التناسخ والتقمص والحلول والتجسد والغيبة والرجعية إلا بعض التراث الفكرى لهؤلاء الخصوم ، تسللوا به إلى عقول المسلمين لتخريبها . وكان أكثر أهل إيران من الشيعة الاثنى عشرية، ينتظرون ظهور الإمام الغائب المختفى فى السرداب والبقية زرادشتيون ينتظرون ظهور موعودهم "هرام شاه" أو اليهود ينتظرون مسيحهم الموعود والنصارى

ينتظرون نزول عيسى أو المسلمون ينتظرون ظهور المهدى الموعود الى آخره. كل فرقة تنتظر غائباً وترجو لها مخلصاً."(١)

أصل فكرة ظهور المهدى المنتظر :

من البديهى أن كلمة "المهدى" مشتقة من كلمة الهداية . والمهدى لغة هو "المرشد" ويراد به فى هذا المفهوم الإنسان الذى سيأتى فى آخر الزمان ليرشد الأمة المحمدية ويقودها . وليست هناك أية إشارة بهذا المعنى وردت فى القرآن الكريم إلا فى بعض الأحاديث المضطربة والغامضة الفحوى .

على كل ، أود قبل الشروع فى الحديث عن دور علماء المسلمين فى بث أفكار مجيء إنسان فى آخر الزمان وبقرب البعث لينقذهم ويخلصهم من النكسات والمحن والفتن التى يتعرضون لها فى حياتهم الدنيوية ، أن أشير إلى النصوص التالية المقتبسة من كتاب "الإنجيل" كما هو اليوم فى أيدى اليهود والنصارى . ثم أترك الحكم فى يد القارئ الكريم ليستنتج بنفسه ماذا تكون مصادر هذه الفكرة وكيف تسربت إلى الفكر الإسلامى فى وقت لاحق :

أولاً : جاء في الآية ٢٤ للإصحاح الثالث عشر لإنجيل مرقص؛ "وأما فى تلك الأيام بعد ذلك الضيق فالشمس تظلم والقمر لا يؤتى ضوءه ونجوم السماء تتساقط والقوات التى فى السموات تتزعزع . وحيئذ يبصرون ابن إنسان

---

(١) راجع كتاب "حقيقة البهائية" لمصطفى محمود .

آتي في سحاب بقوة كثيرة ومجد . فيرسل ملائكته ويجمع مختاريه من الأربع الرياح من أقصى الأرض إلى أقصى السماء." .

ثانياً : في الإصحاح الخامس عشر الآية ١٩ لنفس الإنجيل نجد ما يلي : "ثم إن الرب (عيسى) بعد ما كلمهم ارتفع إلى السماء وجلس على يمين الله " .

ثالثاً : وفي الاصحاح الثالث عشر لانجيل لوقا : "وانما اعلموا هذا أنه لو عرف رب البيت في أية ساعة يأتي السارق لسمر ولم يدع بيته ينقب . فكونوا أنتم إذًا مستعدين لأنه في ساعة لا تظنون يأتي ابن الانسان" .

رابعاً : ومن آية ٤ الى آية ١٥ للإصحاح السادس عشر لإنجيل يوحنا جاء فيها : " لكنى قد كلمتكم بهذا حتى إذا جاءت الساعة تذكرون أنى أنا قلته لكم . ولم أقل لكم من البداية لأني كنت معكم . وأما الآن فأنا ماض إلى الذي أرسلني وليس أحد منكم يسألني أين تمضي . لكن لأني قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم . لكني أقول لكم الحق انه خير لكم أن أنطلق . لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى - ولكن إن ذهبت أرسله إليكم . وحتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية وعلى برّ وعلى دينونة . أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بي . أما على برّ فلأني ذاهب إلى أبي ولا ترونني أيضاً . وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين . إن لي أمورًا كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملون الآن . وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية . ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم .كل ما للأب هولي . لهذا قلت إنه يأخذ ممّا لي ويخبركم . بعد

قليل لا تبصروننى . ثم بعد قليل أيضاً تروننى لأنى ذاهب إلى الأب". انتهت النصوص .

لقد تسربت هذه الفكرة ومثيلاتها إلى الفكر الإسلامى من خلال مدونات الكتب الأدبية والتاريخية الإسلامية المتأثرة بالأحداث المأسوية التى شهدها العصر الأول للإسلام وأدت إلى اغتيال كل من عمر بن الخطاب الخليفة الثانى ، عثمان بن عفان الخليفة الثالث وعلى بن أبى طالب الخليفة الرابع للرسول صلى الله عليه وسلم ، وتداعيات تلك الأحداث من المواجهات والاقتتالات الدامية التى نشبت بين الصحابة والتابعين من أبنائهم لحاقًا . فكان من الطبيعى فى وجه تلك الصدمات واليأس والمآسى الكامنة فى لا شعور الأمة الإسلامية وانعدام ثقتها بالقيادة الماثلة أمامها بسبب تلك النوازل ، أن يأخذ أبناؤها يبحثون ، بالانقياد الفكرى والشعورى ، عمن يأخذ بيدهم ويكون لهم موجها فى مسيرة حياتهم اليومية دينًا ودنيا .

وفى خضم هذه الأحاسيس المؤلمة المتراكمة جاءت أدوار الأدباء وعلماء الدين الماهرين فى نسج القصص الدينية الترفيهية، الذين قاموا بإدخال هذه الأفكار إلى عقول المسلمين التى أرادوا بها تثبيت أفئدة المؤمنين بأن الأمل ما برح قائمًا فى مجىء من يأخذ بيدهم وينجيهم من الاضطرابات النفسية ومن البلبلة الفكرية إلى بر الأمان . ومن خلال هذه المصنفات الأدبية والدينية ظهرت شخصية المهدى المنتظر أو المهدى الموعود . انعكس ذلك الأدب الدينى فى هذا المضمار ، على الأوضاع الدينية والسياسية والاجتماعية

المتداخلة والسائدة فى أجواء المجتمعات الإسلامية فى ذلك الوقت . ومن ثم انقسم هذا الفكر تلقائيًا إلى اتجاه أهل السنة الذى يدّعى الحياد عن التأثر بالانزلاق السياسى الدنيوى البحت واللجوء إلى الاقتداء بسلوكيات السلف الصالح فحسب . بينما مالت الفئة الأخرى تجاه شيعة على بن أبى طالب ورأت ضرورة الدفاع عن الحقوق الدينية والسياسية لصالح من يستحقها من ذرية الرّسول عليه أفضل الصّلاة والسّلام . وقديماً ذكرت المصادر الدينية والتاريخية أنه من إرهاصات قيام الساعة والبعث بانقضاء حياة الإنسان على وجه هذا الكوكب الدنيوى ، أن ينتشر الفساد والانحلال الخلقى بين الناس، حينئذ يبعث الله رجلاً ينحدر من عترة النّبى صلى الله عليه وسلم يدعى المهدى الذى يتولى منصب خليفة الرسول فى الأرض، يملأ الأرض عدلاً ويحارب الجور الذى يكون قد تفشى بين الناس . وتستغرق فترة حكمه ما بين سبع وتسع سنين . وسيصلى خلفه عامة المسلمين ومن بينهم المسيح عيسى عليه السلام . إلى آخر مثل تلك المقولات المتشابهة .

نرجع الآن إلى المصادر التى تناقلت مثل هذه التنبؤات للوقوف على ما يطمئننا إسناده إلى الّرسول صلى الله عليه وسلم :

١- جاء فى كتاب "التذكرة القرطبية" للإمام عبد الله بن محمد بن أحمد بن أبى بكر الأنصارى الخزرجى الأندلسى ما يلى : روى عن حذيفة أن الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر فتنة تقع بين المشرق والمغرب فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم السفيانى من الوادى اليابس فى فورة ذلك حتى ينزل دمشق حيث يبعث

جيشين : جيشاً إلى المشرق وجيشاً إلى المدينة . فيسير الجيش نحو المشرق حتى ينزل أرض بابل فى المدينة الملعونة والبقع الخبيثة أى مدينة بغداد . قال : فيقتلون أكثر من ثلاثة آلاف ويفتضون أكثر من مائة امرأة . ويقتلون بها أكثر من ثلاثمائة كيس من ولد العباس رضى الله عنه ، ثم يخرجون متوجهين إلى الشام ، فتخرج راية المهدى من الكوفة فيلحق ذلك الجيش بهم على ليلتين فيقتلونهم ثم لا يفلت منهم مخبر ويستنقذون ما فى أيديهم من السبى والغنائم ، ويحل جيشه الثانى بالمدينة فينتهبونها ثلاثة أيام ولياليها ثم يخرجون متوجهين إلى مكة حتى إذا كانوا بالبيداء يبعث الله جبريل عليه السلام ويقول له اذهب فأهلكهم فيضربهم برجله يخسف الله بهم وذلك قوله تعالى : "ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب "(٢) فلا يبقى منهم إلا رجلان . أحدهما بشير والآخر نذير. وهما من جهينة. ومن هنا قيل عند جهينة الخبر اليقين . لفظ الحديث الذى رواه ابن مسعود أطول من هذا الحديث . وفيه أن محمداً بن عروة السفيانى يبعث جيشاً إلى الكوفة يضم خمسة عشر ألف فارس ويبعث جيشا آخر يضم خمسة عشر ألف راكب إلى مكة والمدينة لمحاربة المهدى ومن تبعه . فأما الجيش الأول فانه يصل إلى الكوفة فيغلب عليها ويسبى من النساء والأطفال ويقتل الرجال ويأخذ ما يجد فيها من الأموال ثم يرجع فتقوم صيحة بالمشرق فيتبعهم أمير من أمراء بنى

---

(٢) الآية : ٥١ من سورة سبأ .

تميم يقال له شعيب بن صالح فيستنقذ ما فى أيديهم من السبى ويرجع إلى الكوفة . وأما الجيش الثانى فإنه يصل إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فيقاتلونها ثلاثة أيام ثم يدخلونها عنوة ويسبون ما فيها من الأهل والولد ثم يسيرون إلى مكة لمحاربة المهدى ومآ معه فإذا وصلوا إلى البيداء مسخهم الله أجمعين . وفى رواية ابن ماجه زيادة : فلا يبقى منهم إلا الشريد الذى يخبر عنهم . وروى ابن ماجه أيضاً : إذا طلعت الرايات السود من ، قال : المشرق ، فإنه خليفة الله المهدى فبايعوه اذا رأيتموه ولو حبوا على الثلج . وفى رواية أخرى له ، أى ابن ماجه ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : يخرج أناس من المشرق فيوطنون للمهدى كرسى سلطانه. وفى رواية لأبى داود : يخرج رجل من وزراء المهدى يقال له الحارث بن حارث على مقدمته رجل يقال له منصور يوطئ أو يمكّن لآل محمد صلى الله عليه وسلم كما مكنت قريش للنبى صلى الله عليه وسلم ويجب على كل مؤمن نصرته أو إعانته . والله تعالى أعلم .

٢- روى أبو داود عن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: يكون فى أمتى المهدى إن قصر المهدى فسبع وإلا فتسع وينمو المال فى زمنه ويكثر عنده . يقول الرجل : فيقول يا مهدى اعطنى فيقول خذ . وفى حديث أبى داود أيضًا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: المهدى منى واسع الجبهة أقنى الأنف يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جورًا وظلمًا يملك سبع سنين . وفى رواية أخرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : ليصيبنّ هذه الأمة بلاء حتى لا يجد الرجل ملجأ يلجأ إليه من الظلم فيبعث الله تعالى

رجلاً من عترة أهل بيتي يملأ به الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جورًا وظلمًا يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض . لا تدع السماء من قطرها شيئًا إلا صبته مدرارًا ، لا تدع الأرض من نباتها شيئا إلا أخرجته حتى يتمنى الأحياء العيش ، يمكث على ذلك سبع سنين أو ثمان سنين أو تسع سنين ، ولو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطّول الله تعالى ذلك فيه رجلا من أمتى أو من أهل بيتى يواطىء اسمه اسمى واسم ابيه اسم ابى . أخرجه الترمذى بمعناه. وقال حسن صحيح . وفى رواية له أيضًا لو لم يبق من الدنيا الا يوم واحد لطّول الله ذلك اليوم حتى يليهم رجل من أهل بيتى تكون الملائكة بين يديه ويظهر الإسلام ويكثر فيه المال ويأتيه الرجل فيقول يا مهدى اعطنى فينحى له فى ثوبه ما استطاع أن يحمله . وفى رواية للحافظ أبى نعيم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال المهدى من أهل البيت يصلحه الله عز وجل فى ليلة أو قال فى يومين . وفى رواية ابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لا يزداد الأمر شدة الدنيا إلا إدبارًا ولا الناس على الدنيا إلا شكًا ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس ولا مهدى إلا عيسى ابن مريم ، قال الإمام القرطبى إن هذا لا ينافى ما تقدم فى أحاديث المهدى. لأن معناه تعظيم شأن عيسى بن مريم لعصمته وكماله فلا ينافى وجود المهدى ، كقولهم لا فتى إلا على . إذ يؤيد ذلك حديث المهدى من أهل بيتى يملأ الأرض عدلاً وإنه يخرج مع عيسى عليه الصلاة والسلام ليساعده على قتل الدجال ببابل من أرض فلسطين وأنه يعم هذه الأمة ويصلى خلفه عيسى بن مريم .

٣- تقدم حديث أبى هريره وغيره أن المهدى يبايع بين الركن والمقام . وروى أنه يخرج فى آخر الزمان رجل يقال له المهدى من أقصى المغرب يمشى والنصر بين يديه أربعين ميلاً ، راياته بيض وصفر و اسم الله الأعظم مكتوب فيها . فلا تهزم له راية وقيام هذه الرايات وانبعاثها من ساحل البحر بموضع يقال له ماسة من جبل المغرب فيعقد هذه الرايات مع قوم قد أخذ الله تعالى لهم ميثاق النصر ، والظفر أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون . وأطال فى الحديث إلى أن قال فيأتى الناس من كل جانب ومكان فيبايعونه يومئذ بمكة بين الركن والمقام وهو كاره لهذه المبايعة الثانية بعد البيعة الأولى التى بايعه الناس فيها بالمغرب . ثم إن المهدى يقول: يا أيها الناس اخرجوا إلى قتال عدو الله وعدوكم فيجيبونه لا يعصون له أمرًا ، فيخرج المهدى ومن معه من المسلمين من مكة إلى الشام لمحاربة عروة ابن محمد السفيانى ومن معه من كلب لم يتبدد جيشه ثم يوجد عروة السفيانى على أعلى شجرة على بحيرة طبرية والخائب من خاب يومئذ من قتال كلب ولو بكلمة أو بتكبيرة أو صيحة ؛ وفى الحديث أن حذيفة رضى الله عنه قال : يا رسول الله كيف يحل قتلهم وهم مسلمون موحدون ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم إنما إيمانهم فى ردة لأنهم خوارج ويقولون برأيهم أن الخمر حلال ومع ذلك أنه يحاربون الله . قال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ

يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ إلى آخر الآية(٣). وفى الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : ستفتح بعدى جزيرة تسمى بالأندلس فيتغلب عليهم أهل الكفر فيأخذون أموالهم وأكثر بلادهم ويسبون نساءهم وأولادهم ويهتكون الأستار ويخربون الدّيار وترجع أكثر البلاد فيافى وقفارا ويتخلى أكثر النّاس عن ديارهم وأموالهم فيأخذون أكثر الجزيرة ولا يبقى إلا أقلها ويكون فى المغرب الهرج والخوف ويستولى عليهم الجوع والغلاء وتكثر الفتنة ويأكل النّاس بعضهم بعضاً فعند ذلك يخرج رجل من المغرب الأقصى من ولد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المهدى القائم فى آخر الزمان وهو أول أشراط الساعة. أردف الإمام القرطبى قائلاً : وقد شاهدنا جميع هذه الأمور وعايناها فى بلادنا إلا خروج المهدى . فى حديث شريك أن الشمس تكسف مرتين فى رمضان قبل خروج المهدى .

٤- روى ابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوّله الله عز وجل حتى يملك رجل من أهل بيتى جبل الديلم والقسطنطينية، وإسناده صحيح . ثم إن المهدى ومعه جيش من المسلمين يأتون إلى مدينة أنطاكية وهى مدينة عظيمة على البحر فيكبرون عليها ثلاثة تكبيرات فيقع سورها فى البحر بقدرة الله عز وجل فيقتلون الرجال ويسبون النساء والأطفال ويأخذون الأموال ثم يملك المهدى

---

(٣) الآية ٣٣، سورة المائدة .

أنطاكية ويبنى بها المساجد وتعمر بعمارات أهل الإسلام ، ثم يسيرون الى رومية ويقتلون بها أربعمائة ألف مقاتل ويفتضون بها سبعين ألف بكر ويستفتحون المدائن والحصون ويأخذون الأموال ويقتلون الرجال ويسبون النساء والأطفال ويأتون كنيسة الذهب فيجدون الأموال التى كان المهدى قد أخذها أول مرة وهذه الأموال هى التى أودعها فيها ملك الروم قيصر حين غزا بيت المقدس فوجدت فى البيت المقدس هذه الأموال فأخذها واحتملها على سبعين ألف عجلة إلى كنيسة الذهب بأسرها كاملة كما أخذها ما نقص منها شىء فيأخذ المهدى تلك الأموال ويردها إلى بيت المقدس . زاد فى رواية : قال حذيفة : يا رسول الله لقد كان بيت المقدس عند الله عظيمًا جسيم الخطر عظيم القدر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو من أجل البيوت ابتناه الله على يد سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام من ذهب وفضة ودر وياقوت وزمرد . وذلك أن سليمان بن داود عليهما السّلام سخر الله تعالى له الجن فآتوه بالذهب والفضة من المعادن وآتوه باليواقيت والجواهر والزمرد من البحار يغوصون كما قال تعالى : " كل بناء وغواص" فلما آتوه هذه الأصناف بناه منها فجعل فيه بلاطاً من ذهب وبلاطاً من فضة وأعمدة من ذهب وأعمدة من فضة وزينة بالدر والياقوت والزمرد . وسخر الله تعالى له الجن فآتوه حتى بنوه من هذه الأصناف ، قال حذيفة : فقلت يا رسول الله وكيف أخذت هذه الأشياء من بيت المقدس ؟ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن بنى اسرائيل لما عصوا وقتلوا الأنبياء سلط الله تعالى "بختنصر" وهو من المجوس وكان ملكه سبعمائة سنة

وهو قوله تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأسٍ شَدِيدٍ﴾(٤) فدخلوا بيت المقدس وقتلوا الرجال وسبوا النساء والأطفال وأخذوا الأموال وجميع ما كان فى بيت المقدس من الأصناف المذكورة فاحتملوها على سبعين ألف عجلة حتى أودعوها أرض بابل فأقاموا يستخدمون بنى اسرائيل وينهكونهم الحرى والعقاب والنكال مائة عام ثم ان الله عز وجل رحمهم فأوحى الله إلى ملك من ملوك فارس أن يسير إلى المجوس فى أرض بابل وأن يستنقذ من فى أيديهم من بنى إسرائيل فسار إليهم ذلك الملك حتى دخل الى أرض بابل فاستنقذ من بقى من بنى إسرائيل من أيدى المجوس واستنقذ ذلك الذى كان فى بيت المقدس ورده إليه كما كان أول مرة . وقال لهم يا بنى إسرائيل إن عدتم الى المعاصى عدنا إليكم بالسبى والقتل وهو قوله تعالى : عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا.(٥) يعنى إن عدتم إلى المعاصى عدنا عليكم بالعقوبة . فلما رجعت بنو إسرائيل من بيت المقدس عادوا إلى المعاصى فسلط الله تعالى عليهم ملك الروم قيصر فهو قوله تعالى : "فإذا جاء وعد أولاهما" الآية . فغزاهم فى البر والبحر وسباهم وقتلهم وأخذ أموالهم ونساءهم وأخذ جميع حليّ بيت المقدس واحتمله على سبعين ألف عجلة حتى أودعه كنيسة الذهب فهو فيها الآن حتى يأخذه المهدى ويردّه الى بيت المقدس ويكون

---

(٤) الآية : ٥ سورة الإسراء .

(٥) الآية : ٨ سورة الإسراء .

المسلمون ظاهرين على أهل الشرك بعد ذلك ، فعند ذلك يرسل الله ملك الروم وهو الخامس من أهل هرقل والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى .

يا أخى القارىء المسلم الكريم الغيور على دينه ! لا أجد نصيحة أكثر تناسبًا أسديها إليك حول قضية المهدى المنتظر سوى استدعائك إلى الاستماع إلى التعليق التالى للأستاذ محمد وجدى الذى قال : "إن الناظر إلى الأحاديث السالفة الذكر من أولى البصائر ، لا يجد فى صدره حرجاً من تنزيه رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى قال عنه تبارك وتعالى : "لا ينطق عن الهوى " من أن يكون هو قائل هذه الأحاديث . فإن فيها من الغلو والخبط فى الحقائق التاريخية الثابتة والإغراق فى المبالغة والجهل بأمور الناس والبعد عن سنن الله المعروفة التى لا تجد لها تبديلاً . فالذى يشعر به المطلع على هذه الأحاديث لأول وهلة هو أنها أحاديث موضوعة تعمد وضعها رجال من أهل الزيغ أو المشايعين لبعض أهل الدعوة من الراغبين فى الحصول على الخلافة والقيادة السياسية فى بلاد العرب أو المغرب العربى . فإن تعجب من ذلك فأعجب منه الذى يعتقد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المؤيد بالوحى يقول : إن ملك بختنصر ملك سبعمائة سنة ؟ وكلنا يعلم أن ملك بختنصر الذى حكم بابل لم يزد فى ملكه أكثر من ثمانى وأربعين سنة لا غير. زد على ذلك أن بعض تلك الأحاديث تذكر دولة القياصرة بالقسطنطينية عند خروج المهدى المزعوم على ما كانت عليه حالتها فى عصر الواضعين للأحاديث .

ومعلوم أن دولة قياصرة القسطنطينية انقرضت من القرن الخامس عشر الميلادى ولم تكن بها أية كنيسة تحتوى على ما جلبه قيصر فيها من أموال بيت المقدس . علاوة على ذلك لقد ذكرت الأحاديث أن نبى الله سليمان عليه السلام قد قام ببناء بيت المقدس بالذهب والفضة واليواقيت والأحجار الكريمة . إنّ أسلوب سرد هذه الأساطير يؤكد لأى ذى بصيرة نافذة وتفكير سليم أنّ واضعى هذا الكلام قد تعمدوا الحط من شأن الإسلام والمسلمين وقوتهم العقلية . وقد ضعف كثير من أئمة المسلمين أحاديث المهدى الموعود المنتظر . واعتبروها من الأمور التى لا يجوز النظر فيها شرعاً . وإنى أردت يا أخى الكريم ، بإثارة هذه القضية لفت الانتباه إليها لما كان لها من دور فى تضليل جماهير غفيرة من الأبرياء المسلمين فى الماضى والحاضر والمستقبل والله على ما نقول شهيد . لا شك أن هذه الأحاديث من الإسرائيليات الكثيرة التى تسربت إلى العقيدة الإسلامية بقصد وضع المسلمين فى حالة التكلف المستديم . فعلى المسلمين أن ينتبهوا لذلك ويستيقظوا من سبات كان أمده طويلاً(٦).

---

(٦) يمكن الرجوع إلى دائرة معارف القرن العشرين للبيان المطول عن هذا الموضوع.

عقيدة المهدى وأثرها في غرب إفريقيا:

من المعتقد أن يسبق ظهور المهدى المنتظر زمان يكثر فيه الظلم والاضطهاد والفتن والاضطرابات . وقد تضمنت الفكرة أن ظهور المهدى يكون دالاً على قيام الساعة . ورأى الشيخ عثمان دان فودى مؤسس دولة صوكتو العثمانية فى غرب إفريقيا ، من ناحيته ، أنه ستكون هناك إرهاصات لظهور المهدي وهى التى سماها أشراط الساعة . ففى كتابه "أمر الساعة وأشراطها" (١٨٠٨م) أورد تلك المؤشرات . وذكر أنها قد ظهرت بالفعل باستثناء مؤشرة واحدة فقط . ومن بين ماظهر حدوث زلزلة الأرض وكسوف الشمس وخسوف القمر . وهذا أيضاً قد حدث . الشيء الوحيد الذى لم يحدث هو الحرب التى سيخوضها ذو القرنين(٧). واستشهد الشيخ دان فودى بأقوال الإمام السيوطى بأن المهدي سيظهر بحلول سنة (١٧٨٦-١٧٨٨هـ) غير أن الشيخ دان فودى قد أشار الى أن كتب الأحاديث النبوية لم تتضمن أية إشارة محددة لوقت انتهاء العالم وقيام الساعة .

ومن المهم أن نلاحظ أن جهاد الشيخ عثمان دان فودى صادف بداية القرن الثالث عشر الهجرى ، وهو القرن الذى يعتقد فيه البعض فى العالم وفى

---

(٧) أى الأسكندر الأكبر .

غرب إفريقيا على وجه الخصوص بظهور المهدي . وحملت هذه الفكرة بعض أتباعه على الاعتقاد بأنّه هو ذلك المهدى المنتظر . لكن الشيخ أنكر هذا الادعاء فى أكثر من مناسبة ، ونفى انتساب تلك الفكرة إليه ، رافضًا أن يوصف بالمهدى المنتظر ، الأمر الذى ساعد ، إلى حد كبير على تحقيق النجاح لحركته وجهاده . ولو كان قد قبل بالفكرة بأنه هو المهدي لعزل عنه كثير من تلاميذه وأتباعه لأنهم يعتبرون أن المهدى لا بد أن يكون عربياً وقريشيًا ، بل ومن عترة النبى صلى الله عليه وسلم . ويذكر لنا بعض المصادر التاريخية أن ثمة حوالى عشرة تاليف للشيخ حول هذه القضية ، كانت لها انعكاسات كبيرة على المجتمعات الإسلامية فى منطقة غرب إفريقيا حيث أعلن فى المرحلة الأولى أن المهدي سيظهر فى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى ، اعتمادا على ما نقله عن الإمام السيوطى . ثم نجده بعد الانتصار الذى أحرزه ضد أعدائه ، يعدل عن رأيه حول تحديد زمن ظهور المهدي، والتمس العذر عما سبق أن قاله فى هذا الخصوص .

ومن ناحية أخرى قام الدكتور فتح المصري والأستاذ محمد أحمد الحاج ببحث سبب هذا العدول عن الرأى الذى لجأ إليه الشيخ عثمان دان فودي، فقالا : ((إنه فى فترة ما بين (١٧٩٥م-١٨٠٨م) كان الشيخ أقل تحمساً للجهاد الذي خاضه لعدم تأكده من إحراز النصر، مما دفعه إلى الاستفادة بكل الوسائل المتاحة لضمان تحقيق ذلك النصر . وعندما شعر بعدم توفر

ضمانات الأمان لمستقبل الجهاد أخذ يرسخ الاعتقاد فى حتمية قرب قيام الساعة وانتهاء العالم)) .

ومن ناحية أخرى يصرح الدكتور محمد أحمد الحاج بأن مصنفات الشيخ عثمان فى فترة ما قبل سقوط مدينة (الكالاو) التي كانت معقل أعدائه، كانت تؤكد على تمسكه بالأحاديث الدالة على التعجيل بظهور المهدى واقتراب قيام الساعة ، بينما نجد أن مؤلفاته لفترة ما بعد سقوط تلك المدينة قد أشارت إلى الابتعاد عن محاولات تحديد وقت قيام تلك الساعة . وذلك نظرا لاعتزاله الحياة المترفة واللجوء إلى التصوف والارتقاء ، عبر الاهتمام بالتثقيف الذى تشبث به الشيخ وربطه بالنجاحات التى أحرزتها حركته للجهاد . وكان هناك ميل من بعض أتباعه إلى الاعتقاد بأنه هو ذلك المهدى المنتظر الذى بشر بعض العلماء بظهوره فى آخر الزمان. غير أنه فند تلك الادعاءات الصادرة عن أصحابه حينًا باللطف وأحياناً أخرى بخشونة الشجب ، بل اكتفى بصفة المجدد الذى قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم ، بأنه سيظهر على رأس كل مائة سنة ليأخذ بيد المسلمين الذين يريدون الارتقاء بشأن دينهم وإصلاح أمورهم ، وفى ذلك أسدى الشيخ عثمان النصيحة الآتية : "اعلموا أيها الإخوة الأعزاء وبالله التوفيق أن الهدف من وضع هذا الكتاب هو استنكار اتصافي بالمهدي المنتظر، والتوضيح بأن الله سبحانه وتعالى قد أنعم عليّ بصفات الإمام المجدد وفق ما جاءت به كتب أسلافنا الصالحين وعلمائنا المسترشدين".

وقد نقل عن الإمام عبد الرحمن السيوطى فى كتابه "العرف الوردى فى أخبار الإمام المهدى" أنه قال : جاء فى كتاب "الفتن" للعلامة نعيم بن حماد، أحد الرواة الثقاة ومفسر كتاب صحيح البخارى أنه قال: حدثنا أبو يوسف المقدسى عن محمد بن الحنفى أن الإمام المهدى سيظهر فى سنة ١٢٠٠ الهجرية . وذكر أيضاً نقلاً عن أبى قتيل أن ظهور المهدى سيكون فى سنة (١٢٠٤ الهجرية) وأنه سيظهر فى زمان يحدث فيه الفساد الخلقى والعقيدى، وأن هذا سيحذو حذو الرسول صلى الله عليه وسلم ولن يعصى الله أو رسوله". وذكر الشيخ عثمان فى مكان آخر أن المهدى المنتظر سيكون من ذرية السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأنه سيحصل على الولاء من بلاد المغرب ومكة المكرمة. كما أشار إلى قول ابن المسعود الذى ذكر أن الإمام المهدى سيظهر فى بلاد المغرب . وذكر فى مكان آخر أن الإمام المهدى سيظهر فى المدينة المنورة . وفى كتابه " نصائح الأمة المحمدية" اقتبس حديثًا للرسول صلى الله عليه وسلم ورد فى سنن ابن ماجه أن الإمام المهدى سيحمل اسم محمد وسيكون آخر من يظهر من الخلفاء . واعتذر الشيخ فى كتابه "تنبيه الفهيم" الذى استكمله فى شهر شعبان (١٢٢٣ الهجرية الموافق ٨ أكتوبر ١٨٠٨م) عن كل الأقوال التى صدرت عنه بخصوص الإمام المهدى وظهوره فى سنة (١٢٠٠ الهجرية) فقال : "إن كل ما ذكرناه فى مرات عديدة أثناء توجيهات أنشطة الوعظ والإرشاد أمام الناس حيث قلنا إن وقت ظهور المهدى قد حان انطلاقاً مما أسند إلى الإمام عبد الرّحمن السيوطى كانت كلها شائعات . لقد بدت لنا هذه الحقيقة بعد

التحقيقات التى قمنا بها مؤخراً . ونود أن نؤكد فى هذا الصدد أننا لا نعرف على وجه التحديد الوقت الذى سيظهر فيه هذا الإمام ". واصل الشيخ عثمان دان فودى مناقشة فكرة ظهور المهدي حتى سنة (١٢٢٦ الهجرية الموافق لعام ١٨١١م) عندما ألف كتابه "تحذير الإخوان من ادعاء ظهور المهدي فى آخر الزمان" وجاء كتابه " التنبيه " أساسًا لتفنيد ادعاء أحد علماء الطوارق من سكان منطقة "مغنغ" بأنه المهدى الموعود . وقال أن هذا المدعى بالمهدى يفقد الصفات الأساسية التى يجب أن يتصف بها المهدي . وأمر بإلقاء القبض عليه وإعدامه .

رفض الشيخ عثمان فى الكتاب نفسه أن يسند إليه الاتصاف بالفكرة المهدية . وقال: أن المهدي لا بد أن يأتى من نسل السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، أي من أحفاد الرسول، وأن يكون والده يحمل اسماً مثل اسم والد الرسول وتحمل والدته اسمًا مثل اسم والدة الرسول ، وأنه سيولد فى المدينة المنورة . واستمر قائلاً : اعلموا أيها الأخوة الكرام أننى لست الإمام الذى يدعى المهدى الموعود . واننى لم أدّع المهدية، إن ذلك ادعاء فاسد تناقلته ألسنة الناس بدون سند يحتج به . إننى حذرتكم مرارًا وتكراراً فى بعض كتاباتي بالعربية والعجمية أن تمتنعوا عن تلك الادعاءات الكاذبة . كيف أدعى بأني المهدى وأنا ممن ولدوا فى بلدة

"مرتا"(٨). بينما سيكون الإمام المهدى مولوداً فى المدينة المنورة . وأردف قائلاً : لست المهدى الموعود والمنتظر على الرغم من أننى أرتدى ملابسه وأنا ذلك السحاب الذى سيسبق ظهور المهدى المنتظر ، تلك إذن هى صلة القرابة التى تربطنى به .

ونجد من ناحية أخرى أن الفكر السائد فى الغرب الإفريقي هو الاعتقاد بظهور المهدي فى مكة المكرمة على قرب قيام الساعة . وهناك سيلتف حوله بقية من المسلمين وينضم إليه عيسى بن مريم عليه السلام ويؤمهم فى الصلاة، ثم يخوض المعركة الفاصلة ضد الكفرة الفاجرة . وعند ما ظهر الاستعمار الأوروبى فى بداية القرن التاسع عشر الميلادى اعتقد معظم المسلمين فى هذا الجزء من العالم ، أن الوقت قد حان للتوجه إلى مكة المكرمة استعداداً لاستقبال المهدى الموعود الذى يخوض المعركة المرتقبة ضد الدجال وأتباعه لأن الحياة الدنيوية لهذه النداءات فوصلت شريحة منهم إلى الأرض المقصودة؛ بينما ترسب الباقون دون بلوغ الغاية فى الطرائق شططاً . وذكرت بعض المصادر أن عدد أبناء غرب إفريقيا الذين وصلوا الى السودان الشرقى واستوطنوها قد بلغ أكثر من خمسة ملايين نسمة.

---

(٨) هى البلدة التي ولد فيها الشيخ عثمان بجمهورية النيجر .

ومن ناحية أخرى ، حمل الإيمان بقدوم المهدي بعض رجال الجهاد الإسلامى فى غرب إفريقيا على الاعتقاد بأنهم هم المهدى الموعود . ومن ثم انقادت لهم جماعات بالانخراط فى المجازفات التى أودت بحياة مئات منهم باسم الجهاد . فعلى سبيل المثال ظهر شخص يدعى الشيخ أمدو (أحمد) الذى ادعى بأنه هو المهدى الموعود وعرف بأمادو المهدى . وقد قام هذا الشخص فى بلاد فوتا تورو بشمال السنغال بتأسيس مدينة "ورومهدى " أى مدينة المهدي ، شهدت تلك المدينة ويلات كثيرة من جراء ذلك فى القرن التاسع عشر الميلادى إلى أن قضت عليه السلطات الاستعمارية الفرنسية وحطمت تلك المدينة ، كما وقعت مأسوية أخرى فى عام ١٩٨١م فى نيجيريا ، لاسيما فى أشهر مدنها الشمالية انطلاقاً من كانو ، بقيادة الشيخ محمد مروا الملقب بمالم ميتسينى وقد عجزت الشرطة عن إخماد نيران تلك الفتنة إلا بتدخل رجال القوات المسلحة وسقطت ضحاياها عشرات المئات .

الفصل السابع

الجنس الفولانى واللغة الفولانية

يليق بهذا المقام أن أذكر بأن أي بحث جدي أو دراسة مستفيضة عن تاريخ الإسلام وانتشاره فى غرب إفريقيا ، لا تستكملان بدون إيماء الى الجنس الفولانى أو القبيلة الفولانية نظرا للأدوار الهامة والملموسة التى نهض بها أبناء هذا الجنس أو القبيلة فى تاريخ المنطقة وفى مجال الثقافة العربية والدعوة الإسلامية ومن بينها الأمور التالية :

أ- على أيديهم قامت أقدم إمبراطورية أو مملكة عرفت فى الغرب الإفريقى ، جنوب الصحراء الكبرى . وهى إمبراطورية التكرور ، نسبة الى مدينة حملت هذا الاسم (التكرور) منذ الألفية الأولى قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام . وقد اشتهر هذا الاسم على مدار تاريخ المنطقة عند المؤرخين والجغرافيين العرب والمسلمين . فلفظة "الفلاته" مرادفة للتكرور حتى أصبح أى إنسان ينتمى إلى الغرب الإفريقى يعرف بـ .. تكرور (المفرد) والجمع على تكارير(١) .

ب- على أيديهم قامت الممالك والإمبراطوريات التى تأسست باسم الإسلام فى منطقة الغرب الإفريقى. ولقد طبقت تلك الممالك والإمبراطوريات أحكام الشريعة الإسلامية ، مثل مملكة الإمام سليمان بال أى السليمانية

---

(١) راجع كتاب ممالك وإمبراطوريات غرب إفريقيا للبروفسيرين جى.تى.سترايد وس. أفيكا.

ومملكة الشيخ عثمان دان فودى التى تعرف أيضاً بالإمبراطورية العثمانية، ومملكة ماسينا التى كانت بقيادة الإمام أحمد لوبوّ والمملكة العمرية الفوتية التى نهضت فى القرن التاسع عشر الميلادى . كانت أولى تلك الإمبراطوريات الإسلامية هى التى أسسها الإمام ورجابى فى حوالى سنة ١٠٤٠ الميلادية .

ج- هو الجنس الجسور الوحيد الذى يربط بين الأجناس - العربى البربرى والزنجى من سكان الشمال الإفريقى وصحراء إفريقيا الكبرى . اشتهر هذا الجنس بحيازة الثروة الحيوانية وبالتالى احترف أبناؤه تربية الماشية بصفة أساسية. بذلك حازت القبيلة بشقيها "الفولبى والتوروبى" القوة الاقتصادية للمنطقة المعتمدة على تربية الحيوان والزراعة قبل العصر الحديث.

د- هو الجنس الوحيد ، من بين مختلف قبائل منطقة الغرب الإفريقى ، الذى ينتشر فى مناطق السودان الغربى والأوسط، انطلاقاً من جمهورية موريتانيا غرباً حتى جمهورية السودان شرقاً أى من المحيط الأطلسى إلى البحر الأحمر .

هـ- نهض أبناؤه بدور حيوى فى نشر الدين الإسلامى بين سكان غرب ووسط إفريقيا . كما نشروا ثقافة تحفيظ القرآن الكريم بين سكان المنطقة ذاتها . وهم الأكثر انقيادًا لهذا الدين والأكثر إسهاماً فى نشر ثقافته من خلال الأدب التأليفى وعن طريق المأثورات الشفوية المنقولة فى إفريقيا جنوب الصحراء .

و- معلوم أن أبناء هذا الجنس هم أول من قاموا بالجهاد الإسلامى المسلح والمعلن فى منطقة الغرب الإفريقى ، دفاعاً عن هذا الدين الحنيف ضد طغيان الحكام والملوك الوثنيين الذين فرضوا بطش سيطرتهم ونفوذهم على الشعوب المستضعفة فى تلك المنطقة فأسقطوا أنظمة الحكم الطاغية وحرروا الشعوب المستضعفة المقهورة. كما حاربوا الالتباسات المصطنعة الدخيلة على الإسلام من بقايا الشرك والوثنية . وكذلك مقاومتهم للاحتلال الاستعمارى الإنجليزى والفرنسى والبرتغالى وثقافتهم التبشيرية المسيحية التى سجلها تاريخ المنطقة بأحرف من نور . وكانت التجربة القاسية والأشد ضراوة التى مرت بها السلطات الاستعمارية فى تاريخ الاحتلال هى مقاومة الإمامية العمرية الفوتية (١٨٦٢-١٩٠٣) . التي استمرت قرابة سبع سنوات. ولم تستطع القوات الفرنسية التغلب عليها إلا بعد وصول إمدادات وتعزيزات عسكرية من فرنسا والاستعانة ببعض القبائل المحلية التى جندتها تلك السلطات الاستعمارية الفرنسية . وتجدر الإشارة إلى أن الوضع البيئى للمناطق النائية التى كانت القوات العمرية متمركزة فيها بعيداً عن المناطق الساحلية الخاضعة لسيطرة سلطات الاحتلال ، قد حال دون تقدم قواتها نحو المعاقل التي ينطلق منها الجيش العمرى .

نعود الآن بعد هذا العرض الموجز لنطرح تساؤلات طالما جاءت على ألسنة الباحثين وأقلامهم ، حول الأصل العرقى للقبيلة الفولانية . فمن هم الفولانيون ؟ نجمل فيما يلى مختلف الآراء عن الأصل

العرقى لهذه القبيلة قبل الدخول فى التفاصيل والوقوف على الرأى المرجح، لقد قيل إن نسبهم راجع الى الأصول الآتية :

أ - قدماء المصريين .

ب- بنى إسرائيل ، أولاد يعقوب ابن نبى الله إسحاق عليه السلام .

ج- العرب - وصولاً الى أهل بيت الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، عن طريق فاطمة الزهراء ، نجلته الكريمة .

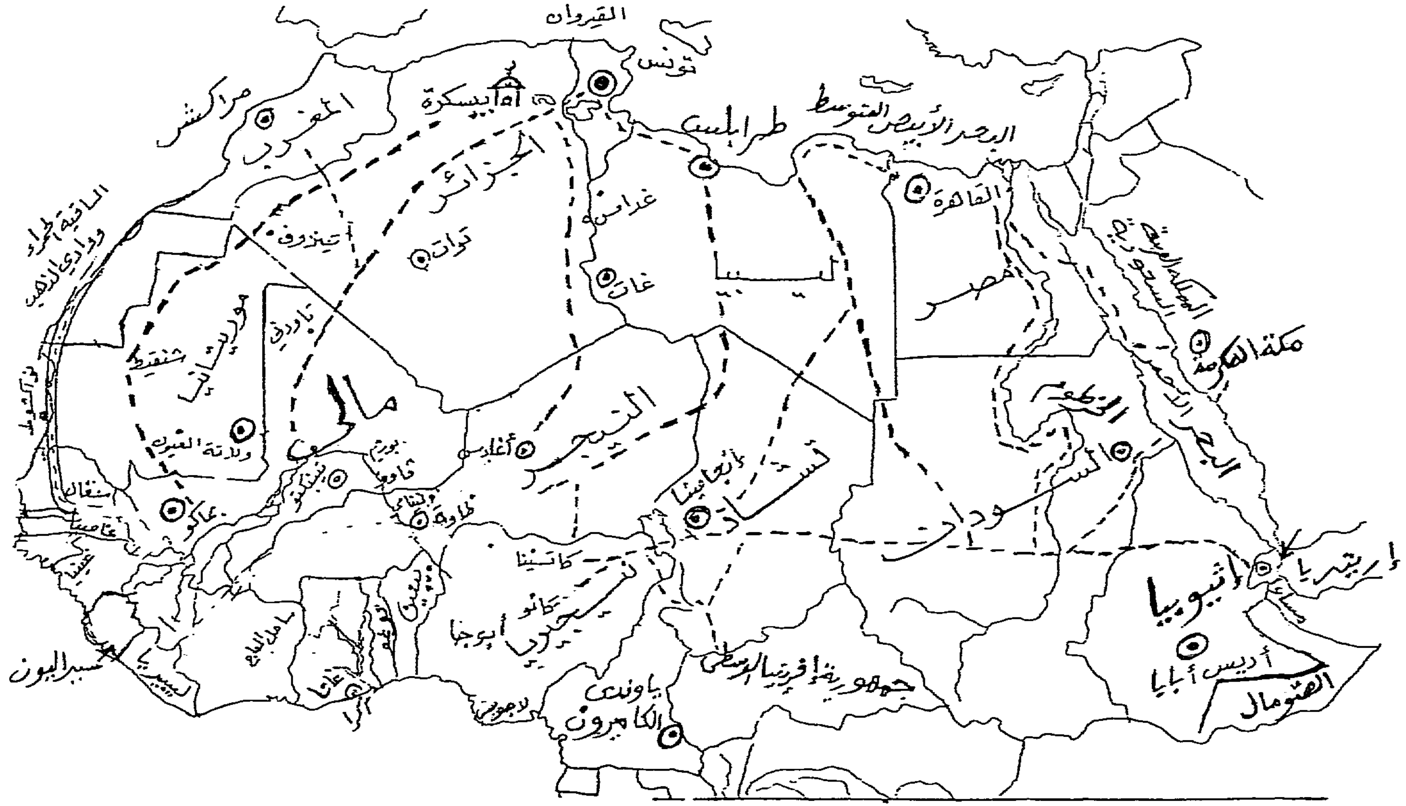
د- الحبشة سكان منطقة القرن الإفريقى فى شرق إفريقيا .

هـ - الهنود من الذين نزحوا عن شبه قارتهم الهندية إلى القارة الإفريقية عبر المحيط الهندى والبحر الأحمر بحثاً عن العشب والأراضى الخصبة للزراعة وتربية الحيوان .

و - البربر ، من قبائل شمال إفريقيا والصحراء .

ومن الواضح أن اختلاف المؤرخين حول نسب هذه القبيلة أو أصلها يرجع إلى أسباب عدة أهمها :

قسمات الجسم والملامح الشخصية حيث يتميز الإنسان الفولانى بطول القامة ونحافة القوام أو توسط الجسم ، والوجه المستطيل والأنف المستدق واللون الفاتح أو اللون الأسود مع لمعان البشرة واتساع مقلتى العينين . ويغلب على أبناء هذه القبيلة الحياء المفرط وهدوء الطبع ونقاء الروح وعفة النفس وشدة الغيرة . وصفهم الرحالة ابن بطوطة ، فى كتابه رحلة ابن بطوطة ، وجونسون فى كتابه



١- ممرات حركة الهجرة

٢- ضريح التابعي الجليل عقبة بن نافع الذي يقع في مكان يعرف بسيدي عقبة.

٣- المدن الرئيسية.

الإمبراطورية الفولانية وكذلك حسن إبراهيم حسن والرحالة بارث ، قائلين في جملتهم : إن الفولانيين ، قوم شبه بيض سحنتهم(٢) عربية ، يعتمدون دائماً على أنفسهم ويعملون غالباً بالرعى وعلى الخصوص رعى الأبقار . والجهاد تراث يعتزون به . وإنهم كثيرو الميل لبعضهم البعض عند المحن والشدة والحروب ، لا يرتبطون بأرض لا تعرف الإسلام بل يعملون لإدخال الإسلام فيها أو الهجرة منها في حالة عجزهم . ويعيشون في بلاد السودان منذ آلاف السنين ، وأنهم سريعو الانصهار في المجتمعات التي يعيشون فيها . وفي الغالب ينسون لغتهم بعد انفصالهم عن الوطن الأم أو عشائرهم . فمثلاً يوجد في نيجيريا أعداد كبيرة من أبناء هذا الجنس نسوا لغتهم الفولانية لكنهم احتفظوا بملامح شخصيتهم الفولانية .

تاريخ وأصل الجنس الفولاني :

ثمة أقاويل أسطورية كثيرة صدرت حول أصل هذه القبيلة . اتخذت هذه الأساطير وجوهًا عدة . أهمها :

أولاً – الأساطير الشعبية التي تقول : أ – هناك رجل طرده إخوانه من المجتمع الذي كان يعيش فيه حقداً عليه فأخذ يهيم في غابات نائية ومنعزلة يعاني من الوحدة ويكابد ويلات العطش . فإذا بروحاني يظهر أمامه ويخرج من الأرض ماء ، يأمره بأن يغترف منه ويسقى به سائر حيوانات البر ، ونفذ

(٢) كتاب "الإمبراطورية الفولانية" لجونسون .

الرجل تعليمات الروحانى إلى أن وصل الدور على البقرة ، عندئذ أمره الروحاني بأن يقود بقرته ويطوف بها فى كافة أرجاء العالم المعمور ، شريطة أن لا ينسى إشعال النار عند غروب الشمس فى كل مكان يحل به . بذلك ينعم بالثروة الحيوانية وينال السعادة السرمدية ويتخذ البقرة شعاراً ورمزاً له فى الحياة الدنيا . وكان هذا الرجل هو الجد الأول للقبيلة الفولانية .

ب- هاجر سيدنا عمر رضى الله عنه من أرض مصر بعد فتحها متوجهًا إلى مملكة ماسينا الفولانية بغرب إفريقيا وأدخل ملكها دين الإسلام. وبعد مرور وقت وجيز غادر سيدنا عمر المملكة وخلف وراءه صحابيًا جليلاً يدعى عقبه بن ياسين ليواصل دعوة الناس إلى الإسلام . تزوج عقبة ابنة ذلك الملك فولدت له أربعة أولاد هم : (١- روربيا . ٢- وانى . ٣- بوطوال . ٤- داتو) وتقلد كل واحد لقبا جديدًا عرفوا به فأصبح روربيا يعرف بـ باه (بالدى) واختار زراعة الأرز ، ووانى يعرف بـ سو واختار تربية الأبقار وفلاحة الأرض) بوطوال ويعرف بـ : جللو إشتغل بالعلم ، داتو ويعرف بـ : ببرى واشتغل بالملك . ج- استوطن رجل عربي يدعى أبودا داى مملكة فوتاتورو شمال نهر السنغال ، وهناك اعتنق دين الإسلام وتزوج مسلمة أنجب منها أربعة أولاد . امتنع أحدهم عن الكلام لمدة ثمانية أشهر . وبعد ذلك بدأ يتحدث بلغة غريبة عن بقية أفراد عائلته الذين سألوا والدهم عن تلك اللغة . فقال إنها لغة جنس تنبأ النبى محمد صلى الله عليه وسلم بأن أبناءه سوف ينشرون الإسلام . وعندئذ تعلم بقية الأولاد اللغة الجديدة وانتشروا فى مختلف أرجاء غرب

إفريقيا للدعوة إلى الدين الإسلامى .(٣) د- وقد ذكر الرحالة الإنجليزى ، كلابيرتون هوف الذى كان مبعوثًا للعاهل الإنجليزى، الملك جورج الرابع إلى السلطان محمد بللو أمير المؤمنين لدولة صوكتو ، أخبره أثناء الحديث الذى جرى بينهما فى سنة ١٨٢٦م: أن أصل الجنس الفولانى يرجع إلى بنى إسرائيل، أولاد نبى الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام . ومن ناحية أخرى ذكر السلطان محمد بللو فى كتابه "إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور" أن الصحابى عقبة بن نافع عندما نزل إفريقيا تزوج من بنات إحدى مناطق "فوتاتورو" تدعى "باجومانغا" أنجبت له أربعة أولاد ، وهم: ١- دوتى. ٢- ناس. ٣- وييا. ٤- أرابو. ثم عاد إلى موطنه الأصلي فى الجزيرة العربية تاركًا وراءه أولاده الأربعة مع أمهم، فنطقوا بلغة جديدة لم تكن معروفة لدى أهل المنطقة من قبل فأصبحت هى اللغة الفولانية، أى الفولفولدى .

ثانياً : وجهة نظر المؤرخين المسلمين .

جاء فى كتاب "الفلاته فى إفريقيا ومساهماتهم الإسلامية والتنموية فى السودان" تأليف الأستاذ الطيب عبد الرحيم محمد ، نقلاً عن كتاب" كنز الأولاد فى تاريخ الذرارى والأجداد" للمؤرخ محمد سامبو الكلوى المتوفى سنة ١٨٢٠م: هاجرت قبيلتا جهينة وتميم من الجزيرة العربية إلى الهند عقب فتنة "بخت نصر"، وذلك ما بين عام (٢٠٠٠-٢٧٥٠) قبل ميلاد المسيح

(٣) راجع كتاب الشعب الراعى لـ:جى.ع.هاريس. طبعة ١٩٦٥.

عليه السلام . ثم عادتا إلى الجزيرة العربية بعد إخماد نيران الفتنة . وكان مع قبيلة تميم الأبقار والسيوف وعلى رؤوسهم الطاقية ذات اللسانين، ومع قبيلة جهينة الأغنام . لكن نظراً لقلة المراعى واصلت القبيلتان هجرتهما إلى القارة الإفريقية حيث تتوافر المراعى . فسلكت قبيلة تميم طريق الشام إلى صحراء سيناء حيث استقرت فى طور سيناء فترة من الزمان بعدها واصلت الترحال إلى منطقة ليبى أى ليبيا الحالية . وسلكت قبيلة جهينة طريق اليمن إلى أن وصلت إلى منطقة ليبى حيث تعيش رفيقة دربها - ولكنها انتشرت جنوباً فى الوقت الذى واصلت فيه قبيلة تميم رحلتها إلى أقصى غرب إفريقيا والمغرب الأقصى حتى وصلت إلى أوداغست عاصمة إمبراطورية غانة(٤) القديمة التى تقع ما بين جمهوريتى مالى وموريتانيا وصحراء توات فى حدود جمهورية الجزائر حالياً . كانت هذه المنطقة خاضعة لنفوذ الروم - أى الإمبراطورية البيزنطية . فأطلق المؤرخون القدامى على هؤلاء العرب الذين استقروا هناك اسم الروم تجاوزاً . وقد عادت بعض الأسر من تميم مرة أخرى إلى موطنها فى الجزيرة العربية . ولما ظهر الإسلام ، قاد أحفاد هؤلاء العائدين حملة فتح غرب إفريقيا بقيادة عقبة بن نافع وبرفقته عقبة بن عامر التميمى وعقبة الجهينى وعقبة الهندى وغيرهم من المجاهدين رضوان الله وسلامه عليهم أجمعين . أسلم ملك الروم وهو

(٤) معناها أرض الملح بلغة أهلها .

ملك غانة ويدعى برمندانا بعد مقاومة ضعيفة وتزوج عقبة بن نافع من ابنة له تدعى باجومانغو التى ولدت له خمسة أولاد ذكور وبنتا واحدة هم :

١- عثمان تورو . ٢- محمد فولان. ٣- أبو بكر فلات.٤- عمر درداو. ٥- على غردو. ٦- فاطمة شلفو/شافو.

ينتشر أحفاد هؤلاء الأبناء فى مناطق ما بين فوتاتورو حتى البحر الأحمر. فيسكن أحفاد محمد فلان بأغادس وتاوا وبلما والسودان الشرقى وشمال نيجيريا . ويطلق عليهم اسم الفلانيين والفلاته. ويسكن أحفاد أبى بكر فلات بلاد بورنو ودمغرام وحول حوض بحيرة تشاد ومالى والسودان الشرقى واريتريا ومصر . ويسكن أحفاد عثمان توردو أرض ماسينا التى تشمل أجزاء من مالى وبوركينا فاسو وبنين . ويسكن أحفاد عمر درداو حول نهر السنغال وصحراء ماضى والسودان وتشاد واريتريا وتنبكتو. ويسكن أحفاد فاطمة سلفو/شافو شفوالين هم من أبى رومى - أرض السودان وذلك حول مناطق الكبابيش وأرض الشايقية وكلك يسكنون الكاميرون ، وتشاد واريتريا . وقد أنجب عقبة بن نافع من زوجته صفية بنت جعفر بن أبى طالب خمسة أولاد، وهم : (١) يزيد ، (٢) فولو، (٣) فيلا، (٤) غرغاو،(٥) حيدر. وينتشر أحفاد هؤلاء الأبناء أيضاً فى المناطق الواقعة بين المغرب والبحر الأحمر . وتزوج المجاهدون الذين رافقوا جيش عقبة بن نافع روميات وبنات من القبائل الأخرى . كما زوجوا بناتهم وأخواتهم إلى رجال من قبائل الروم والبربر فأنجبوا العديد من الأبناء والأحفاد . وكونوا الكثير من الفروع والبطون التى انضمت للفلاته

انضمام التزاوج . ومن بين هؤلاء من لا يتحدث إلا اللغة العربية . استشهد عقبة بن نافع وكثير من المجاهدين معه وتوفيت زوجته بانجومانغو (ماريم) مخلفين وراءهم ذرية نشطة تنقسم إلى عدة عناصر أهمها : ١- الفلانيون الأصليون . وهم أبناؤ عقبة بن نافع من أم رومية . ٢- الفلاتة بنو العرب ، هم أبناء المجاهدين الذين رافقوا حملة عقبة بن نافع إلى إفريقيا ويعتبرون أخلاطا من النوبة والعرب والزنوج الذين تم فتح بلادهم فاختلط أولادهم وتكلموا بلغة الفلاتة فصاروا فلاتة . ٣- الفلاتة الجعفريون ، كما يسميهم محمد بللو فى كتابه" إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور" ومحمد السامبو الكلوى فى كتابه "كنز الأولاد فى تاريخ الزرارى والأجداد" بأنهم من الفلاتة التوروبى انتساباً لجدتهم صفية بنت جعفر ابن أبى طالب.(٥)

ثالثاً : وجهة النظر الأنثروبولوجية :

الجنس الفولانى الذى يعتقد بأن موطنه الأصلى كان فى فوتاتورو على نهر السنغال أو ماسينا فى مالى ، أثارت مسألة أصله العرقى كثيرًا من الجدل بين الباحثين والمحققين من المهتمين بتاريخ أمم غرب إفريقيا . غير أن ثمة بحثاً قام به المؤرخ الشهير البروفيسير جورج ديتيرلين أسند فيه إلى اكتشاف عالم الآثار الفرنسى هنرى لهوت . HENRY LHOTE وجود نقوشٍ عثر عليها فى جدران كهوف فى الصحراء الكبرى، يرجع تاريخها إلى العصر الحديدى أي

(٥) انظر كتاب الفلاتة فى السودان للأستاذ الطيب عبد الرحيم محمد.

إلى حوالى الألفية الثالثة قبل ميلاد المسيح عليه السلام، مما يدل على أن الإنسان الإفريقى قد عاش حياة مزدهرة فى تلك المنطقة وفى ذلك الوقت قبل جفاف مياه الصحراء الكبرى وتآكل خصوبة أراضيها . وتحمل تلك النقوش صور السكان الذين كانوا يعيشون هناك ومعهم الأبقار التى كانوا يرعونها والتى يبدو أنهم كانوا يمجدونها. ويذكر الباحث أن لهؤلاء السكان ملامح جسمانية جدّ شبيهة بالملامح التى تتميز بها الشعوب الفولانية فى عصرنا هذا. فبات من المرجح أن يكون الأصل العرقى للشعوب الفولانية راجعاً إلى أولئك القوم فى تلك الآماد الغابرة ، ومن ثم فهم الأجداد الأوائل الحقيقيون للجنس الفولانى .(٦)

ومن ناحية أخرى، يذكر لنا كتاب "ألف سنة فى تاريخ الغرب الإفريقى" الذى تضمن عدة بحوث تاريخية بأقلام عديد من الباحثين والمؤرخين وحققه الأستاذان / أيان ايسبى وجى. ف أدى. أ. ، أن المؤرخين والباحثين المعاصرين قد توصلوا ، فيما يبدو، إلى اتفاق عام فى الرأى حول أصل الجنس الفولانى، مفاده أن الموطن الأصلى لهذا الجنس يقع فى ماسينا (جمهورية مالى) أو /فوتاتورو (شمال السنغال). إن هذا الرأى الأخير هو الرأى التقليدى السائد وإن قبائل الجزء الشمالى الغربى للقارة الإفريقية هم بيض من رعاة

---

(٦) انظر العدد "٣٦" لمجلة المجتمع الإفريقي الصادرة باللغة الفرنسية فى عام ١٩٦٦ ميلادى ص :٧-٢٨ من باريس.

الماشية يقطنون المناطق المتاخمة لأودية السنغال الوسطى، قامت باكتساح المناطق الجنوبية بحثاً عن المرعى حتى وصلت إلى هضبة فيرلو **(FERLO)** أى منطقة فوتاتورو جنوباً وغرباً . ومع مرور الوقت شهدت تلك المنطقة تدفق جماعات مهاجرة من البيض للاستفادة من خصوبة الأراضى الجنوبية فى تربية الحيوان والزراعة مع الاستيطان التدريجى . وبمرور الوقت، أصبحت هذه الجماعات المهاجرة منقطعة الصلة ومنعزلة جغرافياً عن بقية قومهم فى أقصى الشمال الغربى، وباتت تابعة سياسياً لدولة فوتاتورو التكرورية فى الجنوب. وأدى اختلاط الجانبين الزنجى والبربرى إلى تولد أجناس جديدة من البشر وكذلك اختلاط أجناس مختلفة من الحيوانات التى تولد أجناس الماشية فى تلك المنطقة ونمت اقتصاديات المنطقة كماً وكيفاً . وتطورت ، نتيجة لذلك، أنماط ثقافية ولغوية وعرقية جديدة مخالفة للأصول العرقية التى كانت تتميز بها كل من الجماعتين قبل اندماجهما . بيد أن الغالبية العظمى من الجانبين لا تزال تحتفظ بملامحها الجبلية الأساسية إلى حد كبير ، مثل نحافة الجسم واستدقاق الأنف وبياض البشرة ... الخ ، مع وجود اللغة والعادات والتقاليد المشتركة بينهما، فأصبحت المجموعة الأولى تعرف بالفولانيين الرعاة وأصحاب الثروة الحيوانية بينما تعرف الثانية بالفولانيين الفوتيين الذين يمارسون الزراعة وأنشطة الدعو الإسلامية . وتجدر الإشارة إلى أن هذا التقسيم قائم فقط على سبيل المثال لا الحصر . فقد يزاول فرد أو جماعة من أحد الطرفين أنشطة الطرف الآخر . كما أن التمايز المشار إليه آخذ فى

التلاشى التدريجى بفعل التزاوج والاندماج مع مرور الزمان . وقد انتشر هـذان النوعان من الجنس الفولانى ، انطلاقاً من منطقتي ماسينا وفوتاتورو إلى أرجـاء السودان الغربى مكتسحاً المناطق المجاورة ووصولاً إلى البحيرات الكبرى فـى وسط القارة حيث تشير بعض الآراء إلى أن قبيلـة التوتسـى التى تقطـن منـاطق الجنوب الغربى للقرن الإفريقى تنتمى إليهم أيضاً . ورافق هذا الانتشـار تعـاظم الازدهار والإنمـاء الاقتصـادى مـع زيـادة النمـو السـكانى، خاصـة بعـد القـرن الحادى عشر الميلادى عندما انهارت إمبراطورية غانة .(٧)

إذن يتضح لنا من واقع هذا التحليل الانثربولوجى أن الجنس الفولانـى قـد تواجد أثرياً وبيئياً واجتماعياً وتاريخياً فى غرب إفريقيا منذ بدء تاريخ المنطقـة. وعن موطنهم الأصلى أقول إن الرأى المشهور هو أنهم نشأوا فى أول الأمر فى منطقة فوتاتورو . وهو رأى علمائهم . وهم أول من كتبوا حول هذا الموضوع كما ذكر محمد بللو دان فودى ، فى كتابه "إنفـاق الميسـور فـى تـاريخ بـلاد التكرور" نقلاً عن علماء فوتاتورو . غير أن ثمة باحثين محققين متـأخرين مـن بينهم الأستاذان جى. و. هونويك وجى. ايس. تريمنجهام يرجحـون أن تكـون منطقة ماسينا هى الموطن أو المنشأ الأصلى للجنس الفولانى ، وذلك لأسـباب عدة . أهمها : أ - توجد أغلبية الشعب الفولانى بهذه المنطقة التـى تحتفـظ

(٧) يقدر عدد الفولانيين فى الوقت الحاضر بحوالى ثلاثين مليون نسمة منتشرين فى المناطق المشـار إليها.

بالمواصفات والمميزات الأصلية السالفة الذكر. ب- أن اللهجة اللغوية الفولانية الموجودة بها هى الأكثر فصاحة وأصالة، وهى التى لم تختلط بأية لهجة أو لغة محلية أخرى ، أو إذا كان هناك أى اختلاط فهو بنسبة أقل بكثير بالمقارنة باللهجات الفولانية الأخرى . ج- الاكتشاف الأثري الذى تم مؤخراً للنقوش الرسومية للأجداد الأوائل للجنس الفولانى فى منطقة ماسينا التى يرجع تاريخها إلى حقبة ما قبل التاريخ . إذ يدل الاكتشاف على كون الموطن الأصلى لهذا الجنس هو تلك المنطقة . د- الرأى القديم الذى يرجع أصل القبيلة الفولانية الى منطقة فوتاتورو ، لا يعتمد على الحقيقة التاريخية لأنه يسند أصل الشعب الفولانى إلى الصحابى التابعى الجليل عقبة بن نافع(٨) مما يومئ إلى أن الجنس الفولانى ظهر فى القارة الإفريقية بظهور الإسلام فيها فى القرن الأول للإسلام أى فى القرن السادس لميلاد عيسى عليه السلام. غير أن العوامل العرقية والبيئية والاجتماعية واللغوية للشعب الفولانى تدل دلالة قاطعة على أن وجود الجنس الفولانى فى القارة الإفريقية سابق بكثير لفتح الإسلام لهذه القارة . فالقبيلة الفولانية كما هى حتى هذا التاريخ هى أكبر قبيلة إفريقية من حيث التعداد والانتشار والتشعب . ولغتها هى أقوى اللغات الإفريقية الأخرى من حيث الفصاحة والدقة وكثرة المرادفات . ولاتحتوى إلا على نسبة

---

(٨) هو عقبة بن نافع بن عبد القيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن الضرب بن الحارث من بني محارب بن فهر القرش . ولد على عهد الرّسول عليه السلام. لذا كان من التابعين.

قليلة جداً من مفردات اللغة العربية أو أية لغة أجنبية أخرى ، اللهم إلا المصطلحات الإسلامية . بيد أن كون منطقة ماسينا هى المنشأ الأول لهذا الجنس، لا يعدو أن يكون ذلك بسبب حركات الهجرة من وإلى أودية فوتاتورو ، خاصة إذا علمنا أن تلك المنطقة كانت غنية بخصوبة أراضيها الصالحة للزراعة وتربية الحيوان عبر القرون ؛ الأمر الذى شجع القبائل الأخرى المجاورة ومن شمال القارة على الإقبال على الهجرة صوب الجنوب والاستيطان بها والاندماج مع القبائل الأصلية والامتزاج بها . والله أعلم .

التســمية :

يطلق الشعب الفولانى على أنفسهم اسم "بولوّ " **POLLO** للمفرد و"فولبى" للجمع . ويعرفون عند المؤرخين العرب ب "الفولانى أو الفلاتى" للمفرد و"الفولانيين والفلاتيين أو الفلاته" للجمع. كما يعرفون عند المؤرخين الفرنسيين ب: "بيول "ب**PEUL** - للمفرد و "**PEULS**" للجمع . ويطلقون على لغتهم " فولفولدى أو هالابولار". ومن المرجح أن يكون أصل التسمية قد جاء من كلمة "بول" بمعنى كتلة جماعية أو من كلمة فولادى أو فولتادى، وترادف كلمة فردى "أو"فرغول" بمعنى الهجرة، باللغة الفولانية. من الواضح أن الرأى الثانى الذى ينطوى على كثرة التنقل من مكان إلى آخر هو الذى يتمشى وصفة أنشطة رعاة الأبقار ومزاولة تربية الحيوان عموماً التى انطبعت عليها حياة الشعب الفولانى وعاداته .

العشائر الفولانية :

اعتاد المؤرخون الفولانيون في موطنهم الأصلي على أن يقسموا جماعاتهم إلى أربعة بيوت أسرية أو عشائرية تنتهي كلها بأصلها إلى الجد الأعلى المشترك . وعن هذه العشائر الأربع تفرعت سائر الفصائل الفولانية الأخرى المنتشرة في أرجاء العالم المعمور . وتحمل كل عشيرة لقباً مميزاً لأبنائها . ولهذه الألقاب الأربعة مرادفات تستخدمها القبائل الأخرى المجاورة تتعرف بها على أفراد هذه العشائر . وهذه الألقاب هي :

اللقب	اللقب المرادف	اللقب بالحروف اللاتينية
١- برى/بارى	سنجرى/سانغرى	BARI
٢- جللو	جللو	JALLO
٣- باه	جاكيته	BAH
٤- صو	سيديبى	SOW

ويسقط معظم أبناء الجنس الفولاني في الوقت الحاضر هذه الألقاب. سيما الذين يعيشون في المهجر . فيكتفون بالانتساب، في التسمية ، إلى البلدان أو القرى التي ولدوا فيها كابراً عن كابر . أو يكتفون باستخدام الأسماء الثلاثية . أي اسم الشخص والأب والجد ، تمشياً مع الأعراف الإسلامية وإنتفت الألقاب المذكورة لديهم مع مرور الزمان . ولم نتمكن، على وجه التحديد ، من الوقوف على معاني لغوية لهذه الألقاب أو تاريخ بدء استعمالها .غير أننا نعرف أنّ الأجداد الأوائل لهذا الجنس كانوا يقدسون بعض

الحيوانات البرية والأليفة ويعتقدون فى تأثر أرواحهم وترابطها بأرواح تلك الحيوانات قبل العصر الإسلامى . كما يمجدون السجايا الحميدة ، مثل : الشجاعة والكرم والذكاء والصبر والإخلاص وبشاشة الوجه إلى آخره . فكانوا يستخدمون ، على وجه الاستعارة الأحرف الأولى أو أكثر لأسماء الحيوانات الشجاعة والقوية ، مثل : الأسد والنمر ، أو صفة من الصفات الحميدة فى تركيب تلك الألقاب على سبيل المثال قد تكون كلمة "بارى" أو "بريه" مشتقة أصلاً من اسم أو صفة الأسد وكلمة "جللو" دالة على الإنسان الكثير الابتسام أى البسّام وتكون الكلمة "صو" من تشوسال أي الشجاع . وثمة ألقاب تتعلق بخدمات مهنية اجتماعية أو صفة شخصية ، مثل لقب "سيسى" يتقلده الفقيه أو عالم الدين، بغض النظر عن انتمائه العشيرى أو العائلى. والكلمة مشتقة من كلمة " تشسينيطو" أى الانسان المتأنى أو الحذر. وكذلك لقب "ديككوه" أى البطل(٩) .

الجنس التوأم للفولانى :

يشكل أبناء منطقة فوتاتورو الواقعة فى الشمال الغربى لجمهورية السنغال، الجزء التوأم للجنس الفولانى . ويعرفون بالفوتيين نسبة إلى بلادهم الأصلية وهى فوتاتورو أو فوتاجللو. أو فوتا بوندو أو فوتا مللى (١٠) .

---

(٩) يختلف هذا اللقب عن اسم "ديكو" أو "ديكوجو" الذى تحمله البكر من البنات.

(١٠) تقع اليوم فى السنغال ومالي وغينيا ونيجيريا والكاميرون.

يعرف واحد منهم[11] ب : فوتنكى أو تورروطو . ويجمع على فوتنكوبى أو تورروبى . كما يعرفون أيضًا بالتكرور ، نسبة إلى دولة قديمة قامت فى المنطقة تحت هذا الاسم منذ العصر الحديدى، أى الألفية الأولى قبل ميلاد السيد المسيح عيسى عليه السلام . وقد اشتهرت إمبراطورية التكرور عند المؤرخين والجغرافيين العرب القدامى حتى أخذوا ينسبون أى إفريقى من الغرب الإفريقى إلى تلك الدولة. فالفوتيون هم فولانيون من حيث النشأة واللغة والعادات والتقاليد . بل قيل إن موطنهم – فوتا تورو– هو المنشأ الأصلى للقبيلة الفولانية كما ذكرنا آنفاً . غير أن المؤرخ الإنجليزى جى.ايس. تريمنجهام يصفهم فى كتابه "تاريخ الإسلام فى غرب إفريقيًا قائلاً : لا شك فى أن الملامح الجسمانية واللهجة اللغوية تدل على أن قبيلة "التكرور" أى "فوتا" منبثقة عن قبيلة "سيرير وسركوللى" السنغالية . وأن هذه القبائل الثلاث ومعها قبيلة "ألولفُ" السنغالية مشتركة فى أصل واحد . وأن قبيلة التكرور هذه قد سبقت غيرها من القبائل الأخرى الموجودة فى المنطقة الى الدخول فى دين الإسلام . ويتميز أبناؤها بنشاط الدعوة الى الإسلام ونشره فى الغرب الإفريقى وغيره . وقامت دولتهم الثانية في المنطقة منذ القرن التاسع الميلادى بينما كانت الأولى فى الألفية الأولى قبل الميلاد ، وأدى ازدهار تلك الدولة إلى الانتعاش الاقتصادى والاجتماعى فى المنطقة . كما شجع تدفق قبائل البربر من سكان

---

(١١) باللغة الفولانية.

الصحراء الكبرى وغيرها من القبائل المجاورة على القيام بهجرات نحو منطقة فوتا تورو والاستيطان فيها. وللقبيلة الفوتية، كغيرها من قبائل المنطقة، فصائل يتقلد أفرادها ألقاباً خاصة بهم . من أشهرها :

اللقب	اللقب بالحروف اللاتينية
١- أوو	AW
٢- باه	BAH
٣- بال	BA L
٤- جاه	JAH
٥- ديم	DEM
٦- كان	KAN
٧- سل	SAL
٨- تال	TAL
٩- وان	WAN

وهناك ألقاب أخرى مشتركة بين أبناء القبيلة الفوتية وأبناء بعض القبائل الأخرى التي توجد في المنطقة ذاتها. وفيما يلي أمثلة للألقاب المشتركة : جيوب JOUB وهان HANE وسي SY وسيلا SILA إلى آخره .

النظام الاجتماعي :

يقوم المجتمع الفولاني في الغرب والوسط الإفريقيين على نظام طبقي اجتماعي موروث . إذ لا يختلف هذا النظام عن الأنظمة الاجتماعية المألوفة لدى معظم القبائل المجاورة له . وهي مبنية على عنصرين مميزين هامين . هما العنصر العرقي الطبقي والعنصر القبلي . إذ ميلاد الفرد هو الذي يحدد مكانته الاجتماعية. وهذا يعني، بالطبع أن الفرد، في المجتمعات الفولانية لا يتزوج إلا من الطبقة الاجتماعية الكفؤة بغض النظر عما قد يكون عليه هذا الفرد من الثروة أو العلم أو المركز الوظيفي أو أية مميزات اجتماعية أخرى. وبهذه الطريقة يستطيع الإنسان الفولاني أن يحافظ على استمرارية أصله العرقي ومكانته الاجتماعية . أما العنصر القبلي فهو القاسم الذي يفرض على الشخص الفولاني معرفة التسلسل التاريخي الذي يوصله الى الوقوف على جدّه الأول الأعلى، فيجوز له عندئذ استعمال أحد الألقاب المشار إليها والذي كان يحملها هذا الجدّ الأكبر ويتوارثها الأبناء فالأحفاد نزولاً . وتعرف هذه الألقاب باللغة الفولانية ب: يتّوري أو يتّودي (للمفرد) ويتّوجي (للجمع)، كما تطلق عليها كلمة جموري أيضاً .(١٢)

---

(١٢) هذه الأخيرة ليست كلمة فولانية، إنما هي من لغة البامبرا أصلا.

النظام الطبقى :

تحتل طبقة "ريمبى" (الجمع) أى الأحرار والمفرد "ديمـو" أي الحـر قمـة سلم التشريف فى المجتمعات الفولانية. ويعتز كل من ينتمى إلى هـذه الطبقـة بنفسه، حيث يتولى أصحاب هذه الطبقة قيادة مجتمعاتهم فى أوقـات الحـرب والسلم، لأنهم أسياد القوم ولهم حق امتلاك أكبر مساحة من الأراضي الزراعيـة فى أوطانهم. كما يتسمون فى أغلـب الأحيـان بـالثراء فـى الماشية ويحتكـم الناس اليهم فى حالة وقـوع خلافـات أو نزاعـات. ويقومـون بتسيير الشؤون الادارية العامة لرعاياهم. ويعلق أبناء هذا الجنس أهميـة قصـوى علـى مسـألة حرية الأصل، إذ يزعمون -وفقاً لمعتقداتهم التقليدية- أن الله سـبحانه وتعـالى شرف الجنس العربى بأن أنزل القرآن بلغتهم وبعث منهم خاتم الأنبياء والرسـل وشرف الجنس الـوروبـى بالقـدرة علـى الابتكار الصناعى والهيمنة علـى علـوم الكـون. كمـا شرف الجنـس الفولانى بحرية الأصل وعزة النفس . إن الحريـة فى عقيدتهم لا تنحصر فـى حـدود الحسيات الجسـمانية، بـل تتعمـق لتشـمل جوهرة النفس البشرية. فهى أصيلة قائمة بذاتها . فالإنسان الحرّ الحقيقى هـو الذى رافقته النفس الحرة منـذ خليقتـه الأولـى حتـى مرحلـة الـولادة والمـوت. وفى حالة ضعفه أو قهـره جسـمانياً تظـل النفـس الحـرة متمـردة وأبيـة ترفـض الاستسلام للعبودية والانقياد لنفوس أخرى دونها . ويطلـق علـى هـذه النفسـية الأصيلـة الحريـة كلمـة "ديماغو" باللغة الفولانية ، وعلى مثل هذا ينعكس قـول

الشاعر العربى المتنبى: "عش عزيزًا أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود(١٣) فاطلب العزّ فى لظى ودع الذل ولو كان فى جنان الخلود".

ويمتد هذا الإطلاق ليشمل الحيوانات الشديدة الألفة بحياة الفولانيين مثل البقرة والجياد – فالبقر الحرّ والشجاع هو الذى تنقاد له سائر رؤوس البقر فى الحظيرة وهو الذى يصارع صياده بلا هوادة ويسالم راعيه الذى يفتخر به ويريد دوماً أن يكتسب منه النوع. ويطلق عليه اسم "كالهادى". أما الأحصنة الحرة الأصيلة فهى التى يعتمد عليها فرسانها فى كل الحالات، لا سيما أثناء الحرب. ففارس الجواد الحرّ الذى يطلق عليه اسم "ديماغو" المفرد و "ديماجى" للجمع يسوقه فارسه إلى ساحة الحرب وهو مطمئن ، فإذا انتصر يكون للجواد فضل كبير لبسالة روحه وصموده أمام العدو . وإذا تأثر الفارس بجرح شديد يحمله الجواد عائداً به إلى بيت عائلته للتداوى .وفى حالة سقوط الفارس وموته فى ساحة المعركة يفر الجواد الحرّ مسرعاً إلى بيت عائلة الفقيد، ويكثر من الصّهال والضجيج ليشعر أهله بأن مصاباً جللاً قد وقع ، لأن فارسهم ذهب إلى ساحة الاقتتال حيث استجاب للقدر ولبىّ نداء المنية فلم يعد للأصدقاء ورفقاء الحياة . عند سماع صيحات الجواد يخرج المستضعفون من الرجال والأطفال والباقيات من النساء المستخلفات، بواكى المناحات اللواتى يخلطن بكاءهن بزغاريد تمجيد أرواح الشجعان وتهاليل

(١٣) القنا هو الرمح والبنود هى الرايات.

الاستغفار من هنا وهناك. وبالنسبة لقبيلة فوتا - الجزء التوأم للجنس الفولانى، فإن فصيلة "توروبي" هى التى تحتل مكان الصدارة . ذلك لأنهم يحترفون مهنة التفقه فى الدين ومنهم يكون العلماء والأدباء . ويقابلهم حملة لقب "سيسى" بين الفولانيين الآخرين الذين يتصفون بالتفقه فى الشريعة وتحفيظ القرآن الكريم أو تلاوته وجوانب أخرى من الثقافة الإسلامية الأساسية .

التقسيم الطبقى لهذا المجتمع :

يمكننا فى هذا المقام أن نوجز التقسيمات الطبقية للجنس الفولانى منذ القدم على الوجه التالى :

أولاً - طبقة "ريمبى " **RIMBE** "أى الأحرار .

تضم هذه الطبقة الملوك ويليهم العلماء أو الفقهاء . أحيانا تندمج الطبقتان وتصبحان طبقة واحدة. حيث يكون الملك هو نفسه الإمام والقاضى إذا كان من أهل العلم . ومن ناحية أخرى أصبحت الكلمة "توروجو" التى تدل أصلاً على فولانى فوتاتورو، تطلق على كل من يزاول أنشطة الدعوة منهم .وتطلق كلمة "توروبى" للدعاة بغض النظر عن الفصيلة الأصلية التى ينتمى إليها الداعية . وبالمثل يوجد من الجاليات الفوتية التى يقوم أبناؤها بتربية الحيوان ورعاية البقر بجانب العمل الزراعى .

ثانياً – طبقة جاومبى "JAWAMBE" (الجمع)(١٤)

جاوندو "JAWANDO" (المفرد) . وهى التي تلي طبقة "ريمبى" فى السلّم الطبقى الاجتماعى . وأبناؤها هم أيضًا أحرار لكن بدرجة أقل من طبقة "ريمبى". ذلك لأن انتماءهم إلى الجنس الفولانى من ناحية الأم فقط دون الأب . وهناك علاقة مزاح مداعبية قائمة بين أبناء الطبقتين أى "الرّيمبى والجاومبى". وأشير بهذه المناسبة إلى أن مثل هذه العلاقة المداعبية استهدفت دوما إزالة الحرج الاجتماعى الذى قد يتواجد بين الأفراد أو القبائل أو الجماعات الاجتماعية المعنية أثناء الحديث أو الكلام العادى . ويخلو الشخص فى إطار هذه العلاقة من الشعور بالحرج أو المضايقة لدى مخاطبته أحد أفراد القبيلة أو الطبقة أو الجماعة المقابلة لقبيلته أو طبقته أو جماعته. وبالمثل يلتزم الفرد المخاطب (بفتح الطاء) بهدوء النفس وعدم إبداء أى غضب أو الانفعال إزاء كل ما يصدر من الشخص الممازح من التجريح اللفظى أو الصراحة المرة . ويعتبر كل ذلك ضرباً من ضروب علاقات تثبيت وتحسين العلاقات الودية وإزالة الخلافات الأسرية والعائلية بين الأفراد والجماعات فى التاريخ الإسلامى لأمم غرب إفريقيا .

---

(١٤) هم فى مالي .

كما تتميز هذه العادة بقيام أحد طرفى المزاح لا سيما أبناء الأعمام بدفع نوع من الجزية الرمزية فى مناسبات سنوية ، لا سيما الأعياد . إذ تعتبر هذه الجزية الرمزية تجديدًا للتعهد بالولاء . وتعرف باللغة الفولانية :

دنطراجى **DANDIRAJE**

أو ديونيل **DEWANEL**

وفى أوساط الناطقين بلغة الهوسا ب : كوطن شارا (١٥) **Kudin Shara** إذ تنحصر المجموعات والأفراد الذين يخضعون لأحكام علاقات المزاح المداعبية المذكورة فى الآتى:

أ- القبائل التى كانت متحاربة ثم انتهت إلى عقد الصلح والمصالحة فيما بينها لسبب من الأسباب، ومن ثم وقف حالات العداء والمجازر والاقتتالات القبلية الدامية بين شعوب الغرب الإفريقى .

ب- أبناء العمومة أو الخالات والأخوال . وهم الذين يجوز التزاوج فيما بينهم فى حكم الإسلام . ويتمثلون فى الأصناف التى ذكرها القرآن فى قوله تعالى :

﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوت

---

(١٥) الكلمة جاءت من كلمة العاشوراء أى اليوم العاشر من شهر المحرم الذى أنجى الله فيه موسى وقومه من فرعون ، وأمر الرسول المؤمنين بصيامه تطوعًا.

أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاَتِكُمْ..﴾ (١٦).

جـ- الأجداد والأحفاد . تتم ممارسة هذه العادات المداعبية بين ابن الابن أو بنت الابن أو ابن البنت أو بنت البنت ، وبين والد الأب أو والدته ووالد الأم أو والدتها أو بمن فى حكمهم .

د- وعلاوة على علاقة المزاح المداعبية ، ثمة علاقة مجاملة تختص بها القبيلة الفولانية . وتعرف عندهم ب : فساغو أو فسادى أو باسو **FASAGO,FASADE, PASO.**

ويقولون للأصحاب المترابطين بعروة هذا العلاقة:

بسير ابى (**PASERABE** الجمع) وبسيراطو (**PASERADO** المفرد). وهى علاقة قائمة بين أبناء الطبقات الاجتماعية المتكافئة. ويقضى هذا النوع من علاقات المجاملة بضرورة مراعاة بعض الاعتبارات فى معاملة الزّميل الكفء طبقياً أو اجتماعياً . وتوضيحاً لهذه الفكرة نذكر أن هناك مثلاً فولانياً يقول : (ونافسفو فسونمتما**"WANA FASO FU FASO NAM TAMA"**)

أى : ليس كل زميل متكافئ يراعى لك حقوق التكافؤ . ويأتى هذا المثل انتقادا لتصرفات بعض الناس الذين يتهاونون فى مراعاة حقوق المجاملة لمستحقيها . وفى مجمل القول نذكر أن هناك ثلاثة أنواع أساسية لعلاقة المزاح المداعبية فى الثقافة والعادات الفولانية . وهى :

---

(١٦) الآية : ٦١ من سورة النور .

١- **ديندراغو** : **DENDIRAGO** هـي علاقـة المـزاح المداعبيـة العامـة التي توجد بين الأفراد والجماعات لسبب أو أكثر من الأسـباب المذكـورة آنفاً . فيقال :

"ديند يرابى" (الجمع) أصحاب المزاح وديندراطو (المفرد) . فتقول : "كوأوديندام" . أى هو قرينى فى المزاح . "كومى ديندكو" أى أنـا قرينـه فى المـزاح . كومن دينـــديرابى أى نحـــن أصحـاب المـزاح والمداعبـة . "كو أون ديندرابى" أى أنتم أصحاب المزاح والمداعبة . وهلم جرا .

٢- **غنديراغو** **GENDIRAGO** ، ويقوم مثـل هـذا النـوع مـن علاقـة المزاح فقط بين زوجات أبنـاء العائلـة أو الأسـرة أو بيـن هـؤلاء الزوجـات والأخوات أو الإخوان الصغار لأزواجهن .

٣- **فساغو/باسو** (**FASAGO / PASO**) يقـال لأصحابهـا "بسـرابى (للجمع) وبسراطو" (للمفرد) وأقول : (أوبسـوأم أى هو قرينـى للمجاملـة وأقول : (ميى بسومّكو) أى أنا قرينه للمجاملة .. الخ : وكما قلت سـابقًا، إن عادة " فساغو" هى نوع من المجاملة تتم بين الأفراد الذين ينتمـون إلـى الطبقات الاجتماعية أو المهنية المتماثلة والمتكافئة فى الرتب والاعتبـارات أو الامتيازات الأخرى .

إذ يتعين على الأفراد الأطراف فى هذه العادة ، مراعاة بعض اعتبـارات تشـريفية وتكريميـة أثنـاء التعـامل مـع زميـل مـن الطـرف المقـابل . مثــلا يستحسن أن يختار الإنسان الفولانى زوجته من بنات عمومته أو أخواله أو خالاته . وفى حالة تعدد الزيجات ، يستحسن أن تكون الزوجة الأولى مـن هؤلاء الأقارب . ومثال آخر ، كـأن يتقـدم أكثر مـن شـخص فـى طلـب زواج من بنت معينة.

وعندئـذ ينتظـر مـن البنـت أو أهلهـا أن يختـاروا مـن بيـن المتقدميـن الراغبين فى الزواج منها شخصاً يكون كفؤًا لها إما مـن حيـث مهنـة أفـراد العـائلتين أو حرفتهـم أو عشيرتهم ومـا إلـى ذلـك . وتعتبـر هـذا مجاملـة تشريفية أو تكريمية لأفراد الطرف الآخر . هذه الأمـور ليسـت إجباريـة أو ضروريـة لازمـة ، وإنمـا هـى أمـور طوعيـة اختياريـة بحتـه ، لكــن لهـذه الممارسـات فلسـفتها ومزاياهـا الاجتماعيـة والأخلاقيـة الاسـتراتيجية . إذ يعتقد أصحابها فى أنهـا توفـر الحمايـة للعائلـة أو العشيرة أو القبيلـة . لأن بوجود هذا النوع من الزواج المتكافئ يصعب لعدو أجنبى اختراق صفوف العائلـة أو العشيرة أو القبيلـة للتواطـؤ والخيانـة ضدهـا ، خاصـة فـى أيـام الحروب الأهلية أو القبلية كما يضمن الحفـاظ علـى السـلوكيات الحميـدة وآداب المعاشرة التى طالما تباهى بها أبناء هذا الجنس ، والتى تختصر فـى الكلمتين الفولانيتين الآتيتين :

أولا : "دارتاغو" أى الاستقامة . ويقال للشخص المستقيم "درتيطـو" (المفرد) و"درتيبى" (للجمع) أو "درتيجو" باللهجة النيجيريـة. ومـن هـذه الكلمة اشتقت الكلمة أو الهوسوية "داتّيجو" المستعملة لنفس المعنى.

ثانيا : "بولاكـو" وهـى اسـم المعنـى لجوهـر الفكـر أو المعتقـدات. وبهـذا المعنـى تجـاوزت التسـمية نطـاق المسـميات ذات المدلـولات المادية لتشمل معانى السلوكيات والتصرفـات . "فـالبولاكو" التـى اشـتقت من الكلمـة "بولـوّ **"POLLO** (المفـرد) أى الإنسـان الفولانـى ، تعنـى ، باختصـار آداب المعاشـرة أو السلوكيات الحميـدة . وقـد جـاء فـى

الكتاب : وصية للشيخ عثمان دان فودى أن كل إنسان انضم إلى جهاده المعلن ضد الوثنيين الكفرة سواء أكان من الأصل الفولانى أم لا ، فقد أصبح بحكم هذا الانتماء فولانياً لأنه مدافع عن السلوكيات والأخلاق الحميدة(١٧). نعود الآن إلى الحديث عن طبقة "الجاومبى".

ليس لأبناء هذه الطبقة (جاونبى) أية لغة أخرى غير اللغة الفولانية ضمن شريحة العادات والتقاليد الفولانية الأصيلة وقد لعب أبناء طبقة "جاومبى" أدواراً حيوية فى التشكيل السياسى للممالك والإماميات الفولانية التى قامت فى غرب إفريقيا . وفى عهد الشيخ أحمد بن محمد لوبّ، ملك مملكة ماسينا ، كان كبير مستشاريه السياسيين هو برايما كليلو (إبراهيم خليل) وكان من أصل "جاومبى" . وقد اشتهرت الأدوار السياسية التى قام بها "جاومبى" فى تاريخ الممالك الفولانية فى ذلك العهد . وكانت هناك أسطورة فولانية تقول إن الشيخ أحمد بن محمد لوّبو المذكور ابتهل داعياً الى الله سبحانه وتعالى وراجياً منه أن ينعم على مملكة ماسينا بشخص يناصر مليكها - أى الشيخ نفسه فى الحكم ، عن طريق إسداء النصح وتقديم المشورات الحكيمة ، فاستجاب له الله ورزقه بمجىء جاوندو برايما كليلو الذى كان سياسياً محنكّا . وكان ملوك ممالك الفولانية يعتمدون على "جاومبى" فى مساعى تحقيق الصلح والمصالحة فى حالات نشوب خلافات سياسية أو قبلية أو عائلية أو أسرية ،

---

(١٧) راجع كتاب وصية الشيخ عثمان دان فودى الآنف الذكر .

وهـم قرنـاء علاقـة المـزاح المداعبيـة لأبنـاء طبقـة "ريمبـى" . ورغـم أن "جاومبى" هم فولانيون ، فإنهم يتمتعـون بدرجـة تشـريفية أقـل مـن درجـة "ريمّبى" كما سبق أن ذكرت .

ثالثاً – طبقة "سبى" (الجمع) وتشّطو (المفرد) يمثلون الدرجـة الثالثـة فى النظام الطبقى للمجتمـع الفولانـى . ويحمـل أبنـاء هـذه الطبقـة أسـماء ومفاهيم مختلفة بين الفولانيين فى بلاد ماسينا ونظرائهم فى بلاد فوتـاتورو، فهم يحترفون مهنة صيد الاسماك أو التجارة فى بلاد ماسـينا . وهـم الذيـن يعرفون هناك : بمركابى (الجمع) و "مركاجو" (المفـرد) . ويطلـق عليهـم فى أوساط قبائل "البامبرا" اسم"بـوزو/سـومو" "سـركولى" للتجـار ، ولهـم فروع استوطنت فى السنغال .

رابعـاً – طبقـة "نيـانبى ("NYANBE" الجمـع) و "نينيـو" "NYENYO" (المفـرد) تشـكل الطبقـة الرابعـة . ثـم تليهـا طبقـة العبيـد "الماتشـوبى" "MACCHUBE" فى السلم الطبقـى للمجتمـع الفولانـى . أو "غـالونكوبى" (الجمع) وغالونكى (المفرد) . وتنقسم الأولى "نيبى" إلى الفئتين التاليتين :

(أ) أصحاب الحرف والمهن التقليدية الموروثة ، وهـم :

باللغة العربية	باللغة الفولانية	
	المفرد	الجمع
١- الحدادون/ الصّناعة	بايلو	ويلوبى/ أولوبى
٢- الدباغون	غرنكى/سكيجو	غرنكوبى/سكيبى
٣- النّحاتون	لابّو	لوبى
٤- الجزّارون	هوساجو/بوشى	هوسابو/بوشيبى(١٨)
٥- النساجون	تشينوو	تشينوبى

ب- تتشكل الفئة الثانية من طبقة "نيبى" من المغنين والمدّاحين وعازفى القيثارات والآلات الموسيقية الأخرى ، ويعرفون بأسماء مختلفة حسب نوع الغناء الذى يقومون به . ويعرفون "بمابوبى" (الجمع) و"مابو" (المفرد) أو "أولوبى" . ويطلق على المدّاح :

١- "**غولو - GAWLO**" (المفرد) . و يكون ملمًا بسلسلة تاريخية عن الآباء والأجداد للشخص الذى يمتدحه التماساً لعطاياه . لذا بات من الضرورى أن يكون لكل عشيرة أو مجموعة محددة من العشائر "غولو" أو "أولوبى" خاصون بهم . حتى يكونوا عارفين بتاريخ من يتسولون عليهم .

ويجوز أن يستعمل المّداح الطبل ، وهو نادر ، ولكن الغالب هو الاعتماد على الإنشاد بالمديح الشفهي .

---

(١٨) كلمة مستعارة من اللغتين الفرنسية والإنجليزية . (**BUTCHER**)

٢- "بامباطو BAMBADO "(المفرد) و"بامبابى" أو "وامبابى" (الجمع) . وهم أيضًا مدّاحون ومغنّون أو شعراء فى آن واحد . ويستعمل "بامباطو" آلة موسيقية تعرف ب : "هوددو" (المفرد) و "كولى" (الجمع) أو "نياطيورو " (المفرد) و "نيايوجى" (الجمع) . وهى آلة وترية العود . وهم المدّاحون أصلاً للأبطال فى ساحات المعارك . وجاءت الكلمة من "بامبودى" أى الحمل على الظهر . الذى هو السند التشجيعى لمن يخوض المعركة ضد الأعداء . ويقوم "بامباطو" بتمجيد البطل والثناء عليه قبل القتال وأثنائه وبعده .

٣- " جاروتوطو" "JAROTODO" (المفرد) و "جاروتوبى" (الجمع). هم الشعراء لا سيما الذين يقرضون الأشعار الدينية ، هذا خلاف الأشعار والقصائد أو المنظومات الدينية والأدبية التى يقرضها الأدباؤ أو الفقهاء باللغة الفولانية والعربية . وجدير بالذكر أن هذا النوع من الأدب الدينى الشعبى لعب دورا حيويا فى إذكاء الوعى بالثقافة الدينية الإسلامية بين شريحات المجتمعات الفولانية فى غرب إفريقيا .

٤- "جنتو/أسكينو" "JETTOWO/ASKINOWO" (المفرد) و"جنتوبى/أسكينوبى" (الجمع) .

هم أيضاً مداحون ، لكنهم فى الغالب لا يستخدمون آلات العزف الموسيقية أثناء ممارستهم مهنتهم الموروثة . هذا ويوجد إلى جانب هؤلاء

وأولئك فئة "غربينوبى" GARBINOBE (الجمع)[١٩] و"غربينوو" GARBINOWO (المفرد) وهم المتسولون الّذين غلب عليهم الدّهر وأجبرتهم قساوة ظروف الحياة على اللجوء إلى تلك المهنة غير المشرفة بمدلول معانى القول النبوى المأثور : "اليد العليا خير من اليد السفلى ". لعبت طبقة "نييبى" بفئاتها المختلفة أدواراً أساسية وحيوية فى الحفاظ على المعلومات التاريخية عن الجنس الفولانى وعن الأدوار التى قام بها فى نشر الإسلام . وكان أبناء هذه الطبقة هم حفظة تاريخ المنطقة عن طريق التراث الشفهى المنقول . إذ يقومون أثناء الاحتفالات بالعقائق وعقود الزواج والمآتم أو فى مجالس الملوك والحكام، بسرد تلك المعلومات التاريخية والترفيهية ، كوسيلة للتسلية أو إثارة الحمية وإشعال حماس المقاتلين بالإقبال والإقدام على خوض المعارك .

النظام الأسرى / العائلى :

١- يشكل الفرد - فى المجتمع الفولانى الذى يماثل معظم المجتمعات الإفريقية المسلمة التى تقع فى جنوب الصحراء - النواة الأولى والأساسية لتلك المجتمعات حيث يقع عليه عبء تكوين أسرته بدءا باختيار شريكته فى الحياة ، أى الزوجة . فكيف يتم هذا الاختيار ؟ يتم اختيار الزوجة باتفاق ينهض به أهل طرفى الزواج حيث يكون الفتى والفتاة دون سن اتخاذ مثل هذا القرار بأنفسهما . وفى الخطوة الأولى يمضى نفر

---

(١٩) أونياغو (المفرد) نياغوتوبى (الجمع) .

من أهل الفتى يتكون ، فى الغالب، من عماته وأخواته الكبريات إلى أهل الفتاة يحملن معهن هدايا كنوايا حسنة وتحية وسلامًا ، يطلق على هذه الهدايا اسم "جوو تغول" أو" جوتورى" إعراباً عن عزم عائلتهن ورغبتها فى طلب يد ابنتهم . يتم هذا الإجراء فى وقت يكون قد سبق تحديده فيما بين الطرفين . بعد ذلك ينهض أهل الفتاة برئاسة والدها ووالدتها ببحث جواز وصلاحية تزويج ابنتهم للفتى الخاطب من وجهة نظر التكافؤ الطبقى . وإذا كان الفتى ممن ينطبق عليهم شرط تكافؤ الزواج من تلك العائلة ولم تسبق خطبتها لشخص آخر ، عندئذ تطلع الفتاة إحدى عماتها أو خالتها على نبأ إقدام سيد عائلة الفتى على طلب يدها كزوج لأحد أبنائه ، مع الإشارة الى اسم الخاطب ، بعد تشاور يكون قد جرى بين كبار العائلة لأن الخاطب والمخطوبة هما "ديكرابى" أى متكافئان ويصلح الزواج فيما بينهما وإذا لم يكن ثمة أى مانع طارئ أو أية همسات اعتراض من جانبها ، وهو الغالب فى أمرها ، ذلك لأنها خاضعة لأحكام تقاليد العائلة وعاداتها القاضية بأن لا يكون لها خيار فى عظيم شأنها يناقض ما يتوصل إليه رب العائلة وحاشيته فى تعيين شريكها فى الحياة ؛ إذا كان الحاصل هو ذاك يكون الفتى قد استوفى شروط المضى قدما فى تنفيذ إجراءات لاحقة مستهدفاً استكمال العرس فى المجتمعات الفولانية . وليست الفتاة أوفر حظاً من هذا الشريك فى المستقبل من حيث إبداء الرأى سلباً أو ايجابياً إزاء ما يقرره كبراء عائلته فى هذا الأمر الجليل الشأن . هذا هو المصير الماثل فى حكم الأقدار لما يحياه العروسان ويموتان عنه لحاقاً ولموروثات الخلف من السلف الّذين

لم يكونوا أقل تأثراً بالأضرار المجهولة ولا أقل براءة ، ولا أكثر ضحية لتلك المصائر المحتومة التى تفرضها هذه العادات والتقاليد الفولانية . ومن هذا المنطلق وبدافع مفاخر تحكيم العادات والتقاليد، يوجه رب العائلة دعوة إلى وفد عائلة الخاطب يستحضره لإبلاغه بالرد على مطلبهم ، إما بالرفض أو بالموافقة . وفى الوقت ذاته يكون الخبر المفرح والمشجع قد تسرب إلى مسامع الطرف المقابل بواسطة سماسرة الأخبار الذين يتكونون ، غالبا من فئة المداحين الذين يسترزقون من ممارسة مهنة السمسرة في الأخبار وهى المهنة التى يستفيد منها العدو والصديق على حدّ السواء .

٢- ومن ثم تدخل عائلتا العروسين مرحلة الجد في اجراءات النكاح التى تبدأ بتحديد قيمة المهر المناسب وهو ما يعرف باللغة الفولانية بـ : "فتىّ" . وأقل قيمة لهذا المهر المعتبر فى المجتمع التقليدى بالبيئة الفولانية هو زوج من العجول الذكر والأنثى اللذين يطلق عليهما أصحاب العادات والتقاليد . بلغتهم الفولانيه "انغارى" للعجل و "نيلى" لأنثاه. وقد يتجاوز المترفون المقتدرون من أثرياء القوم هذا العدد حيث يصل إلى خمس عشرة بقرة أو يزيد . ويتم عقد النكاح حتى بخاتم من الفضة أو بآية من الذكر الحكيم . غير أن القيمة التقديرية الرمزية لهذه المهور تختلف بين أسرة وأخرى تمشياً مع القيمة التقديرية للفتاة المخطوبة من وجهة النظر التقليدية ، وما إذا كانت بكراً "سورباجو" أو ثيبا" "غورتالو" بلغة القوم . ويحبذ أهل الفتاة أن يتم تسديد المهر المحدد دفعة واحدة ما أمكن ذلك . ولا يستقبحون تقسيطه على مراحل فى حالة

تعذر الاختيار الأول . ويعلن المهر وقدره أمام الحضور يوم عقد الزواج . ويطلق على مرسوم الزواج بـ : "كورتوغو" للمفرد و "كورتوغوجى" (الجمع) . وهو يوم احتشاد الجماهير فى بيت أهل الفتاة أو فى المسجد الجامع أو أمام بلاط الملك لإشهاد الناس على ما تم من أمر الفتى والفتاة بموافقتهما على مواجهة الحياة كشريكين . وثمة هبة خاصة تستحقها الفتاة المخطوبة من خاطبها وهى رمزية .. شكلاً ومضموناً يسمونه "سفندى" أى "كوطن كى" بلغة الهوسا . وتختلف هذه الهبة عن المهر المسنون وتكاليف الكسوة والأمتعة التجهيزية اللازمة .

٣- باجتياز هذه المرحلة يصبح الفتى طرفًا مباشرًا فى إجراء عقد النكاح . إذ يقوم بمرافقة لفيف من أصحابه بزيارة أهل زوجه المقررة وإهداء عجلين ذكرين آخرين ، أحدهما إلى أم عروسه "انغارى انا" والآخر لأبيها "انغارى بابا" إسهاماً منه فى الاستعدادات التى تقوم بها عائلة العروس لإعداد الأطعمة فى يوم عقد النكاح والزفاف يستقبلون بها الضيوف المستقدمين من الأقرباء وغير الأقرباء الذين ينزحون إلى بيت عائلة العروس للاشتراك فى حفل عظيم الشأن فى تاريخ الفتاة والفتى . ومن يوم تقديم الفتاة الهدايا الإسهامية الماثلة فى العجلين يصبح ذلك عادة سنوية .. يكرم بها الفتى أهل زوجه فى الأعياد الدينية، لا سيما عيد الأضحى أى العيد الكبير . لكن يجوز له فى تلك المناسبات الدينية اللاحقة أن يكتفى بأن يهدى اليهم كبشاً ثميناً واحداً يبعث على السعادة والسرور . وبتلك المبادرة الأولى تقوم علاقة المصاهرة "اسراغو" بلغة

القوم بين العريس "سورباجوغوركو" وعائلة عروسه "سورباجودبّو" .
ويستحى الإثنان ، من حينه أشد الاستحياء أن يقرب أحدهما من الآخر تحت أنظار الأناس الآخرين حتى ولو فى إجراء الأحاديث المباحة إلى أن يتم عقد النكاح الشرعى بين الاثنين علنًا وإشهاد الناس عليه . وتكون الفتاة أشد استحياء وأكثر حرصاً على أن لا يقع منها أى شىء يعد عارًا لا سيما بكارتها التى تعكس شرفها الأوّلى والأساسى وشرف والديها وافتخار أفراد عائلة زوجها برمتهم . ويأمل كل منهم ، وهى أكثر أملاً فى أن يتم نقلها الى بيت زوجها سالمة وآمنة ، لكى تحظى بثقة زوجها فيها وبمزيد من محبته واعتماده عليها فى طور حياتهما الزوجية اللاحق . وتستطيع بذلك أن تشدد قبضتها العاطفية على وجدان حبيبها الجديد من التو وللأبد .
وللأهمية القصوى التى تعلقها الفتاة الفولانية على مسألة بكارتها ثمة أهازيج موروثة تناقلتها ألسنة الفتيات الفولانيات عبر تاريخ مجتمعاتهن التقليدية لتشجيع أنفسهن على ضرورة المحافظة على شرف أنوثتهن . ألا وهو تلك البكارة مهما يكلفهن ذلك من التضحية . ومن هذه الأناشيد أو المقولات المأثورة ، القطع الشعرية التالية :

بنددا بجبنا : بتشودا بتورا
دينو ، ببينى : كوبى بومبى(٢٠)

---

(٢٠) المفرد : بومبرى .

أى :

من حسـن حـظ فتياتنـا .. أن حملن فى بطـون أمهـات
شـريفـات بوضعهـن .. ثـم زوجـنهـن أيضـا
بشـرف ووجـدن .. فيقـال لهـم أنتـن أبكـار

ومن ناحية الفتى يكترث كل الاكتراث بالأ يبدى سلوكاً يخل بشرفه ومكانته المرموقة لدى تلك العائلة التى وهبت له زوجا من بناتها . وان يتحلى بأخلاقيات ويلتزم مواقف تصون له تلك المكانة المرموقة والشرف الموفور فى أنظار تلك العائلة وبمنزلتها فى بيئته الفولانية . يعود الفتى ورفقاؤه من زيارتهم إلى بيت أصهاره ، بعد بضعة أيام إذا كانت المسافة بين مكانى العائلتين بعيدة .

لكن إذا كانت العائلتان فى بلد أو قرية واحدة تكون عودة العريس ورفقائه فى نفس اليوم . ومن تاريخ تلك الزيارة يصبح لزاماً على الفتاة والفتى أن يكنّا لأهليهما الاحترام البالغ المتبادل دوماً . فكلما التقى الفتى بأحد والدى زوجته أو كليهما أو بمن يكون بمنزلتهما يتعين عليه الإسراع إليه وخلع نعليه والانحناء أمامه ليلقى عليه تحية وسلاماً . ويعتبر عاراً كل عار إن هو حاول مصافحة هذا الصهر باليد .

٤- ومع تخطى المراحل السابقة تدخل إجراءات العرس طوراً حرجا بتحديد يوم الزفاف الذى يطلق عليه أصحاب تحكيم العادات والتقاليد الفولانية "ينغى" (المفرد)" و "ينغيجى" (الجمع) . ففى هذا اليوم يرتجف قلب أم الفتاة وأبيها خوفاً من أن يأتيهما مكروه من طرف ابنتهما يمسّ

شرفها الأنثوى . كما يضمران أملاً مكتوماً فى نفسيهما فى أن ينقضى نهار الزفاف وليله بخير وأمان . وفى أن يجدها زوجها الحديث العهد بحياتها بكراً ، كما يتوخى أن تكون فى أطيب حال أثناء لقائه إياها ليلة الزفاف العظيمة الخطر ، وأن تكون بعيدة عن أثر لمسات الشيطان الرجيم الذي يخشى أن تكون الفتاة قد وقعت فريسة له من جراء غوايات الطفولة الضالة قبل التقائها الشرعى بهذا العريس، أو أن تكون قد وقعت ضحية انحراف خلقى مشؤوم . ففى أوساط أولئك الحيارى فى أمر الفتاة الفولانية المقبلة على الزواج المحتوم المبكر ، وقبل حلول تاريخ العقد المحدد بوقت وجيز أى بحوالى ثلاثة أيام أو أسبوع واحد وفق اقتدارات متباينة تتوجه اثنتان أو ثلاث من أقرب صديقاتها إلى منزل عائلتها للزيارة ويبادرنها بأحاديث اعتيادية بدون إشعارها بأن ثمة مهمة خاصة تكمن وراء تلك الزيارة الفجائية . وفى الوقت نفسه تكون هناك امرأة عجوز وطبال يحمل آلته يتربصان بالفتاة . وفى ذلك الوقت يتسرب إلى نفسها الشعور بقلق مريب يساورها بحافز الحدس الرّبانى أثناء جريان هذه الأحاديث المزعومة مع رفيقاتها الزائرات . غير أنها مغلوبة على أمرها لأنها وقعت فى تلك الآونة فى كمين محكم ، لا حيلة لها ولا قوة أمامها . فإذا بتلك المرأة العجوز المختبئة تفاجئ الفتاة المغلوبة على أمرها بينما هى جالسة وسط الرفيقات وتلقى على جسمها قطعة من الحناء المعجنة (بودى) "بلغة أهل تحكيم العادات والتقاليد الفولانية . وعلى التو تهجم تلك الرفيقات عليها ، هن الأخريات يدلكن سائر جسمها بذلك الحنّاء . فى حينه يظهر الطبال ويضرب على

آلته وتتوالى زغاريد النساء من هنا وهناك معلنة أن مراسم الزّفاف قد بدأت . وبتلك الإشارة التقليدية يحتشد أولاد الحارة وبناتها من بعيد وقريب أمام منزل أهل الفتاة التى باتت عروساً . وفى طور الإعداد لانتقالها إلى منزل زوجها ، وبمرور وقت وجيز وتوالى ضجيج الطبول وزغاريد الرفيقات، تحضر ربات البيوت وسيدات الحارة وبنات خالات الفتاة وأخوالها وعماتها من الفتيات والأخريات للاشتراك فى حفل الرّقص الشعبى الجارى على دقات الطبول حتى منتصف الليل عندما ينفض الجميع .

٥- يتم عقد الزواج فى اليوم المحدد الذى يطلق عليه القوم: "ينغى كورتوغو" فى أحد الأماكن المذكورة سابقاً . فى يومه يقوم إمام المسجد الجامع أو من ينوب عنه بإعلان المهر المقدر على الفتاة أمام الحضور . ويتلو شروط النكاح المسنون بأركانه الأربعة . أى الطلب والموافقة والمهر والشهود العدول . ويتلو عليهم مستوجبات النكاح وفضائله بمدلول آيات قرآنية وتوجيهات الرسول ، عليه أفضل الصلوات والسلام . ثم يختتم بأدعية ويطلب إلى المشايخ الآخرين أن يسهموا بإسداء النصائح العامة . وتختتم جلسة البساط هذه بتلاوة فاتحة الكتاب والصلاة على النبّى عشر مرات عملاً بالقول المأثور عنه ، عليه أفضل الصلوات والسلام . ثم يقوم المقاتلون التقليديون القدامى بإطلاق نار البنادق البارودية والمدافع فى الهواء يعلنون بذلك عن النصر المحقق فى شأن الزواج . وتنتقل العروس الى مسكن زوجها فى آخر ذلك النهار أو بعد صلاة العشاء أو بعد ذلك

بليال وجيزة ، حسب استعدادات العريس وعائلته من حيث تجهيز البيت الذى يستقبل فيه عروسه. وتقوم نساء ، غالباً من الطبقة الاجتماعية الثالثة فى حكم العادات والتقاليد الفولانية ، يترأسهن أحد كبار عائلة العروس ، ويكون صديق والدها فى الغالب، بمرافقتها إلى بيتها الجديد حيث يستقبلهم نظراؤهم فى نفس التشكيل والطبقة من عائلة العريس لأن العروسين متكافئان فى الزواج بمنطوق العادات والتقاليد الفولانية .

٦- لا يكون جانب العريس وعائلته وأصدقاؤه وأخواته أقل نشاطا واهتماماً مما ألفه جانب العروس فى ذلك اليوم العظيم فى تاريخ العائلتين وابنيهما المقابضين فى عروة الزواج وأصبح الاثنان يعرفان ب : سورباجو غوركو (العريس) وسورباجو ديبوّ (العروس) بلغتهما القومية . وبعد انتقال الفرح إلى بيت العريس وقيام أفراد عائلته باستقبال عروسه والمرافقين لها ، لا سيما أختها أو أخواتها الصغيرات وصديقاتها وخادماتها (نيمبى) ، يقوم العريس بذبح ثورين أو ثور واحد أو كبشين على الأقل تكريماً للزوار المرافقين للعروس . هذا ما يعرف عندهم ب : "غوسى". ينتهى هذا الحفل فى اليوم الثانى من تاريخ انتقال العروس الى بيتها الجديد . بعد ذلك يغادر الجميع تاركين العروس فى كفالة زوجها . وبعد مرور أسبوعين أو ثلاثة أسابيع يعد العريس موكباً يضم لفيفاً من أصدقائه وأصحابه راكبين على خيولهم الأصيلة المختارة التى أسرجوها وألجموها بسروج وألجمة ملونة ومزخرفة لامعة وبراقة . وللخيل مكانة خاصة فى الأعراف الفولانية . اذ يقدرون ويمجدون التشكيل اللونى للخيول . ويعتبر الشخص الذى

يمتلك الخيل المطهمة محظوظاً أى "ملاطو". ويتباهى بتلك الهبة الرّبانية فى أوساط قومه: وفيما يلى أسماء ألوان الحيوان :

اسم الخيل	الاسم بالحروف اللاتينية	الوصف

١- تشاجو (ج-تشاجى CHAJO (ذات اللون الأبيض للجبهة والأرجل الأربع) .

٢- كو (ج-كوى KOW (ذات اللون الأبيض أو الأسود الفائق للجبهة)

٣- كونغورو (ج-كونغورى KONGORO (ذات اللون الأسود الفائق للجسم كله) .

٤- بولو (ج-بولى BOLO (ذات اللون الأحمر الفائق للجسم كله).

٥- بريوو (ج-بريجىBARIWO (ذات اللوم الأبيض الفائق للجسم كله).

ويستحسن بهذه المناسبة أن نذكر الأوصاف الأساسية للبقر أيضا. وهذه الأوصاف هى :

الاسم	الاسم بالحروف اللاتينية	الوصف باللغة الفولانية

١- سومى (ج-تشومى SOOME (ذات اللون الأبيض الفائق للجسم كله).

٢- دومارى (ج-دومار DUMARE (ذات اللون الأبيض للجبهة والجزء العلوى للظهر) .

٣- داكى (ج-دكى DAAKE (ذات اللون الأبيض عند الرقبة) .

٤- توددا (ج-تودى TODDE (ذات النقاط اللونية المشكلة) .

٥- تريكاى (تريكى TREKAYE (ذات اللونين الأسود والأبيض الغليظين) .

٦- يتوجه موكب "سورباجوغوركو/جونبا جوغوركو" العريس والنفر المرافقون له والمكون من لفيف من أصحابه المقربين لابسين أزهى ثيابهم وهم على ظهور خيولهم المفضلة والأصيلة "ديماجي"(٢١) يتوسطهم بطلهم "سورباجو" يتوجهون لهجين بالضراعة ولسان الشكر إلى بيت عائلة العروس "سورباجو دّبو"/ جونباجو دبّو" أى أصهارهم ليعربوا لهم عن بالغ التقدير والشكر والامتنان . ويتلقى الموكب ، لدى الوصول إلى البيت المقصود ، عظيم الترحاب والحفاوة من قبل أفراد عائلة العروس الذين يكونون على أهبة الاستعداد لاستقبال ضيوفهم أولئك بفارغ الصبر والتطلعات الخيرية. ويعود الفتى والموكب المرافق له إلى مقر إقامته المستديم بعد انقضاء فترة زيارته التشريفية إلى أصهاره ليباشر الحياة الزوجية العادية الطبيعية ويواجه ظروف الحياة الكادحة وفق الحكمة الفولانية المأثورة :

١- "جنغى" أيها القوم تعلموا.

٢- دورى" أيها القوم ربُّواْ المواشى.

٣- " ديمى" أيها القوم ازرعوا الأرض.

ليس للفتى بعد الآن عدا اختيار أحد المجالات المهنية المشار إليها أو الجمع بين اثنين منها أو الانخراط فى الثلاثة معًا سواء بالتبعية أو الاستقلال حسب الفرص السانحة والمتاحة له من الموهبة والاسترشاد التوجيهى

---

(٢١) المفرد "دماغو" .

والاقتدار المادى . وإذا كان الفتى ممن كتب لهم سؤدد الانتماء إلى بلاط الحكم باحتكام العادات والتقاليد الفولانية سواء بالتبعية أو الأصالة ، فإنه يتعين عليه الالتزام بمبدأ ذلك الانتماء الذى ينحصر فى النصائح الثلاث الآتية :

٢- "تاككو" التزم جانب البلاط بعدم مخالفته أبداً .

٣- " توككو" التزم صفة التبعية والطاعة دوماً .

٤- " هوتوتيككو" ولا تبد علامة الغضب والاغتياظ أبداً .

٨- يتجاوز الفتى الفولانى طور الشبيبة الطائش "كايجو" ويدخل طور الكهولة المسترشد "باليكى" فى بيئته الفولانية . آنذاك يحتسب له الوزن فى اعتبارات الأعيان وفى توجيه شؤون البيئة . ومن تلك الساعة تسرى عليه تسمية "جونغللى" أى رب الأسرة وعلى زوجته "جونسودو" أى ربة البيت. كما تطلق عليها وعلى ضرائرها إن وجدن ، التسميات الفخرية التالية وفق الترتيب التاريخى لانضمام كل منهن إلى أسرة "جونغللى" .

١- "جيو/جيكيل" باعتبارها الزوجة الأولى .

٢- " لمبيل" باعتبارها الزوجة الاثانية .

٣- " لمبيطيل" باعتبارها الزوجة الثالثة .

٤- " نيوبيرطو" باعتبارها الزوجة الرابعة.

يكون "جونغللى" فى هذا الحال من بين الذين يرغبون فى الاستفادة بحكمة التشريع الإسلامى السنى الخاص بتعدد الزوجات ، كما يستحسن أن يكون هو أحد طوال الباع القادرين على الامتثال للعدل المادى

المطلوب فى تصريف الأحكام بين الزوجات وعلى الإنفاق بحقوقهن المشروعة والابتلاء بالبلاء الماثل فى تلك الممارسة بعينها فى تلك البيئة. إذ يبتلى "جونغللى" ببلاء حسن عندما ينعم اللّه عليه فيرزقه أبناء ذكورا وإناثاً فيختار لهم الأسماء الإسلامية التقليدية المقتبسة من صفات التفاؤل أو من بين أسماء أنبياء ألله ورسله وملائكته الكرام أو كتابه العزيز أو من بين أسماء الصالحات الطيبات من جدات وأمهات المؤمنين أو اسم الحرمين الشريفين ، فيقول للذكر : مكّى أو مدنى ، وللأنثى : مدينة ، اضافة إلى ما يلزمه كل طفل أو طفلة من الأسماء الفولانية المدرجة فى سلم الموجودين فى تاريخ أسرة "جونغللى" . وهذه الأسماء هى كالآتى :

أولاً – أسماء أبنائه الذكور :

١– المولود الأول (البكر) = حّمادو/ أفو/كولا .

٢– المولود الثانى = سامبا / سامباجو/سامبو .

٣– المولود الثالث = يايرو / يرو .

٤– المولود الرابع = باتى/باتيه .

٥– المولود الخامس = دمباه .

٦– المولود السادس = انجوّبو / انغوّبو .

ثانياً – أسماء الإناث :

١–المولودة الأولى (البكر) = ديكو/ديكوجو/فانتا (فاطمه) .

٢– المولودة الثانية = كومبا .

٣- المولودة الثالثة = بندو/بندا.

٤- المولودة الرابعة = دادو.

٥- المولودة الخامسة = جنسجى/جنجودو/جنجدو.

أما المولود الأخير أى الأصغر فى الأسرة، سواء ذكراً كان أو أنثى فيطلق عليه أو عليها اسم "كودّو" وهى تسمية مشتركة بين الذّكر والأنثى وعكسها "أفو" للبكر سواء الذكر أو الأنثى . وكذلك توأمين يطلق عليهما "فونوبى" والواحد منهما "فونيجو" أو "فونى" .

ويجوز تكرار هذه الأسماء من أولها اذا تجاوز الأبناؤ المولودون هذا العدد . وثمة أسماء للتفاؤل (يلا) أو التظاهر بالتشاؤم أو التّطير أملاً فى أن ينقلب معنى التشاؤم المتضمن فى الاسم إلى الخير المرجو المضاد . ومثال ذلك المرأة الثكلى "باراطو" **PARADO** التى تفقد مواليدها تعمد إلى أخذ مولودها الجديد ووضعه فى المكان المخصص للنفايا بضع دقائق ثم يطلق على المولود اسم "ديجيرى **DIJJERE**" أى محل نفايات ، اعتقاداً فى أنه سوف يكتب له بذلك طول العمر . أما أسماء وصفات التفاؤل "يلا" فإنها تستخدم فقط للأفراد دون الطبقة الرابعة أى "نيانمبى " **NYANBE** أى الأقلية المبعثرة التى لا زالت على معتقدات الفطرة ولا تدين بالإسلام عقيدة وعملاً بحكم الجهل المتفشى وللابتعاد عن الحضارة العصرية ولغلبة الحياة البدوية عليها فى حلها وترحالها . ولهذه الأقلية شعوذات شفهية خرافية تلجأ إليها لمصارعة الكوارث ونوازل الدهر وإزالة الآلام ومحاولة

التغلب على الطبيعة . تعرف هذه الشعوذات ب : "تشوفى" **CHOFFE** بلغتهم أى النفث . ويطلق عليها فى بعض الأوساط الفولانية "ساركوولى". وهى عبارة عن ألغاز يزعم أصحابها بأنها من كلام الجان والشياطين. يتكون "شووفى" من الكلمات المتقطعة التالية يتلوها صاحبها ثلاث مرات وينفثها فى عقد حبل عند ربطه ، يكرر هذه التلاوة على ثلاث حلقات حبلية (مقودية) متباعدة ثم يشدها. وبعد ذلك يضع المقود فى المكان المقصود لقضاء حاجته . وهذه الكلمات هى: "ياتجو- ماتاجو- هاجا- موس موس" .

وفيما يلى بعض أسماء التفاؤل التى يستخدمها أفراد هؤلاء الوثنيين من هذه القبيلة : "جام" السلام "كاوطو" شديد البأس، غيطال "النصيب" "جوطوما" المعمر ، "ملل أو ملاطو" المحظوظ، و"كورسطو" المحبوب إلى آخره . وتجدر الإشارة إلى أن هناك من المسلمين من أبناء هذه القبيلة الذين لا يرون ضيرا فى الاحتفاظ بهذه الأسماء إضافة إلى ما يتقلدونه من الأسماء الإسلامية .

٩- ويتخطى جونغلى "مرحلة" الكهولة المسترشدة " باليكاكو" بعد عمر مديد حافل بتقلبات السؤدد ومحن الابتلاء ، ليدخل مرحلة "نواكو أو نايوال" أى الشيخوخة المستقيمة حيث تتجلى فى بصيص أبصاره حقائق عن الحياة وتجاربها الكادحة . فعرف أنها حقائق تختلف عن أنماط الحياة التى طالما مال إليها فؤاده فى مرحلتى الطفولة والشبيبه "كييجو" اللتين اجتازهما . أصبح "جونغللى" يعرف من توه ب : "غوركو موطو" أى الرجل الكبير ، إجلالاً له بحكم السن وزوجه "جونسودو" تعرف هى الأخرى ب : "دبّوموطو" أى

السيدة الكبيرة . أخذ "غوركوموطو" يتأمل فى مسيرات الحياة وعواقبها ولسان حاله يتعظ بالعبرة الماثلة فى مصداقية قوله تبارك وتعالى فى محكم كتابه العزيز :

أ- ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيد﴾(٢٢)

ب- ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُم وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ﴾ (٢٣)

ج- ﴿وَمَاالْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(٢٤)

د- ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾(٢٥)

١٠- يجلس "غوركوموطو" متربعاً ومتكئاً على شجرة وارفة الظلال ليعاود تلك التأملات مرة تلو الأخرى . ويريد أن يستخلص درساً ثابتاً عن حقيقة الحياة التى تحيط بالفرد فى مجتمعه الإنسانى فلم يجد أصدق مما

---

(٢٢) الآية : ٢٢ من سورة ق .

(٢٣) الآية : ٢٠ من سورة الحديد .

(٢٤) الآية : ٢٠ من سورة الحديد .

(٢٥) الآية : ٣٦ من سورة محمد .

لخصها كتاب بارئ الإنسان فى وجيز قوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾(٢٦)

فعرف أن عمر الإنسان لا يبرح دائراً فى فلك أطوار أساسية ثلاثة هى : طور نمو أوّلى متسم بالضعف الجبلى والاتكال على الغير ، وطور وَسَطى متسم بالكهولة ومتميز بالقوة والنشاط البدنى ، ثم طور شيخوخة متدهور بفعل العلل والانتقاص من كمال الإنسان . شرحاً وتوضيحا لمحتوى تلك الآية من الذكر الحكيم يستدعى "غوركوموطو" أبناء العائلة ليلقنهم بعض أقوال الحكماء فى بيئتهم الفولانية حول الإنسان وأطوار حياته . فيبدأ قائلا : اعلموا أن الإنسان هو بطل هذه الحياة ومحور العناية الربّانية فيها . وعلى هذا الإنسان أن يمر بمراحل النمو الاعتيادية التى تنتهى به إلى مرحلة استكمال تلك العناية الربانية مع الانتقال إلى الحياة الأخرى . واعلموا أن هذه المراحل تضم سبعة أطوار يمر بها الإنسان من تاريخ ولادته الى يوم وفاته . وفيما يلى هذه الأطوار الخيالية :

أولاً - طور مرتبة الملك "لاميطو" يكون فيه الإنسان بمثابة الملك وهو طفل رضيع يحافظ عليه كل النّاس ولا يرد أو يخالف له مطلب . يحظى بمحبة وولاء أفراد عائلته واهتمامهم به ورعايتهم له .

---

(٢٦) الآية : ٥٤ من سورة الروم .

ثانياً – طور مرتبة العبد : يدخل الإنسان طور العبودية بعد اجتياز مرحلته الأولى ، وفى هذا الطور يبدأ الإنسان فى تلقى أوامر التربية والتوجيهات الأولية لتكوين سلوكه لمواجهة الحياة وما بعدها .

ثالثاً - طور مرتبة المشورة / المستشار "بتا" : يصل الطفل فى هذا الطور مرحلة النضج النسبى بعد مروره بطور التكوين التربوى السلوكى، ففى هذا الطور يحتسب له رأى فيما يخص حياته كفرد بين أفراد العائلة. تقدم له المشورة إن كان به اعوجاج ويلقى التشجيع إن كان على صواب .

رابعاً – طور مرتبة الحمار "دكيرى" يقول الحكماء: بعد الأطوار الثلاثة التى يتلقى الإنسان من خلالها تكوينه الجبلى الإنسانى البحت يشارك بلسان حاله بعض حيوانات الدنيا فى صفاتها ، فيكون الإنسان فى طور مرتبة الحمار، حيث يدخل مرحلة تكوين الاسرة مع الإنجاب وتحمل مسؤولية تربية أبنائه وأبناء إخوته الآخرين والنهوض بالإنفاق عليهم بمقتضى تحكيم الأعراف الفولانية ذات النسيج الأسرى الممتد . ففى هذه المرحلة يكون الإنسان أشبه بالحمار الذى يحمل عبء مسؤوليات يستفيد منها شخصياً بنصيب أقل. يكون همه الأول والآخر هو توفير الخدمات التى تدخل السعادة فى نفس زوجه ونفوس ما أنجبت هى وسائر نساء العائلة .

خامساً – طور مرتبة الكلب "روانـدو" يتصـف الإنسـان بلسـان حالـه بصفة الكلب فى هذا الطور الذى أصبح فيه كهلاً وأبنـاؤه يـافعون . فينبـح دائماً مثل الكلب ليؤنب الأبناء فى تصرفاتهم الصبيانيـة الطائشـة . ويحـذر الأبناء الذين يهمسون فى أذان بعضهـم البعـض عنـد-مـا يسـمعون صـوت "جونغللى" / غوركوموطو" الذى ينبح اذا أحس بمخالفـة أمـر مـن أوامـره وبجـانبهم "جونسـودو/دبّوموطـو" أى ربـة البيـــت فـــى تلـــك الهمســـات والغمزات .

سادساً – طور مرتبة القرد "واندو" : يتصـف الإنسـان بلسـان حالـه، بصفة القرد فى هذا الطور لأنه مقبل فيـه علـى سـن الشـيخوخة "نيواكـو". يحاول فيه تجنب ضجيج الدنيا والبيئة المحيطـة بـه والابتعـاد عنهـا فيشـبه بحاله هذا حال القرد الذى يبدو ضعيفاً بليدًا بالمقارنة مع الحيوانات البريـة الأخرى . لذا يتجرأ عليه الصبية بالملاعبة .

سـابعاً – طـور مرتبـة الحيـــة أو الثعبـــان "بوغولليـدى". وهــذا هــو الطـور السـابع والأخير مـن أطـوار حيـاة الإنسـان كمـا جـاء فـى تحليـــل الحكمـاء فـى البيئـة الفولانيـــة . فيتصـــف الإنســـان بلســـان حالـــه ، فـــى هـذه المرحلـة بصفـة الحيـة التـى تظـل زاحفـة علـى الأرض . وهـــى مـــن أهلها فى المرتبة الدنيـا ، وكـل حـظ لـم يهبـط إلـى مستواها فليس لها نصيـب فيـه . وكذلـك الانسـان الـذى يطعـن فـى السـن ليس بوسـعه أن يرتقـى عـن مستواه فـــى الانحنـــاء علـــى وجـــه الأرض . وفيهـــا يتـــوارى بانتقـاص وضعـف تدريجييـن مسـتمرين الـى أن تبتلعـــه هـــذه الأرض فـــى

نهايــة الأمــر مصداقــاً لقولــه تبــارك وتعــالى ﴿مِنْهَــا خَلَقْنَــاكُمْ وَفِيهَــا نُعِيدُكُــمْ وَمِنْهَــا نُخْرِجُكُــمْ تَــارَةً أُخْــرَى﴾(٢٧)

بعد هذا السرد للقصة الأخلاقية يسترد "غوركوموطو" أنفاسه ويهز رأسه فيردف قائلاً : أبنائي ! اعلموا أن تلك هي الحقيقة الثابتة عن حياة الانسان على ظهر هذا الكوكب العائم . ومن أراد منكم أن يتعظ وينجو من الابتلاءات ومكائد الخلائق المكتومة فيه ، فعليه أن يتدرع بالمحصنات الأخلاقية الثلاث التالية :

١- يجب عليه أن يعرف قدر نفسه فيما له أو عليه من أمور الحياة قبل النهوض بأي عمل إزاء هذا أو ذاك .

٢- يجب عليه أن يكون على دراية بالعالم المحيط به من قريب أو بعيد .

٣- ويتعين عليه ، فوق هذا وذاك أن يحتمي بمعرفة اللّهِ ، خالقه وخالق كل ما سواه وبالاعتماد على هذه الخصال الثلاث يصبح الإنسان قادرًا على مجابهة الحياة الكادحة والتغلب على صعابها والاتمتاع بنعمها بطريقة فضلى ويلاقي ربه في نهايتها بنفس مطمئنة متعظة بقوله تبارك وتعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِت وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ... وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَة كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾(٢٨)

صدق الله العظيم

---

(٢٧) الآية ٥٥ من سورة طه.

(٢٨) الآية : ٢٤،٢٦ من سورة إبراهيم .

ويقول الرّسول عليه أفضل الصَّلَوَاتِ والسّلام مامعناه : إن العنصر الطيب فى الجاهلية هو العنصر الطيب فى الإسلام . لهذا يجب عليكم أن تختاروا لأنفسكم ذريات طيبة من الأصول الطيبة التى نبتت من أصلاب الصالحين . وتذكّروا ماقاله الحكماء فى بيئتكم :

"بِى لاَ لِيطُو تَشَاهِيطُو بُورَتَا بِى تَشَاهِيطُو تَشَاهِيطُو عِسَاكُو" - أى ابن الإنسان الوحش أو الصعلوك وإن كان طَيِّبًا لا يعلو على ابن الإنسان الطيب وهو أيضا طيّب فى الطيب . وبالمثل : بى تَشَاهِيطُو لاَلِيطُو بُورَتَا بِى لاَلِيطُو لاَلِيطُو عِلاَلو - أى ابن الإنسان الطيّب وان كان وحشاً وصعلوكا فإنه لاينحط عن ابن الإنسان الوحش والصعلوك وهو أيضاً وحش وصعلوك فى الوحشية والصعلكة .

اعلموا إذن أن طيب النّفس والعمل الصالح القائم على تقوى الله والأخلاق الفاضلة هى ميزان التفاضل بين الأفراد والأمم .

يقول تبارك وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيم خَبِيرٌ﴾ (٢٩) .

وقال الحكماء فى ذلك : للمرأ ثلاثة رفقاء فى مسيرة الحياة . رفيق يودّعه إلى مثواه الأخير وهو حزين بالمفارقة ، هذا هو رفيق العمر . ورفيق يودّعه إلى مثواه الأخير وهو فرح بالمفارقة ، هذا هو عدو العمر. ورفيق

---

(٢٩) الآية : ١٣ من سورة الحجرات .

يشاركه الرّكود فى ذلك المثوى للأبد ، ذاك هو عمله الذى اكتسبه فى حال حياته . فتدبروا الحكمة الكامنة فى أقوال الشاعر الإسلامى أحمد شوقى :

"صَلاَحُ أَمْرِكَ للأَخلاَقِ مَرْجِعُهُ فَقَوِّمِ النَّفْسَ بِالأَخْلاَقِ تَسْتَقِمِ"

"وَإِذَا أُصِيبَ الْقَوْمُ فِى أَخلاَقِهِمْ فَأَقِمْ عَلَيْهِمْ مَأْتمًا وَعَوِيلاً"

"وَإِنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلاَقُ مَابَقِيَتْ فَإِنْ هُم ذَهَبَتْ أَخلاَقُهُمْ ذَهَبُوا"

"ولقد يقام منَ السُّيُوفِ وَلَيْسَ مِنْ عَثَرَاتِ أَخْلاَقِ الشُّعُوبِ قِيَامُ"

يتوفى "غوركوموطو" بعد حين إلى رحمة الله فتصبح زوجته "جونسودو/دبّوموطو" تعرف ب "سوداطو" أى داخلة فى فترة الحداد الشرعى التى تستغرق أربعة أشهر وعشرة أيام. وبعدئذ تصبح "سوديتاطو" أى متحررة من شروط الحداد الشرعى. يباح لها عندئذ أن تمارس من الأنشطة كل ما يحلو لها من الحياة الاجتماعية المشروعة لتنتظر هى الأخرى دورها للانتقال إلى الرفيق الأعلى والانضمام إلى "جونغللى" لحاقا .

الجنس الفولانى ومفهوم الهجرة :

ورد فى كتب التفسير والفقه الإسلامى عديد من معانى الهجرة مع انسجامها فى المغزى ؛ وهى تعنى فى جملتها الانتقال من حال إلى حال أو من مكان إلى مكان آخر . فثمة هجرة إلى الله ، بمعنى الانتقال من حال الى حال . كما أن الهجرة قد تكون فى سبيل الحصول على العلم أو

سعياً وراء الرزق أو نهوضاً بواجب تقديم المساعدة إلى اناس آخرين . وقد تكون أيضًا هرباً من الظلم . وفى تفسير قوله تبارك وتعالى فى سورة النساء : "ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الارض مراغماً كثيرا وسعة"(٣٠). ذكر الإمام القرطبى نقلاً عن ابن العربى أن العلماء قسموا معنى الهجرة قسمين على الوجه التالى :

أولاً - بمعنى الهروب . وهو ستة أنواع :

١- الخروج من دار الحرب إلى دار السلام . وكان فرضاً فى أيام الرسول عليه أفضل الصّلوات والسّلام .

٢- الخروج من أرض البدعة . قال ابن العربى إن المنكر إذا لم يستطع أن يغيره فيعتزل عنه ويبتعد مستنداً إلى قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾(٣١)

٣- الخروج من أرض غلب عليها الحرام . فإن طلب الحلال فرض على كل مسلم .

٤- الفرار من الأذية فى البدن . فإذا خشى المرء على نفسه من أى ضرر يؤذيه فقد أذن له الله فى الخروج والفرار بنفسه ليخلصها من

---

(٣٠) الآية : ١٠٠ من سورة النساء .

(٣١) الآية : ٦٨ من سورة الأنعام .

المكروه . وأول ما فعله إبراهيم عليه السلام أنه لما خاف من قومه قال: ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى﴾(٣٢) .

٥- الخوف من المرض فى البلاد المبتلات بالوباء والخروج منها إلى أرض المعافاة .

٦- الفرار خوفاً من الأذية فى المال ، فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه .

ثانياً - الخروج فى طلب العلم :

ينقسم هذا النوع من الهجرة عند الإمام القرطبى إلى قسمين:

أ- الخروج لطلب العلوم الدينية الإسلامية وتأدية الفرائض. ويشمل هذا النوع الخروج إلى الحج والجهاد إلى آخره.

ب- الخروج فى طلب مكاسب الدنيا . مثل التجارة والسعى وراء الرزق والمعاش وطلب العلوم الدنيوية إلى آخره .

ثالثاً - يقسم صاحب تفسير المنار معنى الهجرة ودوافعها إلى ثلاثة أنواع على الوجه التالى :

أ - أنه لا يجوز للمسلم أن يقيم فى بلد يكون فيه ذليلاً، مضطهدا ومسلوب الحرية الدينية أو الشخصية . فيجب عليه فى هذه الحالة أن يهاجر من ذلك البلد حتى لا يفتن فى دينه أو يعانى من المذلة والانكسار .

---

(٣٢) الاية : ٢٦ من سورة العنكبوت .

لذا فإنه يذهب إلى بلد آخر يسترد فيه حريته الشخصية وكرامته الدينية . وإذا لم يفعل ذلك فإن إقامته فى ظل الذل والفتنة تصبح معصية يترتب عليها عدد من المعاصى .

ب- الخروج فى الهجرة لتلقى الدين والتفقه فيه . على هذا لا يجوز للمسلم أن يستقر فى مكان ليس فيه علماء الدين أو مركز من مراكز تعليم الدين . لأن من شأن مثل هذا الاستقرار أن يجعله جاهلا بأمور دينه ومندثراً بعقيدته الإسلامية ، وليس هناك سبيل لتجنب هذا المصير إلا بالهجرة .

ج – عندما تكون الجماعة الإسلامية ضعيفة ويخشى عليها من الاعتداء والغلبة، حينئذ يجب على المسلمين أينما كانوا أن يشدوا أزر تلك الجماعة ويهاجروا إليها لتعزيز قدرتها والذود عنها حتى يقوى جانبها وتنهض برسالتها فى عمارة الأرض وتبليغ الخلق الدين الحنيف .

ذلك هو معنى الهجرة ودوافعها بالاختصار من المنطلقين الإسلامى والإنسانى .

نعود الآن إلى قضية الهجرة وعلاقتها بالجنس الفولانى. يعتبر أبناء هذا الجنس أكثر انتشاراً من بين أبناء القارة الإفريقية فى جنوب الصحراء ولا يسعنا إلا أن نرجع الدافع من وراء هذا الانتشار الذى امتد من غرب القارة الإفريقية إلى مشرقها مكتسحاً مناطقها الوسطى وأجزاءها الجنوبية وصولا إلى شبه الجزيرة العربية ، إلى عامل الهجرة بمعناه المتعدد . إذ يثير

هذا التوضيح الوجيز العابر تساؤلاً هاماً حول الموطن الأصلى وأماكن الاستقرار للفولانيين فى الوقت الراهن .

وللإجابة على هذا التساؤل ، أشير إلى أن المنشأ الأول للجنس الفولانى هو منطقة فوتا تورو أو منطقة ماسينا(٣٣) .

ومن هذه الأمكنة بدأت حركة الهجرة الأولى للجنس الفولانى منذ آلاف السنين . ومنها انتشروا فى مختلف أرجاء إفريقيا جنوب الصحراء . إذ يوجد أبناء هذا الجنس فى الوقت الحاضر فى كافة مناطق السهل لغرب إفريقيا ووسطها وشرقها مع التركيز المستديم على كل من جمهوريات : مالى، موريتانيا ، السنغال ، جامبيا ، بوركينا فاسو ، غينيا ، غينيا بيساو ، النيجر، نيجيريا ، الكاميرون ، والسودان .

الأسباب الرئيسية لهجراتهم :

يقسم المؤرخون المعاصرون أهم الدوافع الكامنة وراء هجرات الفولانيين من موطنهم الأصلى ، إلى العوامل الأساسية الثلاثة التالية :

١- السعى وراء المراعي والأراضى الخصبة الصالحة لتربية المواشى والزراعة .

٢- الدوافع السياسية المتعلقة بغزو الاستعمار الغربى المسيحى لبلادهم .

٣- الدافع الدينى الإسلامى .

---

(٣٣) يختلف على ذلك المؤرخون المعاصرون . راجع اكتشاف خبير الآثار الفرنسي، هنرى لهوت فى الفصل الثامن لهذا الكتاب.

بالنسبة للدافعين الآخرين ، يجدر ، أن أتحدث عنهما بشيء من التفصيل لأهميتهما التاريخية والدينية والسياسية والاجتماعية .

تعرضت منطقة الغرب الإفريقي خلال حقب تاريخية متعاقبة للاحتلال الأوروبي الاستعماري ، البرتغالي والألماني والإنجليزي والفرنسي . وفي خلال تلك الفترات شهدت منطقة السودان الغربي والوسطى وعموم غرب إفريقيا صدامات دامية بين شعوب المنطقة وممالكها وإمبراطورياتها من ناحية وجيوش الاستعماريين الأوروبيين الغزاة من ناحية أخرى .

وقد اتخذ هذا الاحتلال الاستعماري صوراً استدراجية احتيالية مختلفة، بدءا من التستر وراء شركاتها التجارية المعنية باستيراد منتجات صناعية الى فريساتها المجتمعات المستعمرة (بفتح الميم) وابتياع موادها الخام المتمثلة في الثروات المعدنية والزراعية (الخشب والأحجار النفيسة وفي الاسترقاء) لتصديرها إلى بلدانهم الأوروبية المستعمرة (بكسر الميم) . وجاء فيما بعد دور التقنّع بالحركات التبشيرية المسيحية ثم اللجوء إلى القهر بالقوة العسكرية المسلحة .

ولم تكن العداوة والبغضاء على الأقل ، بالنسبة للمجتمعات الإسلامية ، في تلك المناطق الواقعة بين الشعوب الإفريقية المغلوبة على أمرها من ناحية والغزاة الأوروبيين من ناحية أخرى ، أشد ضراوة بدافع الاستغلال المادي من تلك التي انبعثت حول الدفاع عن المعتقدات الدينية والعادات الموروثة كابراً عن كابر .

وانهارت الممالك الفولانية الإسلامية التى تأسست على أيدى المجاهدين الكبار أمثال الشيخ عثمان دان فودى والشيخ أحمد لوّبو والشيخ عمر الفوتى فى مناطق السودان الأوسط والغربى ، أمام ذلك الاحتلال الاستعمارى الإنجليزى والفرنسى فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

ففى صوكتو كانت المواجهة بين أمير المؤمنين محمد بن الطاهر بن أحمد ، خليفة الشيخ عثمان دان فودى ، الذى تولى الحكم فى عام ١٩٠٢ الميلادى خلفاً لأبيه أمير المؤمنين الطاهر الأول ، وبين القوات البريطانية بقيادة المقدم مورلاند **"MORLAND"** والنقيب ميريكس **"MIREEKISS"**، وبعد الهزيمة التى منيت بها الخلافة الإسلامية فى صوكتو فى عام ١٩٠٣، رأى بعض رجال قيادة الخلافة ومن بينهم أمير المؤمنين الطاهر الثانى نفسه، ضرورة قيام المسلمين بالهجرة وترك بلادهم فى أيدى المستعمرين الأجانب، والتوجه صوب المشرق للاستقرار فى مكة المكرمة، لأن التعايش مع المستعمرين تحت ذل الانقياد لنفوذ الكفرة يعد أمراً مستحيلاً . غادر أمير المؤمنين إمارة صوكتو مع جمع غفير من أتباعه لمعاودة التجمع وخوض جهاد آخر ضد المستعمرين ، فكانت معركتا بورمى (**BURMI**) الأولى والثانية فى العام نفسه. قتل خلالهما قائد القوات البريطانية الجديد الرائد مارش **MARSH** ومنى بأبشع الهزيمة فى تاريخ الاستعمار الإنجليزى فى نيجيريا . واستشهد أمير المؤمنين وبعض من كانوا معه من رجالات قيادة خلافته والإمارات التابعه لها .

وقد كان هناك عدد كبير من هؤلاء الرجال نجوا بحياتهم ولم تشملهم جرائم الإبادة البشعة التى كانت ترتكبها تلك القوات الاستعمارية ضد الشعوب الإسلامية فى السودان الأوسط ؛ من بينهم : أبو بكر ، أمير إمارة بيدا ، وأحمد بن صالح ، أمير امارة ميساو ، وبشير بن أمير المؤمنين ، وأحمد بن الشيخ عمر الفوتى ، غلاديمان(٣٤) امارة أكو وميورنو المعروف بمحمد بللو . واسرت القوات الإنجليزية الإستعمارية بعض كبار شخصيات الخلافة من بينهم أبو بكر ، أمير امارة بيدا وبشير بن أحمد ، أمير المؤمنين ، نجل الشيخ عمر الفوتى ووضعتهم فى المعتقلات مع جملة الأمراء والملوك المسلمين الآخرين.(٣٥) وبحلول اليومين الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من شهر يوليو عام ١٩٠٣ الميلادى أصبحت مدينة بورمى خلاء ليس فيها إلا الرماد المتراكم نتيجة الإحراق والتدمير الكاملين بفعل قوات الاحتلال الاستعمارى . وتمكن الأمير ميورنو ، نجل أمير المؤمنين ، الطاهر الثانى والأمير أحمد ، أمير منطقة ميساو، من الإفلات من قبضة تلك السلطات الاحتلالية وتسربا عن طريق إمارتى باوتشى وآداماوا النيجيريتين حتى وصلا إلى بلدة الشيخ طلحت السودانية والواقعة على ضفاف النيل واستوطنا هناك . ولحق بهما بعد فترة أعداد كبيرة من المهاجرين المسلمين الذين نجوا بحياتهم من الاضطهاد الاستعمارى بعد سقوط إمبراطورية

---

(٣٤) منصب بمنزلة الوزير أو المستشار .

(٣٥) أنظر كتاب السلطة والدبلوماسية فى شمال نيجيريا للبروفسور أيليى .

صوكتو الإسلامية . كانت هذه الفئة الأولى من المهاجرين الفولانيين هى التى أسّست مدينة فى منطقة موازية لمدينة الشيخ طلحت وسمّتها مدينة ميورنو تخليداً لذكرى الهجرة الأولى بقيادة محمد بللو ابن أمير المؤمنين الطاهر الثانى .

وبالنسبة لهجراتهم إلى السودان الأوسط واستقرارهم فيما يعرف اليوم بنيجيريا والنيجر والكاميرون ، يقول الأستاذ / محمد بيللى(٣٦) فى كتابه "أصل أهل فوتاتورو فى نيجيريا " ما يلى :

أولاً – كان أول من هاجر من بلاد فوتاتورو من أبناء هذا الجنس هو وجماعته وأتى إلى بلاد هاوسا أى شمال نيجيريا والنيجر هو الأمير موسى جوكوللى ابن أمير المؤمنين المام(٣٧) ديمبا أحد ملوك امارات فوتاتورو . هاجر الأمير موسى جوكوللى من موطنه الأصلى واستوطن بلدة كوانى الواقعة فى بلاد غوبير بشمال نيجيريا منذ القرن الخامس الهجرى أى القرن الثانى عشر الميلادى . وكان هو الجد الحادى عشر للمجاهد الكبير الشيخ عثمان دان فودى ، مؤسس الدولة العثمانية الفولانية الإسلامية فى القرن الثامن عشر الميلادى (١٧٥٤م – ١٨١٧م) فى نيجيريا بغرب إفريقيا .

---

(٣٦) ولد فى يوم الإثنين ١٦ من ديسمبر ١٩٢٠ ميلادى وتوفى فى يوم الثلاثاء ، ٢٨ إبريل ١٩٩٩م بكانو شمال نيجيريا .

(٣٧) أى الإمام .

ثانيًا – كانت المجموعة الثانية من المهاجرين الفولانيين بقيادة الفقيه موديّبوأدما(٣٨) الذى هاجر من موطنه الأصلى فى لاموردى ماسينا فى حوالى القرن الثالث عشر الميلادى واستوطن هو وجماعته، فى منطقة الشرق الجنوبى لدولة نيجيريا والشمال الغربى لجمهورية الكاميرون. وتطلق على هذه المنطقة اليوم اسم بلاد آدماوا . من هناك هاجرت أعداد أخرى من الفولانيين إلى السودان الشرقى مارين بإفريقيا الوسطى وصولا الى الأماكن الإسلامية المقدسة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس .

ثالثًا– أما المجموعة الثالثة من المهاجرين الفولانيين الذين أتوا إلى نيجيريا ومنها إلى السودان وبلاد الشام ، فهى التى أتت مع الشيخ عمر الفوتى . جاء الشيخ عمر الفوتى نفسه إلى بلاد صوكتو فى أوائل عام ١٨٢٦ الميلادى وتزوج من السيدة عائشة بنت الشيخ محمد لايما ، أحد كبارشخصيات بلاط الدولة العثمانية الفولانية ، كما تزوج من السيدة رحمة بنت أمير المؤمنين محمد بللو(٣٩). وقد صادف وجود الشيخ عمر الفوتى فى صوكتو مجىء المستكشف الإنجليزى هوج كلابيرتون ، (Clapperton Hugh) المبعوث الملكى للملك جورج الرابع ، ملك المملكة المتحدة إلى أمير المؤمنين محمد بللو فى نفس العام . وأهل بلدة يلليما الواقعة اليوم فى ولاية جيغاوا ، بشمال نيجيريا هم ذرية الشيخ عمر

(٣٨) آدم. والكلمة موديبو هى عربية الأصل وتعنى المؤدب معلّم.

(٣٩) راجع كتاب جواهر المعانى للشيخ على حرازمى .

الفوتى من خـــلال زوجيه المذكورتين . ومعلوم أن الشيخ عمر الفوتى أسس دولته الإسلامية فى مالى التى كانت إحدى دول السودان الغربى الذى يشمل اليوم جمهوريات مالي والسنغال وموريتانيا.(٤٠) وبعد وفاته فى مالى انتقل حكم الدولة إلى ابنه أحمد تال الذى تقلد لقب أمير المؤمنين واتخذ مدينة سيغو بمالى ، عاصمة لدولته الجديدة .

نشوب خلاف بين الأمير أحمد والسلطات الفرنسية :

وقع أمير المؤمنين أحمد بن عمر الفوتى فى فخ السلطات الاستعمارية الفرنسية التى استدرجته كالعادة إلى إبرام صفقة تجارية معها فى عام ١٨٨٠ الميلادى فإستغلت السلطات الفرنسية تلك الفرصة التى جعلتها ذريعة للزحف التدريجى والقضاء نهائياً على الدولة العمرية فى السودان الغربى . ففى شهر فبراير عام ١٨٩٠ الميلادى بعث الجنرال جوزيف جالينى، قائد قوات الاحتلال الفرنسى فى غرب إفريقيا إلى الحكومة الفرنسية فى باريس رسالة فيما يلى ترجمة لها : "إن وجود أحمد تال فى بلاد السودان الغربى من جهة ووجود سامورى تورى فى منطقة كانكان بغينيا من جهة أخرى ليهدّدان كيان استعمار فرنسا فى تلك الأراضى. أما بالنسبة لأحمد تال فإن الوقت قد حان للتخلص منه نهائياً . إذ من الممكن أن نقوم بمهاجمة مدينة سيغو مقر حكومته ونحتلها حيث إنّه لا يزال

(٤٠) راجع الفصل الخاص بالدولة العمرية فى هذا الكتاب.

بمدينة نيورو فى زيارة لها. ثم نتوجه بعد ذلك إلى نيورو نفسها ونطرده منها . ومن ثم نقضى على ساموري تورى أيضا " ..

وافقت الحكومة الفرنسية على المقترحات التى تقدم بها ممثلها فى غرب إفريقيا، اللواء (الجنرال) لويس أرشينارد الذى قام بالهجوم على سيغو والاستيلاء عليها فى يوم الأحد، لخمسة عشر يوماً خلت من شهر شعبان سنة ١٣٠٧ هجرية، الموافق ستة من شهر إبريل عام ١٨٩٠ الميلادى . بعد ذلك أمر الحاكم الفرنسى بأسر الأمير المدانى بن أحمد تال بن عمر الفوتى وعين بدلاً منه أحد أعضاء أسرة أميكان المالكة سابقا لسيغو . ثم طلب من أحمد تال مغادرة مقر إقامته بمدينة نيورو والتوجه إلى بلدة دنغراى. غير أن هذا الأخير رفض الامتثال لتلك الأوامر وتوجه إلى مدينة (حمد الله) حيث يقيم أخوه المنير تال . عندئذ واصل الحاكم الفرنسى ملاحقة الأمير أحمد تال إلى منطقة (حمد الله) بأرض ماسينا . لكن أحمد تال غادرها ومعه أعداد كبيرة من الأتباع متجهين صوب شرق البلاد قبل وصول القوات الفرنسية إليها . وفى يوم الخميس الأول من شهر شوال المبارك لسنة ١٣٢٠ الهجرية الموافق أول يناير سنة ١٩٠٣ الميلادى ، قامت القوات الفرنسية بقيادة اللواء لويس أرشيارد باحتلال بلاد ماسينا وإزالة آخر معقل للدولة العمرية بالسودان الغربى ، وأمر قائد تلك القوات بمطاردة الأمير أحمد تال وجماعته . من هنا اضطر الأمير أحمد تال وأتباعه إلى مغادرة أراضى السودان الغربى إلى بلاد نيجيريا عن طريق مناطق مجرى نهر فولتا العليا والنيجر . توفى الأمير أحمد تال فى سنة ١٣١٥ هجرية الموافق لسنة

١٨٩٨ المَيلادية لدى وصولهم قرية تسـمى ميكولكى ، إحـدى ضواحـى مدينة صوكتو ، عاصمة دولة صوكتو العثمانية بنيجيريا . وتولى البشـير بن الحاج عمر الفوتى ، شقيق الأمير أحمد قيادة الجماعة التـى دخلـت مدينـة صوكتو فى عهد أميرها عبد الرحمن بن عتيق بن الشيخ عثمان دان فودى . وطلب الأمير عبد الرحمن إلى الأمير البشير بن الشيخ عمر وجماعتـه عـدم مواصلة هجرته والإقامة بدلاً من ذلك ، ببلاد صوكتو بعد الوفـادة الكريمـة والحفاوة البالغة اللتين حظى بهما الأمير البشير وجماعته من أهـل صوكتـو وأميرهم عبد الرحمن بن عتيق بن الشيخ عثمان دان فودى .

لكـن نظـراً للخـطط التى كـان قـد رسـمها الأمـير أحمـد تـال وجمـاعتـه لهجرتهم التى اسـتهدفت الوصـول إلـى مدينـة الرّسـول الكريـم صلّى اللّهُ عليه وسلّم ، فقـد اعتـذروا إلى أمير المؤمنيـن عبـد الرحـمن وأهـل صوكتو جميعاً بعد الإعـراب لهم عن الشكر والتقدير العاليين لمـا كان مـن نصيب الأمـير البشـير وجماعتـه مـن التّرحـاب الحـار وكـرم الضيافة فى بلاد صوكتو . وتوجه الأمير البشـير وجماعتـه بعـد ذلـك إلـى بلـدة غيمى الواقعـة فى اقليـم زاريـا ، ومنهـا إلى بلـدة بورمـى عـن طـريق منطقـة ميساو ، وعندمـا احتلت القوات الإنجليزية الاستعمـارية مدينة صوكتـو فـى يـوم الأحـد الأول مـن ذى الحجـة سنة ١٣٢٠هـ الموافق الأول من إبريـل ١٩٠٣م ، غـادرهـا أميرها محمد الطـاهر الثـانى متجهاً إلى بلـدة بورمى على بعـد خمسة وسبعين ميلاً شرقى صوكتـو ، هناك أدركتـه القـوات الإنجـليزية واشتبك الجـانبان فى قتـال دمـوى فـى سـتة مواقـع اشـترك فيـه مغـاجـن كفـى ؛ انتصـرت القـوات

الإنجليزية في المعركة الأخيرة على قوات أمير المؤمنين الذى استشهد ومعه عدد كبير من كبار رجالات دولته وأسرت القوات الاستعمارية بعض أمراء دولة صوكتو وأسر معهم البشير بن الحاج عمر الفوتى ونفوا إلى بلدة لوكوجا .

هاجر محمد مى ورنو، ابن امير المؤمنين الطاهر الثانى بمرافقة عدد كبير من أتباع أبيه إلى السودان الشرقى حيث أسسوا مدينة سموها "مى ورنو" بقرب مدينة سودانية تقع على ضفاف نهر النيل تسمى الشيخ طلحة . أما بالنسبة لأمير المؤمنين البشير بن عمر الفوتى فقد تولى أخوه أحمد المدانى قيادة جماعته بعد اعتقاله ونفيه إلى لوكوجا كما أشرنا سابقاً . فواصل الأمير المدانى وجماعته السفر إلى بلدة كتاغون ومنها إلى بلاد هطيجا بشمال نيجيريا حيث أسسوا قرية أسموها يلليما . واستمرت شرذمة منهم فى الهجرة إلى السودان الشرقى واستوطنت بلدة سنّار السودانية . ووصلت فئة أخرى منهم بقيادة الفقيه ألفا هاشم بن أحمد الفوتى ابن عم الشيخ عمر الفوتى ، إلى مدينة الرّسول عليه أفضل الصلاة . هناك استقر ألفا هاشم وكان يقوم بالتدريس بالحرم النبوى الشريف إلى أن وافته المنية فى يوم الإثنين الحادى عشر من شهر ذى القعدة سنة ١٣٤٩- الهجرية الموافق ثلاثين من مارس عام ١٩٣١ الميلادى .

ثالثاً – الدافع الدينى :

لما كانت مكة المكرمة قبلة للمسلمين كافة ، جماعات وأفراداً ، والسفر إليها واجب استكمال الأركان الأساسية لهذا الدين ، اعتبر المسلمون فى عموم غرب إفريقيا ، بمن فيهم أبناء الجنس الفولانى ، السفر إليها عملاً دينياً إلزامياً وهدفاً نهائيا

للفرد في حياته ، مما جعل كل واحد منهم لايدخر جهداً ولايوفر سعياً في سبيل الهجرة اليها وإلى الحرم النبوي الشريف بالمدينة المنورة . كان العالم الجليل محمد بن أحمد بن سعيد الفوتي المعروف بألفا هاشم الفلاتي(٤١) ، أحد كبار الفقهاء الفولانيين الذين هاجروا إلى الحجاز واستوطنوا في جوار الحرمين الشريفين أي مكة المكرمة والمدنية المنورة، واشتهر ألفا هاشم من بين فقهاء المدنية المنورة . وتبحر في مذاهب الفقه الأربعة مما حدا بالمغفور له الملك عبد العزيز العاهل الحجازي آنذاك أن يختار ألفا هاشم ويعينه عضواً بارزاً في مجلسه للشورى . وكان له تلاميذ كثيرون . وقد تتلمذ عليه صاحب كتاب تاريخ مكة والأديب المشهور الشيخ محمد حسين الزيدان .

نشرت جريدة "المسلمون "السعودية المقالة التالية في عام ١٩٩٥ الميلادي في حق ألفا هاشم :" هو محمد بن أحمد الفوتي المعروف بألفا هاشم الفقيه المالكي ، برع واشتهر في المدينة المنورة ، وكان من علمائها الأفاضل حتى توفي سنة ١٣٣٥هـ. وفي سنة ١٣٢٠هـ غزا الفرنسيون بلاده فاضطر إلى مغادرة أراضيها متوجهاً إلى الحجاز . وفي سنة ١٣٢٢هـ أدى فريضة الحج واستقر في المدينة المنورة فبدأ يعرف من بين أهلها ثم اختلط بعلماء الحرم النبوي الشريف حتي أصبح واحداً من أشهرعلماء المدينة المنورة . لقد روى الأستاذ عادل عمر التركي ، أطال الله عمره وهو أحد طلابه ، أنه رأى الشيخ عبد العزيز

(٤١) ولد في حوالي سنة ١٢٧٥ هجرية بلدة هلوار في بلاد فوتا تورو ، بالسنغال.

بن إبراهيم أمير المدينة آنذاك يبكي يوم وفاة ألفا هاشم متأثراً بحزن شديد لذلك المصاب الجلل " . وبالمثل كان الشيخ عمر الفلاته الذي تقلد منصب رئيس الجامعة الإسلامية فى السعودية في السبعينيات ، أحد أبناء الجيلين الثاني والثالث للفولانيين في المهجر بالحجاز . وثمة فئات أخرى انصهرت في المجتمع الحجازي والمجتمعات الوسيطة الي أرض الحرمين الشريفيين لاسيما السودان . وقد يقدر بعض مصادر التاريخ عن غرب إفريقيا ، ومنها بحث تاريخي للأستاذ حامد نورالدين (١٩٩٦ م) عدد الفلاته أي الفولانيين الذين استقروا في السودان الشرقي بعد هجرتهم من غرب إفريقيا بحوالي ستة مليون نسمة. قد يكون هذا التقدير مبالغاً فيه ، لا سيما إذا ما أخذنا في الحسبان أن كلمة " الفلاته " تطلق في السودان ، علي كل من يرجع أصله إلى غرب إفريقيا تجاوزاً . غير أن الشيء الذي لايختلف عليه إثنان هو انصهارهم في المجتمعين السوداني واالحجازي بأعداد كبيرة . والله أعلم .

خصائص اللغة الفولانية :

أ – حروفها الهجائية :– ليست لهذه اللغة حروف خاصة بها، مثل اللغات ذات الأصول اللاتينية أو الصينية أو العربية أو الهندية إلى آخرها، لكنها تكتب بالحروف العربية واللاتينية . والترابط التاريخي المبكر الذي

تواجد بين الثقافة الإسلامية وهويتها الحضارية والشعب الفولاني ، جعل هذا الأخير يتخذ الخروف العربية ويستخدمها في كتابة لغته قبل اتصاله بالثقافة الأوروبية ولغاتها اللاتينية الأصل . ولتسهيل التعرف على الحروف الهجائية العربية لغير الناطقين بها من أبناء جنسهم وضع علماؤهم أسماء وصفية للحروف العربية باللغة الفولانية . هذه الأسماء الوصفية مشتقة من الأدوات المستخدمة في بيئاتهم أو من أسماء بعض أعضاء جسم الإنسان . وفيما يلي أمثلة على تلك الحروف وأسمائها باللغة الفولانية :

١- ألف (أ) " دريطو" = الواقف

٢- (ب) جورطو = الجاف

٣- تاء (ت) اوديتيطو= المفتوح

٤- ثاء (ث) اندو = الثدي

٥- جاء (حـ) تشيوطو = الرفيع

٦- حاء (ح) جلو /تانغو = معزوفة /مجرفة

٧- شن (ش) نيطي = الأسناني

٨- سين (سن) جورطو = الجاف

٩- ص (ص) ريدو = البطني

١٠- طاء (ط) كوينيغيل = الرجلي

١١- فاء (ف) بيشو/ طوباطو = ذات النقطة

١٢- قاف (ق) تبيطو /طوباطو = ذات النقطة

١٣- كاف (ف) جورطو = الجاف

١٤- ها ء (هـ) موطو = الكبير /المفخم

ب - حروفها الصوتية : نظراً لوجود بعض الأحرف الصوتية لهذه اللغة التي ليس لها نظير في الحروف العربية واللاتينية ، لجأ علماؤها إلى اختراع رموز صوتية خاصة بها وأضافوها إلى الأحرف العربية واللاتينية كما فعل أصحاب اللغات الأخرى مثل : الأوردية والآشورية والتركستانية والصومالية إلى آخرها . وهذه الأحرف المخترعة للغة الفولانية هي كالآتي :

١- لب - تنطق بين الحرفين الباء والهاء مندمجتين

٢- بٜ - تنطق بين الشفتين . وهي مركبة من الحرفين الفاء والباء، كما في كلمة الباكستان . أي الباء الخفيف .

٣- تٜ - تنطق بين الحرفين التاء والشين مدمجتين كما في كلمة تشاد .

٤- طٜ - تنطق بين الحرفين الطاء والظاء مدمجتين .

٥- وغٜ - تنطق بين الحرفين الغين والقاف ، كالجيم المصرية أو القاف الحلقية.

٦- وغٜ- تنطق بين الحرفين النون و القاف مدمجتين .

٧- نٜ - تنطق نونا بالغنة من الخيشوم.

٨- لٜ - تنطق بين الحرفين النون والياء مدمجتين (نيا).

ويلاحظ أنه لاتوجد الأصوات المقابلة للأحرف التالية في اللغة الفولانيـــــة : ث ، ح ، خ ، ذ ، ز ، ش ، ص، ض ، ط، ظ ،ع غ.
وتكتب الأحرف الفولانيـة . المخترعة بالحروف اللاتينية على الوجه التالي :

حـ ۃ الأحرف الفولانية المخترعة بالحروف اللاتينية

ث (٣) ا = ب (٢) ت = ب (٢) ا =

غ (٦) ۦ غ (٥) إ = ظ (٤) ا =

ن ـ- ، (٨) ن ة-

د – خصائص هذه اللغة :

تمتاز اللغة الفولانية أو الفولفولدي بغزارة مادتها ووفرة مفرداتها ودقة تصويرها لما يقع تحت الحس، وذلك نظراً لمرونتها وقدرتها على الاشتقاق بالمقارنة مع اللغات الإفريقية الأخرى وغالبية لغات عالمنا اليوم .

الخاصية الأولى :

تعد من أغنى لغات العالم من حيث استعمال أسماء الاشارة . إذ يشتق اسم الإشارة من أواخر الاسم الذي يشار إليه ، يعني هذا أنه لهذه اللغة أسماء الإشارة بعدد مالديها من عدد المفردات من حيث تشكيل أواخر الكلمات . وفيما يلي بعض الأمثلة :

اسم الاشارة		اسم الشيء		المعنى
للمفرد	للجمع	المفرد	الجمع	
١ – غو	طي	لينغو	لطّى	السمك

٢- دو	طي	سودو	تشوطي	الغرفة
٣- أو	بي	نيّطو	يمبي	الرّجل
٤- انغل	طي	جوطورغل	جوطورطّي	الكرسي
٥- انغل	طي	دمال	دمي	الباب

ويجوز تـأخير أسـماء الإشـارة هـذه عـن الأسـماء الموصوفـة - **أي المشار إليها مثال ذلك قولك :**

"سودو دو " أي الغرفة هذه ، "غوركـو" أو "الرجـل هـذا لينغـو غـو" أي السمك هذا ، إلى آخـره . أود أن أذكـر بهـذه المناسـبة أن ثمـة ثلاثـة أسماء فقط وردت مع إشاراتها تطابق أواخرها أواخر اسماء اشاراتها لفظـا وتركيبـاً ، هـذه الأسـماء هـي : (١) "نغّـي" أي البقـر ة (٢) " نـاغي" أي الشمس (٣) "هيغي" أي المجاعة. فتقول في الاشارة إليها :

٢- "غي نغّي " أي هذه البقرة ، أو تؤخر اسم الإشارة . وتقول "نغّي غي" أي البقرة هذه .

٣- "غي ناغي " أي هذه الشمس أو تؤخر اسم الإشارة فتقول "نـاغي غي " أي الشمس هذه .

٤- "غي هيغي " أي هذه المجاعة . أو تؤخر اسم الإشـارة فتقـول : "هيغي غي" المجاعة هذه .

وهذا الاستعمال فريد من نوعه في اللغة الفولانية قاطبة .

الخاصية الثانية :

التمييز ، عند الحديث عن الملكية ، بين ما يملكه المخاطب (بكسر الطاء) بالاشتراك مع غيره ويستثني فيه الشخص المخاطب (بفتح الطاء) أو إشراكه في تلك الملكية (بفتح الطاء) حين يقتضي الموقف ذلك . مثال ذلك أن تقول : " دوسودو – كوكو أمين أي هذه الغرفة لنا دونك أنت المخاطب (بفتح الطاء) ونقول أيضا " دو سودو " – "كوكو ميطين" أي هذه الغرفة هي لنا معك أنت المخاطب (بفتح الطاء) إلى آخره .

الخاصية الثالثة :

أسماء التفضيل : تمتاز اللغة الفولانية بقدرتها على التمييز بين الأسماء وأوصافها المتفاوتة في الدرجات ؛ مثال ذلك ، أن تقول في الصيغة الأولى : "غوريل " أي الرّجيل ، إمّا الضعيف أو الصغير . وتقول في الصيغة الثانية : "غوركو " أي الرّجل المتوسط . وفي الصيغة الثالثة : تقول " غورال " أي الرّجل العظيم الشأن ، بكل ما تعنيه الكلمة من معاني الرّجولة .

الخاصية الرابعة :

لهذه اللغة ثلاثة أنواع من فعل الأمر . النوع الأول يكون فيه المطلوب تنفيذه قريباً ، مثاله :

"ودّو" أي آت به من مكان قريب . والنوع الثاني يكون فيه المطلوب تنفيذه من مكان بعيد . مثاله كلمة "ودّوي " أي آت به من مكان بعيد .

والنوع الثالث هو أن المطلوب هو تغييره من حال أو من وضع إلى حال أو وضع آخر : مثل كلمة "بام " أي خذ (شيئاً) من مكانه الأصلي . وإذا أضفت إليها (الكلمة) حرف " تو " فقلت " بامتو" معناها خذ الشيء من مكانه أو وضعه الحالي إلى مكانه أو وضعه الأصلي أو المناسب . مثال ذلك أن تقول للتلميذ ، بام "دفتري " أي خذ كتاباً . يكون الكتاب في هذا الحال في وضع عادي . أما عندما تقول له : " بامتو دفتري "يكون الكتاب في هذا الحال قد سقط على الأرض ، مثلاً أو يكون في مكان غير مناسب ، إلى آخره .

الخاصية الخامسة :

استعمال كلمة واحدة لتفيد تكرار فعل من الأفعال المتعدية مثال : كلمة "في" أي اضرب . فإذا قلت " فيتا " معناه كرر الضرب . ومن هذه الخاصية اشتقاق فعل من أصله لأخذ الثأر أو رد الفعل ذاته . مثاله . "في" أي اضرب و"فيتو" رد الضرب أو خذ ثأراً . "يننو" أي اشتم و "يننتا/يننتو" أي رد الشتم إلى آخره .

الخاصية السادسة :

استعمال أفعال لإظهار بعض التصرفات على غير حقيقتها . مثاله كلمة "ماي " أي مات . وتقول" أومايتتكيما" أي تظاهر بالموت إذا كان الشخص غير معرو ف لديك،وتقول "أومايكينكي" إذا كان معروفا لديك ، "أو يوليم" أي غرق في اليم . "أو يولينكنيم" أي تظاهر بالغرق .

ومن هذه الخاصية نقض بعض الأفعال بإضافة حرف أو حرفين في آخر الفعل . فيما يلي أمثلة ذلك " أودّو " أي أغلق ، "اودتن " أي افتح ، "هابّو" أي اربط ، "هبتن " أي فك الربط . إلى آخره والله أعلم .

حـ – أشهر السنة عند الفولانيين .

هناك اثنا عشر شهراً باللغة الفولانية تتماشى مع الأشهر الإسلامية والعربية . هذه الأشهر هي :

١- هارام = محرم

٢- ميني هارام = صفر

٣- المولودو = ربيع الأول

٤- مينى المولودو = ربيع الثانى

٥- راجم موندو = جمادي الأولى

٦- راجم هكنديرو = جمادي الأخرى

٧- هودّارو = رجب

٨- ياوا = شعبان

٩- كوركا = رمضان

١٠- جولدارو = شوال

١١- صفترادو = ذو القعدة

١٢- لايا = ذو الحجة

هـ - فصول السنة :

هناك أربعة فصول في السنة هي :

١- اندوغو = الشتاء/ موسم الامطار

٢- يامدي = الربيع

٣- دابوندي = موسم البرودة

٤- تشيطو = موسم الجفاف / الحرارة

ج - تقسيم السنوات إلى خمس سنوات :

١- راوتيني = السنة قبل الماضية

٢- رواني = السنة الماضية

٣- هيكا = هذه السنة

٤- مووري = السنة المقبلة

٥- موورتي = السنة بعد المقبلة

د - أيام الأسبوع:

١- ألان = الأحد

٢- التينيري = الاثنين

٣- تلاتاري = الثلاثاء

٤- ألارباري = الأربعاء

٥- الكميساري = الخميس

٦- ألجوماري = الجمعة

٧- اسويري = السبت

تقسيم الزمـان :

ينقسم الزمان إلى : نيلوما - اليوم (ج) نيلاطي .

يـونتـوري (ج) جونتـي ، الأسبـــوع ، ليـــورو (ج) لبـي - الشـهر.

هنتادى - (ج) كيتالى/ دوبى- السنة .

و - وينقسـم الزمان اليومي عندهم إلى :

(٣) كينيي - أمس ، هاندي - اليوم ، جانغو - غداً .

(٤) هتش كييني - أمس الأول ، هتشتي كييني - اليـوم الـذي كـان قبل أمس الأول .

(٥) جانغو = غداً ، فبّ جانغو ، بعد غد . فبّت جانغو ، اليوم الـذي يلي بعد غد .

(٦) هنكي = البارحـة أي ليلـة أمـس بـالليل . "هتشـي هنكـي" ليلـة أمس .

(٧) هتشتي هنكي = اليلة التي سبقت أمس الأول .

ز - المفردات :

٢- بعض أعضاء جسم الإنسان .

" نيططو" - الإنسان

ترطي /ترغال نيططو - جسم الإنســان ، " هـوري (الـرأس) "ليبـي (الشعر) .

"تينـدي " (الجبين) " ييسو " (الوجـه) غيتـي ج (العيـن) م يتـيري(١) هينيري "م كيني ج (الانف) " نورو" م " نوبـــي"ج (الأذن) هوندوكـوم - كوندوطي - ج (الفم) ، توندو م توني ح "(الشفة) غبوغـال م عبوللـي ج (الفـك) طمغـال م طملـي "ج" (اللسـان) نييـدي نيطـي ج (السـن) ، داندي م داطي ج" (الرقبة) ، كونوغول -/ كونولـي ج " (الحلقــوم)، " بالال / ولبـو بالاجـــي -ج (الكتــف) "جونغـو - م جوطـي ج"(اليـد) فيطنـدو -م، بيطيلـي ج (٢)"الاصبـع ، "نـاوري- م نوبـي ج "(الكـف) ، هولغـو- م ، كولطـي ج "(الظفـر) "بيتشـي - م بتشـجي ج (الصـدر) . تشغغال (الظهر) ، ريدو- م ديـدي /ديطـي ج (البطـن) . ودّوم - ودّي ج (السـرة) تيكتــول م - تيكيتـي ج "(المصـران) برنـدي - م بـيرطي ج "(القلـب) وبسـال - م بوسـي ج " (الفخـذ) كونيغـال م - كويطـي ج (الرجل) .

اسم الحيوان (الطيور)		الاسم باللغة العربية :
المفرد	الجمع	
١- فوندو	بولي	الطير
٢- جيغوال	جيغاجي	النسر
٣- كونباريوال	كونباريجي	الطاووس

(١) م - المفرد ح - الجمع .

(٢) أسماء الأصابع الخمسة wordo البصمة sapdordo السبابة، HAKKUNDERU الوسطى، YAMUSARU البنصر، SIWUTURDO الخنصر .

٤- فوندومراطو/ تونتنودو	تونتنوجي	اليمامة
٥- فوندو كالورو	بولي كالوجي	الببغاء
٦- وغادو	بوغالي	الحمامة
٧- دوال	دويج	النعامة
٨- دونال	دوتي	الجشع
٩- جوغال	جاولي	الغرغر /الدجاج الحبشي.
١٠- ويلويلدو	بيلبيلدي	النبّوت
١١- دانوغال	دولي	الغراب

ى- حيوانات متنوعة :

١- رواند لادّي -	دواطي لادي(برودي/بروجى)-	الأسد
٢- غليوبا	غيلوطي	الجمل
٣- موسورو	موسوجي	الهرّ
٤- بوتشو	بوتشي	الحصان
٥- ياري	جهي	العقرب
٦- بودّي/ بوغولدي	بولي /بوغى ليدي	الثعبان
٧- فلادّو	بلاطي	السحلية
٨- نياتورو	نياتوجي	النمر
٩- إنكتو	إنكتي	التمساح

١٠- نيوا	نيبي	الفيل
١١- فورو/ نالادو	بوبّي	الذئب
١٢- واندو	باطي	القرد
١٣- نيونيو	نيو ني	الزنبور / النملة.
١٤- لنغو	ليطي	السمك
١٥- غليغو	غلطي	الدود
١٦- سوندو	توللي	الثعلب
١٧- غومبا غومبا	غومباغو مباجي	البرغوث
١٨- انجكار	انجكاروجي	العنكبوت
١٩- بوريتو	بوريتي	الجراد
٢٠- هوميري	كوميجي	السلحفاة
٢١- فامبرو	بابي	الضفدع
٢٢- سانغا نغارو	سانغسا نغاجي	الصرصور
٢٣- بالو	بالي	الغنم
٢٤- انغرو	انغروجي	الخنزير
٢٥- بيوا	بيبي	الماعز
٢٦- ليولا (باروغا)	ليولي	الغزال
٢٧- كوتو	كوتي	القرادة
٢٨- انغبّو	انغبي	البرنيق/ جاموس البحر

٢٩- دونبرو	دومبي	الفأر
٣٠- تشيويل كللي	تشيويل كيجي	دودة الأرض/الخرطون
٣١- ألبناو	ألبناجي	البغل
٣٢- تشيلال	تشيلي	الصقر
٣٣- ديكيرى بابا	ديكيجى	الحمار

ك - بعض النباتات العادية :

١- بامباري - الذرة ٢- غاوري = الذرة العويجة

٣ - بيبري - الذرة الشامية

٤ - سريمبي = ذرة الديس ٥- مارو = الأرز

٦ - جيبي = التمر الهندي ٧ - بوللي السبانخ

٨ - نيبّى = الفول المدمس ٩ - تيغاجي = الفول السوداني

١٠- لالو = الملوخية

١١ - كاريجي = شجرة شيا (يستخرج منها الزيت) ١٢- غغانيي=البامية

١٣ - بناكو = الكسافا ١٤- غاودي = التمر الحلوى .

١٥ - نيتي الخرنوب ، ويقال لحبوب الشجرة = أوجي .

ل - اسماء الألوان :

١- بوطيجو = الأحمر ٢- دينيجو = الأبيض ٣- بليجو = الأسود

٤- بانانيجو = الأخضر ٥- بولاجو = الأرزق ٦- نتيجو = الأصفر

٧- ناو(ناوجو) = البني ٨- بورو = الاشقر .

انتهى والحمد لله رب العالمين.

دعـــاء :

وأقول في آخر دعواتي(١)

"اللهم إني أسألك رحمة مـن عندك تهـدي بهـا قلبي ، وتجمـع بهـا أمري وتلم بها شعثي ، وتصلـح بهـا دينـى وتحفـظ بهـا غـائبي وترفـع بهـا شـاهدي وتزكـي بهـا عملـي، وتلهمنـى بهـا رشـدي ، وتـرد بهـا ألفتـي ، وتعصمني بها من كل سوء .

اللهم أعطني إيماناً صادقاً ويقيناً ليس بعـده كفـر ، ورحمـة أنـال بهـا شرف كرامتك في الدنيا والآخـرة ، اللهـم إنـي أسـألك الفـوز عنـد اللقـاء والصبر عند القضاء ومنازل الشـهداء وعيـش السـعداء والنصرعلـى الأعـداء اللهم إني أنزل بك حاجتي ، فإن قصر رأيي وضعف عملـي وافتقـرت إلـى رحمتك، فأسألك ياقاضي الأمور ، وياشافي الصدور كما تجير بين البحور أن تجيرني من عذاب السعير، ومن دعوة الثبور ومـن فتنـة القبـور . اللهـم ماقصر عنه رأيي ولم تبلغه مسألتي من خير وعدته أحدا من خلقك أو خـير أنت معطيه أحداً من عبادك ، فإني أرغـب إليـك فيـه . وأسـألك برحمتـك يارب العالمين ، اللهم يا ذا الحبل الشديد ، والأمـر الرشيد أسـألك الأمـن يوم الوعيد ، والجنة يوم الخلـود مـع المقربيـن الشـهود ، الركـع السـجود الموفين بالعهود ، إنك رحيم ودود ، تفعـل مـاتريد . اللهـم اجعلنـا هـادين مهتدين ، غـير ضـالين ولامضلين ، سلما لأوليـائك ، وعـدواً لأعدائـك .

(١) دعاء من ادعية النّبي عليه أفضل الصلاة والسلام.

نحب بحبك من أحبك ، ونعادي بعداوتك من خالفك ، اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة ، وهذا الجهد ، وعليك التكلان . اللهم اجعل لي نورا في قلبي ، ونوراً في قبري ، ونوراً بين يدي ونوراً من خلفي ، ونوراً عن يميني ، ونوراً عن شمالي ، ونوراً من فوقي ونوراً من تحتي ، ونوراً في سمعي ، ونوراً في بصري ، ونوراً في شعري ، ونوراً في بشري ، ونورا في لحمي ، ونوراً في دمي ونوراً في عظامي . اللهم أعظم لي نورا وأعطني نوراً واجعل لي نوراً . سبحان الذي تعطف بالعز وقال به، سبحان الذي لبس المجد وتكرم به ، سبحان الذي لا ينبغي التسبيح إلا له ، سبحان ذي الفضل والنعم ، سبحان ذي المجد والكرم ، سبحان ذي الجلال والإكرام . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلي آله وصحبه أجمعين .

تم في كانو ، نيجيريا في يوم الجمعة ٢٠ ربيع الأول للسنة ١٤٢٠ الهجرية الموافق ٤ يوليو للعام ١٩٩٩ الميلادي .

المراجع العربية :

١- القرآن الكريم

٢- كتب الصحاح الستة في الأحاديث النبوية الشريفة .

٣- كتاب رحلة ابن بطوطة .

٤- مقدمة ابن خلدون .

٥- سفية السعادة لعبد الرحمن أبي زيد الفازازي الأندلسي .

تخميس الشيخ عمر الفوتي ، شرح وتعليق الشيخ محمد بللي .

٦- التحفة السنية بتوضيح الطريقة التجانية ، تأليف : محمد الطاهر ميغري البرناوي .

٧- بحث مختصر عن : الطائفة التجانية ، إعداد : اللجنة السعودية الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء .

٨- الفولانيون أو الفولبي ، بحث موجز ، إعداد الشيخ محمد بللي .

٩- الفلاتة في السودان ومساهماتهم الإسلامية والتنموية

تأليف : الطبيب عبد الرحيم محمد .

١٠- كتاب : سلسلر (أصل) تورنكاوا .

تأليف : محمد البخاري ، إبن إمام صوكتو .

١١- أصل أهل تورونكاوا في نيجيريا ، تأليف : الشيخ محمد بللي . (بلغة هاوسا) .

١٢- مخطوطات من جمهورية مالي .

١٣- مخطوطات من جمهورية السنغال .

١٤- الإسلام وهجرة الفلاتة إلى السودان .

بحث مختصر : بقلم الأستاذ حامد نور الدين .

١٥- مناقب إفريقيا في الإسلام : بقلم محمد بللي .

١٦- إفريقيا المسلمة - الهوية الضائعة .

تأليف : الأستاذ الخليل النحوي . للأستاذ / محمد وجدى .

١٧- دائرة معارف القرن العشرين .

١٨- الأدب المفرد : للإمام ابي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري .

١٩- التفسير القرطبي - للإمام القرطبي .

٢٠- التفسير المراغي - للإمام محمد مصطفي المراغي .

٢١- حقيقة البهائية - للأستاذ مصطفى محمود .

٢٢- العهد الجديد - الانجيل .

٢٣- تاريخ الإسلام للدكتور /حسن إبراهيم حسن .

٢٤- كنتة الشرقيون ، تأليف : بول مارتى تعريب : محمد محمود ولد ودادى .

المراجع الأجنبية :

1) A fulani-English Dictionary - By F.W.Taylor, M.A.

2) Corpus of early Arabic sources for West African History.

3) A Thousand years of West African History. By J.F.Ade Ajayi and Iar Espie

4) The Tijaniyya Order. By Jamil M. Abun-nasr.

5) The Holy war of Umar Tal. By David Robinson.

6) The Intellectual Origin of Sokoto Jihad. By Dr. Muhammed A. Khani.

7) Origins of the Fulani:brief Historical parading of conjectual History - By Lukuman M. Saidu.

8) A Brief Biography of Amir - al mu'minin Ahamd bn al-Shaikh Omar bn said - by anonyinous writer, said to be his desciple who accompanied the Amir on his flight to Sokoto. (unpublished)

9) The Fall of the segu Cliphate And Turkulor Exodus: 1891-1903 By : Lukumanu Mohd. Saidu (unpublished).

10) The Encyclopeadia Africana Vol.I published in 1977 Director: Professor L.H. Ofosu Appiah.

11) Encyclopeadia Britanica.

12) History of West Africa. Volume One and Two - By professor J.F.Ade Ajayi.

13) Power and diplomacy in Northen Nigeria.

14) Islam In West Africa By J.spencer Trimingham.

15) Dictionary of African Historical Biography. By Mark R. Lipschutz and R. Kent Rasmussen.

16) A Hausa - English Dictionary English - Hausa vacabulary
By Rev. G.P. Bargery.
17) Inventaire de la Bibliotheque Umarienne de Segou
By : Noureddine Ghali Sidi Mohamed Mahibou et Louis Brenner.
18) Studies in the history of the Sokoto caliphate By Y.B. Usman.
19) Islam In Africa:
By : Professor Nuru Alkali, Adamu Adamu, Dr. Awwal Yadudu, Dr. Rashid Motem and Haruna Saleh.
20) The Sokoto Caliphate.
By Murrqy last ph.d.
21) Peoples and Empires of West Africa.
By G.T. Stride B.A.dnd caroline 1 feka ph.D.
22) The Revolutionary years: West Africa Since 1800 A.D.
By. J.B. Webster A.A.Boahen and Michael Tidy.
23) The Arabian Africa,
By Ali Moahmmad Abdul Latif

فهرس الأعلام

"ت"

"ح"

"خ"

"د"